نفحات الرحمن
في
رياض القرآن

تأليف الشيخ

محمد بن ابراهيم سعيد كعباش

الجزء الخامس

نشر جمعية النهضة
العطف - غرداية - الجزائر

نفحات الرحمن

في رياض القرآن

تأليف فضيلة الشيخ

محمد بن إبراهيم سعيد كعباش

الجزء الخامس

نشر جمعية النهضة

العطف–غرداية–الجزائر

٢٠٠٦/١٤٢٧

طبع : المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد غرداية

تخريج الأحاديث، الفهرسة والتنسيق الفني:

أ. قاسم بن عمر حاج امحمد

أ. عبد الله بن موسى ابن عيسى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

1427 هـ/ 2006م

طبع: المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد غرداية
الهاتف / فاكس : 53 .36 .88 (029)
المنطقة الصناعية : 34 .34 .87 (029)
Imprimerie.El-Arabia@caramail.com

الإيداع القانوني رقم: 2006 / 2187
ردمك 4 - 85 -787- I.S.B.N 9961

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا
آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

(سورة ص: آية 29)

صدق الله العظيم

سورة الأعراف مكّية، وآياتها ٢٠٦

أ)- بين يدي السّورة الكريمة:

- تسميتها:

تعرف من عهد رسول الله باسم "الأعراف" لورود هذا الاسم فيها، وهو قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ (٤٦). والأعراف جمع عرف، وهو المرتفع من الأرض، وهو بمعنى "السّور" الذي ذكر في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد:١٣).

وقيل: إن أصحاب الأعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتخلّفت بهم سيّئاتهم عن النار، فوقفوا هناك على السّور حتى يقضي الله بينهم. وهذا من الأمور الغيبية لا يعلم حقيقتها إلا الله.

وقد عدّ المفسّرون هذه السّورة أنها ليست من السّور ذات الأسماء المتعدّدة، وقد تُذكر بأسماء حروفها المقطّعة التي في أولها: ألف، لام، ميم، صاد.

- نزولها وترتيبها:

هي من السّبع الطّوال، وقد أخرج النّسائي عن زيد بن ثابت أنّه قال لمروان: لقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بأطول الطّوليين: ألف،لام، ميم، صاد"[1]

١- رواه النسائي في السنن من حديث زيد، كتاب الافتتاح، باب القراءة في المغرب بـ:ألمص، حديث ٩٨٩.

والطّوليان هما الأنعام والأعراف. وكلتاهما مكية إلا ما استثني من بعض الآيات. قيل: إنها نزلت بالمدينة، وهي في الأعراف قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ (الأعراف: ١٦٣-١٧١). وهي السّورة السّابعة على ترتيب المصحف العثماني، وعند الإمام جابر بن زيد ﷺ تعدّ التّاسعة والثّلاثين في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة ص وقبل سورة الجن، وعدد آياتها مائتان وستّ آيات في عدّ أهل المدينة والكوفة، ومائتان وخمس في عدّ أهل الشّام والبصرة.

- موضوعها العامّ:

بيان أصول العقيدة الإسلامية: الإيمان بوحدانية الله، وباليوم الآخر من البعث والجزاء، وإثبات الوحي والرّسالة، سيما عموم رسالة الإسلام.

- محاورها:

تشتمل على المحاور الآتية:

أ)- التّنويه بالقرآن الكريم، وأنه كلام الله معجزة الرّسول يبلّغه للعالمين، وييسّره عليها لتبليغه.

ب)- إثبات وحدانية الله، والنّهي عن اتّخاذ الشّركاء له، والتّدليل على قدرته وعظمته بالنّظر إلى آيات عظمته في الآفاق، والأمر بإخلاص العبادة له، وأن له وحده حق التّشريع في التّحليل والتّحريم.

ج)- إثبات الوحي والرّسالة، وإنزال القرآن على قلب رسول الله ﷺ وعليه مدار التّكليف للإنسان لعمارة الأرض وإصلاحها.

د)- تقرير البعث والجزاء في اليوم الآخر، وما فيه من الإكرام والإنعام

للمتقين، ومن الحزي والتّنكيل بالمجرمين، وما يجري بين الفريقين من حوار، وموقف أهل الأعراف بينهما.

هـ)- التّذكير بقصة الخليقة، وتكريم الله لآدم بسجود الملائكة له، ثم وسوسة الشّيطان له، وخروجه من الجنة، ووجوب اعتبار بني آدم بذلك في الصّراع بين الخير والشّرّ.

و)- ورود قصص الأنبياء مع أنبيائهم، وكيف كانت عاقبة المكذبين من أقوامهم، سيما مصير فرعون الطّاغية ومواقفه مع سيّدنا موسى عليه السلام وقصة بني إسرائيل، وكيف يورث الله الأرض لمن يشاء من عباده.

ز)- وفي نهاية السّورة يرد التّنديد بعبادة الأصنام وأنها لا تنفع ولا تضرّ، وأن لله الصّفات الحسنى يدعوه المؤمنون بها، وهم مدعوّون إلى الثّبات والصّبر، والتّمسّك بأخلاقيات الدّعوة إلى الله، والتّمسّك بعبادته.

التّنويه بشأن القرآن والتّحريض على اتباعه

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا
يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ
إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿الٓمٓصٓ﴾: حروف مقطّعة تقرأ بأسمائها كمثيلاتها في السّور المتقدمة، وتسمّى بالحروف النّورانية. حاول كثير من المفسّرين فكّ رموزها في شيء من

الإعراب والتخمين لبعض الأسرار الكونية، غير أن التفسير المشهور هنا بين أغلب المفسّرين أنها للتعريض بعجز الذين أنكروا نزول القرآن من عند الله عن الإتيان بمثله، وهو يتألف من هذه الحروف. ﴿حَرَجٌ مِّنْهُ﴾: أي يأخذك الضيق والقلق من تبليغه مخافة تكذيب النّاس. ﴿لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي للإنذار فهو على معنى المفعول لأجله، وهو ذكرى وموعظة للمؤمنين. ﴿أَوْلِيَاءَ﴾: جمع وليّ، يطلق على النّاصر والخليف، والصّاحب الصّادق المودّة، ويستعار للإله المعبود.

ج)- أوجه القراءة:

قرأ الجمهور: ﴿مَا تَذَكَّرُونَ﴾ بتشديد الذّال، على أن أصله "تتذكّرون"، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتخفيف الذّال ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، على حذف إحدى التّاءين أيضا. وقرأه ابن عامر ﴿يتذكّرون﴾، والضّمير عائد إلى المشركين، على طريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة. ﴿الٓمٓصٓ؛ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: وقع الابتداء بالنّكرة لعدّة اعتبارات: إمّا لأنه أريد بها النّوع لا الفرد، فلا يكن في الحكم عليها إبهام، وإمّا لإرادة التّعظيم بالتّنكير، بمعنى هو كتاب عظيم، وإما لإرادة التّعجيب من شأن هذا الكتاب. وخبره هو قوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ مع ما انضمّ إليه من التّفريع، والتّقدير: هو كتاب أنزل إليك فكن منشرح الصّدر به. ومن المفسّرين من جعل: ﴿كِتَابٌ﴾ خبر المبتدأ محذوف تقديره هذا كتاب، ومنهم من جعله خبرا عن كلمة ﴿الٓمٓصٓ﴾. ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾: هي في موضع الحال من ﴿لاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ﴾.

د)- البيان والتّفسير:

كان افتتاح هذه السّورة بأربعة حروف أبجدية "ألف، لام، ميم، صاد" إمعانا في التّحدّي للعرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهو متألف من هذه الحروف

التي ينطقون بها، أما وقد عجزوا -وهم البلغاء والفصحاء- فإن في ذلك دليلا على صدق رسول الله، وأن هذا الوحي ليس من كلام البشر، وذلك ما ينفي الحرج عن صدره. ومجموع هذه الحروف تعدّ هنا آية كاملة على خلاف ما جاء منها في بعض السّور، وغالبا ما جاءت تلك الحروف المقطّعة في السّور المكية.

﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤمِنِينَ﴾: فعلى كل التخريجات لإعراب كلمة ﴿كِتَابٌ﴾ حسب التفصيل المتقدم، فهو تنويه بشأن القرآن العظيم، أنزل إليك يا محمد لنشر الحق والهداية. والتعبير بـــ"أنزل" على صيغة الماضي لتحقيق الوقوع، وبناؤه للمفعول للعلم بالفاعل وهو الله تعالى ولو كذّب به المشركون. ووصفه بالإنزال للدلالة على علوّ منزلته وعظم شأنه. ووجه الإعجاز فيه أنه مؤلف من جنس الحروف التي نطق بها العرب، بينما هم عاجزون على الإتيان ولو بأصغر سورة من مثله.

﴿فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾: أي أنزله الله إليك يا محمد لا ليضيق صدرك منه في تبليغه للناس مخافة أن يكذّبوك، فحرج النّبي ليس حاصلا بإنزال الكتاب عليه أو بنفس الكتاب -حاشاه- وإنما من تكذيب قومه وإنكارهم له. وهذا في معنى قوله في سورة هود: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ (١٢).

والمقصود هو التخفيف على قلب رسول الله وتشجيعه على المضيّ قُدُمًا في التبليغ لأن الله مؤيّده وناصره، ثم علّل الإنزال بأنه للإنذار والتذكير، والتقدير: لتنذر به الكافرين، وتذكّر به المؤمنين. وقدّم التعليل بالإنذار لأنه الغرض الأهمّ، علما بأن السّورة مكية، وما تزال الدّعوة في صراع كبير مع الباطل، وذكر المؤمنين دون الكافرين للتنويه بشأن المؤمنين.

﴿اتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلاً مَّا

﴿تَذَكَّرُونَ﴾: خطاب لأمة الدّعوة كلّها، أي اتبعوا -أيها النّاس- ما أُنزل إليكم من ربّكم وهو القرآن، أو هو الوحي بأنواعه من قرآن وسنة. واختيار كلمة "الرّبّ" للدلالة على معنى الرّعاية والتّربية لخلقه، فلا يشرّع لهم إلا ما يصلح لهم في أمور دنياهم وآخرهم، وهو ربّ كل شيء، وهو صاحب الحق في التّحليل والتّحريم يجب عليكم اتّباع ما أنزل إليكم، وهو ما أنزل إلى الرّسول، وفي هذه التّسوية في ما أنزل إلى الرّسول وإلى الخلق تكريم وأيّ تكريم.

ولتأكيد مقتضى الأمر باتّباع ما أنزل إليهم جاء النّهي عن اتّباع غير الله ممن اتخذوهم أولياء من شياطين الجنّ والإنس التي توسوس بالشرّ والفساد، وتزرع العادات الفاسدة في الاعتقاد والسّلوك. والجمع بين الأمر والنّهي في الاتّباع فيه من الإعجاز ما يقول عنه الإمام ابن عاشور: "وأفاد بمجموع قوله: ﴿اتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ﴾ مفاد صيغة القصر، كأنه قال: لا تتبعوا إلا ما أمر به ربّكم، أي دون ما يأمركم به أولياؤكم، فعدل عن طريق القصر لتكون جملة: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ﴾ مستقلة صريحة الدّلالة اهتماما بمضمونها".[1]

قلت: إن هذا الجمع بين الأمر والنّهي يقتضيه واقع المشركين في اعتقادهم الفاسد، بأنهم يؤمنون بوجود الله ويعبدونه، وليس اتخاذهم أولياء من دونه إلا ليقرّبوهم إلى الله زلفى، فجاء هذا الجمع بين الأمر والنّهي لإنكار تلك الممارسة الفاسدة في العبادة وقطع معاذيرهم، ولذلك جاء هذا التّذييل: ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ للتسجيل عليهم بأنهم قد أُبلغوا ما أنزل إليهم من ربّهم وقامت الحجة عليهم ولكنهم قليلا ما يتذكرون، أي تذكّركم وانتفاعكم بما تسمعون قليل. ولا تحيا القلوب إلا بالتّذكّر الخاشع مع توفّر القابلية للاهتداء والاتّباع.

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير، ١٧/٨.

عاقبة المكذّبين للرسل في الدّنيا والآخرة

أ)- النّص:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْهُمْ قَائِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝٧ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾: "كم" خبرية تفيد التّكثير. القرية: جمعها قرى، تجمّع سكني صغير. ﴿بَأْسُنَا﴾: العذاب الشّديد، ويستعمل للحرب الشّديد، قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ (البقرة:١٧٧). ﴿بَيَاتًا﴾: مصدر بات، وقد يطلق على الغارة التي تقع ليلا. ﴿قَائِلُونَ﴾: "قائل" من القيلولة، أي استراحة نصف النّهار. ﴿الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾: أي القوم الذين بعث الله إليهم رسولا كثمود وعاد ومدين. ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾: أي أن الله عليم بما يفعلون إذ يخبرهم بأعمالهم. والقصّ: الإخبار بالشّيء. ﴿الْوَزْنُ﴾: معادلة جسم بآخر لمعرفة ثقل أحد الجسمين، والمراد به هنا تقدير ما تستحقه أعمال الإنسان من الثّواب والعقاب يوم الحساب، وكيفية ذلك علمه عند الله. ﴿دَعْوَاهُمْ﴾: اسم بمعنى الدّعاء لرفع العذاب، وتكون بمعنى الادّعاء للشيء.

ج)- حول مبنى النص:

قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ اَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾: المقصود بالإهلاك هم أهل القرية، وذلك معلوم للسامع لأن العبرة والموعظة هي ما حصل لأهل القرية، وتعليق فعل ﴿اَهْلَكْنَا﴾ بالقرية دون أهلها لقصد الإحاطة والشّمول، وذلك من الإيجاز البليغ. وفعل: ﴿اَهْلَكْنَاهَا﴾ يكون مستعملا في معنى الإرادة بحصول مدلوله. وقد رتب على الإهلاك مجيء البأس وهو حاصل مع حصول الإهلاك أو قبله إذ هو سبب الإهلاك. وفي بيان موقع "الفاء" بينهما، يقول الإمام ابن عاشور توضيحا لما أشكل فيه المفسّرون لبيان موقعها: "والتّعبير عن إرادة الفعل بذكر الصّيغة التي تدلّ على وقوع الفعل يكون لإفادة عزم الفاعل على الفعل عزما لا يتأخر عنه العمل بحيث يستعار اللفظ الدّال على حصول المراد، للإرادة لتشابههما، وأما الإتيان بحرف التّعقيب بعد ذلك فللدلالة على عدم التّرتيب"[1] واستعير المجيء لحدوث الشّيء وحصوله بعد أن لم يكن.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان إنزال الكتاب إلى الرّسول للإنذار والتّذكير، وأمر الخلق باتّباع ما أنزل إليهم من ربّهم، ذكر الله هنا ما يترتب على المخالفة من عذاب في الدّنيا في العاجل وعذاب الآخرة في الآجل. فقال عز من قائل: **﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ اَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا اَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾**.

إهلاك القرى بعد أن حقّت عليها كلمة العذاب من الله تعالى سنّة من سنن الاجتماع يتسبّبُ فيها الخلق أنفسهم بما كسبت أيديهم، وهو نوع من تأديب الله

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير، : ٢٠/٨.

خلقه إذا ما طغوا وعاثوا في الأرض فسادا. وقد تكرّر في القرآن الكريم ذكر هذه القاعدة، إمّا في شكل الاستئصال الكلّي لقرى وأهلها كما حدث للأمم الخوالي، وإمّا بحلول النّقم والمصائب المتوالية، قال تعالى:

أ)- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص:٥٨).

ب)- ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠).

وجاء في هذه السّورة قريبا من معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ، أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأعراف:٩٧-٩٨). وشرّ ما تبتلى به المجتمعات البشرية عند فساد أمرها هي الفتن الدّاخلية التي تؤدي -غالبا- إلى انتحار تلك المجتمعات بالاتّكال الدّاخلي، وهذا النّوع من العقاب الدّنيويّ هو أنكى على النّاس من الكوارث الطّبيعية كما تقدم ذلك في سورة الأنعام عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥).

وفي الآية تعريض بأهل مكة، وتهديد لهم في مشاقتهم لرسول الله بما أصاب غيرهم من أهل القرى، ويبقى الخلق عاجزين أمام قدر الله إذا نزل بليل أو نهار. وكم يفجع النّاس اليوم لسماع ما ينجم عن الكوارث من موت ودمار في لحظات لا تتعدى الثّواني القليلة، وفي ما وقع في تركيا وجزيرة "تايْوان" من فواجع الزّلزال، أو في غيرهما من أهوال الأعاصير خلال هذه الأيام الأخيرة، خير دليل على أن الله لا يخلف الميعاد وأنه عزيز ذو انتقام.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾:

والدّعوى بمعنى القول أو الدّعاء أو الادّعاء، فإنّ مقول قولهم بعدها: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعتراف منهم بذنبهم وتحسّر على ما فرط منهم حين لا ينفع التّحسّر والنّدم. ووصفهم لأنفسهم بالظّلم لأنهم قد تبيّنوا أن ذنوبهم وآثامهم هي سبب ذلك العقاب الذي حلّ بهم في الدّنيا، إذ عاندوا رسلهم وكذبوهم. وغالبا ما تجري على ألسنة المنكوبين مثل هذه الأقوال يقولها بعضهم لبعض، أو هم يقولونها لغير مخاطب معيّن ندما وتحسّرا. والخاسر من النّاس هو من لا يعتبر بصروف الأيام، ولا بمصائر الأنام.

﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ، فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾: بعد التّهديد والإنذار لمخالفي رسلهم بما يصيبهم من عذاب في الدّنيا أتبعه الله بالتّهديد بعذاب الأخرى فذكر هذا المشهد العصيب، وأكّد ذلك باللام المشعرة بالقسم ونون التّوكيد، لأن المخاطبين يومئذ هم في شكّ مما يخبرهم به الرّسول من أحوال يوم القيامة، بل ينكرونه تماما. والمراد بـ"الذين أرسل إليهم" الرّسل كل الأمم التي بعث الله إليها رسله، يسألون: هل بلّغ إليهم رسلهم آيات الله؟ وبما أجابوا رسل الله؟، كما يسأل الله الرّسل: ماذا أجبتم؟. وقد تكرر موقف هذا السّؤال للخلائق في القرآن الكريم بمختلف الأساليب منها قوله تعالى:

أ)- ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة:١٠٩).

ب)- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص:٦٥).

وقد أشكل على بعض المفسّرين التّوفيق بين قوله تعالى في هذه الآيات التي تؤكّد وقوع السّؤال وبين قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ﴾ (الرحمن:٣٩). وقوله في سورة القصص: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ

يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص:٧٨).

ولكن المحقّقين يرون أن لا تعارض بين تلك الأخبار، إذ أن لموقف الحساب أحوالا متعدّدة، كما تتعدّد الأغراض في طرح الأسئلة أمام الخلائق، فقد يكون الغرض هو دفع المجرم إلى الإقرار، وقد يكون للتوبيخ والإهانة. بينما كل الأعمال محصية عند الله لا يعزب عن علمه مثقال ذرة. ولذا أعقب ذلك بقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ للدلالة على حضور الله مع خلقه في كل الحالات والظّروف، يحيط بما يسرّون وما يعلنون لا يغيب شيء عن علمه، إذ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:١٦).

ثم بيّن الله تعالى كيف تقدّر تلك الأعمال، بأن توزن بالقسط، ثم يجازي عليها الجزاء الأوفى فقال تعالى: ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِئَايَاتِنَا يَظْلِمُونَ**﴾.

فقد ورد في القرآن كثيرا أن الأعمال توزن يوم القيامة بميزان عدل وبقسطاس مستقيم، وذلك لتحديد وتعيين ما تستحقه تلك الأعمال من الثّواب والعقاب، وأن الله تعالى لا يظلم أحدا ولو بمثقال ذرّة كما قال في سورة النّساء: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ (٤٠). أما كيفية ذلك، وهل توزن الأعمال ذاتها أم الصّحائف فعلمها عند الله، وإنما صوّرت تلك المشاهد ومثّلت تلك الحقائق بالمتعارف عندنا من آلات الوزن الدّقيقة لتدلّ على كمال العدل الإلهي في القضاء بين الخلائق، فلا إجحاف ولا ظلم ولا محسوبية. قال تعالى في تصوير بليغ لذلك المشهد الرّهيب: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، الْيَوْمَ

تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (غافر:١٦-١٧)

وتتفرّع عن عملية الوزن ثقل الموزون بالإيمان والأعمال الصّالحة فترجح الكفّة لفريق النّاجين الفائزين بينما المكذبون لرسل الله والمستخفون بآيات الله فتخف موازينهم، ويكونون من المفلسين الخاسرين، إذ لا شأن لتلك الأعمال عند الله بسبب ظلمهم، وأعظمه الشّرك بالله، إذ لا يستقيم معه عمل، وإن كان ظاهره خيرا، قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٢٣).

والله أعلم

نعم الله على عباده، وقصّة الخليقة

أ)- النص:

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ﴾: التّمكين جعل الشّيء في مكان ما، ويطلق على الأقدار على التّصرّف كناية، وهو المقصود في الآية. ويطلق أيضا على القوة والحكم كقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ﴾ (الكهف:٨٤). ﴿مَعَايِشَ﴾: جمع معيشة، اسم مصدر مشتق من العيش، وهو ما يعيش به الحيّ من الطّعام والشّراب. ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾: الخلق هو إيجاد وإبراز الشيء إلى الوجود، والتّصوير جعل الشّيء صورة على شكل معيّن. والمعنى: خلقنا أصلكم وهو آدم عليه السلام، فأحسنا صورته بتشكيل جسمه تشكيلا جميلا. ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾: الضّمير يرجع إلى الجنة أو إلى السّماوات. واهبوط: الانحدار إلى مكان منخفض، وفي المعنويات: السّقوط من منزلة إلى منزلة. ﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾: من الصّغار، أي ذليلا حقيرا. ﴿أَنظِرْنِي﴾: أمهلني وأخّرني إلى وقت آخر. ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾: من الإغواء، الإيقاع في الغيّ وهو ضدّ الرّشد. ﴿مَذْءُوماً مَّدْحُوراً﴾: من ذأم يذأم عابَ أي معيبا ممقوتا. والمدحور: هو المبعد المطرود.

ج)- حول مبنى النص وأوجه القراءة:

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾: "الياء" في الكلمة أصلية من مصدر العيش، فلا تقلب همزة عند الجمع، لأن العرب إذا جمعوا المفرد المشتمل على حرف مدّ جمعا بألف زائدة ردّوا حرف المدّ إلى أصله، فيقولون: مفازة، مفاوز، معيشة معايش. وروي عن نافع أنه قرأ "معائش" بهمزة بعد الياء، ولكنها رواية شاذّة. ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: اختلف اللّغويون في معنى "لا" في قوله: ﴿أَلاَّ تَسْجُدَ﴾، لأن إبليس كفّ عن السّجود لا عن نفيه. وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص:٧٥). ولذا قالوا في مثل هذا

التركيب أنّ "لا" مزيدة للتأكيد ولا تفيد نفيا، لأن الحرف المزيد للتأكيد لا يفيد معنى غير التأكيد، مثل قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ (البلد:١). وهناك تأويلات أخرى. ﴿لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾: ذكر الجهات الأربع مجاز تمثيلي للدّلالة على أن الإغواء والمحاتلة تأتي النّاس من كلّ جهة. قال ابن عباس: "لا يستطيع أن يأتي من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله".

د)- البيان والتّفسير:

يتنوّع أسلوب الموعظة والتّذكير وفق مزاج الإنسان وطبيعته، من أسلوب الإنذار والوعيد إلى التّرغيب والتّذكير بأنواع النّعم التي تستوجب الشّكر للمنعم. بعد الإنذار بما يحيق بالكافرين من عذاب في الدّنيا والآخرة، وتدقيق الحساب على الأعمال، يأتي هذا التّذكير اللّطيف بأنعم الله على هذا الإنسان، إذ مكّنه في الأرض وضمن له رزقه من خيراتها فقال: **﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾**:

الخطاب لسائر النّاس وبخاصّة لأولئك الجاحدين لأنعم الله بمشاقّة رسله. وأكّد الله الخبر بـــ"لام القسم" و"قد" المفيد للتّحقيق نظرا لحالة السّامعين من التّردّد والشّك أو الجحود والإنكار. فالله بحكمته ورحمته هو الذي أقدر هذا الإنسان على التّصرّف في مقدّرات الأرض ليسخّرها لمنفعة حياته. وكفل له رزقه وأقواته من خيراتها، ثمارا أو فواكه مهيأة للأكل، أو خضارا وحبوبا يستنبتها الإنسان بوسائل الفلاحة والزّراعة، أو أنعاما يقوم على تربيتها، أو لحما طريّا بريّا أو بحريا يقوم باصطيادها، كل ذلك بتدبير الله وإنعامه على الإنسان، لو أنه يتدبّر ذلك ليعرف حقّ المنعم وواجبه من الشّكر بحسن الطّاعة والانقياد. ولكن الإنسان ظلوم كفّار قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (ســـا:١٣).

وفي تسخير الأرض للإنسان واستخلافه فيها، وأن ذلك من تكريم الله له ترد آيات كثيرة في القرآن تحدّد التصوّر الإسلامي الصحيح في نظرته إلى الإنسان والحياة والكون. تلك النظرة التكاملية والمتناسقة بربط كل ذلك إلى الله بديع السّماوات والأرض خالق كل شيء، وتجعل من الإنسان سيّد الكائنات، بما ميّزه به من العقل والإدراك، وفضّله على كثير من المخلوقات فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:٧٠). وهذا التكريم ينطلق من النشأة الأولى لهذا الإنسان خلقا وتحسينا لصورته، ثم إجلالا له من الملإ الأعلى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**﴾:

عطف الله على ما سبق من التذكير بنعمة التمكين في الأرض وكفالة الرّزق منها، عطف عليه التذكير بنعمة الإيجاد للنوع البشري، وميلاد الإنسان الأول آدم عليه السلام في أحسن صورة وأحسن تقويم وكيف أحاطه بتلك الحفاوة والتكريم في حضرة الملإ الأعلى من الملائكة المقرّبين. والخطاب لبني آدم على اعتبارهم ذرية لذلك المخلوق الأول العجيب الذي أوجده الله من العدم من مادة هذه الأرض ثم صوّره وشكّل جسمه في أحسن صورة لا يضاهيه فيها مخلوق كما قال تعالى في سورة التغابن: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٣). وقال في سورة الانفطار: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾. (٦-٨).

ولا شك أن التصوير خلقة الإنسان أرقى مرتبة من مجرّد إيجاده، ولعلّ هذا المعنى اللّطيف من الترتيب في النشأة هو ما تشير إليه آية سورة "المؤمنون" في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ،

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٢-١٤).

وهو ما ورد في التّفسير المنقول عن ابن عباس قال: "خلقوا في أصلاب الرّجال وصوّروا في أرحام النّساء". فقد خلق الله آدم وأعطاه الخصائص الإنسانية المتميزة ليتدّرج بها الجنس البشريّ في مدارج الحضارة والتّمدّن إلى ما يشاء الله.

ولتكريم هذا الإنسان أعلن الله تعالى في الملإ الأعلى ميلاده وما يمتاز به من خصائص التّعلّم والإدراك، كما هو مفصّل في سورة البقرة، وأمر الملائكة بالسّجود له سجود تحية وتقدير لا سجود عبادة، فامتثل الملائكة أمر الله إلا إبليس امتنع عن السّجود.

ويدل ظاهر الآية أنّه كان مختلطا بالملائكة، وإن لم يكن من جنسهم، كما يدلّ على ذلك قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (٥٠).

لم يتردّد الملائكة في امتثال أمر الله بالسّجود لآدم، وهم رمز للطّاعة والانقياد لأوامر الله، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأما إبليس فقد امتنع عن السّجود حسدا واستكبارا. وزيادة جملة: ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ بعد الاستثناء للدلالة على أن سجوده لإرجاء في حصوله بعد، لما جبل عليه من الخبث والعصيان. وهنا تبتدئ المحاورة بقوله تعالى: **﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ، مِن طِينٍ، قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾**:

الاستفهام للتوبيخ أمام الملائكة حتى يكشف اللّعين عن مقصده ودخيلة نفسه، فما الذي دفعه إلى عصيان أمر الله، وهو يعلم أن الله خالقه ومدبّر أمر الكون كله، وأن أمره يجب أن يطاع؟. ذلك هو ما أقرّ بدوافعه النّفسية فيه إذ قال

مجيبا ربّه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾. وهنا يكمن المزلق الخطير لأولياء الشّياطين حين يتكبّرون، وحين يتخذون لهم رأيا يوافق هواهم ويتجاهلون أمر الله الواجب الطّاعة، فهم يصدرون في تلك المخالفة الصّريحة عن العجب والغرور إذ يعتبرون أنفسهم فوق غيرهم من خلق الله، نسبا أو مالا أو جاها...إلخ. فقد اعتبر إبليس اللّعين أن الخيرية تكون بالطّبيعة المادية، فلم يقم وزنا لتلك الخصائص الرّوحية والمعنوية التي حبا الله بها آدم عليه السلام. وحين يقيس المرء أحوال غيره بالقياس المادي، فإنه يسلك نفسه في زمرة إبليس اللّعين تمرّدا وعصيانا لأمر الله.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾:

لا أحقر للإنسان من النّزول بعد الطّلوع، ومن حاول شيئا بمعصية الله كان أبعد مما رجا وأبعد مما اتقى. لقد علا إبليس واستكبر، فعاقبه الله على عصيانه بإخراجه من المكان العليّ الذي كان فيه مع الملائكة الأبرار، والضّمير في "مِنْهَا" راجع إلى الجنة أو إلى السّماء -على اختلاف بين العلماء في المقصود بالجنة-، فتلك المنزلة -أيّا كان مكانها- لا تكون للعصاة المتمرّدين، لأن حظيرة الملإ الأعلى مطهّرة من كلّ دنس. وخلق التكبّر والحسد فيه من الخسّة والدّناءة ما لا يليق بتلك المقامات السّامية في العالم العلوي. ولذا أكدّ الأمر بالهبوط بالأمر بالخروج ليجازيه الله بعكس مقصوده من التّعالي والكبرياء ذُلاّ وصغارا في أغوار الأرض ومتاهاتها، صغار عند الله وعند أوليائه.

ومن مكائد هذا اللّعين المطرود من رحمة الله أن ينتقم ممن كان السّبب في طرده فسأل من الله أن يمهله إلى يوم الدّين: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾.

طلب إبليس من ربّه الإنظار إلى يوم يبعثون، لأنه يعلم أن هبوطه من العالم العلوي إلى الأرض سوف يعقبه الفناء كباقي الأحياء على ظهرها فأجابه الله إلى ما سأل -والله تعالى قدّر ذلك في علمه الأزلي- وفق مشيئته وحكمته، وتجري الوقائع على ذلك القدر الإلهي؛ إذ أجاب الله إبليس إلى ما سأل فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾

وتأكيد الخبر بـ"إنّ" يدلّ على أن ذلك مقضيّ ومقدّر في علم الله من قبل. وجاء في آيات أخرى أن إبليس طلب من الله الإنظار إلى ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وثبت في التفسير المنقول عن الصّحابة سيما ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٣٧-٣٨). قال: "الوقت المعلوم هو النفخة الأولى في الصّور، والتي يموت فيها جميع أهل الأرض دفعة واحدة".

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾: إنها إجابة من إبليس اللّعين تنمّ عن خبث مكين، ونزع إلى الانتقام من هذا المخلوق الذي حسده، وكان سببا لطرده من عالم الكرامة والخلد. فأقسم أن يترصّد آدم وذريته على صراط الله المستقيم إغراءً وإغواءً لهم للانحراف عنه، ثم يسدّ عليهم المسالك من كل الجهات، فلا ينفلتون عنه، ويكون ذلك سببا لغفلتهم عن حق الله طاعة وعبادة وشكرانا لنعمه: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

وعلى ذكر الجهات الأربع دون الفوق والتّحت يعلّق ابن عباس ﷺ ويقول: "لا يستطيع أن يأتي من فوقهم لئلا يحول بين العبد ورحمة الله"، وهو ملحظ ممتاز، ذلك لأن العبد المؤمن مهما سوّل له الشّيطان، قد تدركه رحمة الله فيتوب ويرجع إلى الله مستغفرا نادما، وهكذا اقتضت مشيئة الله أن يستحكم العداء بين آدم والشّيطان، وكلاهما تنتشر منه ذرية كثيفة وتتصارع في معترك الحياة.

وللإمام ابن عاشور ملحظ لطيف في قوله تعالى حكاية عن تمرّد الشّيطان: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قال: "وهذا الكلام يدل على أن إبليس علم أن الله خلق البشر للصلاح والنّفع، وأنه أودع فيهم معرفة الكمال، وأعانهم على بلوغه بالإرشاد، فلذلك سمّيت أعمال الخير في حكاية كلام إبليس "صراطا مستقيما"، وأضافه إلى ضمير الجلالة، لأن الله دعا إليه وأراد من النّاس سلوكه، ولذلك أيضا أعزم: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾.

وبهذا الاعتبار كان إبليس عدوّا لبني آدم، لأنه يطلب منهم ما لم يخلقوا من أجله، وهو مناف للفطرة التي فطر الله عليها البشر، فالعداوة متأصّلة وجبليّة بين طبع الشّيطان وفطرة الإنسان السّالمة من التّغيير، وذلك ما أفصح عنه الجعل الإلهي المشار إليه بقوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (الأعراف:٢٤). وبه سيتّضح كيف انقلبت العداوة ولاية بين الشّياطين وبين البشر الذين استحبّوا الضّلال والكفر على الإيمان والصّلاح".[1]

قلت: إن هذا المشهد المثير في حوار الملإ الأعلى جرى بين الخالق العظيم وبين ثلاثة نماذج من خلقه ينبثون في ملكوته يمثل كلّ نموذج منها مسلكًا متعيّنًا وفق حكمة الله ومشيئته لعمارة هذا الكون.

أ)- **الملائكة**: وهم نموذج الطّهر والنّقاء، ومثال الطّاعة والإذعان لأمر الله وإجلال عظمته.

ب)- **الشّياطين**: وهم نموذج الخبث والكيد، ومثال التّمرّد والعصيان.

ج)- **بنو آدم**: ذوو الطّبيعة المزدوجة بين الطّبيعة الملكية والطّبيعة الشّيطانية

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ٨/٤٨-٤٩.

ينحاز لإحداهما بكسبه واختياره، وهو بذلك محطّ التكليف من الله، يوفيه جزاءه يوم يرجع إليه، قال تعالى في هذا المعنى:

- ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (الإنسان:٣).
- ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس:٧-٨).

وبعد هذا التحدّي المقيت من إبليس اللّعين تجيء الإجابة لعنة وطردا وتهديدا بعذاب جهنم: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أعاد الله تعالى أمره بالخروج من منـــزلة الملإ الأعلى معيبا ممقوتا، وأقسم المولى تبارك وتعالى أنّ من يتبع إبليس من ذرية آدم في ما يغوي به ويزيّنه لأتباعه من الكفر والفسوق والعصيان فإنّه يملأ منهم جهنم دار العذاب الأخروي للشياطين وأعوانهم من الإنس والجنّ -والعياذ بالله-. وقوله تعالى: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ للتنصيص على العموم.

وقد وردت قصة النّشأة الأولى للخليقة في سبعة مواضع من القرآن الكريم تختلف تلخيصا وتفصيلا، ولكنها تتفق في عرض المشهد وفي عناصره الثّلاثة، وذلك في سورة: البقرة، والأعراف، الحجر، الإسراء، الكهف، سورة طه، سورة ص.

فيجب على المؤمن أن يصدّق تصديقا يقينيا بما أخبر الله به من أحوال ذلك العالم الغيبيّ العجيب دونما دخول في متاهات التّصوّر الحسيّ المألوف عندنا في أجواء الحوار، وإسقاطه على ذلك الحوار المقدّس في الملإ الأعلى، إذ أن للمتكلمين محاولات عقيمة في هذا المجال مما لا طائل تحته في مجال العقيدة. ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(آل عمران:٥٣)

وسوسة الشّيطان لآدم وخروجهما من الجنة

أ)- النص:

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: النّهي عن قربان الشّجرة أشدّ في التّحذير من النّهي عن الأكل منها وذلك من باب سدّ الذّريعة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (الأنعام:١٥٢). وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ الزِّنَىٰٓ﴾ (الإسراء:٣٢) ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾: "أل" للعهد، و"الجنة" هي جنة الخلد الموعود بها في الآخرة في رأي الجمهور، أو هي جنة من جنان السّماء أو الأرض. ﴿فَوَسْوَسَ﴾: الوسوسة الكلام الخفيّ، ويسمّي بها القرآن إلقاء الشّيطان في أنفس

البشر خواطر تزيّن الشّرّ والفساد. ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾: الإبداء ضدّه الإخفاء، كشف الشّيء وإظهاره، ويطلق مجازا على معرفة الشّيء بعد جهله. ووري: أي حجب وأخفي، من المواراة. السّوءات: جمع سوأة، أي الخصلة الذّميمة، ويكنّى بها عن العورة، لأنه يسوء ظهورها، وهو مستهجن طبعا وعرفا. ﴿إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾: والتّقدير لئلا تكونا أو بتقدير: كراهة أن تكونا. ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾: من المقاسمة أي حلف الشّيطان هما، وعبّر عن ذلك بالمفاعلة للمبالغة. ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾: دلّى: حملهما على فعل يطمعان به في نفع فخابا فيه، ﴿بِغُرُورٍ﴾: "الباء" للملابسة، أي بخداع منه. ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾: أي انكشفت عوراتهما. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾: أي شرعا يخصفان. والخصف: تقوية الطّبقة من النّعل بطبقة أخرى لتشتدّ ويطلق على تقوية الخرق والأثواب. ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ﴾: مصدر ميمي للاستقرار، أي المكث في مكان ما، والمتاع: تحقيق الملذّات والرّغبات وكلّ ما يتمتع به من الأشياء.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد انتهاء المشهد الأول بما جرى فيه من الحوار في الملإ الأعلى بين الخالق تعالى والعناصر الثّلاثة: الملائكة، آدم، الشّيطان. يستمرّ السّياق في ذكر النشأة الأولى و ينتقل إلى المشهد الثّاني في تمثيل دور الشّياطين في إغواء بني آدم بدءاً بما حدث لأبي البشر مع الشّيطان، ونتائج ذلك كما هو مقدّر في علم الله، ليكون ذلك تمهيدا للإرشادات الإلهية اللاحقة فقال جلّ من قائل: **﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنَ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾**:

لقد انضاف عنصر رابع في المشهد وهو أمّنا حواء عليها السلام، وقد أخبر الله تعالى بأنه خلقها من آدم ليسكن إليها، وذلك على سنة الزّوجية التي قدّرها الخالق وسيلة

لعمارة الكون: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس:٣٦). والنص هنا يطوي خلقة حوّاء بله كيفية خلقها، ولا يزيد القرآن في مواضع أخرى على أن الله تعالى خلقها من آدم، ووصفها بالزّوج يوحي بأنها على مثال الزّوج الآخر صورة واستعدادات فطرية، ولنفس المهمّة التي خلقها آدم فهي صنو زوجها ليجدا السّكينة إلى جوار بعضهما.

وللإمام ابن عاشور ملحظ دقيق في مثل هذا العطف إذ يقول: "فالنّداء والأمر من جملة المقول المحكيّ بـــ"قال" أي قال الله لإبليس أخرج منها وقال لآدم: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، وهذا من عطف المتكلم بعض كلامه على بعض، إذا كان لبعض كلامه اتصال وتناسب مع البعض الآخر، ولم يكن أحد الكلامين موجّها إلى الذي وجّه إليه الكلام الآخر مع اتّحاد مقام الكلام، كما يفعل المتكلم مع متعدّدين في مجلس واحد فيقبل على كل مخاطب منهم بكلام يخصّه".

وبهذا التّوجيه لمعنى العطف يتخلّص الإمام إلى معنى لطيف يستخلص من خلال القصّة فيقول: "وفي توجيه الخطاب لآدم بهذه الفضيلة بحضور إبليس بعد طرده زيادة إهانة، لأن إعطاء النّعم لمرضيّ عليه في حين عقاب من استأهل العقاب زيادة حسرة على المعاقب وإظهارا للتفاوت بين مستحقّ الإنعام ومستحقّ العقوبة".[1]

قلت: إن مقابلة طرد إبليس من الجنة مذءوما مدحورا بإذن الله لآدم وزوجه بسكنى الجنة والتّمتّع بخيراتها هو إمعان في إغاظة إبليس والتّنكيل به من جهة ودلالة على أن الجزاء على مدى تزكية النّفس أو تدسيتها إكراما وإحسانا أو إهانة وإبعادا من جهة أخرى.

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير، ٨/٥٢-٥٣.

وهنا يتواجه الفريقان، كلّ على ما قدّر الله له من كرم الطّبع وسذاجة الفطرة المتمثل في آدم، ومن خبث الطّبع ولؤم السّليقة المتمثل في الشّيطان، ولكل منهما دوره في هذه الحياة التي اقتضت حكمته أن تكون محكًا للابتلاء والاختبار. فلا بد من تزاوج الخير والشّرّ، وتقابل الحق والباطل. وقد أعدّ الله آدم لمعايشة تلك الأوضاع في الأرض، فزوّده بالطّاقة العقلية وعلّمه الأسماء كلّها ليميز بين الخبيث والطّيب، ثم أمدّه عن طريق الوحي لرسله بالوصايا الإرشادية التي توضّح له معالم الطّريق.

ومن هنا يتعيّن التّكليف الإلهي لهذا الإنسان على قاعدة الأمر والنّهي وفي مجال الحلال والحرام فقال تعالى: ﴿**فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾، فما أعظم رحمة الله بهذا الإنسان الضّعيف، إذ أباح له الكثير من الطّيبات وحرّم القليل، فما نسبة شجرة واحدة من أشجار الجنة كلّها؟.

فآدم وزوجه قد تعيّن لديهما نوع الشّجرة المنهيّ عنها، وليس من المهمّ أن يذكر الله نوعها، لأن المقصود في مشهد القصة هو ذلك الاختبار الإلهي لهذا الإنسان حتى يتعلّم ضبط النّفس والوقوف عند الحدود المشروعة، وذلك هو غاية التّكليف التي تميّز الإنسان.

وفي هذا الموقف الحرج يبرز دور إبليس اللّعين وهو منطوٍ على غيظ ويحيك مؤامراته.

﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**﴾:

"الفاء" تدلّ على التّعقيب بأن أعقبت وسوسة الشّيطان ذلك التّكريم الإلهي لآدم في بحبوحة الجنّة، وأن الشّيطان لتوّه سعى في المكر والخديعة، بإلقائه في نفس

الزّوجين خواطر للشرّ والإيحاء بارتكاب المحظور، وكلّ ذلك يتمّ بكيفية نجد -نحن البشر- أثرها في نفوسنا، ولا ندرك كنهها ولا كيف تتمّ، وقد صوّر الرّسول دبيب تلك الوسوسة بقوله: «**إن الشّيطان يجري من بني آدم مجرى الدّم في العروق**».[1]

وكان الهدف من هذه الوسوسة هو كشف ما يجب أن يستر من النّقائص المعنوية أو الحسية كالعورات، إذ يقتضي الطّبع السّليم والعرف القديم أن تحجب السّوءات مهما كان نوعها، وفي الآية اللاحقة ما يدلّ على أن السّوأة حسية تتمثل في عوراتهما.

والإغواء يعتمد أسلوب الكذب والتّلفيق، بحيث تترصّد الشّياطين نقط الضّعف الموجودة في الإنسان فتجد المسلك منها إلى مكامن رغباته وشهواته في مراوغة واحتراز وتظاهر بالنّصح الأمين، إذ قال الشّيطان لهما: ﴿**مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**﴾، وقد اعتمد إغواء الشّيطان على رغائب الإنسان الملّحة:

أ)- على رغبته في الخلود والاستمرار وكراهية الموت.

ب)- وعلى طموحه أن يكون في المراتب العليا قوة وجاها ومنـــزلة عليا كالملائكة المقرّبين.

فقوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾، أي لئلا تكونا أو خشية أن تكونا، بمعنى إن أنتما أكلتما من تلك الشّجرة حصل لكما ما ترغبان فيه من صفات الملكية

١- رواه البخاري من حديث علي بن الحسين، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، حديث ١٩٥٤، ولفظه: «إنّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم».

والخلود، كما ورد في آية سورة طه: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ (١٢٠). ولتأكيد أمانة هذه النصيحة حلف لهما إبليس بالله ودعّم ذلك بمؤكد "إن" واللام: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

فكيف كان موقف آدم وزوجه من هذا الإغراء الفاتن؟. لقد نسي آدم تحذير ربه من أن يصبح ظالمًا إن هو أكل من الشجرة. إنه الضعف الإنساني أمام الشهوة العارمة، والغرور بالتزيين المخادع: ﴿**فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ**﴾.

ألحّ الشيطان في الإيحاء والوسوسة لآدم وحوّاء وهو يقسم ويؤكّد أنه من الناصحين لهما، وللإلحاح والمراوغة والخداع أثر كبير على النفوس مهما تكن محصّنة متيقظة، والتعبير بدلي، تمثيل بحال من كان في منزلة عليا فتدحرج إلى الأسفل، وهكذا يقع الإنسان في شرك الشيطان إذا ما غفل عن ذكر الله مغترًا بما زيّنه الشيطان، فالغرور من الجانبين: فمن جانب الشيطان يتمّ بالخداع والمراوغة، ومن جانب الإنسان بتوهم النفع في شيء له بريق خاطف، ولا يتحقق النفع في الواقع، لأن من غرائز البشر التشبث بالممنوع، والحرص في استكشاف المجهول.

وميلا لتلك الغريزة أكل آدم وحوّاء من تلك الشجرة، وقد غشيتهما سحابة من غفلة ونسيان لأمر الله في تلك الحالة فارتكبا تلك المخالفة التي أوقعتهما في عصيان أمر الله كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (١١٥).

وللمعصية أثرها في تدسية النفس، وقد يكون لذلك الأثر النفسي في المذنب مظهر خارجي تتمثل في بعض التصرّفات السيّئة أقوالا وأفعالا، لأن الشهوة البهيمية إذا ما اشتدّ سعارها فإنها تجرّد الإنسان من كل حياء أو كرامة إنسانية، فتصدر عنه أقوال بذيئة بل وأعمال شهوانية يكسر بها كل الحواجز الأدبية،

وأحسّها كشف العورات والتلفظ بأقبح أسمائها.

ومن هذا المنطق المجسّد لغريزة الإنسان، فإن الرّبط في الآية الكريمة بين ذوقهما الشّجرة المنهي عنها وبدوّ سوءاتهما لهما، هو تجسيد لغريزة الإنسان حين تنعدم الضّوابط الشّرعية أو العرفية، فالإغراء الشّيطاني متى.وجد طريقه إلى نفس الإنسان، فإنه لا يقتنع بالخاطرة النّفسية للسوء، بل لا تزال تلحّ عليه حتى تدفعه إلى القول والفعل، وكشف العورة هو منتهى ما يصل إليه الإنسان من البذاءة والفحش حين يفقد الحياء والغيرة فلا يبالي بشعور الآخرين نحوه. كما أن العلاقة بين الأكل من الشّجرة وثوران الغريزة الجنسية علاقة عضوية في طبيعة الإنسان، إذ نجد لكثير من الأطعمة والأشربة تأثيرا كبيرا في إثارة الشّهوة ولذلك نصح رسول الله من لا يستطيع الزّواج من الشّباب أن يصوم وقال في شأنه، "إن له وِجاءً"[1]، أي إن الصّوم يكسر حدة الشّهوة.

وعندما يكون الإيمان في قلب الإنسان فإنه يثوب إلى رشده بمجرّد أي تنبيه يذكّره بواجبه، فقد أدركت رحمة الله آدم وزوجه حين تلقّيا منه تعالى ذلك التّقريع والعتاب على عصيانهما أمره: ﴿**أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾.

وفي إقدامهما على ستر عورتهما بالخصف من ورق الجنة تتجسّد داعية الخير وقابلية الصّلاح في فطرة الإنسان؛ سيما إذا تلقّى النّصح الأمين، والعتاب الرّفيق: ﴿**قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾.

إنه الشّعور بالذّنب والإقرار بأمانة المسؤولية، وهو أول خطوة في بلوغ الكمال الإنساني، فقد اعترفا بالظّلم بعد أن لمسا أثر العصيان في بدوّ سوءاتهما،

١- رواه مسلم من حديث ابن مسعود، كتاب النكاح،باب استحباب النكاح،حديث ١٤٠٠

فأدركا ما ارتكباه من الغواية في طاعتهما للشيطان، بالرّغم من تحذير الرّبّ لهما بعداوته، وعاقبة الظّلم وخيمة إذا ما تمادى الإنسان عليه، ينجرّ عنه سخط الله وغضبه، وهو لا يغفل عما يعمل الظّالمون.

لقد رأى آدم وزوجه بوادر الشّرّ والفساد إثر معصيتهما لله، وتوقعا ما يعقب ذلك من زيادة الشّرّ إن لم يتوبا إلى الله ويطلبا منه العفو والمغفرة، فإن النّهاية ستكون الخسران المبين لهما، ولذلك أكدّا جواب الشّرط بـ"لام القسم" و"نون" التّوكيد.

﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾: الخطاب لآدم وزوجه وإبليس، فقد اقتضت حكمة الله أن تتأصّل العداوة بين الطّرفين: الإنس الممثل في آدم وحوّاء، والجنّ الممثل في الشّيطان. وكلا الجنسين تقع عليه مسؤولية التّكليف، غير أن نفوس الشّياطين -وهم صنف من الجن- قد تمحضت للشرّ والفساد في أصل جبلّتها، بينما العنصر الإنساني-وإن فطره الله على الخير في أصل تكوينه- فإنه يتعرّض للانحراف عن أصل فطرته حين يتخلّى عن الإيمان بربّه، وهكذا كانت عقوبة آدم وزوجه على تلك المعصية، وهي الخروج من الجنة هو وغريمه الشّيطان، وهما ينطويان على تلك العداوة التي تسري في أعقابهما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهي المعترك الحيويّ لذريتهما. فدلّ ذلك أن العقوبة الدّنيوية على المعاصي أمر واقعيّ في حياة البشر، يسقط الكثير منها بحسن التّوبة والإنابة إلى الله مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠).

وهكذا تتمّ قصة الخليقة بكل ما فيها من حركية وحوار في إبراز القدرة الإلهية وحكمته البالغة في تصريف شؤون خلقه. أما كيف تمّ ذلك وأين؟ فهي من أمور الغيب نتلقاها بالعرض القرآني الصّادق ونؤمن بما أخبرنا به الله تعالى دونما

دخول في معرفة التفاصيل أو مبالغة في ضروب من التأويل أو حشر للإسرائيليات.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾: يسكت النصّ عن ذكر توبة الله على آدم وزوجه، وفي سورة طه ما ينصّ على ذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (طه:١٢١-١٢٢).

لقد هبط الجميع إلى الأرض، وهي المستقرّ لحياتهم الأولى، يمتعون بخيراتها إلى حين، فالأعمار والأرزاق لكل كائن مقدرة في علم الله، وقد بيّن الله تعالى حكمة خلق الموت والحياة العاجلة فقال جلّ من قائل في سورة الملك: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك:١-٢). فهذه هي النشأة الأولى للابتلاء والاختبار فستعقبها النشأة الآخرة للحساب والجزاء لا نعلم حقيقتها كيف تكون، ولكننا نؤمن ونجزم بقدرة الله على ذلك، وعد الله لا يخلف الله الميعاد.

قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٠-٦٣)، والله أعلم.

توفير الله لحاجات بني آدم،
وتحذيرهم من فتنة الشيطان

أ)- النص:

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾: أي خلقه لكم بتدبيره من الأنعام والطير وغير ذلك، وعلّمكم استخدامها والانتفاع بها. واللّباس هو كلّ ما يلبس في مختلف الأحوال التي يكون عليها الإنسان. ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾: يستر عوراتكم، الريش: أي لباس الزّينة، وهو فوق ما به الحاجة من ستر العورة، مستعار من ريش الطّائر. ﴿لِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾: فهو لباس معنويّ بالورع وخشية الله، ويلاحظ فيه معنى الملازمة كما يلازم اللّباس. ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾: لا يضللنكم ولا يغوينكم بوسوسته. ﴿يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾: أي رهطه وجماعته. ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: أعوانا وقرناء.

ج)- حول مبنى النص، وأوجه القراءة:

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾: قرأه نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر بالنّصب عطفا على "لباسا". وقرأه ابن كثير وعاصم وحمزة وأبو عمرو ويعقوب وخلف بالرّفع: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ على أن تكون الجملة معطوفة على جملة: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾، وعلى النّصب تكون جملة: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ استئناف ثان، وإضافة اللّباس إلى التّقوى تشبيه بليغ. ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾: تكرّر هذا النّداء أربع مرات لشدّ الانتباه إلى ما يُلقى عليهم من إرشادات، وقد جرت عادة العرب على الانتساب إلى الجدّ الأعلى في تمييز قبيلة عن أخرى. وانتساب البشر إلى الأب الأول "آدم" للإيحاء بالأخوّة البشرية التي توجب التّكافل

والتّعاون. وورود تلك النّداءات بعد ذكر قصة خلق آدم وما لقيه من وسوسة الشّيطان تدعو ذريته إلى الاحتراس من الوقوع في مكايده.

د)- البيان والتّفسير:

بعد قصة النّشأة الأولى وهبوط آدم وحواء إلى الأرض لتكون مستقرّا لذريتهما يجيء هذا التّعقيب الذي يتضمّن الإرشادات الإلهية لبني آدم، وقد وفّر لهم كل ما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم، مركّزا على جانب اللّباس وستر العورة، وذلك لمواجهة واقع المشركين في بعض طقوس عبادتهم، إذ يطوفون بالبيت عراة كما رواه ابن عباس في سبب نزول هذه الآية فقال جل من قائل: ﴿يَا بَنِي ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

مهّد الله تعالى لإرشاداته في تدبير شؤون خلقه، سيما في ضروراتهم من الطّعام واللّباس، مهّد بهذا الامتنان عليهم بما سخّر لهم من أنواع الألبسة التي تكفل ضروراتهم في ستر عوراتهم، والتي تحقق زينتهم في الأناقة والتّجمّل. والخطاب بـ"يَا بَنِي ءَادَمَ" للخلق أجمعين مؤمنهم وكافرهم، وقد تكرّر النّداء بانتساب الخلق إلى أبيهم، وبالنّداء الذي يخاطب به البعيد تعريضا بالمشركين الذين ابتعدوا عن الفطرة السّليمة، بالكفر والعري لتذكيرهم بما امتن الله عليهم من خلق الموادّ الخام، من صوف ووبر وقطن وكتان وغيرها، وإقدارهم على صناعتها ونسجها وخياطتها صنوفا من الألبسة والفرش والأغطية والأثاث تفي بحاجاتهم في الحرّ والبرد وفي السّلم والحرب، كما فصّل ذلك في سورة النّحل فقال جلّ من قائل: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (النحل: ٨١).

ويعتبر اتخاذ اللّباس من مظاهر الحضارة لدى الإنسان الأول، بعد أن كان لا يستر عورته إلا بأوراق الأشجار أو جلود الحيوانات التي يصطادها، وذلك أعظم منة على هذه الإنسان، وللدلالة على شرفها جاء التّعبير بـ"الإنزال" لأن ذلك من إلهام الله لهذا الإنسان وتكريمه إياه، فكان اللّباس وستر العورة من أصول الفطرة الإنسانية السّليمة، فويل لدعاة العري ومحترفيه من غضب الله وسخطه.

وهناك اللّباس المعنويّ الذي يستر سوءات النّفس وفجورها، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، وقد فسّره ابن عباس ﷺ بأنه الإيمان والعمل الصّالح.

يقول سيد قطب رحمه الله في التّعقيب على هذه الآية: "قال عبد الرّحمن بن أسلم: "يتقي الله فيواري عورته، فذاك لباس التّقوى". فهناك تلازم بين شرع الله اللّباس لستر العورات والزّينة وبين التّقوى، كلاهما لباس، هذا يستر عورات القلب ويزيّنه، وذاك يستر عورات الجسد ويزيّنه وهما متلازمان. فمن شعور التّقوى لله والحياء منه ينبثق الشّعور باستقباح عري الجسد والحياء منه، ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه، لا يهمّه أن يتعرّى وأن يدعو إلى العري. العري من الحياء والتّقوى، والعري من اللّباس وكشف السّوأة".[1]

والإشارة إلى لباس التّقوى بأنه "خير" عوضا عن الضّمير في الرّبط تدلّ على تأكيد مضمونها في الخيرية، ثم أعقبتها الإشارة إلى كلّ ما أنعم الله به علينا من أنواع الملابس الحسية والمعنوية لتكون مدعاة للشكر والقيام بما يجب للمنعم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: وفي الالتفات من ضمير الخطاب إلى الغيبة تعريض بمن لم يذكر نعمة الله عليه مثل مشركي مكة.

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٠٨/١٥٩-١٦٠.

﴿ يَا بَنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾:

لما كان إبداء العورات ومظاهر العري بصفة عامّة من أشدّ مفاتن الشّيطان وأعظم مكايده في تميع الأخلاق وإفساد الدّين حذّر الله تعالى خلقه من الوقوع في شراك إبليس وجنوده مذكّرا إياهم بما أوقع فيه أبويهم آدم وحوّاء من الخطيئة لإخراجهما من الجنة إلى عناء الحياة في الأرض وشقائها وتسبّب ذلك في هتك عورتهما بعد أن كانتا مستورتين.

وفي اهتمام الشّيطان لكشف عورة آدم على ما في ذلك من استفظاع في فطرة الإنسان تعبير على مدى استحكام العداوة وإضمار الشرّ للإنسان، لأن الشّيطان لا يسرّه إلا أن يرى الإنسان في تلك الصّورة المستفظعة التي يتمتع برؤيتها إذ حكى عنه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾. والإخبار بهذه الحقيقة الغيبية لزيادة التّحذير من عدوّ مستتر لا يراه النّاس فيتقى، والضّرر إذا كان مكمنه خفيا كان أعظم خطرا، وأدعى للحيطة والحذر. ولا شك أن قاعدة "الوقاية خير من العلاج" هي أحوط للمؤمن في مثل هذه المجالات الخطيرة. فإذا كانت تلك القاعدة أفيد لسلامة الأبدان من الأوبئة الفتاكة، فإن سلامة الأرواح والنّفوس أولى بالرّعاية والاعتبار، وهي مخوّلة للعبد المؤمن بتقوية الرّوح الإيمانية، وبالمجاهدة والمصابرة في ربط الصّلة بالله، والاستعاذة به من الشّيطان الرّجيم.

وبما أن للشيطان أولياءه من الإنس، فقد أكّد الله التّحذير الأول بالتّحذير من أولياء الشّياطين حتى لا يغترّ بهم المؤمنون، ولا يقلّدوهم في ما هم عليه من الكفر والعري والعادات الفاسدة، لأنهم لا يملكون الدّرع الواقي من وسوسة الشّياطين، وهو الإيمان بالله واتّباع نوره وهداه، والله أعلم.

خطر التقليد للآباء،

وتشريع الله هو الحق الذي يجب أن يُتبع

أ)- النص:

وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَاحِشَةً﴾: كل فعلة مستهجنة تنفر عنها الفطرة السليمة. وأفظعها الشرك بالله والزنا ...إلخ. ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾: تبرير منهم لارتكابها تقليدا واتباعا لآبائهم. ﴿بِالْقِسْطِ﴾: العدل والوسطية المتزنة في كل الأمور. ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: إقامة الشيء: القيام به على الوجه الأكمل وإعطاؤه حقه، وإقامة الوجه إما حسيّ ويعني الاتجاه المقصود كقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة:١٤٤). أو معنوي وهو كناية عن نية القلب وصحة القصد. ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: أي الإخلاص في العبادة. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: أي الخلق الأول والنشأة الثانية للبعث.

ج)- البيان والتّفسير:

ذكر الله تعالى في الآية السّابقة ولاية الشّياطين للذين لا يؤمنون، أعقب ذلك بكشف بعض أباطيلهم وكيف يبرّروها لأنفسهم وأتباعهم فقال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فالضّمير يعود للذين لا يؤمنون، وجاء الشّرط بحرف "إذا" لإفادة اليقين في حصول ذلك منهم. ونُكّرت كلمة "الفاحشة" لإفادة التّعميم لكل ما ينكره الطّبع السّليم، وينهى عنه الشّرع القويم.

ومن جملة الفواحش التي يرتكبها المشركون الطّواف بالبيت عراة كما تقدم، ثم هم يعلّلون تمسّكهم بتلك العادات الفاسدة بأنهم فيها مقلّدون لآبائهم وأسلافهم، وممتثلون لأمر الله بذلك، لأن أولئك الآباء تركوا لهم رسوم الدّين واضحة فورثوها عنهم، وهي من عند الله كما يعتقد كفار قريش أنهم على ملة إبراهيم.

ولا يزال تبرير المواقف الشّائنة من طرف الغلاة والمتطرّفين سلاحا يشهّرونه في وجه كلّ من يحاول نصحهم وإرشادهم وهم يفعلون ذلك إما جهلا وقصورا، وإما تعنّتا واستكبارا، ولعل الدّعاة إلى الله يعانون مع هذا الصّنف أكثر مما يعانون مع الصّنف الأول. ألم يقل الله لرسوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام:٣٣).

وقد شنّع القرآن كثيرا على المقلّدين بلجوئهم إلى تلك الحجة الواهية التي لا تستند إلى منطق العقل ونصاعة الحجة، كما ورد في سورة البقرة إذ قال جلّ وعلا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠).

ولما كان أحطّ التبرير والاعتذار هو ما يتقوّلونه على الله كذبا وافتراء جاء الرّدّ الإلهي بأمر رسوله أن ينفي نفيا قاطعا ذلك الادّعاء فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

تعالى الله وحاشاه أن يأمر بالفحشاء، ذلك لأن أوامر الله لا تعرف إلا عن طريق الوحي، وما دعا رسل الله إلا إلى الفضائل ومكارم الأخلاق، فكيف يدّعي الكفّار ما لم يكونوا من أهله في تبليغ رسالة الله؟، وإنّما هم أولياء الشّيطان وهو الذي يأمر بالفحشاء كما أخبر الله عنه إذ قال: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ﴾ (البقرة:٢٦٨). ومن ثمّ يجيء هذا الاستفهام الإنكاريّ ليثبت أنهم مفترون على الله لفساد تصوّرهم لحقيقة الألوهية. ولذا تكرّر الأمر الإلهي لرسول الله أن يصحّح ذلك الخطأ ببيان حقيقة الدّين، وما يجب أن يعرفوه عن الله في جلال قدرته وكمال صفاته فقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ، فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُواْ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

الفاحشة مشتقة من "الفُحش"، وهو القوة والكثرة في الشّيء المذموم والمكروه، مما يترتب عنه الشّرّ والفساد البالغ. فناسب أن يختار الأمر بالقسط لنفي مُدّعى المشركين في أمر الله بالفحشاء، تعالى الله عن ذلك. والقسط هو العدل والوسطية بين الإفراط والتّفريط في الأشياء، كما قيل: "الفضيلة وسط بين رذيلتين". فالعري فحش لأنه تفريط في ما يجب أن يستر من العورة وقد امتن الله على بني آدم بإنزال اللّباس وأمرهم بستر عوراتهم، وذلك هو القسط والعدل. وقس على ذلك كل الفضائل التي أمر الله بها، فبطل بذلك مدّعاهم.

ولما كان عري المشركين متصل بعبادة الطّواف بالبيت، وبيوت الله أحق

بأن يلتزم المؤمن تنفيذ أمر الله فيها، أعقب الأمر الأول بالأمر الثاني، وهو إخلاص العبادة لله في الأمكنة المعدّة لعبادته صلاةً ودعاءً وتعظيمًا للمعبود، واحترامًا لمكان العبادة.

ولمزيد من استجاشة العاطفة الدّينية ذكّرهم الله بالمصير الذي ينتظرهم في إنذار للكافرين الذين يستعظمون ويستبعدون النّشأة الثّانية للبعث، فجاء التّعبير بأسلوب التّشبيه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، أي شبّه عودة خلقهم ببدئه، كما قال تعالى في الإسراء: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (٥١).

وقد قدّر الله تعالى في الحياة الأولى أن يكون النّاس على فريقين: مهتدين وضالّين، كلٌّ وفق اختياره وكسبه، كذلك يموت كلا الفريقين على ما عاشا عليه، ويبعثان على ما ماتا عليه، وفي هذا التّذكير بالمصير إنذار وتحذير من الوقوع في الضّلال باتّباع الشّيطان، لأن الهدى والضّلال -وإن كانا مقدرّين في علم الله لكلّ من الفريقين- فإن للأسباب والوسائل المكتسبة من طرف الإنسان آثارها في تدسية النّفس أو تزكيتها، ولذا جاء التّعليل لمن حقت عليه الضّلالة بأنهم: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

فالذين اختاروا طريق الله واستجابوا لدعوة الإسلام وفقهم الله لهدايته فكانوا من النّاجين، والذين جمدوا على تقليد آبائهم في الشّرك والكفر، اتّخذوا الشّياطين أولياء من دون الله، وأطاعوهم في وسوستهم، فلا جرم أن يبقوا على ضلالهم وكفرهم، إذ يحسبون أنهم مهتدون، وقد زيّن لهم الشّيطان أعمالهم وصدّهم عن السّبيل، فلا تستقيم إذن أعذارهم بعد أن بيّن الله طريق الهدى لهم على ألسنة رسله.

والله أعلم

أثر الإسلام في تمدين البشر باللباس، والاعتدال في الأكل والشرب

أ)- النص:

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾: الزّينة: اسم من زانه يزينه زينا، ما يزين الشيء أو الشّخص. ضدّه: شانه يشينه شينا. وأخذ الزّينة هو التزيّن بما يزين واستعماله. ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾: المراد به هنا الصّلاة والطّواف. ﴿لَا تُسۡرِفُواْ﴾: الإسراف هو تجاوز الحدّ في الإنفاق أو غيره. ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾: أي المستلذات مما لا ضرر فيه للعقول أو الأبدان. ﴿هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي هم يستحقونها، وإن شاركهم فيها غيرهم في هذه الحياة. ﴿خَالِصَةٗ﴾: أي خاصّة بهم يوم القيامة. وقيل: تكون خالصة من المنغصات، من خلوص الشّيء إذا كان نقيًا صافيا.

ج)- حول مبنى النص، وأوجه القراءة:

﴿خَالِصَةٗ﴾: قرأ نافع بالرّفع على أنها خبر لـ"هي"، وقرأ الباقون بالنّصب على الحالية. ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾: مجاز مرسل، يراد به الطّواف والصّلاة، من قبيل

إطلاق المحلّ وإرادة الحالّ. ﴿وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾: النّهي راجع إلى اتخاذ الزّينة والأكل والشّرب. وقيل: هو راجع للأكل والشّرب نظرا لما يترتب على الإسراف فيهما من الأضرار، وقد حذف منه المعمول ليدلّ على العموم مما يؤيد القول الأول.

د)- البيان والتّفسير:

في سياق النّداء المتكرّر إلى بني آدم بعد بيان قصة النّشأة الأولى لأب البشرية، يأتي هذا النّداء الثّالث ليواجه بعض عادات المشركين، من تعرّيهم للطواف بالبيت، وامتناعهم عن تناول بعض الأطعمة دون شرع من الله كما فصّل الله ذلك في "الأنعام". وقد وردت عدة روايات في سبب النّزول، فقد روى الإمام مسلم عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت في الجاهلية، وهي عريانة، وعلى فرجها خرقة وهي يقول:

اليوم يبدو كلّه أو بعضه وما بدا منه فلا أحلّـــه

فنزلت: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، وفي مسلم عن عروة قال: كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا أن تعطيهم "الحمس" ثيابا. والحمس قريش وما ولدت. فيعطي الرّجال الرّجال، والنّساء النّساء، وكانت الحمس لا يخرجون من المزدلفة، وكان النّاس كلهم يقفون بعرفات. فنـــزل قوله تعالى: **﴿يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾**.

النّداء موجّه من الرّبّ تعالى إلى بني آدم، فيشمل الماضين والحاضرين، والرّجال والنّساء، والمقصود منه إبطال تلك العادات الجاهلية التي ابتدعتها قريش لنفسها وسنّتها حقوقا على بقية مشركي العرب يلتزمون بها عندما يفدون إلى بيت الله للاعتمار أو الحجّ، وأضفت على تلك الحقوق صفة القداسة لتأصيلها في

التّصوّرات الاعتقادية لدى العرب زاعمة أنها من دين الله كما تقدّم. وبذلك يضمن مشركو قريش ذلك الامتياز في مقام السّيادة على العرب. فجاءت هذه التّوجيهات الإلهية لتغيير ذلك الواقع الجاهلي بأسلوب الإرشاد الحكيم، والنّقاش الهادئ الرّزين، بإقامة الحجج والبراهين، وتعليل الأوامر والنّواهي -أحيانا- لبيان المقصد الشّرعيّ منها. حتى إذا قامت الدّولة الإسلامية وجمع رسول الله فيها بين السّلطة الرّوحية والسّلطة المدنية، وأزيلت الأصنام من حول الكعبة عام الفتح، أبطل الرّسول تلك العادة المقيتة عام حجته في سنة تسع، إذ أمر أبا بكر ﷺ أن ينادي في الموسم: أن لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وحكم الأمر الإلهي في اللّباس والأكل والشّرب يتحدّد بالقرائن، فقد يكون للوجوب كما في ستر العورة بالقدر الضّروري من اللّباس وفق التّحديد للعورة عند الجمهور، وهو ما بين السّرّة والرّكبة للرجل؛ وأما المرأة الحرّة فعورةٌ كلّها إلا الوجه والكفين، وقد يكون الأمر للإباحة كما في الأكل والشّرب. إبطالا لما حرّموه منهما دون شرع من الله.

وجاء الرّبط بين اللّباس والأكل والشّرب لما بينها من التّلازم في قيام الضّرورة لحياة الإنسان، وقد تدرّج في الأخذ بها تفنّنا وإبداعا. وفي المسيرة الحضارية لهذا الإنسان هزات واختلالات في أخذه بتلك الأمور الثلاثة ما بين إفراط وتفريط، فجاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ليضع القاعدة الحكيمة في الوسطية والاعتدال، وهي تجمع أصول حفظ الصّحة من جهة، وتضمن التّوازن الاقتصادي في حياة الشّعوب والأمم.

والتّعقيب بنفي محبّة الله للمسرفين له إيحاؤه البالغ في النّفوس المؤمنة، أما ضبط معايير الإسراف فإنه يُوكل إلى أعراف النّاس في تدبير مصالحهم، وإلى مستويات معيشتهم فقرا أو غنى، أو في شدّة ورخاء. وما أنسب ذلك التّحديد

التقريبي في الأكل من خلال هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان فاعلا لا محالة فثلثٌ لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**».[1]

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾:

ولزيادة التأكيد والاهتمام بهذه القضية التي تجذّرت في العادات الجاهلية التي حاربها الإسلام يأتي الأمر الإلهي للرسول أن ينكر على أولئك الذين حرّموا بأهوائهم ما سخّره الله لعباده من أنواع الزّينة والطّيبات من الرّزق.

وفي إضافة الزّينة إلى الله، وأنه هو الذي أخرجها لعباده تأكيد لإنكار أن يحرّم أحد ذلك برأيه، وأن ذلك افتيات على الله الذي له وحده حق التشريع والتحليل والتحريم، ثم أمر الله الرّسول أن يجيب بنفسه عن ذلك السّؤال الإنكاريّ: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

الضّمير "هِيَ" عائد إلى الزّينة والطّيبات، و"اللام" للاختصاص، فيكون المعنى أنها مباحة للذين آمنوا بإذن ربّهم، والمشركون إنما حرّموها على أنفسهم افتياتا على الله، واتباعا لأهوائهم، فقد فاز المؤمنون، إذ هي لهم مباحة في الدّنيا، وهي لهم خالصة يوم القيامة، وخلوصها يكون بمعنى صفائها وخلوّها من التّبعات المنجرة عنها في الدّنيا، أو يكون معنى "الخلاص" التّمحض عن مشاركة الغير، كما روي هذا المعنى عن ابن عباس، أي أن المشركين لا زينة لهم ولا طيبات من الرّزق يوم

١- رواه الترمذي من حديث المقدام، كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية الأكل، حديث ٢٣٨٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

القيامة، أما في الدّنيا فكانت لهم بالمشاركة مع المؤمنين.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: أي كذلك التّفصيل الذي تقدم في الحلال والحرام لحكم اللّباس والطّيبات، نفصّل الآيات الدّالة على المقاصد الشّرعية لقوم يعلمون ويتدبّرون ويتعظون، أما الجاهلون فإنهم لا ينتفعون بهذا البيان.

وفي هذا التّعقيب إشادة بالمؤمنين لحسن فهمهم لآيات الله وتعريض بالمشركين لجهلهم وضلالهم، والله أعلم.

أصول المحرّمات،

وآجال الأمم مقدّرة في علم الله

أ)- النص:

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿الْفَوَاحِشَ﴾: جمع فاحشة، الخصلة التي قبح فعلها حتى تجاوز الحدّ. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾: أي يرتكب منها جهرا أو سرّا مثل الزّنا واللّواط والقول البذيء. ﴿الإِثْمَ﴾: القبيح الضّار، وهو يشمل الكبائر والصّغائر. ﴿الْبَغْيَ﴾: الظّلم والتّجاوز لحدود الحق، أو الاعتداء على حقوق الغير. ﴿سُلْطَانًا﴾: الحجة البيّنة لما

لها من السّلطان على العقل والقلب. ﴿أَجَلٌ﴾: الوقت المحدّد في علم الله.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد إبطال دعوى المشركين في أن ما حرّموه من الزّينة والطّيبات هو اتّباع لما وجدوا عليه آباءهم، وأن ذلك مما أمرهم الله به، جاء الأمر الإلهي لرسوله أن يذكر أنواع المحرّمات التي نهى الله عنها فقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾.

كلام مستأنف لبيان ما حرّمه الله، وقد اقتضى المقام أن يسأل عنه المخاطبون، بعد الإنكار عليهم بأن الله حرّم الزّينة والطّيبات، وليس المقصود من صيغة القصر "إنّما" هو حصر جميع المحرّمات التي نهى الله عنها -وهي أكثر مما عدّه السّياق هنا- وإنما المقصود هو بيان ما قد تلبّسوا به في واقعهم الجاهلي، على أن ما ذكره الله في هذه الآية يجمع أصول المحرّمات وهي:

أ)- **الفواحش الظّاهرة والباطنة**: وهي الأعمال المفرطة في القبح مما تستهجنه الفطر السّليمة والعقول النّيرة، وكون الفاحشة ظاهرة أو باطنة لتشمل كل الأعمال القبيحة التي يمارسها الإنسان بكيفيات مختلفة، تختلف أحوالها من جماعة إلى أخرى، وفق الوضعية الخلقية لتلك الجماعة، وهي كلّها تفضي إلى الإضرار بالإنسان في الجوانب المختلفة لصون حياته حسّا ومعنى، وقد اجتهد العلماء في تصنيف الفواحش الظّاهرة والباطنة على نحو ما تقدم بيان ذلك في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ (١٢٠). وقوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (١٥١).

ب)- **الإثم**: ويعني كلّ ذنب كبيرا وصغيرا، فهو أعمّ من الفواحش، وتقدم

الخاص على العام للاهتمام به طبعا، وأروع تعريف للإثم هو ما قاله رسول الله: «**الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطّلع عليه النّاس**»[1]. وتمحي الآثام الصّغائر إما بالتّوبة أو باتباعها بالحسنات، إذ قال تعالى:

- ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (النساء:٣١).
- ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤).

ج)- **البغي بغير الحق**: وهو الاعتداء على حق الغير، وتجاوز الحدّ في الفساد، ولذلك قيّد بصفة "غَيْرِ الْحَقِّ" لأن البغي لا يكون إلا بغير الحق، ومن أمثلة البغي المرويّ في أسباب النّزول هنا: ضربهم من يطوف بالبيت بثيابه إذا كان من غير الحُمس، وإلزامهم له أن لا يأكل غير طعامهم، ولا يطوف إلا في ثيابهم.

د)- **الشّرك بالله**: وهو أفدح الظّلم، وقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ بيان للواقع من شركهم القائم على التّعنّت والضّلال، ليس لهم عليه حجة من وحي ولا عقل، لأن أصول الإيمان والتّصورات العقدية لا تنبني إلا على الدّليل والبرهان من عقل أو وحي، قال تعالى في سورة يونس: ﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨).

ه)- **القول على الله بغير علم**: وهذا من أشنع الظّلم والفساد، إذ أن التّقوّل والافتيات على الله والرّسول هو أصل كل الضّلالات والبدع التي تفتن النّاس عن دينهم وتغرقهم في دوّامة من الفتن والصّراعات مما عانى به الإسلام قديما وحديثا.

والرّبط بين الشّرك بالله والكذب على الله له دلالته البالغة في هذا المقام، لأنّ

١- رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان، كتاب البرّ والصّلة، باب تفسير البر والإثم، حديث ٢٥٥٣، وأوله: «البرّ حسن الخلق...».

الذي يفتي بما لا يعلم ويتصدّى للتحليل والتّحريم بغير ما أنزل الله فقد أضفى على نفسه خصائص الألوهية، وما أوتي المسلمون في جوهر دينهم الصّحيح إلا من خلال المتفيقهين من هؤلاء الذين ينصبون أنفسهم رجالا للدين، والدين منهم براء، وحسبهم من وعيد الله قوله في سورة الزّمر: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٦٠). وقول رسول الله: **«من كذب عليّ متعمّدا فليتبوّأ مقعده من النّار»**.[1]

وبما أن هذه الآية الكريمة قد جمعت أصول المحرّمات مما تلبّس به أهل الجاهلية وهم لا يرعوون عن غيّهم جاء هذا الإنذار، إقامة للحجة، وإعذار لهم قبل حلول العذاب عليهم.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ اَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ اجَلُهُمْ لاَ يَسْتَاخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾: من دواعي الغفلة والتّمرّد عند الإنسان عدم قدرته على ربط حلقات الزّمان، الماضي والحاضر والمستقبل، ومن ثمّ يفقد أغلب النّاس عنصر التّأسّي بالماضي، أو الاستشراف إلى المستقبل، ولذلك يصبح التّذكير بسنن التّاريخ عنصرا هامّا في التّوعية والتّحسيس، فجاء ذكر عموم الأمم في هذا الوعيد ليذكّر مشركي العرب بما حصل للأمم التي كذّبت رسلها، لأنهم كانوا لشدّة كفرهم يتعجلون العقاب الذي كان الرّسول يتوعدهم به قائلين: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال:٣٢).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ اَجَلٌ﴾: تذكير بسنة الموت والحياة، وإن لكلّ منهما آجالا محدّدة في علم الله للجماعات والأفراد، وإذا كان موت الفرد مشاهدا معلوما فكيف تموت الأمة؟.

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، مقدمة الكتاب، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، حديث ٣.

فالأمم التي أبادها الله بعذاب الاستئصال الجماعي قد انطوت صفحتها من الوجود كما خبّر الله عنها، وقد انتهى عذاب الاستئصال ببعثة سيدنا محمد ﷺ، ولكن ذلك لا يمنع الأجل المقدّر عند الله لحياة الأمم بمعنى عزّها وكرامتها واستقلالها، ولموتها بمعنى مهانتها وذلّها وشقائها واستعبادها من طرف الأمم القوية كما حدث لشعوب ما يسمّى اليوم "العالم الثالث".

وقوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَاخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ بمعنى لا يتأخرون عن ذلك الأجل إذا حلّ بهم كما هو مقدّر في علم الله ولو أقلّ تأخير، ولا يتقدمون عنه إذا لم يجئ، والله أعلم.

خطاب الأمم على ألسنة الرّسل، وجزاء المؤمنين والمكذّبين

أ)- النص:

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾: "إمّا" مركبة من "إن" الشرطية و"ما" التي تفيد تأكيد الشرط. ﴿يَقُصُّونَ﴾: القصّ والقصص إتّباع الحديث بعضه بعضا. ﴿ءَايَاتِي﴾: أي الآيات التي أنزل الله على رسله لبيان الفرائض والأحكام.

ج)- البيان والتّفسير:

هذا النّداء الإلهي الرّابع يأتي بعد ذكر آحال الأمم والأفراد وأنها منضبطة في علم الله لا تتقدّم ولا تتأخّر، وتفرّع عليه بيان الجزاء بعد الموت وفق موقف كل أمّة من رسولها فقال جلّ من قائل: ﴿يَا بَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَاتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الخطاب عند كثير من المفسّرين لجميع الأمم قديمها وحديثها، قال القطب رحمه الله في التّيسير: "والخطاب عامّ، والمراد: رسل من جنسكم". ثم قال: "وفي الآية خطاب السّابقين، لاستحضار أحوالهم السّابقة كأنها مشاهدة، وفيها تغليب الحاضرين، وهم الأمّة هذه ونبيّها، أو أهل مكة والنّبي، أو يلتحق بهم غيرهم. ويجوز أن يراد بالرّسل سيّدنا محمد ﷺ تعظيما له، وأيضا الرّسل السّابقون نوّابه، وكأنهم كلّهم هو".[1]

قلت: إن النّداءات الأربعة الموجّهة إلى بني آدم تتكامل في رسم صورة حيّة لرحلة بني آدم من بدايتها في قصة النّشأة الأولى إلى نهايتها في دار القرار نعيمها أو جحيمها، وهي تتضمّن المبادئ الأساسية للتصوّر العقائدي في الإسلام ونظرته إلى الكون والحياة والإنسان.

فبعد بيان عهد الله لآدم وبنيه، وتحذيرهم من فتنة الشّيطان وبنيه، أعقب ذلك هنا ببيان مناهج الرّشد التي تجنّبهم مكايد الشّيطان، بأن بعث الله لخلقه رسلا من جنسهم يبلّغون إليهم أحكام الدّين وما شرعه الله لهم من أنظمة تضمن لهم خيري الدّنيا والآخرة.

﴿يَا بَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَاتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾: وآيات الله

١- محمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٥/٥١.

هي دلائل وجوده ووحدانيته، وقصّها بمعنى تلاوتها وبيانها لما تشتمل عليه من الأحكام والمعاني، وهي آيات الوحي المنزلة على رسله، ويجوز أن يراد بآيات الله ما يشمل المعجزات غير القولية مما أيّد به رسله.

﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: جواب الشّرط: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وتحقيق التّقوى في قلوب النّاس وإصلاح أوضاعهم الفاسدة هي الغاية المثلى لإرسال الرّسل، وهي محلى رحمة الله بعباده، ومناط عدله في محاسبتهم. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء:١٥).

والتّقى هي الدّرع الواقي من الآثام والفواحش، وإصلاح الأوضاع المتعفّنة في المعاملات والعلاقات الاجتماعية هي التي تحقق السّلم وتنشر الأمن والطّمأنينة: ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقد نفى الله الحزن والخوف في الدّنيا والآخرة عن أوليائه الصّالحين فقال جل من قائل: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ (يونس:٦٢-٦٣).

أما المكذبون المستكبرون فشأنهم الإعراض عن آيات الله وتكذيب رسله، فهم بذلك أولياء الشّيطان، وهم صائرون معه إلى النّار ماكثين فيها أبدا: **﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**.

والله أعلم

مشهد الاحتضار للمكذّبين،
والحوار بينهم وبين أتباعهم في النار

أ)- النص:

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾: يصبهم حظهم مما قدّر الله لهم في علمه من الخير والشرّ، بما في ذلك آجالهم وأرزاقهم. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾: أي حضور ملائكة الموت لقبض أرواحهم. ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾: أي فقدناهم وغابوا عنّا. ﴿ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾: أي تلاحقوا وأدرك بعضهم بعضا في النار. ﴿أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾: أخراهم: هم الأتباع المتأخّرون دخولا في النار، أو المتأخّرون منزلة أو زمانا. وأولاهم: هم الرؤساء المتبوعون. جيء بصيغة التفضيل خارجة عن

معناه. و"اللام" في ﴿لِأُولَاهُمْ﴾ بمعنى "في" أي في شأنهم، لأن كلامهم مع الله. ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾: أي مضاعفا بأمثال كثيرة منه، أي زائدة على ما لنا من العذاب، لأن الضعف في العربية لا يختصّ بالواحد، وقيل: هو في معناه كالزّوج، فيقتضي اثنين. ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾: أي نحن وأنتم متساوون في العذاب المضاعف.

ج)- البيان والتّفسير:

انتقل السياق إلى عرض مشهد رهيب من مشاهد القيامة حيث يتمّ جزاء الفريقين: الكافرين المستكبرين المكذبين بآيات الله ورسله، وجزاء المؤمنين المصدّقين الموفّين بعهد الله. وقبل البدء في تصوير المشهد تفرّع عما سبق من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ هذا الاستفهام الإنكاري: **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾**.

وأي ظلم هو أفدح ممن كذب على الله؟، من مثل قول الكفار: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ (الأعراف:٢٨)، أو كذّب بالآيات المنزّلة على رسله، وهم يعرفون أنها حقّ وصدق، وقد عجزوا عن الإتيان بمثلها، والحكم عامّ على كلّ من تحققت فيه هذه الصّلة "ممّن"، وإن كان المشركون العرب هم أولى من تحققت فيهم تلك الصّفة.

﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾: إشارة إلى أن هذا الفريق من المكذبين يصيبون حظّهم من الكتاب. وللمفسّرين احتمالان في معنى "الكتاب":

أ)- **القرآن**: ونصيبُهم منه هو ما تضمّنه من تهديد ووعيد في الدّنيا والآخرة.

ب)- **كتاب المقادير**: وهو علم الله الأزلي في تدبير شؤون ملكوته، ومنها

أعمال الخلق، وما قدّر الله من الأرزاق والأعمار لهم ومن الخير والشّر والشّقاء والسّعادة، وهو ما اختاره ابن عباس ﷺ، والمتبادر من الاحتمال الثّاني أن يكون المقصود من النّصيب الذي يناهم والمقدّر في علم الله هو ما يحصلون عليه في الدّنيا ويؤيّده قوله تعالى بعد ذلك: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾.

أي أن هؤلاء وإن كانوا من الظّالمين المكذبين فإنهم يستوفون ما كتب الله في حياتهم الدّنيا في المدّة التي حدّد الله بها آجالهم، وهي المدّة التي يملكون فيها حق الكسب والاختيار في ما يقومون به من أعمال. وينتهي ذلك بحضور ملائكة الموت لقبض أرواحهم، وهو موقف رهيب، موقف النّزع والاحتضار لهؤلاء المكذّبين. وقد صوّره الله تعالى في أفظع صورة فقال جلّ من قائل في سورة محمد: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٢٧-٢٨). وبحضور ملائكة الموت يشرعون في استنطاقهم ويدور بينهم هذا الحوار:﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

إنه السّؤال التّهكمي والاستفزازي حال قبض أرواحهم بتلك المعاناة الرّهيبة، والتي تجمع بين الإيلام الجسديّ والإيلام النّفسي، لأن الذي يعاني من شدة ورهق هو في أمسّ الحاجة إلى السّند المعين ليستأنس به، وهؤلاء ما كانوا يتأهّبون لذلك الموقف حين عبدوا من دون الله ما لا ينفعهم عند الشّدة والضّيق، ولذا جاء جوابهم إقراراً بما كانوا عليه من الكفر بالله: ﴿**قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ**﴾.

إنه جواب حيرة وتيه بفقدان آلهتهم عند الموت وعند الحشر. واختيار فعل: "ضَلُّوا عَنَّا" لإفادة بلاهتهم وحمقهم في التماسهم الهداية ممن هو في حدّ ذاته ضالّ.

وللقطب ملحظ دقيق في جواب "إذا"، يقول رحمه الله: "يجوز أن يكون جواب "إذا" إمّا على أنه عند الموت كأنه قيل: أين ما كنتم تدعون فيدفعون عنكم الموت وشدته؟، قالوا: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾، كما يقولونه بعد البعث أيضا، وإمّا على أن ما بين الموت والحشر كالزّمان الواحد".[1]

﴿قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالانسِ فِي النَّارِ﴾: الضّمير في "قَالَ" عائد إلى الله، تخلّل الحوار. وهم يعلمون أنه من قبل الله بكلام يسمعونه، أو بواسطة أحد ملائكته، إنه أمر بوعيد الدّخول إلى النّار مع الأمم السّابقة التي اختارت مثلهم طريق الكفر والضّلال من الجنّ والإنس.

وقوله تعالى: ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ﴾ أي بمعنى "مع"، أي أنتم وإياهم في حالة واحدة من عذاب النّار، والتّعبير بالماضي لإفادة تحقق الوقوع.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَ تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾:

لقد انطوى من السّياق ذكر أحداث ومراحل اليوم الآخر، ما بين الوفاة والاستقرار في دار النّعيم أو دار الشّقاء -والعياذ بالله-، أي أحداث البعث والنّشور ثم موقف الحشر والحساب، فإذا كانت البداية شقية مرعبة كما صوّرها النّص في الاحتضار وعذاب القبر، فإن النّهاية الشّاقّة هي متيقنة عند هؤلاء كما ثبت في الحديث الشّريف، أي أن الميّت يرى مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النّار يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله. وفي

١- أحمد بن يوسف أطفيش، تيسير التفسير، ٦/٥٤.

الحديث: «القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار».[1]

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾: وكما يقال: الكفر ملّة واحدة، وبئست المماثلة في الكفر والضّلال، لحمتها النّكران والقطيعة وسداها الشّتم واللّعن، وهكذا تتلاحق أفواج الظّلمة الكفّار في طبقات جهنّم بوجوه مسودّة وفي ملاحاة وخصام.

﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾: بعد أن يتمّ الحساب ويتميّز المهتدي من الضّال، يؤمر بإدخال الضّالّين النّار، وقد تبيّن لهم ضلالهم الذي كانوا عليه، فهم يكرهون الذين أضلّوهم.

ويصوّر المشهد أفواج الضّالّين المغضوب عليهم وهي تترى في الدّخول إلى جهنّم، فمنهم سابقون ومنهم لاحقون. وللمفسّرين احتمالان في معنى الأولى والأخرى:

أ)- حمل الأولى على الرّؤساء المتبوعين والأسياد المضلّين لأتباعهم: وأيدوا هذا المعنى بما ورد في مواضع أخرى من القرآن كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (١٦٦). وقوله في سورة الأحزاب: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا، وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (٦٦-٦٨). وأشدّها شبها بهذه الآية ملاحاةً وخصاما بين الظّلمة آيات سورة سبأ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ

١- رواه الترمذي من حديث طويل لأبي سعيد، كتاب صفة القيامة، حديث ٢٤٦٠، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه.

اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ، وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣١-٣٣).

ب)- حمل الأولى والأخرى على المتقدمة في الزّمان والمتأخرة فيه: وذلك لما تفيده أداة "كُلَّمَا" من معنى التوقيت، وبما أن قول الأخرى متوجّه إلى الله تعالى، فإن "اللام" في ﴿لِأُخْرَاهُمْ﴾ تكون بمعنى في شأن أخراهم.

والله أعلم

جزاء المجرمين الظّالمين المكذبين بآيات الله

أ)- النصّ:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: أي الآيات المتلوّة أو الصّامتة أو هي المعجزات المؤيدة لرسل الله. ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾: لأعمالهم ولا لأرواحهم، وهو كناية عن

الرّفض وعدم القبول. ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾: تشبيه لاستحالة دخول شيء ضخم في ثقب ضيّق. يلج ولوحا: يدخل. والجمَل: بالتّحريك هو البعير البازل. ولهذا اللّفظ قراءات أخرى كسكون الميم. وقيل: هو الحبل الغليظ كحبل السّفينة. ﴿سَمِّ الْخِيَاطِ﴾: أي ثقب الإبرة. ﴿مِهَاد﴾: فراش. ﴿غَوَاشٍ﴾: جمع أغشية أي الغطاء. والمهاد والغواشي استعارة لما يحيط بهم من العذاب من كل الجوانب.

ج)- البيان والتّفسير:

تأكيدا للوعيد السّابق الموجّه للمكذبين بآيات الله، أخبر الله تعالى في هذه الآية بنوع آخر من الجزاء لهم فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾:

التّوجّه نحو السّماء للاستغاثة أو طلب العون والنّصر والنّجاح أو لكلّ ما يرتجيه الإنسان من جلب نفع أو دفع ضرّ هو مودع في فطرة الإنسان حتى وهو كافر عنيد. ذلك لأنه مهما انحرف في معتقده، فهو لا يستطيع أن يكبت في نفسه صوت الفطرة. سيما عند الضّيق والشّدة. وقد صوّر القرآن تلك النّوازع الفطرية في كثير من الآيات فقال جلّ من قائل في سورة الأنعام: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٦٣-٦٤).

ومشركو العرب -وهم مندرجون في هذين الوصفين بكونهم مجرمين ظالمين- هم ممن يؤمن بوجود الإله، وهم يعتقدون أن النّفع والضّرّ منه تعالى، غير

أنهم يتخذون من أصنامهم شفعاء لهم عند الله، وهو تصوّر فاسد جاء الإسلام لتصحيحه، فالسّماء المقصود بها هنا الخظائر القدسية الإلهية من عالم الرّوحانيات، مستودع الخيرات والبركات، والأرزاق العاجلة في الحياة الدّنيا، والنّعيم الآجل في الحياة الأخرى، قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذّاريات:٢٢).

وقال: ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ﴾: فقرأ نافع وابن كثير وعاصم وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بضم التّاء الأولى وتشديد الثّانية من "فتّح" المزيد بالتّضعيف للمبالغة، وقرأ الباقون بضمّ التّاء وسكون الفاء، وقرأ حلف "لا يُفتح" بمثناة تحتية، أي تذكير الفعل.

وأبواب السّماء هي مسالك وصول الأمور الخيرية الصّادرة من أهل الأرض، أو المقادير المقدرة في علم الله لتدبير شؤون الخلق، الله أعلم بحقائقها، وإنما هي تمثيل لمألوف النّاس في طرقهم لأبواب الملوك والأمراء لقضاء حاجاتهم.

فهؤلاء المكذّبون المستكبرون هم محرومون من فيوض الخيرات الإلهية، إن من قبول أدعيتهم، وتزكية أعمالهم، أو من رفرفة أرواحهم في الخظائر القدسية بعد الموت، وذلك لا يمنع انتفاع أجسادهم بالنّعم المادية في الحياة الدّنيا بدليل جواب الله على دعاء إبراهيم عندما دعا ربّه أن يرزق ذريته من الثمرات فقال تعالى حكاية عنه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً ءَامِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ... وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:١٢٦).

ذلك حالهم في الحرمان الرّوحي بحياتهم الدّنيا، وأما مصيرهم في الحياة الأخرى فهو حرمانهم من دخول الجنة، وقد جاء التّعبير في غاية من البيان والتّصوير: ﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾.

تأكدت استحالة إمكان دخولهم الجنة بهذه الصّورة التّمثيلية المأخوذة من

البيئة الصّحراوية مما هو معروف مشاهد عند النّاس، لأن الجمل هو أضخم حيوان عرفه العرب في بيئتهم، كما أن ثقب إبرة الخياطة يصوّر أضيق المسالك. فكما يستحيل دخول الجمل في ثقب الإبرة، فيستحيل دخول هؤلاء المجرمين الجنة.

وليت عقابهم ينتهي بحرمانهم دخول الجنة، وذلك الجزاء سببه إجرامهم بالتكذيب والاستكبار كما يفيده التّذييل بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾، بل للإخبار بخلودهم في النّار أعقب الله ذلك بقوله: **﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾**.

إنه أسلوب التّهكّم والسّخرية، لأن الإنسان عندما يضطجع للراحة فلا بد له من فراش ليّن يضع عليه جنبه، ومن غطاء يقيه الحرّ والبرد، فإذا كان الفراش والغطاء من النّار فأيّ عذاب يكونون فيه؟ والنّار محيطة بهم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ، يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت:٥٤-٥٥).

ثم التّذييل: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ فتحقق فيهم وصف الإجرام والظّلم، والظّلم هو الشّرك بالله، وقد وصف الله به الكافرين فقال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة:٢٥٤).

وللقطب -رحمه الله- ملحظ دقيق في التّذييل بالوصفين قال: "سمّاهم ظالمين ومجرمين لظلمهم وإجرامهم، إلا أنه ذكر الإجرام في حرمان الجنة، والظّلم في دخول النّار، لأن الظّلم أعظم الإجرام، والإجرام أعمّ منه، وحرمان الجنة بلا عذاب -لو كان ذلك- هو أهون من العذاب مع حرمانها".[1]

قلت: إن أعظم ما يبتلى به المجرم الفاسق المصرّ على فسقه وإجرامه هو أن

١- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٥/٥٩.

تنبتر صلته برحمات السّماء، فيدعه الله لنفسه يتخبّط في مشاكله، لا يكاد يجد له منها مخرجا، ويتمادى في ذلك حتى ينسيه الله حق نفسه بله حقوق الآخرين، بينما يجد المؤمن في نفسه راحة البال وبرد اليقين مهما ضاقت به السّبل واستحكمت الأزمة، إذ تدركه الألطاف الرّبانية فإذا بالأزمة تنفرج، وإذا بالمولى تبارك وتعالى ييسّره لليسرى ويرزقه من حيث لا يحتسب. وصدق مولانا عندما وعد رسوله بأنه ييسّره لليسرى ومن حلاله يعد كل المؤمنين المؤقين بذلك فقال جلّ من قائل: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ، فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ، فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ، فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (اللّيل:٤-١٠).

يسّر الله لنا الأسباب وفتح أبواب السّماء.

والله أعلم

جزاء المتقين في الجنة لا ينغصه غلّ ولا حقد

أ)- النص:

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ۖ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُو۟رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وُسْعَهَا﴾: الوُسْع: ما يطيقه الإنسان من العمل في الأحوال العادية، لا في

وقت الشّدة والضّيق. ﴿وَنَزَعْنَا﴾: النّزع: قلع الشّيء من موضعه. ﴿غِلٍّ﴾: الغلّ: الحقد والضغن الذي يحصل في النفس عند إدراكها ما يسوؤها من عمل غيرها وهو غير الحسد، إذ الحسد هو إحساس باطني يتمنّى به إزالة النّعمة عن المحسود. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾: أي إن قصورهم تشرف على الأنهار من أمكنة عالية وهو منظر جميل من مناظر الطّبيعة الرّائعة. ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾: من الإرث، وحقيقته مصير مال الميّت إلى أقرب النّاس إليه.

ج)- أوجه القراءة:

قرأ ابن عامر: ﴿مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ بدون واو، فتكون الجملة مفصولة عن التي قبلها، وقرأ الباقون بالواو. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾: معطوفة على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا﴾، من عطف البشارة على النّذارة. ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً الاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: اسم الإشارة مبتدأ ثان. ﴿وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾: خبره، والجملة من المبتدأ والخبر هي خبر عن ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. وجملة: ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً الاَّ وُسْعَهَا﴾ جملة معترضة بين المسند والمسند إليه. وجملة: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ في موضع الحال. وجملة: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ في موضع الحال من الضّمير المنصوب: ﴿هَدَانَا﴾.

د)- البيان والتّفسير:

بعد الوعيد للأشقياء المستكبرين جاء العطف بالوعد للأتقياء الأوفياء فقال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً الاَّ وُسْعَهَآ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**: وصف الله الأتقياء بالإيمان والعمل الصّالح، مقابلة لوصف الأشقياء في الجملة السّابقة بالتّكذيب والاستكبار، فيكون العمل الصّالح من الذين آمنوا ترجمة صادقة لإذعانهم وإسلام وجههم لله بامتثال أوامره

واجتناب نواهيه على قدر استطاعتهم، لأن الله تعالى لا يكلّف نفسا إلا وسعها، وما جعل علينا في الدّين من حرج.

وقد نعت الله الإنسان بالقصور والضّعف، ربما لا يستطيع الوفاء بحق الجنة، بل لا يستطيع الوفاء بحق نعمة واحدة من النّعم التي أنعم الله عليه بها في الدّنيا، غير أنه كتب على نفسه الرّحمة، فهو يزكّي له ذلك العمل الصّالح المقرون بالإيمان الصّحيح والنّية الصّادقة، وهو يقبله ويباركه ثم ينميّه بفضله ورحمته، فيصير مستحقا لنعيم الجنة مختصّا بها في زمرة المتقين الأصفياء.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لله الذي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾:

إذا كان الإنسان يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، كما ورد ذلك في الحديث والآثار، فإن الحياة الدّنيا يفتتن فيها النّاس بما تنطوي عليه نفوسهم من مختلف الأمراض التي يصفها العلماء -بدباغ السّوء- ومن أضرّها وأشدّها إفسادا للروابط الاجتماعية الغلّ والحسد، فإذا كان الإيمان ضابطا ورادعا للمؤمن من شأنه أن يقلّل من شرورهما في سلوكه ومعاملاته، فإن الطّبيعة البشرية لا يمكن أن تنمحي منها كلية آثار الغلّ والحسد، ومن تلك البقايا تكون بعض المنغّصات.

ولضمان الرّاحة الأبدية وتوفير كمال السّعادة للذين آمنوا في نعيم الجنة، فإن الله تعالى حلّت قدرته ينزع ما في قلوبهم من غلّ، فلا شحناء ولا بغضاء، ولا تباغض ولا تدابر، على عكس أهل النّار في تباغضهم وتلاعنهم. وقد جاء في صحيح الحديث أن الأتقياء يتواجذون الظّلامات عند باب الجنة، فلا يحقد أحد على أحد فيدخلوها، تزيدهم متعة جريان أنهار الجنة من تحت أرجلهم وهم في

غرفاتها آمنون، وتجري على ألسنتهم عبارات الحمد والثناء لله تعالى أن هداهم للأخذ بأسباب ذلك الجزاء الأبدي للإيمان الصحيح والعمل الصالح، وذلك بتصديقهم لرسل الله في ما جاؤوا به من الحق، إذ وجدوا ما وعدوهم به حقا.

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: وهذا النداء القدسي إمعان في تكريمهم عند الله والملائكة والناس، وحين يجتمع التكريم الحسي والمعنوي يكون كمال اللذة والنعيم. وإيراثهم الجنة بعملهم لا ينافيه قول رسول الله ﷺ: «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، بل بفضل الله ورحمته**».[1]

يقول قطب الأئمة في تيسير التفسير: "وانقسام الدرجات بالأعمال، لأن المعنى أن العمل لا يوجبها، ولكن جعله الله سببا عاديا وعلامة، وينقل عن ابن حجر قوله: المنفيّ في الحديث دخولها بالعمل المجرّد عن القبول، والمثبت في الله دخولها بالعمل المتقبل والقبول فضل من الله".

وللقطب أيضا معنى لطيف في "الإيراث" يقول: " ذكر الله الإيراث، لأن الحيّ يرث الميّت والمؤمن حيّ والكافر ميّت: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ (سورة الأنعام:١٢٢)" جعلنا الله من المنعمين بالجنة.

والله أعلم

١- رواه البخاري بلفظ قريب من حديث أبي هريرة، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، حديث ٥٣٤٩.

التّنادي بين أصحاب الجنة وأصحاب النار وأصحاب الأعراف

أ)- النص:

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَجَدْنَا﴾: الوجدان: إلفاء الشّيء ولفتُه، ويتعدّى إلى مفعول واحد، وقد يستعمل في الإدراك والظّن مجازا. ﴿وَعَدَ﴾: يعد وعدا، والوعد يشمل الخير والشّرّ على الأصحّ، والوعيد خاصّ بالشّرّ، وفي التّعبير بالوعد في الشّرّ تهكّم واحتقار. ﴿فَأَذَّنَ﴾: والتّأذين: رفع الصّوت بالكلام رفعا يسمع البعيد قدر الإمكان. ﴿لَعْنَةُ﴾: اللّعنة: الطّرد من رحمة الله مع الإهانة والخزي. ﴿عِوَجًا﴾: العوج: ضدّ الاستقامة، وهو بفتح العين في المحسوسات وبكسرها في المعنويات. ﴿الْأَعْرَافُ﴾: جمع عُرف، وهو أعلى الشّيء، ومنه عُرْف الفرس والديك، وعبّر عنه في سورة الحديد بـ"السور" قال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ

وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد:١٣). ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾: السّيما: بالقصر، أي العلامة تكون بياضا على وجوه المؤمنين وسوادا على وجوه الكافرين. ﴿تِلْقَاءَ﴾: مكان وجود الشّيء.

ج)- حول مبنى النص، وأوجه القراءة:

قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وقنبر عن ابن كثير: ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ﴾ بتخفيف النون، على أنها تفسيرية لفعل: ﴿أَذَّنَ﴾. وقرأه الباقون بتشديد النون وبنصب ﴿لَعْنَةَ﴾ على أن الجملة مفعول لـ"أَذَّنَ" لتضمّنه معنى القول. ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾: جملة معطوفة عطف قول على قول على جملة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾، وإما عطف قصة على قصة على جملة: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾. ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾: الاستفهام مستعمل مجازا مرسلا، ووجد يتعدّى إلى مفعول واحد ويغلب أن يذكر مع المفعول حاله. ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾: التعبير بالظّالمين تعبير لهم بوصف جرى مجرى اللّقب، كما يقال "المؤمنون" لأهل الإسلام، وإما إجراء الصّلة عليهم بالفعلين المضارعين "يصدون" و"يبغونها" لقصد ما يفيده المضارع من تكرّر حصول الفعل تبعا لمعنى التّجدّد، والمعنى وصفهم بتكرّر ذلك منهم في الزّمن الماضي، وهو معنى قول علماء المعاني: استحضار الحالة. ووصفهم بالكفر بطريق الجملة الاسمية: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ للدّلالة على ثبات الكفر فيهم وتمكّنه منهم.

د)- البيان والتّفسير:

كثيرا ما يرد في القرآن الكريم تفاخر أهل الجنة وتخاصم أهل النّار، أو تذكر المناظرات التي تجري بين الفريقين بعد استقرار كل منهما في مقرّه من الجنة أو

النّار، ولا يمنع بعد المسافة بينهما من أن يقلّص الله تلك المسافة أو أن يخلق بين الفريقين أسباب الاتصال لمثل ذلك التّحاور، فإذا كان الإنسان مع محدودية قدرته قد تمكّن من ذلك في الدّنيا بوسائله التّكنولوجية فكيف بخالق الإنسان -وهو القويّ القدير-؟. على أن العالم الأخرويّ تختلف أحواله عمّا في الدّنيا لأنه كما قال تعالى نشأة أخرى يعبّر القرآن عن بعض أحواله بالمتعارف لدينا في الدّنيا لتقريب المعنى ليس إلاّ.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ﴾:

أخبر الله تعالى بأن التّنادي يحصل بين ثلاثة فرقاء: أصحاب الجنة، أصحاب النّار، وأصحاب الأعراف. أما وسيلة ذلك وكيفيته فعلمه عند الله، ويتمّ بقدرة الله الذي يعلم السّرّ وأخفى. وعندما يتواجه فريقان مختلفان في حظّهما وعاقبتهما، وقد سبق بينهما تلاوم وخصام في اتّباع سبيل الرّشد أو الغيّ، فإن الفريق الذي اهتدى إلى الجنة يكون في موقف التّبكيت والتّقريع وفي موقف التّحسير والشّماتة بالخصم: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾؟.

وفي مضمون الجملة التّفسيرية لنداء أصحاب الجنة بحقّيّة وعد الرّبّ في ما وعدهم به تعبير عن فرط سعادتهم بالفوز الذي أحرزوه، والذي بلغوا إليه بتصديقهم لرسل الله. وفي اغتباط الفائز وتبجّحه بفوزه أمام الفاشل الخائب تنغيص له وتورّك عليه، سيما وقد اعترف هؤلاء -أي أصحاب النّار- بتحقيق وعيد الله: ﴿قَالُوا۟ نَعَمْ﴾، فهو جواب إقرار وتحسّر.

وإمعانا في زيادة التّقريع والتّوبيخ لهؤلاء يتلقون نداء المؤذّن من قِبَل الله بأنهم مطرودون من رحمة الله في مهانة وذلّ، لما وصفوا به من الظّلم لأنفسهم ولغيرهم: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّٰلِمِينَ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾.

وقد اختلف المفسّرون في من هو ذلك المؤذّن الذي يعلن اللّعنة على الظّالمين فقال ابن عبّاس هو صاحب الصّور إسرافيل عليه السلام، وقيل: مالك خازن النّار، وقيل: ملك من الملائكة يأمره الله بذلك. ووصف أصحاب النّار بالظّالمين على اعتبار أن الشّرك بالله هو أفدح الظّلم: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣). ويبيّن ذلك وصفهم بالصدّ عن سبيل الله وبغيهم أن تكون سبيل الله عوجا غير مستقيمة يقول الإمام ابن عاشور: "وإنما عرّفوا بتلك الأحوال الماضية لأن النّفوس البشرية تعرّف بالأحوال التي كانت متلبّسة بها في مدّة الحياة الدّنيا، فبالموت تنتهي أحوال الإنسان فيستقرّ بما عاشت عليه. وفي الحديث: «**يبعث العبد على ما مات عليه**».[1] ويجوز أن تكون هذه اللّعنة كانت الملائكة يلعنونهم بها في الدّنيا، فجهروا بها في الآخرة، لأنها صارت كالشّعار للكفرة ينادون بها".[2]

قلت: إن لبغي الظّالمين أن تكون سبيل الله عوجا صورا كثيرة في العقيدة والسّلوك شوّهت حقائق هذا الدّين وجرّدته من قيمه الحية النّابضة مما أفقده تلك القوة التي تجعل من المسلم إنسانا متميّزا لا يعتزّ بغير مولاه ولا يدين لسواه. وهؤلاء أصبحوا أعظم خطرا من أولئك الأعداء الذين يطعنون في كتاب الله وصدق رسوله جهرا.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ، وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

١- رواه مسلم من حديث الأعمش عن جابر بن عبد الله، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث ٢٨٧٨.

٢- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٣٩/٨.

ضمير "بينهما" يرجع إلى الفريقين أصحاب الجنة وأصحاب النّار، يفصل بينهما هذا الحجاب، وقد سمّاه الله تعالى "سورا" في قوله بسورة الحديد: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾، وأعالي ذلك السّور هي الأعراف.

نحن في هذه الآيات بأزاء مشهد من مشاهد القيامة، لا نملك فيها إلا الإيمان الخالص بما أخبر الله به في شأنها دونما محاولة لتشخيصها بما نألف ونشاهد، لأن أحوال الآخرة هي من عالم الغيب التي استأثر الله بعلمها، وأن الحياة الآخرة هي نشأة أخرى، كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠).

وللعلماء آراء مختلفة في تفسير معنى الحجاب والأعراف وأصحابها، نظرا لما اعتمدوه من التّفسير النّقلي، أو بعض الأحاديث المروية في هذا الشّأن. غير أن العلماء المحدثين لهم ترجيحات مفيدة لها ما يسندها من آيات القرآن الأخرى، ومن هؤلاء العلماء الشّيخ محمود شلتوت إذ يقول في تفسيره "تفسير القرآن الكريم" للأجزاء العشرة الأولى، يقول: "وقد تكلم العلماء في هذا المقام كثيرا: تكلّموا في الحجاب الذي بين الجنة والنّار، وتكلّموا في الأعراف ورجاله، وكان لهم في ذلك آراء وصلت فيما كتب المفسّرون إلى اثني عشر قولا". وبعد أن ذكر بعض تلك الأقوال بيّن رأيه المختار في الحجاب والأعراف فقال:

"والذي يجب علينا أن نقف عنده هو: أن هناك حجابا بين الجنة والنّار، قد يكون ماديا، وقد يكون معنويا، والله أعلم بحقيقته، والمقصود أن بين الجنة والنّار ما يحجز بين الفريقين، وأن هذا الحجاب الحاجز لا يمنع من وصول الأصوات عن طريق المناداة، وأن هناك مكانا -أو مكانة- له صفة الامتياز والعلوّ، وأنه يكون على هذا المكان رجال لهم من المكانة ما يجعلهم مشرفين على هؤلاء وهؤلاء،

ينادون كلّ فريق بما يناسبه: يحيّون أهل الجنة، ويبكّتون أهل النّار".

وعند الترجيح قال: "وليس أصحاب الأعراف ممن تساوت حسناتهم وسيئاتهم كما جاء في بعض الأقوال، لأن ما نسب إليهم من الأقوال لا يتفق مع انحطاط منزلتهم عن أهل الجنة. أنظر قولهم للمستكبرين: ﴿أَهَٰؤُلَآءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ (الأعراف:٤٩). فإن هذا الكلام لا يصدر إلا من أرباب المعرفة الذين اطمأنوا إلى مكانتهم. أما قوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فليس حديثا عنهم، ولكن عن أهل الجنة. ولذلك أرجّح أن رجال الأعراف هم عدول الأمم والشّهداء على النّاس، وفي مقدمتهم الأنبياء والرّسل. وقد جاء التّصريح بهؤلاء في كثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ (النساء:٤١). ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣).

ثم يعلّق الشّيخ بعد ذلك ليبيّن المنهج السّليم في مثل هذه الغيبيات فيقول: "والمنهج السّليم هو الإيمان بالغيب على ما جاء وفي حدود ما جاء دون تزيّد أو محاولة لقياس الغائب على الشّاهد، ولا يجب الإيمان في ذلك إلا بما صحّ وأفاد العلم من كتاب أو سنة".[1]

قلت: ولقطب الأئمة -رحمه الله- تعليق في تفسير هذه الآية: "وقد بدأ برأي الجمهور في رجال الأعراف أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، ومعهم نورهم وقفوا بين الجنة والنّار على الأعراف، قال: "واعتبار الحسنات والسيئات أو الزّيادة مذهب قومنا والمشارقة، وأما المغاربة فلا يعتبرون ذلك بل إن مات تائبا بطلت سيئاته كلّها ولو كنّ أكثر، أو مصرّا بطلت حسناته ولو كنّ أكثر، وما مانع من أنهم ماتوا تائبين ولكن حبسوا لاستوائهما، إلا إن صحّ أنهم آخر من

١- محمود شلتوت، تفسير القرآن العظيم، ٤٩١-٤٩٥ (بتصرف).

يدخل الجنة، فإنه من قلّت حسناته ومات تائبا أحق بالتأخير".[1]

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ﴾: خوّل الله هؤلاء معرفة أهل الجنة وأهل النار، إذ لكل فريق علامات يعرف بها كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ، ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (عبس:٣٨-٤٢). وبقطع النظر عن تحديد صنف رجال الأعراف، فإنهم في موقف قد تبيّن فيه الخبيث من الطيّب بما أفرزته عملية الحساب، فهم يكرّمون أهل الجنة، إذ عرفوهم بسيماهم، فينادونهم بالتحية والسّلام، على اعتبار ما يكون من مصيرهم من دخول الجنة. وكلّ من أصحاب الأعراف ورجال الجنة ما يزال بين الخوف والرّجاء: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، فتكون تلك التحية لأهل الجنة بشارة لهم لدخولها بإذن الله، وفي ندائهم وتسليمهم على أهل الجنة دليل على ميلهم وتوجّههم لأهل النعيم، بينما هم أزاء أهل النار يلوون عنهم أبصارهم بغضا وكرها، حتى إذا صرفوها تلقاءهم عن غير قصد ولا رغبة بادروا بالدّعاء إلى الله أن لا يجعلهم في عدادهم، لأنهم قوم ظالمون، فهم كارهون لهم مستفظعون لمآلهم: ﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف:٤٧)، والله أعلم.

تبكيت أصحاب الأعراف لأهل النار، واستغاثة هؤلاء بأصحاب الجنة

أ)- النص:

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ

١- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير.

بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿رِجَالًا﴾: أي من الكفرة من الأمم. ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾: "ما" نافية، أو استفهامية توبيخية، و"جمعكم" للمال أو للأتباع. ﴿أَهَٰؤُلَاءِ﴾: إشارة من أصحاب الأعراف إلى ضعفاء المسلمين الذين كان الكفار يعذبونهم في الدّنيا ويقسمون أنهم لا يدخلون الجنة. وذكر المفسرون منهم بلالا وصهيبا الرّومي وسلمان الفارسّي ﷺ. ﴿أَفِيضُوا﴾: الإفاضة صبّ الماء، ثم استعمل في الشّيء الكثير. ﴿عَلَيْنَا﴾: الإفاضة على الشّيء تكون مما فوقه أو مما معه. ﴿حَرَّمَهُمَا﴾: بمعنى منعهما. ﴿نَنسَاهُمْ﴾: نتركهم في النّار، كما يبعد حضور ما زال عن الحافظة، وهي تمثيل، وتعالى الله عن صفات الخلق. ﴿يَجْحَدُونَ﴾: ينكرون.

ج)- البيان والتّفسير:

ما يزال مشهد الحوار والتّنادي متواصلا بين الفرقاء الثّلاثة: أصحاب الجنة وأصحاب الأعراف وأصحاب النّار.

فعلى تلك الالتفاتة المرغوب عنها من أصحاب الأعراف لأصحاب النّار، فهم ينادون رجالا من الكفار كانوا يعرفونهم في الدّنيا وعليهم علامات الكفر بسواد وجوههم وشوه خلقتهم، أو أنهم يعرفونهم بعلامات ذاتية تميّزهم عن

غيرهم، كأبي جهل وأبي لهب وأبي الوليد من كفّار هذه الأمة ممن كانوا يعذّبون الفقراء من المؤمنين ويسخرون منهم عندما يبشرهم القرآن بالجنة، ويعبّر ذلك النّداء عن التوبيخ والتّقريع، إذ لم يفدهم كبرهم ولا غناهم ولا حشدهم للأعوان والأتباع. ثم يشير أصحاب الأعراف إلى فريق من أهل الجنة، وهم المستضعفون من المؤمنين فيسألون الكفار سؤال تقريع: ﴿أَهَؤُلاَءِ الذينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ﴾؟، لأن الكفار كانوا يعتقدون أن غناهم ومنزلتهم الاجتماعية تجعلهم كذلك في الآخرة -على فرض وجودها في زعمهم-.

وقد تردّد في القرآن هذا المعنى على لسان هؤلاء المستكبرين، فقال تعالى حكاية عن صاحب الجنّتين في سورة الكهف: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا، وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهُمَا مُنقَلَبًا﴾ (٣٥-٣٦).

وقال في سورة سبأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ، وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(٣٤-٣٥)

لقد أخطأ هؤلاء وضلّوا في اعتقادهم بأن معايير التّفاضل في الآخرة هي التي كانوا يتطاولون بها في الدّنيا من جمع الأموال والأتباع، فكان هذا التّأنيب لهم من أصحاب الأعراف -وهم يشيرون إلى مستضعفيهم في الدّنيا- كان ذلك إمعانا في الشّماتة بهم وتوقيفهم على خطئهم في التّقدير، وهم يرون أولئك المستضعفين في الجنة يتنعّمون.

﴿ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾: بتقدير فعل "قيل" حذف لدلالة السّياق عليه، والتّقدير: قال لهم الله ، أو قالت ملائكة الله. وقيل: إن أصحاب الأعراف هم الذين يقولون ذلك القول كما قيل: إن الأمر بدخول الجنة لأصحاب الأعراف. غير أن الأرجح -والله أعلم- أن التّقدير الأول هو الأنسب

بالسياق وأشدّ إكراما لأولئك المستضعفين، وأكثر إيلاما لأولئك المستكبرين سيما إن اعتبرنا أن الأمر في قوله تعالى: ﴿ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ﴾ للدّعاء، كما رجّح ذلك بعض المفسّرين.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُواْ إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ، الذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾:

مادة الفيض تفيد معنى الكثرة، وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ أي من طعام وغيره، فيجوز استعمال فعل: ﴿أَفِيضُواْ﴾ في معناه المجازي لمعنى التّفضّل والسّخاء من أهل الجنة، يستحديهم أهل النّار، وليس لهم من الماء إلا الحميم، ومن الطّعام إلا الضّريع. وهي استغاثة تصوّر حالة أهل الجحيم، في الشّقاء والعذاب الأليم، يستغيثون وهم يعلمون أن لا مغيث، ولكنه تصوير مهيب لحيرتهم في أمرهم وتعاستهم، واللّهفة إلى الماء عند العطشان هي أنكى أنواع العذاب، فكان الماء أول ما يطلبون. ولذلك اعتبر رسول الله سقي الماء أفضل الصّدقة، ثم قرأ هذه الآية الكريمة. ﴿قَالُواْ إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أي قال أهل الجنة لأهل النّار.

والتّحريم هنا بمعناه اللّغوي وهو المنع من الحصول على المطلوب من الماء والرّزق، كما حرّم الجنة على الكفار في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (المائدة:٧٢). ووصف الكافرين المحرومين من الجنة بوصفين:

أ)- اتخاذ الدّين لهوا ولعبا.

ب)- الغرور بالحياة الدّنيا.

اللّهو: هو ما يشغل الإنسان ويصرف همّه عن الجدّ والأعمال المفيدة،

واللّعب: طلب الفرح بما لا تقصد منه فائدة صحيحة كلعب الأطفال. والدين في حقيقته الصّحيحة إنما يطلب به ما يزكّي النّفس ويهذّب الخلق ويطهّر السّلوك. ولا تكون له هذه الفعالية في الأفراد والجماعات إلا إذا طبّقت أحكامه على الوجه الأكمل كما شرعها الله، لا أن يكون طقوسا باهتة وصورا ميّتة لا توقظ ضميرا ولا تحيي نفسا، أو أن يبقى حبيس المساجد والمعابد، بعيدا عن واقع الحياة ومجالاتها الحيوية كما يريده اليوم الماديّون العلمانيون، فهؤلاء وأشياعهم مندرجون في هذا الوعيد ممن اتخذوا دينهم هوا ولعبا.

وكم من صور ابتدعها هؤلاء للعبث بدين الله لاستغلال السّذّج من الدّهماء، إذ يلبسون لكثير من المناسبات والأعياد لباس الدّين، أو يقيمون حفلات خليعة بدعوى التّضامن والقيام بأعمال الخير ...إلخ. وقد أخذت هذه الظّواهر المنحرفة عن دين الله أشكالا وصورا مختلفة، يملي لها شياطين الإنس والجنّ، وتسندها أنظمة سياسية لتدعيم حكمها وهي لا تؤمن بدين ولا تقرّ بفضيلة.

﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: "اليوم" هو يوم الجزاء، والتّقدير: قال الله، والنّسيان هنا بمعناه المجازي كناية عن الإهمال والترك، إذ يخطئهم توفيق الله وعونه ويكلهم إلى أنفسهم وما اختاروه لها، فلا تناهم رحمة الله في يوم هم في أشد الحاجة إليها، وهو جزاء وفاق مماثل لجنس عملهم بما نسوا لقاء يومهم هذا، على أن نعتبر "الكاف" ﴿كَمَا نَسُوا﴾ للتشبيه. وإذا اعتبرناها للتعليل فيكون التّقدير: لنسيانهم لقاء يومهم هذا.

﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: على أن موقف الجاحد لآيات الله الشّاكّ في اليوم الآخر لا يختلف العلماء في كفره وحرمانه من رحمة الله، غير أن التّعبير بفعل: ﴿نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ يفتح بابا للتأمّل والنّظر في وضعية بعض المنتمين إلى الإسلام وهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولكنهم في واقعهم المعيش يصدق

فيهم قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، لأنهم وإن كانوا لا يجحدون بآيات الله، فإنهم بأحوالهم وتصرفاتهم قد نسوا لقاء الله، فلا شك أن هؤلاء ممن يكره الله لقاءهم فينالون جزاءهم العادل، مما يدلّ على أن الجزاء في الدّارين على الاعتقاد والعمل، وأن الإيمان الصّحيح هو قول وعمل، والله أعلم.

لا عذر للمكذّبين بعد مجيء كتاب الله، ولهم سوءُ المصير

أ)- النص:

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ﴾: المقصود هم مشركو مكة وكلّ من يكون مثلهم في العناد والكفر، والكتاب هو القرآن الكريم. ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: جئنا به واضحا لا غموض فيه مطابقا للحق الذي أراده الله لخلقه. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾: هل ينتظرون إلا ما يؤول إليه من تبين صدقه وظهوره في الدّنيا والآخرة. ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾: جمع شفيع، وهو السّاعي لدى من بيده السّلطة للعفو عن المجرم. ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾: الخسارة مستعارة لعدم الانتفاع بما يرجى منه النّفع. ﴿وَضَلَّ

عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾: غاب عنهم الذين كانوا يدعون من دون الله.

ج)- البيان والتفسير:

بعد الانتهاء من بيان مواقف أهل الجنة وأهل النار وأصحاب **الأعراف**، وما في ذلك من التحذير والإنذار لأهل مكة، ولكل من شاكلهم في الضلال **والكفر**، انتقل السياق إلى بيان حجة الله على البشر بإنزال القرآن الكريم وغيره من كتب الله التي توضح لهم طريق الهداية، فتقطع أعذارهم وتنفى حججهم، ثم ذكر أحوال أولئك المكذبين يوم القيامة وما يقعون فيه من التحسر والندم فقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾.

تأتي هذه الآية الكريمة معطوفة على نداء أصحاب النار أصحاب الجنة مستغيثين متلهفين لتقطع أعذارهم وتبطل حججهم، وأنهم بعنادهم وضلالهم قد استوجبوا ذلك الطرد من رحمة الله، لأن كتاب الله قد فصّل لهم من الأحكام والتوجيهات ما تتحقق به لهم السعادة في معاشهم ومعادهم، وأنه أنزل بعلم الله ليزكي نفوسهم ويقوّم سلوكهم، فيه الهداية والرحمة لمن يؤمن به ويلتزم بأحكامه. وتنكير كل من لفظ "كتاب" و"علم" للتعظيم، وللدلالة على كمال علم الله الذي لا يحتمل الخطأ، ولتنزيل أولئك المكذّبين بمنزلة من لم يبلغه الكتاب جاء تأكيد فعل "جِئْنَاهُم" بـ"لام القسم" و"قد".

﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**﴾: ما الذي ينتظره المكذبون بكتاب الله؟. فمجيء الكتاب قد تحقق في واقع حياتهم، وهو دليل قاطع على صدق رسول الله لأنهم يجزمون أنه ما كان يتلو من قبله من كتاب، ويجزمون أنه ليس من كلام البشر لأنه تحدّاهم فأخرس بلغاءهم

وفصحاءهم.

والاستفهام إنكاريّ، والمعنى: ما ينتظرون إلا أن يتحقق ما توعّدهم به من أهوال يوم القيامة، فيتضح لهم ما عَدُّوه محالا وكذبا، حين ينكشف لهم الغطاء وتتجلّى لهم الحقائق التي أنكروها.

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾: القائلون هم المشركون المكذبون، وقد سجّل الله عليهم النّسيان والإنكار في الدّنيا، فها هم أولاء أمام الحقيقة لا يملكون إلا الإقرار والاعتراف في تحسّر وندم بقولهم: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾، ولكن هيهات أن يفيدهم ذلك الإقرار -وهم في موقف الجزاء- يتوقعون ما سينزل عليهم من العذاب، وليس لهم إلا الأماني الممنوعة التّحقيق.

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾. يتمنّون أحد أمرين:

أ)- يلتمسون لهم شفعاء في ذلك الموقف جريًا على القاعدة الأساسية لشركهم في الدّنيا، أن النّجاة عند الله وطلب الحاجات منه إنما تكون بواسطة الشّفعاء عنده: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (يونس:١٨). أمّا وقد يئسوا من أولئك الشّفعاء فهم هناك يلتمسون أيّ شفيع يشفع لهم وهيهات، وقد قيل لهم من قبل: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ (الأعراف:٣٧).

ب)- فيتمنّون لو يردّون إلى الدّنيا، فيعملون بما جاءت به رسلهم وبما يرضي ربّهم وهيهات، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الأنعام:٢٨).

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: وهكذا سجّل الله عليهم الخسران، إذ اختاروا لأنفسهم طريق الضّلال، فلا شفيع ولا مغيث ولا

نصير، ولبس ثمت إلا الجزاء الأوفى على ما اقترفوه من المعاصي والآثام، وقد انقطعت مزاعمهم وافتراءاتهم وهم يشهدون على أنفسهم بذلك إذ أجابوا من قبل ملائكة العذاب: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (الأعراف:٣٧).

والله أعلم.

إثبات الربوبية لله والتزام الدعاء

أ) - النص:

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾: يُطْلَقان على كلّ موجود مخلوق في العالم العلويّ والعالم السّفلي. ﴿رَبُّ﴾: والرّبّ هو السّيد والمالك والمدبّر المربّي، والإله هو المعبود الذي يتوجه إليه الإنسان ويدعوه لكشف الضرّ أو جلب النفع. ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: الاستواء: التساوي واستقامة الشيء واعتداله. والعرش لغة: سرير الملك، ويطلق على هودج المرأة. والاستواء على العرش تعبير قرآني على طريق الاستعارة والتمثيل لبيان عظمة الخالق في سعة الملك والتدبير المحكم بما يليق بجلاله

وقدرتـــه. ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾: أي يجعل أحدهما يغشى الآخر، أي يخفي أحدهما الآخـــر. ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾: أي يطلب الواحد الآخر بسرعة. ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾: أي خاضعات لأمره وتدبيره. ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾: "ألا" أداة لتنبيه المخاطب بحمله عـــلى الاهـــتمام بما له شأن من قول أو فعل. والخلق والأمر: أي الإيجاد والتدبير. ﴿تَـــبَارَكَ﴾: تعـــاظم شأنه ﴿تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾: أي تذلّلا وفي سريّة في مناجاة لا يشـــوبها رياء. ﴿خَوْفاً وَطَمَعاً﴾: أي خوفا من عذابه وسخطه وطمعا ورجاء في رحمته.

ج)- حول مبنى النصّ، وأوجه القراءة:

﴿يُغْشِـــي الـــيْلَ الـــنَّهَارَ﴾: قـــرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿يُغْشِـــي﴾ بضـــمّ الـــياء وسكون الغين وتخفيف الشّين، وقرأه حمزة والكسائي ويعقـــوب وخلـــف وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿يُغَشِّي﴾ بضمّ الياء وفتح الغين وتشديد الشّين. ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ﴾: قرأها الجمهور بالنّصب معطوفة على السّماوات والأرض، وقرأها ابن عامر بالرّفع مبتدأ وخبر. ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّـــامٍ﴾: الـــيوم يطلق على مطلق الزّمان ولو دقّ، كما يطلق على ما بين الطّلوع والغروب، وهي أيام الله المعلومة عنده، وقد شبّه القرآن الواحد منها بألف سنة مما نعـــدّه نحن من أيامنا المحدّدة بالطّلوع والغروب فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحـــج:٤٧). ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: العطف بـــ"ثم" يـــدلّ على التّراخي، والتّعدية بـــ"على" ليفيد معنى الاعتلاء، والاستواء على العرش كـــناية أريد بها لازم المعنى وهو الملك والتّصرف والتّدبير لا ظاهر اللّفظ، تعالى الله عن التّجسيد والتّحيّز، ويجوز ردّ ضمير "استوى" على الخلق بمعنى انتهائه. ﴿يُغْشِي الـــيْلَ الـــنَّهَارَ﴾: جعل اللّيل والنّهار مفعولين لفعل فاعل الإغشاء، فهما مفعولان، كلاهمـــا صالح لأن يكون فاعل الغشيان. ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾: يحتمل أن يعود الضّمير

المنصوب إلى اللّيل وإلى النّهار على التّخريج السّابق، و"حثيثا" حالا أو صفة لمصدر محـذوف، أي طلبا حثيثا. ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾: هي إما معطوفة على السّماوات فتكون منصوبة، وإما مرفوعة مبتدأ وخبرا، والجملة حالية. ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: لعلماء العربية تأويلات لوجوه كثيرة في عـدم لحاق علامة التّأنيث لموصوف مؤنث كـ"رحمة" وأنسبها وأحسنها -عند المحققين- أن "قريبا" أو "بعيدا" إذا أطلق على قرابة النّسب أو بعدها فهو مع المؤنث بـ"تاء" ولا بد، وإذا أطلق على قرب المسافة جاز فيه مطابقة موصوفه، وجاز فيه التّذكير على التّأويل بالمكان.

د)- البيان والتّفسير:

تندرج محاور هذه السّورة الكريمة -وهي مكية- في المحاور الأساسية للقرآن الكـريم لتركـيز التّصوّر الإسلاميّ في عقيدته الصّحيحة التي تتأسّس على الإيمان بوحدانـية الله والإيمـان بالرّسالة والنّبوءة، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقضاء والقدر. وقد انتهى العرض الذي تضمنته السّورة من أولها حول تلك المحاور.

وينـتقل السّياق في هذه الآيات إلى بيان الأدلة والبراهين على وحدانية الله وقدرتـه في أنه هو الخالق لكلّ ما في العالم المشاهد، وهو الرّبّ والإله المعبود الذي يقتضـي الإيمان به الإيمان بكلّ ما أخبر به عن عالم الغيب من أحوال اليوم الآخر فقال جلّ من قائل: **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾**:

الخطـاب موجّـه للخلق كافّة، وهو موجّه ابتداء إلى المشركين الجاحدين، والتّأكـيد بـ"إن" لردّ إنكارهم، وفي اشتمال الجملة للفظي "الرّبّ" واسم الجلالة "الله" زيـادة اهتمام بالمخبر به والمخبر عنه، أي لأن الرّبّ المعلوم عندكم هو الذي

اسمه الدّالّ على ذاته العلية "اللهُ" لا غيره ممن تعبدون من دونه.

يخبر الله تعالى بعظيم قدرته ويلفت الأنظار إلى بديع صنعه في خلق السّماوات والأرض، وهما الحيّز الزّماني والمكاني لوجود المخاطبين، إذ أن من صفاته تعالى الدّالّة على وحدانيته: الإيجاد والخلق، وهي دليل قاطع يشعر المشركين بضلالهم في الكفر والإشراك وهم الذين يعترفون بخصوصية الله في ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ (لقمان:٢٥).

وقوله تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي أنّ الله عز وجلّ اقتضت حكمته أن لا يتمّ ذلك الخلق دفعة واحدة -وهو قادر على ذلك-، ففي ذلك التدرّج في الخلق كمال العلم والحكمة في الإبداع والإتقان، وليتعلّم الخلق التّبات وعدم التسرّع في الأمور كما ورد في الحديث: «**التأني من الله والعجلة من الشّيطان**».[1] لأن الإنسان من طبعه التسرّع والعجلة. ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (الأنبياء:٣٧).

وقد اختلف العلماء في تقدير تلك الأيام، وللشّيخ رشيد رضا ملحظ دقيق، إذ اعتمد على تفسير القرآن بعضه ببعض، وليس القرآن إلاّ وحيا من علم الله لكافّة الخلق على اختلاف مستوياتهم العلمية والفكرية، فهو يركّز على أسلوب النّصح والإرشاد، ولا يُعنى بالمسائل العلمية إلا بالقدر الذي يناسب في مجال التذكير والموعظة، يقول صاحب المنار:

"وأما هذه الأيام السّتة فهيَ من أيام الله التي يتحدّد اليوم منها بعمل من أعماله يكون فيه"، ثم قال: "وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا

١- رواه أبو يعلى في مسنده من حديث أنس بن مالك، رقم ٤٢٥٦، وتمامه: « التأني من الله والعجلة من الشيطان، وما شيء أكثر معاذير من الله، وما من شيء أحب إلى الله من الحمد». وقال ابن حجر في المجمع: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، ١٩/٨.

تَعُدُّونَ﴾ (الحج:٤٧). ووصف يوم القيامة بقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج:٤). ولا يُعقل أن تكون هذه الأيام السّتة من أيام أرضنا، التي يحدّ ليل اليوم ونهاره منها بأربع وعشرين ساعة من السّاعات المعروفة عندنا، فإنّ هذه الأيام إنما وجدت بعد خلق هذه الأرض فكيف يكون أصل خلقها في أيام منها".[1]

وفي تفصيل هذه الأيام في عملية الخلق والإيجاد يورد الشّيخ آيات سورة فصلت في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...﴾ إلى: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت:٩-١٠-١١-١٢)، فيحصل من هذه الآيات أن خلق الأرض كان في يومين، وتكوّن المحيطات واليابسة وتقدير الأقوات وخلق النّبات والحيوان في يومين آخرين، وأما السّماء وتسوية أجرامها فقد تمّ في يومين. وفي هذا الخلق البديع مجال للتّأمّل والبحث والنّظر لعلماء الفلك يستكشفون أغوار الكون وبعض أسراره، فيكون ذلك تقوية للإيمان ودليلا على إعجاز القرآن كما وعد الله بذلك في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (فصلت:٥٣).

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: وهو كناية عن سلطة الملك وقدرة التّصرّف والتّدبير، وتعالى الله -جلّت قدرته- أن يُراد بها ظاهر اللّفظ.

وفي مثل هذه التّعابير التي تذكر أوصاف الذّات العلية، نكل فيها الأمر إلى الله دون تشبيه له بالمخلوقات أو الحوادث، ودون تكييف ولا تعطيل كما قال الإمام مالك وغيره من علماء السّلف الصّالح: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول والسّؤال عنه بدعة".

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٨/٤٤٥.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾: أي يجعل الله اللّيل والنّهار أحدهما غاشيا للآخر، وأحدهما يطلب الآخر بسرعة وفي دؤوب مستمرّ. وذلك كله على وجه الاستعارة والتّمثيل. وغشيان اللّيل والنّهار على وجه الكرة الأرضية مما تفطّن إليه علماء الإسلام واستدلّوا به على كروية الأرض ودورانها على محورها، وقد أشار القرآن إلى هذه الظّاهرة في قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (الزمر:٥). واختلاف اللّيل والنّهار ظاهرة طبيعية عجيبة لفت القرآن الكريم إليها بكثرة لتدلّ الخلق على عظمة الخالق أولا، وعلى تسارع الحياة العاجلة وانطواء الأعمار حتى يتزوّد الخلق للحياة الأبدية.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾: عطف على خلق السّماوات والأرض وارتقاء من الأدنى إلى الأعلى للتدليل على قدرة الله في السّماوات وهي العالم العلويّ بالنّسبة إلينا أهل الأرض. وقد بدأ بذكر الشّمس والقمر وهما من جملة النّجوم أنهما الجرمان اللّذان ترتبط بهما حياتنا أكثر ولكونهما أكبر حجما وأقوى نورا بالنّسبة لمشاهداتنا الضّيّقة، وإلا فإن هذا الكون المؤار ما يزال يتمدّد ويعج بملايين النّجوم تنتظمها كثير من المجرّات لا يعلم مداها إلا الله. وكل ذلك في قبضته تعالى لا يندّ عن تدبيره شيء منها.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: "ألا" للتّنبيه، لأن الإنسان يغفل وينسى هذه الحقائق، واعتياده لرتابة نظام الكون من حوله قد يطبعه ببلادة الحسّ فلا يتأمّل ولا يتدبّر، كما أنّ امتلاكه لأسباب القوة والسّيطرة على بني جنسه يجعله متعاليا مستكبرا، فجاء هذا التّنبيه بأن المالك المتصرّف في شأن المخلوقات هو الله وحده لا شريك له، هكذا بصيغة القصر، تبارك الله وتعاظم في تفرّده بالوحدانية في ذاته وصفاته وأفعاله، وقد ثبت خيره الكثير وفاضت نعمه على خلقه، فهو ربّهم ومالك أمرهم لا ربّ سواه، ولا معبود إلا إياه، فله الحمد وله

الشّكر كله، وبيده الخير كله، والله أعلم.

﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾: الدّعاء مخّ العبادة كما ورد في الأثر، جاء الأمر به مكرّرًا وجاء معترضًا بين آيات تبيّن دلائل عظمة الله وقدرته وتحدّد مفهوم الرّبوبية والألوهية، ومن حقّها الواجب على الخلق إفرادها بالعبادة، والتّوجّه إليها بالدّعاء وابتغاء الوسيلة في تخشع وتضرّع.

﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾: الخطاب موجّه إلى الخلق كافّة وبالأخصّ أمّة الاستجابة لرسول الله بصفة خاصّة، والتّضرّع هو إظهار التّذلّل والخشوع وجاء على "تفعّل" لإفادة تكلّفها والمبالغة فيها، ويكون المؤمن في حالة التّضرّع لله على هيئة خاصّة قولا وفعلا يتّسمان بالاستكانة والخشوع لله، وإظهار كلمة "الرّبّ" مضافة إلى ضمير المخاطبين هو للتركيز على معنى الرّبوبية الحقّة لله تعالى بأنه هو الرّاعي والمنعم الذي يتوجّه إليه بالحمد والشّكر وحده.

وللدعاء آدابٌ، يجب على المؤمن مراعاتها، حتى تتحقّق له الاستجابة، وقد بسطها الفقهاء في المطوّلات الفقهية، وفي هذه الآيات ذكر البعض منها، غير أن الرّكيزة الأساسية في دواعي الاستجابة هي توخّي المسلم للكسب والرّزق الحلال كما أرشد إلى ذلك رسول الله ﷺ في كثير من الأحاديث، منها: «**ثم ذكر الرّجل يطيل السّفر أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السّماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذّي بالحرام، فأنّى يستجاب له؟**».[1]

وترشد الآية الكريمة إلى:

أ)- التّضرّع: وقد جعله بعض المفسرين مقابل الإسرار والإخفاء، أي الدّعاء

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، حديث ١٠١٥.

لله بالجهر المعتدل، ولكل منهما وقته ودواعيه.

ب)- الخفية: أي الإخفاء والإسرار حيث يتجنّب المسلم السّمعة والرّياء عندما يكون في مجامع النّاس حتى لا يفسد دعاءه بذلك، وحتى لا يشوّش على غيره لجهره، اللّهم إلا ما شرع فيه الجهر الجماعي كالتّلبية للحج، وبالتّكبير لصلاة العيد.

وفي مراعاة دواعي الجهر والإسرار جاءت كثير من الإرشادات الإلهية منها في آخر هذه السّورة قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف:٢٠٥). وقال في سورة الإسراء: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ (١١٠). كما أثنى تعالى على زكرياء بقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ (مريم:٣).

وفي الصّحيحين عن أبي موسى الأشعرّي -رضي الله عنه- قال: كنا مع النّبي في سفر فرفع النّاس أصواتهم بالدّعاء، فقال رسول الله ﷺ: «**أيها النّاس: اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا، وإنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم**».[1]

والخلاصة أن يختار المسلم لكل حالة ما يناسبها من الجهر أو الإسرار بالدّعاء لله متذلّلا مبتهلا إليه بإخلاص لا يشوبه رياء، وليس فيه لمن حوله من النّاس إيذاء.

﴿**إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾: الاعتداء هو تجاوز الحدّ في الدّعاء وفي غيره، وأعظم الاعتداء هو الشّرك بالله في الدّعاء، كمن يستشفع عند الله بغيره من الأنداد، فنفي محبّة الله عن هؤلاء، إطلاق مجازيّ أريد به لازم معناه من السّخط

١- رواه البخاري من حديث طويل لأبي موسى الأشعري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، حديث ٣٩٦٨.

والغضب -والعياذ بالله-، وتذييل الأمر بالدّعاء لله بهذه الجملة فيه تعريض بالوعد لاستجابة المؤمنين، ووعيد برفض دعاء الكافرين. قال تعالى في سورة الرّعد: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ (١٤).

وبما أن المعتدين الظّالمين ينشرون الفساد في الأرض بتجاوزهم لحدود الله، فقد عطف على الأمر بالدّعاء لله النّهي عن الفساد في الأرض فقال جلّ من قائل: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾.

قضت حكمة الله أن يعمر الإنسان هذه الأرض، ورتّب صلاحها وفسادها على صلاحه وفساده هو وفق تصرّفاته وسلوكه، ولا بد لهذا الإنسان من ضوابط وروادع ليثبت على النهج القويم الذي يتحقق به صلاح الأرض ويزدهر عمرانها، ولا يتأتّى صلاح البشر في حياتهم الفردية والجماعية إلا بشريعة الله وتنفيذ أحكامها في تنظيم شؤون معاشهم ومعادهم. ومن رحمته تعالى إرسال الرّسل وإنزال الكتب لهداية البشر، وهم سادة الأرض وخلفاء الله فيها قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة:٢٩).

وعلى قاعدة درء المفاسد أولى من جلب المنافع جاء النّهي الإلهي عن كل إفساد في الأرض بعد تحقيق إصلاحها على يد الأنبياء والرّسل أو على يد الزّعماء المخلصين، وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ للإشارة إلى قبح وفظاعة الإفساد بعد الإصلاح، لأن المفسد لما هو صالح أكبر جرما من الذي يفسد في بيئة غلب عليها طابع الفساد ابتداء، وإلاّ فإنّ الإفساد والفساد كلّه منهيّ عنه في كل حال، لأنه اعتداء على حدود الله في المنهج الشّرعي واعتداء على القوانين في المنهج الوضعي.

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: أعيد الأمر بالدّعاء تكملة لبعض آدابه -كما تقدم- وذلك بعد بيان كيفيته، بيّن الله تعالى الغرض المقصود من الدّعاء بأن

يكون:

أ)- لباعث الخوف من غضب الله وسخطه.

ب)- طمعا في حزيل مغفرته وثوابه.

ومن شأن الدّاعي لربّه بهذه الكيفية المطلوبة أن لا يكون من المفسدين في الأرض، بل يكون مظنة للاستجابة المقبولة فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

والإحسان صفة خلقية رفيعة يتوخّاها المؤمن في كلّ أعماله لينال القربى عند الله، والتّعبير بقرب رحمة الله من المحسنين للدّلالة على حصول المرجوّ من الدّعاء لأنه تعالى يقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ (الرحمن:٦٠). ويقتضي الإحسان اتّباع أوامر الله واجتناب نواهيه بإخلاص ووفاء وحياء من الله تعالى، كما جاء في الحديث الشّريف لتعريف الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».[1]

ومن آداب الدّعاء أن لا يستحسر المؤمن، بأن يتعجّل من الله الإجابة، بل يجب أن يكون كامل الثّقة بربّه في تقدير نوع الاستجابة وكيفيتها ووقتها، لأنه تعالى أعلم بما فيه النّفع والضّرّ لعباده.

والله أعلم.

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، حديث ٥٠.

متابعة الأدلة لألوهية الله وربوبيته

أ)- النص:

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ نُشُرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾: أي هبوها من المكان الذي تنطلق منه ووصولها إلى مكان آخر. ﴿نُشُرًا﴾ ﴿بُشْرًا﴾: نُشُراً: بضمّ النون والشّين جمع نَشور، أي ريح نَشور بمعنى حيّة و طيبة تنشر السّحاب وتوزّعه حتى يعمّ الجو. أما ﴿بُشْرًا﴾: جمع بشير، أي تبشر الناس بالغيث. ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾: أي قبل نزول المطر. ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾: أقلّ يُقلُّ: رفعت وحملت ذلك السّحاب الثّقيل ببخار الماء. ﴿لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾: أي أرض جدباء قاحلة. ﴿الثَّمَرَاتِ﴾: جمع ثمرة وهي واحدة الثمر، وهو ما تخرجه الشّجرة سواء مما يؤكل أو لا يؤكل، وقيل: هو خاصّ بما يؤكل منها. ﴿الطَّيِّبُ﴾: ضدّه الخبيث، أي الأرض الزّكية التربة الصّالحة للزرع والغرس. ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾: نَكِد وصف من النّكد، وهو الشّيء غير الصّالح يجرّ الشّرّ لمستعمله. ﴿نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾: نتوّعها ونبيّنها.

ج)- حول مبنى النص، وأوجه القراءة:

﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشُرًا﴾: قرأه نافع وأبو عمرو وابن كثير وأبو جعفر

﴿نُشُراً﴾ بضمّ النون والشين وقرأه ابن عامر: ﴿نُشْرًا﴾ بضم النون وسكون الشين. وقرأه الكسائي وخلف ﴿نَشْرًا﴾ بفتح النون وسكون الشين على أنه مصدر نشرَ. وقرأه عاصم بالباء الموحّدة في موضع النون مضمومة وبسكون الشين ﴿بُشْرًا﴾، جمع بشير. وقرأ الجمهور ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ﴿الرِّيحَ﴾ بالمفرد. ﴿يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً﴾: قرأه الجميع ﴿لاَ يَخْرُجُ﴾ بفتح التحية وضمّ الرّاء، إلا ابن وردان عن أبي جعفر فقرأه بضمّ التحتية وكسر الرّاء على أنه متعدّ. ﴿وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾: معطوفة على جملة ﴿الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾. أو على جملة: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾. وأطلق الإرسال على الانتقال على وجه الاستعارة. ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾: مجاز أطلق على الجانب الذي انعدم منه النبات. ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾: تشبيه مرسل مجمل وجه الشّبه فيه هو الإحياء بعد الموت.

د)- البيان والتّفسير:

عود إلى بيان أدلّة قدرة الله في الآفاق بعد ذكر قدرته تعالى في خلق السّماوات والأرض، اعتراض ذلك بأمره بالدّعاء له تضرّعا وخفية وأن رحمته قريب من المحسنين، ذكر هنا مظهرا من مظاهر تلك الرّحمة بتوفير الأرزاق للخلق بأن يرسل الرّياح لسوق السّحاب وإنزال المطر فقال تعالى: **﴿وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشُراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِه حَتَّى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾**.

يمتنّ الله علينا بحسن تدبيره لمعاشنا في الأرض بما يسخّره من السّحب الثّقيلة ببخار الماء، وكيف تسوقها الرّياح وتحملها منتقلة من مكان إلى آخر تبشّر بالغيث وتنشر الخير والبركة كما قال تعالى في سورة الشّورى: ﴿وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢٨).

وقد تكرّر في القرآن الكريم ذكر هذه الظّاهرة الطّبيعية المتعلقة بالحياة على وجه الأرض في دورة الماء بين المحيطات واليابسة بعملية التّبخير وتكوّن السّحب وتلقيح الرّياح لها وسوقها إلى مواطن القحط والجدب، فتدبّ الحياة في الأرض الميتة، وهذه الظّاهرة لا ينكرها جاحد ولا مؤمن. وغالبا ما تقرنها الآيات القرآنية بظاهرة البعث والنّشور دليلا على قدرة الله في إحياء الموتى للنشأة الآخرة. والأمثلة كثيرة على ذلك منها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ (فاطر:٩).

وفي نقاء ماء المطر وحلاوته ووقايته من التّلوّث وعفونة البيئة يقول تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً، لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ (٤٨-٤٩).

وفي الواقعة يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ، ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ، لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (٦٨-٧٠).

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾: في معاد الضّمير "به" احتمالان:

أ)- يعود إلى البلد، فيكون بمعنى "في".

ب)- يعود إلى الماء. فيكون بمعنى "الآلة".

والثّمرات تشمل كل أنواع النبات والثّمار من الأرض فكل الثّمرات للاستغراق، إذ يشمل كلّ بلد ميّت ينزل عليه المطر، ويحصل من جميع تلك البلدان خروج جميع الثّمرات بواسطة الماء.

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: الإشارة إلى إخراج الثّمرات، أو إلى إحياء البلد الميّت تشبيه لشيء مستبعد الوقوع في نظر الكافرين الجاحدين بشيء حقيقي الوقوع بأسباب ملموسة مشاهدة، فالذي قدر على هذا الإخراج في

دنيا المعاش قادر على إحياء الموتى في دنيا المعاد بكيفيات يقدّرها هو لتتذكّروا عند تأمّلكم لذلك وتتعظوا.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾: قابل البلد الطيّب بالبلد الخبيث، لأن التربة الطيّبة مباركة معطاء، توفّر المؤن والأرزاق بمشيئة الله ورعايته تزكية وتشريفا، وأما التربة الخبيثة فلا ينبت فيها إلا ما هو نكد غير صالح لأنه لا بركة فيه ولا نفع. يقول ابن عباس ﷺ: "هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر أي البرّ والفاجر فالمؤمن في صلاحه وتقواه كالأرض الطيّبة الكريمة المعطاء، والكافر كالأرض الخبيثة يعسر نبتها ولا تنبت إلا ضارا وخبيثا"، ومثل هذه الأمثال كثيرة في القرآن والسّنة في تشبيه المعقول والمعنويّ بالمحسوس المشاهد.

وقد روي عن أبي موسى الأشعريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيّبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها النّاس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب منها أخرى هي قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله تعالى الذي أرسلت به**».[1]

﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾: الإشارة لما تقدم من التّدليل على قدرة الله وعظمته، "نصرّف الآيات" أي نكرّرها ونبيّنها لمن يؤمن بها ويشكر

١- رواه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم، حديث ٢٢٨٢.

نعـــم الله فيوفّون حقّها وينتفعون بها. وفي الآية دلالة على الترغيب في السّعي إلى طلـــب الكمال والفضائل وتجنّب النّقائص والرّذائل، وفيها تلويح للطبيعة الخيّرة في المؤمن والطّبيعة الشّريرة في الكافر، والله أعلم.

قصّة نوح مع قومه

أ)- النص:

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿لَقَـــد﴾: جـــواب لقسم محذوف تقترن به "قد" التي تدلّ على تحقيق أمر مـــتوقع، أي تهيّئ نفس السّامع لتوقع خبر مهمّ. ﴿نوحًا﴾: الرّاجح عند كثير من العـــلماء أنه أوّل رسول بعثه الله إلى البشر ويسمّى "أبو الأنبياء". ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: المتبادر -والله أعلم- أنه يوم القيامة، وقيل: هو يوم الطّوفان. وقـــيل: هو عذاب الدّنيا مطلقا. ﴿الْمَلَأُ﴾: أشراف القوم ورؤساؤهم، من الممالأة

لأنهم يمالئ بعضهم بعضا لاجتماعهم على رأي واحد. ﴿ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: أي الضّلال البالغ الغاية، وهو الانحراف عن الطّريق المستقيم. ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾: النّصح والنّصيحة حسن النّية وإرادة الخير من قول أو عمل ضدّه الغش، يتعدّى بنفسه وبـ"لام" زائدة، فيقال: نصحتك ونصحت لك. ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾: من العجب وهو انفعال نفسيّ يحصل عند إدراك شيء غير مألوف، وقد يكون مشوبا بإنكار الشيء المتعجّب منه. ﴿الْفُلْكِ﴾: السّفينة. ﴿قَوْماً عَمِينَ﴾: جمع عم، صفة على وزن "فعِل" مشتق من العمَى ويغلب استعماله في عمَى البصيرة. أما فقدان البصر فيقال فيه: أعمَى، جمعهُ عُمْيٌ.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: قرأ الجمهور ﴿غَيْرُهُ﴾ بالرّفع على الصّفة لـ"إله" باعتبار محلّه، وقرأه الكسائي وأبو جعفر بجرّ ﴿غَيْرِهِ﴾ على أنه صفة لـ"إله". ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾: قرأ الجمهور ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بفتح الموحّدة وتشديد اللاّم، وقرأه أبو عمرو ويعقوب بسكون الموحّدة وتخفيف اللاّم من "الإبلاغ".

د)- البيان والتّفسير:

بعد ذلك التّصوير المهيب لمشاهد يوم القيامة واستعراض مواقف المؤمنين والمكذبين وما جرى من حوار بينهما وبين أصحاب الأعراف ينتقل السّياق إلى استعراض تاريخي لما كان بين الرّسل وأقوامهم، وبيان مآل المكذّبين منهم في الدّنيا والآخرة، وذلك لغرض التّخويف من عواقب الطّغيان والكفر كما أشارت إليه أوائل السّورة في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (٤).

وقد أفاض السّياق في ذكر ما حلّ بالأمم الخوالي من عذاب الاستئصال،

بعد أن يقيم الله الحجة على خلقه بإرسال الرّسل وإنزال الكتب، وقد سبق التمهيد إلى هذا التفصيل القصصي في ما سبق بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ (٣٥). وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، وبين ذلك التمهيد وبين هذا التفصيل تناسب كبير تتميما للموعظة والاعتبار، وتعليما لأمّة الرّسول بتاريخ الأمم، إذ كان العرب أمّيين لا يعرفون عمن سبقهم إلا شذرات مما يُروى في قصصهم وأشعارهم كما قال تعالى تعقيبا على قصة نوح المفصّلة أكثر في سورة هود: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩).

وفي هذه القصص المكرّرة في السّور بأساليب مختلفة تثبيت وتسلية لرسول الله، سيما في المراحل الأولى من الدّعوة في مكة.

وغالبا ما تذكر قصة نوح عليه السلام في البدء على اعتبار أنه أول رسول بعثه الله إلى البشر بعد أبينا آدم عليه السلام ويسمّى أبو البشر الثاني. قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾.

استئناف مبتدأ بقسم محذوف دلّت عليه "اللاّم" مقرونة بـ"قد" التي تدلّ على التحقيق، وفي إيراد هذه القصة وما يتلوها من القصص في بيان صحيح وسرد مستقيم ما يدلّ على صدق نبوءة رسول الله، وفيه تحدّ لأهل الكتاب المطّلعين على جوانب من تلك القصص مما ورد في كتبهم.

ويستفاد من التفسير المنقول بأنّ ظاهرة الشّرك ابتدعها قوم نوح، وقد طال الأمد بينهم وبين ذرية آدم حدّد فترته بعض المؤرخين بعشرة قرون كانوا كلهم على الإسلام، إذ أخرج الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوم نوح هم الذين صوّروا بعض الصّالحين منهم، ثم وضعوا لهم الصّور والتماثيل لإحياء ذكرهم

والافتداء بهم ثم عبدوا صورهم وتماثيلهم. وقد تكررت قصة نوح في القرآن ثلاثا وأربعين مرّة وذكرت في السّورة التي سمّيت باسمه بعض الأصنام التي كانوا يعبدونها فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً، وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً﴾ (نوح:٢٣-٢٤).

﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: ناداهم بصفة القومية مضافة إليه استجاشة لعاطفة القرابة، وبيانا للمقصد النّبيل في دعوتهم إلى الخير والصّلاح، أمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، إذ ليس هناك من إله حقّ غيره، وقد أكّد النّفي بـ"من" لإفادة العموم والاستغراق.

وعبارة: ﴿اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هي مضمون الدّعوة التي تكرّرت على ألسنة الرّسل، لأنها أساس العقيدة الصّحيحة التي دعت إليها الأديان كلها لا تتبدّل ولا تتغيّر، وهي ملاك الأمر كله في استقامة حياة البشر وصمّام نجاتهم في الدّنيا والأخرى.

﴿إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: والنّاصح الأمين هو الذي يبادل غيره السّرور والحزن ويقاسمهم الخوف والأمن، فقد أنذرهم مما يخافه هو في حالة العناد والتّكذيب، إذ جعل هذا الإخبار تعليلا لما أمرهم به من عبادة الله، وفيه دعوة إلى الإيمان باليوم الآخر الذي وصفه بأنه يوم عظيم، فكيف كان جوابهم لهذه الدّعوة الحارّة المخلصة؟.

﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾: كانت دعوة نوح عامّة إلى كافة قومه، ولكن الذين تولّوا الإجابة هم علية القوم وسادتهم، وهم الذين يتصدّرون المجامع ويحرصون على مقاماتهم أن ينازعهم فيها منازع، ولذا كانوا أعداء لكلّ تغيير يمسّ مصالحهم ويزحزحهم عن نفوذهم اقترنت إجابتهم بالتّأكيد وهم يرمون الدّاعية بالضّلال بل يصوّرونه منغمسا فيه إلى الأذقان، بالغا الحدّ

الأقصى فيه، وهكذا تنقلب الموازين وتتحوّل المفاهيم عند أهل النّفوس المريضة والقلوب المتحجّرة.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

تكرار النّداء بـ"يا قوم" للتذكير بعاطفة القرابة المقتضية للنصح الأمين، ثم لتعميم دعوته، وهو ينفي عن نفسه الضّلالة نفيا قاطعا، وذلك بتنكير كلمة: ﴿ضَلَالَةٌ﴾ في سياق النّفي، وبالتّعبير بالباء "بي" التي تدل على المصاحبة والملابسة، ثم رفع ذلك التّوهّم منهم بلفظ الاستدراك في قوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾. إنها رسالة عظيمة في ما يدعو إليه، وتقتضي منه الإبلاغ والنّصح.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: فهو وإن كذّبوه لا يتوانى عن التّبليغ والنّصح لأن ذلك واجبه الأساسي، يتكرّر منه صوت الدّعوة وتتعدّد مجالات الرّسالة في المعتقد والسّلوك وفي الآداب والأخلاق، متدرّجا معهم، ناصحا إياهم بما فيه نفعهم وصلاحهم، وهو في ذلك النّصح والتّبليغ يصدر عن علم الله، إذ كان أهلا لاختياره واصطفائه، وقد علمّه الله تعالى ما لا يعلمه قومه من مصير العالم وعاقبة المكذّبين، فكان بذلك التّعليم والاصطفاء على هدي وصلاح، وكانوا هم بالتّكذيب والعناد على سفاهة وضلال.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾:ولما كان لهؤلاء القوم سوء ظن في رسولهم لاشتباههم أن يكون رجلا عاديا مثلهم يدّعي النّبوءة ليترعّمهم كشف نوح عليه السلام تلك الشّبهة بهذا الاستفهام الإنكاريّ الذي جاء معطوفا على كلامه في بيان مضامين رسالته فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾.

ومَا العجبُ في أن يختار الله لرسالته من يشاء من عباده؟، لأن كونه بشرا

مثلهم -كما وصفوه بذلك في آيات أخرى- لا يقتضي التساوي في الخصائص والمزايا، بل جعل الله تعالى اختلاف النّاس مظهرا من مظاهر قدرته فقال جلّ من قائل في سورة الرّوم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ (٢٢).

وكون الرّسول من جنس المرسل إليهم: ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ هو أنسب في إدراك ما ينصحون به ويذكرون. ثم بيّن لهم مقاصد الرّسالة وتتمثل في:

أ)- الإنذار: ليقلعوا عما هم عليه من الشّرك والضّلال.

ب)- التّحلّي بالتّقوى والخشية من غضب الله وسخطه.

ج)- بعد ذلك يكون الرّجاء في رحمة الله.

ولكن أنى للقلوب المتحجرة أن تلين؟!. لقد وقع التّكذيب من خاصتهم وعامّتهم ما عدا القليل: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ**﴾.

يترتب على التّكذيب الإهلاك بالإغراق في الطّوفان، ولكن القلة التي آمنت به مع بعض من أهل بيته كما ورد تفصيل ذلك في سورة هود. هذه القلة المباركة قدّم الله الإخبار بإنجائها في السّفينة تكريما للمؤمنين وتسفيها للمكذبين، وأن ذلك قد جرى على مقتضى سنن الله في تصريف شؤون خلقه.

وتأتي جملة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ تعليلا لذلك الإغراق، وأن تكذيبهم كان لعمى في بصائرهم لا ينفذ إليها نور الهداية والحق. ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:٤٦)، والله أعلم.

قصة هود مع قومه

أ)- النص:

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾: التعبير بالأخوة لأنه واحد من جنسهم، كما يعبّر بذلك لإخوة الدّين. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠). ومن عادة العرب أن ينادي بعضهم بعضا. "يا أخا العرب". ﴿سَفَاهَةٍ﴾: خفة العقل وفساد وجهالة. ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾: أي معروف بينكم بالنصح وأنا مأمون في تبليغ الرّسالة. ﴿زَادَكُمْ

فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾: أعطاكم الله نفوذاً وسلطة في خلقه بأن كنتم ملوكا وأمراء أو جعلكم أقوياء البدن. ﴿ءَالَآءَ اللَّهِ﴾: نعمه الكثيرة مفرده إلى كإلى يجمع آناء، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَاءِ الَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ (طه:١٣٠). ﴿وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾: الرجس هو الشيء الخبيث، وفي التفسير النقلي أنه اللعنة أو العذاب، وهو مأخوذ من معنى الارتجاس أي الاضطراب. وفي معناه المجازي يراد به خبث النفس وفساد الفطرة. ﴿أَتُجَادِلُونَنِي﴾: المخاصمة والمحاجّة. ﴿أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾: أي اتخذوا لأصنامهم أسماء كالصّمود والهتّار. ﴿سُلْطَانٍ﴾: أي الحجّة والبرهان. ﴿فَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾: الدابر هو الآخر والمعنى أهلكناهم بعذاب الاستئصال.

ج)- التّعرف بهود وعاد:

نقل الإمام ابن عاشور مختصرا في التّعريف هود عليه السلام وقبيلة عاد فقال ما ملخّصه: "هود اختلف في نسبه، فقيل: هو من ذرية عاد، فقال القائلون بهذا: هو ابن عبد الله بن رياح بن الخلود بن عاد، وقيل: هو من ذرية سام جدّ عاد، وليس من ذرية عاد، والقائلون بهذا قالوا: هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح".[1]

زاد قطب الأئمة في التيسير فقال: "عاش أربعمائة سنة، وقيل: مئة وخمسين. وكان بينه وبين نوح ثمانمائة سنة، وعلى القول بأنه ليس من قبيلة عاد، تكون تسميته "أخاهم" لأنه من جنسهم الآدمي. وهود اسم أعجمي كنوح ولوط منصرف. وقيل: هو أول من تكلم العربية، وبه سميت العرب عربا. أما عاد فهي أمة عظيمة من العرب العاربة البائدة، وكانت منازلها ببلاد العرب بالشّحر من أرض اليمن وحضرموت وعمان والأحقاف. وهي الرّمال التي بين حضر موت

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٨/٢٠٠.

وعمان، وذكر اسمه في القرآن سبع مرات".[1]

د)- البيان والتّفسير:

يرى كثير من المفسّرين والمؤرخين أن قبيلة عاد كانت امتدادا لقوم نوح ممن نجوا معه في السّفينة وكانوا على النهج القويم مما دعاهم إليه نوح من عبادة الله وحده. ولكن لطول الأمد عليهم وتفرّقهم في الأرض قد ترصّدهم الشّيطان فانحرفوا وعبدوا الأصنام واغتروا بقوّتهم وهم الذين قالوا لرسولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ (فصلت:١٥). ومن رحمة الله على خلقه أن يختار لهم من أصفيائه من يواصل مسيرة الدّعوة إلى الله وإلى منهجه القويم.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾:

الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾: أي أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا، وقدم الجار والمجرور ليتأتى الإيجاز بالإضمار. ﴿أَخَاهُمْ﴾: فهو أخ لهم في النّسب أو في الدّين، ومن شأن هذه الأخوّة أن تتفهّم منطق الدّعوة وتتلقاها بوعي وإدراك.

وقد فصلت جملة القول عن سابقتها: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾، ولم تعطف بـ"الفاء" كما في نظيرها في قصة نوح لأن إفادة السّامع بكون التّبليغ يجيء عقب الإرسال يعرفها السّامع من القصة السّابقة، فهو في قصة هود يتطلّع أن يعرف ماذا قاله لقومه وبماذا أجابوه؟؟ فجاءت جملة القول على أسلوب الاستئناف البياني.

وقد تكرّرت على لسان هود نفس الدّعوة في مبناها ومعناها وذيّلت

١- أحمد بن يوسف الحلبيش، تيسير التفسير، ٥/٩٤-٩٥.

بالاستفهام الإنكاريّ: ﴿أفلا تتّقون﴾، أي لا تبتعدون على ما يسخط الله من الكفر والعصيان، وفي ذلك تهديد لهم أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح، بدليل ما ذكّرهم به من أن الله جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح.

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين، قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من ربّ العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح امين﴾:

ترك العطف بـ"الفاء" للعلّة السّابقة المذكورة في مقولة هود من دعوته، غير أن الملأ وصفوا هنا بالكفر دون ما في قصة نوح. قيل: لأنه كان من الأشراف من آمن به على عكس قوم نوح، فالقليل الذين آمنوا ليسوا من الأشراف بدليل قولهم له: ﴿وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ (هود:٢٧). ووصفهم إياه بالسّفاهة والكذب مع توكيده بمؤكدات عدة دليل على الوقاحة وسوء التّقدير، فهم يرون استنكاره لتقاليد آبائهم سفاهةً وحمقاً، وادّعاءه الوحي والرّسالة كذبا وزورا. وهكذا تختلّ الموازين وتنقلب المفاهيم حين تعتلّ المجتمعات، فيغدو الحليم سفيها ويعتبر الصّادق الأمين كاذبا خؤونا. وتعتبر الدّعوة إلى الله وإلى صراطه المستقيم رجعية وضلالة. وتتشابه الأجوبة والمواقف أزاء كل دعوة للخير والصّلاح، ويظلّ الإنسان هو الإنسان في طبعه الجحود الكنود، وفي مسلكه المتكبّر العنود، ويبقى صراع الحق والباطل سنة اجتماعية ما دامت الأرض والإنسان.

﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من ربّ العالمين﴾. ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح امين﴾:

تكرّر النّداء بـ"يا قوم" للمعنى السّابق الوارد في قصة نوح. ونفى عن نفسه السّفاهة، وذلك يتضمّن نفي الكذب على الله، وقد أثبت الرّسالة من ربّ العالمين وأنه مكلّف بتبليغها لهم، وهو في ذلك النّاصح الأمين. على أن النّصح والأمانة

صفتان راسختان فيه، وهم يشاهدون ذلك في سلوكه وأخلاقه.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾: ولما كان هؤلاء الأقوام يصدرون في ضلالهم وكفرهم عن تصوّر فاسد متشابه في حيرتهم وشكّهم من ظاهرة الرّسالة يدّعيها بشر مثلهم، كان استنكار ذلك التّعجّب منهم من طرف الرّسل واحدا متشابها.

﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

بعد ذلك الرّدّ اللّطيف وتبرئة نفسه من السّفاهة والكذب عاد إلى الدّعوة والتّذكير بفضل الله عليهم، إذ استخلفهم في الأرض، ومكّن لهم بالقوة والنّفوذ كما وصفتهم آيات هود والشّعراء، وفصّلت بالقوة والبطش: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (الشعراء: ١٣٠). فمثل هذه النّعم تستوجب الثّناء والحمد والشّكر للمنعم.

وقوله تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾: تحتمل كلمة "خلق" معنيين:

أ)- الخلق بمعنى المصدر، فهي بسطة في القوى البدنية والعقلية.

ب)- الخلق بمعنى النّاس، فتكون بمعنى السّلطة والنّفوذ وسعة الملك.

والله تعالى يمنح ذلك لمن يشاء من عباده ابتلاءً واختبارًا لينظر كيف يعملون، فكيف كان جواب القوم؟.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ﴾:

هذا الاستفهام الإنكاريّ لإتيانه بالرّسالة الدّاعية إلى توحيد الله، يفيد عدم اقتناعهم بالرّدّ الذي جاءهم به هود عليه السلام وهو يحاورهم بذلك الأسلوب اللّطيف.

فهم ما يزالون يعتبرون ما وجدوا عليه آباءهم هو الدّين الصّحيح، وكلّ عدول عنه هو ضلال وسفاهة.

ويبلغ بهم العناد والغرور بالقوة إلى حدّ التّحدّي والسّخرية فيقولون له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: وكان تذكيرهم باستخلاف قوم نوح بعدما أصابهم من الطّوفان تعريض لهم بما سيصيبهم إن هم تمادوا على ضلالهم بدليل قوله بعد دعوته لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

والإنسان عندما تأخذه نشوة القوة وتسيطر عليه نخوة الكبرياء يتحدّى كل وعيد ويستعجل مصيره غير مبال بالعواقب، وقوم عاد نموذج للتعالي والاغترار بالقوة، إذ لم يصدّقوا رسولهم في ما أنذرهم به من العذاب، ولذلك عقّبوا تحدّيهم له بهذا الشّرط: ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ حتى إذا ظهر عجزه -في اعتقادهم- اعترف أنه كاذب في دعواه كما وصفوه بذلك.

ولكن ردّ الرّسول كان حاسما: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

أنبأهم بما قضى الله به لهم من عذاب واقع لا محيد عنه، وأنّ غضب الله وسخطه لا حق بهم -لا محالة- وعبّر عن ذلك بالفعل الماضي في مكان المضارع لتحقّق وقوعه، وعطف غضب الله على الرّجس لبيان ما فطرت عليه نفوسهم من الخبث والفساد الذي استحقوا به ذلك العذاب. ثم عاد إلى محاجتهم ناكرا عليهم سوء معتقدهم في شأن الأصنام التي وضعوا لها أسماء مقلّدين آباءهم على غير علم ولا هدي. وهي كما ذكره المؤرخون: صمود وهتار وصُداء. وهي أسماء لا حقائق لها في الواقع لانتفاء خصوصية الإلهية عنها، وليس لهم من الله حجة ولا برهان على ما يعتقدون فيها من شفاعة ووساطة.

ويعقب محاجته لهم بهذا التهديد: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾، فهو مواجهة للتحدّي بمثله، والرّسول واثق بنصر الله، ولكلّ من الطّرفين مناط قوته واعتداده، ولكن شتان بين هشاشة الباطل وصلابة الحق، وكلاهما منتظر لما يقضي الله به، حقًا للعصاة المتجبّرين، وإنجاءً ونصرا لرسله والمؤمنين معه.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾:

إنها رحمة الله الغامرة لعباده، وإنها من الله ذي القوة المتين، لمن؟، لعباده المؤمنين، بينما الحق والاستئصال للمكذّبين الضّالين. وقد بيّن الله تعالى وسيلة استئصالهم بأنها ريح صرصر عاتية كما قال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا تُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ (الأحقاف: ٢٤-٢٥). أعاذنا الله من سخطه وعذابه.

والله أعلم

قصة صالح عليه السلام مع قومه

أ)- النص:

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ

ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿بَيِّنَةٌ﴾: معجزة خارقة للعادة تدلّ على صدق صالح بأنه رسول من الله. ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾: إضافتها للفظ الجلالة لتعظيم شأنها، قيل بأن الله خلقها على خلاف سنته في خلق الإبل وأنها ليست ملكا لأحد بعينه. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾: أي لا يتعرّض لها أحد بشيء يسوءها في نفسها أو في أكلها ولا في شربها. ﴿بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي أنزلكم فيها، فهي مباءة ومنازل لكم. ﴿سُهُولِهَا﴾: جمع سهل، وهو الجزء المستوي من الأرض، ضدّه الحزن والجبل. ﴿قُصُورًا﴾: والقصر هو المسكن الفخم. ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: من النحت، وهو بَرْيُ الحجر أو الخشب على شكل مخصوص. ﴿لَا تَعْثَوْا﴾: بالثاء المثلثة، من عَثَى يَعْثَى عُثِيًا، وهو الإفساد الشديد. وعتا يعتو عَتوا بالتاء المثناة تجاوز الحدّ في الكبر والفساد. ﴿عَقَرُوا النَّاقَةَ﴾: العقر: أصله الجرح البليغ، ويطلق على قطع عضو الحيوان. ﴿أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾: أي أصيبوا باضطراب الأرض، وقد يتسبّب ذلك عن حوادث سماوية كالرّياح والصّواعق أو بالزّلازل والبراكين. ﴿جَاثِمِينَ﴾: الجثم: الانكباب على الصّدر في الأرض، وهو كناية عن الموت.

ج)- التّعريف بصالح وثمود:

أ)- هو صالح بن عبيد بن أسيف بن ماشج بن عبيد بن حادر بن ثمود، وكان من أشرف قبيلة ثمود نسبا وأعلاهم حسبا، وأخوّته لثمود هي أخوّة نسب على ما رجحه كثير من المؤرخين، وقيل: هي أخوّة الدّين. ذكر اسمه تسع مرات.

ب)- وثمود قبيلة عظيمة من العرب البائدة قبل إبراهيم عليه السلام اشتهروا بعد هلاك قوم عاد، وكانت مساكنهم بـ"الحجر" بين الحجاز والشّام إلى وادي القرى، ومدائنهم ظاهرة إلى اليوم تسمّى بمدائن صالح.

ج)- ثمود: يمنع من الصّرف بإرادة القبيلة للعلمية والتّأنيث. ويُصرَف بتأويل الحيّ، أي علمٌ لمذكر.

د)- البيان والتّفسير:

قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود ترد في القرآن مفصّلة أو مختصرة، وغالبا ما تذكر مرتبة باعتبار زمن ظهورهم بدءا بقصة قوم نوح ثم قوم هود، ثم صالح مع ثمود. وفي النّصّ ما يدلّ على وجودهم وظهورهم بعد قوم عاد إذ قال لهم صالح: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾.

إن قصة صالح مع قومه واستعراض أحداثها هنا باختصار تندرج في نسق قصة مسار البشرية على نهج الله بدعوة وجهاد من رسله، وما تصاب به من نكسات إذا طال بها الأمد بين رسول وآخر. فهؤلاء قوم ثمود وقد زيّنت لهم الأرض فبنوا وشيّدوا ونحتوا وزرعوا حتى انغمسوا في الحياة المترفة التي تجرّ -غالبا- إلى الفسوق والعصيان. وما كان صلاح الأرض ليستمرّ إذا هم تمادوا على ذلك، حتى إذا بعث الله رسولا منهم لينذرهم، احتدم الصّراع بين الحق والباطل فيلقى

الظّالمون جزاءهم. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

والتّقدير في المعطوف كما سبق: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ليدعو قومه إلى عبادة الله وحده كما فعل من سبقه من رسل الله.

إنّها نفس الدّعوة بنفس الأسلوب، وكعادة المكذبين في موقفهم من دعوة الرّسول إذ يطلبون منه أن يأتيهم بمعجزة من الله تدلّ على صدقه، كما بيّن الله ذلك بقولهم في غير هذه الآيات: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (سورة الشعراء:١٥٤). ولكن السّياق هنا لم يذكر ذلك الطّلب منهم، بل ذكر الآية التي طلبوها مباشرة عقب تبليغ الدّعوة فقال: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إنّها بيّنة عظيمة دالة على صدق نبوة صالح، وهي من الرّبّ تعالى شاهدة على ذلك، ومجيئها تمّ بقدرة الله، وليس لصالح في ذلك إرادة ولا كسب مما يكون في مقدرة البشر. ويؤيّد ذلك إضافتها إلى لفظ الجلالة. ثم قوله: ﴿لَكُمْ آيَةً﴾ يقتضي تخصيصهم بها وكونها آية للإقناع والتّصديق. ولم يتوسّع النّصّ هنا لذكر ميزات تلك النّاقة ولا بيان خصائصها سوى كونها آية من الله تعالى، وأنها ناقة الله وفيها آية منه، مما يدلّ على أنها ناقة غير عادية. ولذلك طلب الرّسول منهم أن يعاملوها معاملة خاصّة فقال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إنها ناقة الله، عظيم شأنها، ترتع كما شاءت في أرض الله، فكلاهما ملك لله، ترعى الكلأ وفق ما تشتهيه بعيدة عن قيود الإنسان لمنع هذا الحق عنها. ولضمان ذلك الحق المطلق لها نهاهم صالح عن أن يمسّوها بأي سوء في ذاتها أو في مأكلها

ومشربها كما فصّلته الآيات الأخرى من سورة القمر في قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ (٢٨). وقوله في سورة الشعراء: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ (١٥٥). ثم ربط أمنهم وسلامتهم من العذاب بأمن وسلامة تلك الناقة فقال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾.

ثم ذكّرهم بنعم الله عليهم بالخلافة في الأرض وتسخيرها لهم في التمتع بخيراتها والتفنن في النحت والبناء والتشييد: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾.

هذا التفصيل في ذكر أنواع المساكن التي اتخذوها ما بين القصور والبيوت يدلّ على اتساع عمرانهم، وتمكّنهم من فنون البناء والنحت بحيث تعدّدت أنواع مساكنهم صيفاً وشتاءً.

وفي السّور الأخرى وصف آخر لزراعتهم وجناتهم كما في سورة الشعراء إذ قال تعالى على لسان رسولهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾. (١٤٦-١٤٨). دعاهم صالح إلى تذكّر تلك النعم لأن ذلك يبعث على شكر المنعم. وأداء حق النعمة يتمّ بحسن استغلالها في ما فيه الخير والنفع، ولا يتأتّى ذلك إلا بالاستقامة على طريق الله اعتقاداً وسلوكاً. أمّا إذا طغى الإنسان وقد استغنى بما لديه ونكص عن ذكر ربّه، فإنه يرتطم في حمأة الفجور والفساد، ولا يكاد يفيق حتى يفقد تلك النعمة فيندم على ما فرط منه ولات حين مندم، ولذلك نهاهم عن الوقوع في الفساد وقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. وأعظم فساد ينجرّ عن الترف والبذخ هو الإسراف والتبذير قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ (الإسراء:٢٧).

وغالبا ما تختلّ الموازين الاجتماعية عند تفشّي ظاهرة الفساد بالإسراف والتبذير، فتبتعد الشُّقّة بين الفقراء والأغنياء وتعظم الفوارق الاجتماعية بين النّاس فإذا هم فريقان: أغنياء مستكبرون وفقراء مستضعفون.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الذينَ اسْتَكْبَرُواْ من قَوْمه للذينَ اسْتُضْعفُواْ لمَنْ ءامَنَ منْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبّه قَالُواْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ به مُومنُونَ، قَالَ الذينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بالذي ءامَنتُم به كَافرُونَ﴾:

تحوّل الحوار إلى قوم صالح وفيهم مؤمنون وكافرون، وقد طوى السّياق ذكر ذلك، إذ هو مفهوم من خلال الحوار بين الفريقين، ولكنه اختار وصف المستكبرين وقابله بالمستضعفين، وكان الأوّلون من سادات القوم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الذينَ اسْتَكْبَرُواْ من قَوْمه﴾، وهؤلاء يخالفون كلّ من ينازعهم في سلطانهم، ويحاربون كلّ دعوة تسوّيهم بالمستضعفين من المجتمع، فهم يقفون منهم موقف السّخرية والاستهزاء إذ يسألونهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبّه﴾؟.

ولكن المستضعفين المؤمنين يجيبون في ثقة وثبات: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ به مُومنُونَ﴾، وهم يؤكّدون موقفهم بـ"إنّا"، وبإبراز ما آمنوا به على صيغة الموصول وصلته: ﴿بِمَآ أُرْسِلَ به﴾، لأن الإيمان برسالة صالح أو عدمها هو مفرق الطّريق بين الفريقين. فكان جواب العتاة المستكبرين: ﴿إِنَّا بالذي ءامَنتُم به كَافرُونَ﴾.

جاء الرّدّ مقابلا لما ورد في كلام المستضعفين في المبنى ليدلّ على تصلّب كل فريق في موقفه، لأن التّباين في المواقف هو على أساس الإيمان والكفر. يقول صاحب المنار: "ولم يقولوا: إنّا بما أرسل به كافرون، لأنه يتضمّن إثبات أصل الرّسالة له، ولو قالوه لكان شهادة منهم على أنفسهم بأنهم جاحدون للحق على

علم لمحض الاستكبار".[1]

ولم يقف المستكبرون عند حدّ التهكّم والسّخرية بالقول، بل عمدوا إلى الإساءة بالفعل استخفافا بتهديد صالح أن يصيبهم عذاب أليم إن هم اعتدوا على ناقة الله.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾:

كانوا قد تواطئوا على هذه المخالفة كما يرويه التّفسير النّقلي بأن عاقر النّاقة -وهو أحد المستكبرين- قال لهم: لا أقتلها حتى ترضوا أجمعين. وقد فعلوا ذلك تكاية بصالح عندما يزيلون عنه آية الله الدّالّة على صدقه وأمانته، وبذلك يقطعون السّبيل على نشر الدّعوة وازدياد المؤمنين بها.

وينتهي الأمر بهؤلاء المستكبرين إلى حدّ العتوّ والاستهتار بوعيد الله، في آخر سافر لرسوله أن يأتيهم بما توعّدهم به. وما كان الله ليخلف وعده وليس هؤلاء المستهترون قديما وحديثا بمعجزين في الأرض بقوتهم وطغيانهم، وإن هي إلا ثلاثة أيام حتى قُضي أمر الله، كما ورد تفصيل ذلك في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (هود:٦٥). وقال هنا: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

إنها رجفة العذاب، وهي جزاء وفاق للعلوّ والاستكبار. والرّجفة المرّة من الرّجف، فهاهي الأرض التي متعتهم بخيراتها حتى حدّ التّرف والاستكبار تتحرك وتضطرب بهم، فيأخذهم الفزع ولا ملجأ يحميهم من عذاب الله. وفي آيات أخرى ذكرت الصّيحة والصّاعقة، وأيًّا كانت وسيلة العذاب بمثل هذه الآفات

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٨/٥٠٥.

الطّبيعية، فإن القوم المستكبرين قد صعقوا في ديارهم وأصبحوا جثثا هامدة جاثمين على ركبهم في صورة ذلّ، جزاء وفاقا على تعاليهم وتكبّرهم في الأرض.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾:

وهـــنا -أيضا- طوى السّياق ذكر إنجاء صالح والذين آمنوا معه من عذاب الصّـــاعقة، واكتفى بتولّي صالح عقب ذكر حلول العذاب. والتّولّي هو الانصراف عن غضب مع عدم الاكتراث بالمتولّى عنهم، وقوله لهم: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَـــحْتُ لَكُمْ﴾ للتقرير على أنّه قد قام بواجبه في التّبليغ على أحسن وجه، ليتبرأ إلى الله مـــن عدم اهتدائهم، لأنهم رفضوا النّصيحة، فيجوز أن يكون صالح قد قال ذلـــك لهم قبل نزول العذاب، كما فصّلته الآيات الأخرى، وهو التّرتيب الأصلي للأحـــداث، كمـــا يجوز أن يكون قد قالها لهم بعد أن هلكوا تحسّرا وتحزّنا عليهم وإشفاقا لأنهم رفضوا نصحه، فألقوا بأيديهم إلى التّهلكة.

والله أعلم

قصة لوط عليه السلام

أ)- النص:

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَتَـأْتُونَ الْفَاحِشَـةَ﴾: أتى المرأة أو الرّجل بمعنى غشيَ، أي تلبّس وعمل الفاحشة، وكنّى بالإتيان على العمل المخصوص في العملية الجنسية. ﴿الْفَاحِشَةَ﴾: كـل فعـل دنيء ذميـم. ﴿سَبَقَكُم﴾: السّبق حقيقته وصول الماشي إلى المكان المطلـوب قبل وصول غيره، ويستعمل مجازا في التّقدم في الزّمان. ﴿شَهْوَةً﴾: من شـهِي يشهَى: الرّغبة في تحصيل شيء مرغوب فيه. ﴿أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: التّطهّر: تكلّـف الطّهارة، وتطلق مجازا على تزكية النّفس والحذر من الرّذائل. ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾: أي من الهالكين، ويطلق "الغابر" على المنقضي وعلى الآتي، أي هو من أسمـاء الأضداد. ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾: يقال: مطرهم السّماء، أي نزل عليهم ماء المطر من السّماء. ويقال: أُمطِروا -بالهمزة- بمعنى نزل عليهم من السّماء ما يشبه المطر، أي أن "مُطِروا" للرحمة و"أُمطروا" للعذاب.

ج)- التّعريف بلوط وبقرى قومه:

أ)- هـو لوط بن هاران، أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، فإبراهيم عمّه، وسمّي لوطـا، ومعناه اللّغوي من لاَط يلوط: التصق، أي التصق حبّه بقلب عمّه إبراهيم، وقـد آمن به لوط وكان معينا ومصاحبا له في رحلته بين العراق والشّام ومصر. ثم نزل إبراهيم بفلسطين ونزل لوط في شرق الأردن.

ب)- وقـوم لوط هم خليط من الكنعانيين وممن نزل حولهم، وكانت لهم قـرى بقرب البحر المَيت ويسمّى ببحر لوط. وقرية "سدوم" هي أكبرها، سكنها لـوط، وقـد اشـتهر أهلها بفعل الخبائث دونما حياء، فوعظهم لوط ونصحهم وخوّفهـم من عذاب الله فلم يرتدعوا حتى أهلكهم الله. ولم يوصف لوط بالأخوّة لقومه إذ لم يكن من قبائلهم، بل هو نزيل ديارهم.

د)- أوجه القراءة:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾: قرأ نافع والكسائي وحفص عن عاصم وأبو جعفر: ﴿إِنَّكُمْ﴾ بهمزة واحدة مكسورة -بصيغة الخبر- وقرأه الباقون: "أإنكم" بهمزتين على صيغة الاستفهام الإنكاريّ. ﴿وَلُوطًا﴾: معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ (الأعراف:٥٩). أو يقدر له فعل "واذكر لوطا". وابتدئت القصة بذكر اسمه خلافا لعاد وثمود، لأنه لم يكن لقومه اسم يعرفون به. وحذف متعلق الإرسال من الدّعوة إلى عبادة الله للعلم بذلك ممّا قبله ومما ذكر في غير هذه السّورة.

هـ)- البيان والتّفسير:

تعالج كلّ قصة من قصص الأنبياء مع أقوامهم نوعا من المنكرات والانحرافات التي تهدّد كيان المجتمعات البشرية إن لم تجد من ينهى عنها ويصلح الأوضاع المتعفّنة. وأفظع تلك المنكرات شناعة وأعظمها إضراراً بالأخلاق والآداب وبالصّحة العامّة ما نسمّيه اليوم "الشّذوذ الجنسيّ". وقد ابتدع قوم لوط هذا المنكر الشّنيع ومارسوه جهرة حتى أصبح لديهم الوسيلة المختارة لممارسة شهواتهم. فبادرهم لوط عليه السلام بالموعظة والنّصح، إذ أرسله الله إليهم فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

لم يرد على لسان لوط عليه السلام دعوة قومه إلى عبادة الله ووحدانيته، كما وردت في القصص السّابقة، بل تعرّض مباشرة إلى ما هم عليه من انحراف خطير في فطرتهم، ذلك لأن الانحراف في الفطرة إلى تلك الوضعية الشّاذة التي ابتدعها قوم لوط، إنما تنتج عن الانحراف الاعتقادي وفساد التّصوّر في حقيقة الألوهية وما يتّصل بها من الإيمان بالغيب، كما تنمّ عن ذلك جاهلية اليوم، حين تجرّدت عن

تعالـــيم السّماء في نظرتها إلى الحياة والكون والإنسان، إذ وضعت لحياتها قوانين لا تخـــدم إلا الجانـــب المـــادّي والشّهواني عند الإنسان، إلى درجة سنّ قوانين تقرّ بالشّذوذ الجنسي عند الرّجال والنّساء وتحمي علاقاتهم بالرّباط الرّسمي.

لقـــد جابـــه لـــوط قومه مباشرة إثر الإرسال إليهم فقال منكرا وموبّخا: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾؟

إن مـــا يـــأتون بـــه فعلة هي في منتهى القبح والدّناءة، وإنها من مبتدعاتهم المـــنكورة لم يســـبقهم فيها أحد من العالمين، فأصبحوا بذلك قدوة سوء لغيرهم يـــتحملون وزرهـــا ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. وقد تأكد النّفي بـــ"من" للدلالـــة عـــلى معنى الاستغراق لكلّ البشر، فهم غير مسبوقين من غيرهم في تلك الفعلة الشّنعاء.

﴿إِنَّكُـــمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: بيّن الإتـــيان المجمـــل في الجملة السّابقة بهذه الجملة المستأنفة التّفسيرية: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ بيّن أن هذا النّوع من الاستمتاع الجنسي انحراف عن طبيعة الفطرة السّليمة التي اقتضتها حكمة الله بالتقاء الذّكر والأنثى وكلّ منهما مهـــيّأ جسديا ونفسيا للالتقاء الجنسي بالكيفية التي سنّها الله في زوجية كلّ شيء لامـــتداد الحـــياة وضمان بقاء النّوع. والخروج عن هذه السّنة الفطرية لمجرّد اللّذة والشّهوة بأخسّ الوسائل، إنما هو انحراف وشذوذ، كلّما داوم صاحبه عليه وكرّره -كما يدل على ذلك المضارع في الجملة- ازداد تمسّكا به فأصبح من المسرفين،

ولم يذكـــر مـــتعلق الإسراف ليدلّ على عمومه في كل الأعمال الأخرى، والإســـراف في العمل الخيري رذيلة، فكيف به إذا كان في الأعمال الخبيثة؟. إذ لم يقتصـــر قـــوم لوط على هذه الرّذيلة من المنكرات، بل تعدّوها إلى فواحش أخرى ذكرها المولى تبارك وتعالى في سورة العنكبوت فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ

لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ (٢٨-٢٩).

وقد أجمع العلماء على أن هذه الفعلة الشّنعاء هي من كبائر المعاصي إذ عدّها الله تعالى من الفواحش والخبائث، إلا أنهم اختلفوا في عقاب الفاعل والمفعول به، إذ لم تقع حادثة من هذا النّوع في عهد رسول الله -وكان العرب يستقذرون ذلك من طبعهم-، ولم يرد نصّ موثوق به في عقاب الجاني. وفي خلافة أبي بكر ﷺ حدثت هذه الفاحشة من رجل فجمع الخليفة أصحاب رسول الله واستشارهم في عقابه فقال علي -كرّم الله وجهه-: أرى أن يحرق بالنّار كما فعل الله بقرى قوم لوط. فاجتمع رأي الصّحابة على ذلك.

وقد لخّص الإمام الغزالي أقوال الأئمة في ذلك فقال: "اللّواط يوجب قتل الفاعل والمفعول على قول، والرّجم بكلّ حال على قول، والتّعزير على قول، وهو كالزّنى على قول".

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾:

لم يتلقّ الرّسول من قومه جوابًا في تبرير ما يفعلون، أو اعتذارًا في ما يرتكبون، بل همّوا بإخراجه من قريتهم هو ومن آمن معه، وعلّلوا ذلك بأنهم أناس يتطهّرون أي يتنزهون عن مشاركتهم في ذلك الرّجس والخبث، ذلك لأنّ السّفيه في تدبيره والمأفون في تفكيره لا يطيق تحمّل النّصح والإرشاد، وهو يأنف معاشرة من لا يشاركه في خبثه وانحرافه. فكان من قوم لوط ذلك الجواب السّاخر، وهم من فرط الخبث والدّناءة يفخرون بما هم فيه، ويتضجّرون ممن ليس على شاكلتهم، وتلك هي حالة الغواة المستهترين في المجتمعات الموبوءة، وصفوا لوطا وأهله بالتّطهّر -وهي صيغة التّكلّف- تهكّما وازدراء.

وهكذا تُقلب الحقائق، وتداس الكرامات، وتعاب الفضائل من طرف الماجنين الفسّاق حتى يصبح التّحلّي بها ذمّا ونقصا، وإذ بلغوا هذا الشأو من التّحدّي والاستهتار وقالوا للوط ما قاله من قبلهم: ﴿قَالُواْ ائتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (العنكبوت:٢٩). قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

إنها سنّة الله في الذين خلوا من قبل، بعد قيام الحجة عليهم بدعوة الرّسول ونصحه، ينجي المؤمنين مع رسولهم قبل نزول العذاب. وقد تقدمّت نكتة تقديم الإنجاء على ذكر العذاب في القصص السّابقة. وأهل لوط هم من آمن به وحدهم قيل: من آل بيته وحدهم، وقيل: منهم ومن غيرهم أيضا. غير أنّ امرأته استثنيت فكانت من الهالكين إذ خانت زوجها وركنت إلى قومها. ويرجّح الإمام ابن عاشور أن هذه ليست هي بأمّ بناته، ولعلها من أهل "سدوم". تزوّجها لوط هناك بعد أن هلكت أمّ أولاده وقبل أن يرسل.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾: يقال: أمطر، لإنزال العذاب، وهي حجارة من سجّيل كما نصّت عليه آية هود. والسّجيل هو الطّين المحترق بالنّار، وهي مشوبة بحمرة، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود:٨٢-٨٣).

إنّه عذاب مضاعف أليم ينمّ عن غضب الله الشّديد على أهل هذه القرية الفاسقة، إذ أتاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، أمّا كيف وقع وما نوع تلك الحجارة، وهل اقتلعتها الأعاصير من الأرض فحملتها، أم هي حمم البراكين، فليس في تفصيل ذلك فائدة والله تعالى يقول: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم

بَأْسُ بَعْضٍ﴾ (الأنعام:٦٥). فاللّهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنّار، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرّسول فاكتبنا مع الشّاهدين.

والله أعلم

قصة شعيب مع مدين (١)

أ)- النص:

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: البيّنة هنا يحتمل أن يكون المراد المعجزة الخارقة للعادة، ولم يذكرها السّياق، ويحتمل أن يكون الحجة التي أقامها شعيب على بطلان ما عليه قومه. ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾: إيفاء الكيل إتمامه. و﴿الْكَيْلَ﴾: يطلق على ما يكال به أي "المكيال" ويطلق على عملية الكيل. والمكيال والميزان أداتان تقدر بهما كمّية الأشياء عند التّعامل، ومقدراهما مضبوط عالميا. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ

﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾: البخس: هو إنقاص شيء من صفة أو مقدار هو حقيق بكمال في نوعه يتعدّى إلى مفعول واحد، وإن تعدّى إلى مفعولين كما في هذه الآية الكريمة فهو على معنى التحويل، والتقدير: "ولا تبخسوا أشياءَ النّاس". ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: هو شامل لكلّ ما يفسد نظام المجتمع أدبيا ومادياً وقد تقدم نظيره في هذه السّورة. ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾: النّهي عن التعرّض للناس لصدّهم عن الإيمان وتهديدهم بالشّر وهو الإبعاد. ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: العِوج -بكسر العين- عدم الاستقامة في المعاني، والعَوج -بفتح العين- عدم استقامة الذّات. ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾: أي يسّر الله لكم أسباب الكثرة بزيادة التناسل والحفظ من أسباب الموت.

ج)- التّعريف بشعيب ومدين:

أ)- هو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم. وقيل غير ذلك في نسبه، بعثه الله إلى أهل مدين وهو منهم. وقد ذكر في القرآن عشر مرات، وقصته في تزويج إحدى ابنتيه لسيدنا موسى عليه السلام مفصّلة في سورة القصص إذ مكث عنده أجيرا لمدة عشر سنوات.

ب)- وقومه "مدين" هم أبناء مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام، ومدين بن إبراهيم هو من زوجه الثّالثة التي كانت سرّيته فتزوجها في آخر عمره. وتشكّل "مدين" أمة كبيرة، ومواطنهم بين الحجاز وخليج العقبة بقرب ساحل البحر الأحمر. وكان شعيب من قرية "أيكة" ويقال إنها "تبوك". وقد تعرّبت "مدين" بمجاورة الأمم العربية. وكانوا في فترة شعيب عليه السلام تحت ملوك مصر. فهم من العرب المستعربة، وذكرهم القرآن بثلاثة أسماء: مدين، أصحاب الأيكة، أصحاب الرّسّ.

د)- البيان والتّفسير:

نحن أزاء صفحة أخرى في مسار موكب الإيمان وإصلاح المجتمعات البشرية. فبعد قصة لوط وهلاك قومه يتجدّد النّسل ويتمدّد العمران مرة أخرى، ويبارك الله تعالى في ذريّة من نجا من الهلاك. وقيل: إن جدّ هذه القبيلة مدين بن إبراهيم قد تزوّج من ابنة لوط عليه السلام، فولدت له خمسة من الأولاد، تفرّعت عنهم بطون مديـن. وكان لموقع بلدهم على طريق مصر والحجاز أثر كبير في اتساع دائرة تعاملهم، غير أنهم مارسوا أنواعا من الحيل والمخادعة في معاملاتهم بتطفيف الكيل والوزن، وفي ذلك من الغشّ والظّلم ما لا تصلح به أوضاع المجتمع. فبعث الله إليهم شعيبا يدعوهم إلى حظيرة الإيمان الصّحيح، وينهاهم عن ذلك التّعامل القبيح فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ، إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قصة شعيب تأتي في السّياق مطوّلة بالنّسبة لما سبق، ويقع الشّطر الأول منها في نهاية الجزء الثّامن إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (الأعراف:٨٧). والجزء الثّاني منها يقع في مفتتح الجزء التّاسع ابتداء من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾ (الأعراف:٩٠).

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها هو كما تقدم في قصة صالح. ودعوته الأولى لقومه هي كغيرها من دعوات رسل الله لا تبديل فيها ولا تغيير، إذ هي الأساس الذي ينبني عليه كل تغيير وإصلاح للأوضاع الفاسدة في السّلوك أو التّعامل. ولا بد لكلّ رسول من معجزة تؤيّد صدق رسالته، كما ثبت

ذلك عن رسول الله ﷺ إذ قال فيما رواه الشّيخان عن أبي هريرة قال: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**».[1]

قلت: إن المعجزة قد تكون مادية خارقة للعادة، وقد تكون معنوية من قبيل الحجج العقلية الدّامغة تفحم الخصم وتلزمه الحجة، كما بيّنه رسول الله بالنّسبة إليه. وبالنّسبة لمعجزة شعيب عليه السلام فإن القرآن لم يبيّن نوعها، وأيّا كان نوع تلك المعجزة فإنّ شعيبا قد مهّد بذكرها لقومه بين يدي دعوته، ورتّب عليها نصحه وإرشاده لهم، وهو واثق من إثبات صدقه بتلك البيّنة. فلا داعي لضروب التّأويلات التي أوردها المفسّرون في بيان تلك البيّنة.

﴿فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ﴾:

فرّع على بيان صدقه بمجيء تلك البيّنة الأمرَ بإيفاء الكيل والميزان والنّهي عن بخس النّاس أشياءهم، وذلك مطلوب في التّعامل التّجاري من بيع وشراء، حتى يكون نزيها يقوم على التّراضي والسّماحة بين المتعاملين. وكان قوم شعيب قد ازدهرت تجارتهم بحكم موقع بلادهم على طريق القوافل بين الحجاز والشّام ومصر، ولكنهم مالوا إلى ما نعبّر عنه في هذا الوقت "الرّبح السّريع". وذلك بالغش والخيانة وتطفيف الكيل والوزن، أو بالتّدليس في الثّمن وبخس الحقوق بصفة عامّة في المبيعات الأخرى، بل حتى في الحقوق المعنوية -وبا ما أكثرها في هذا الزّمان-

---

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، حديث ١٥٢؛ ورواه البخاري من حديثه أيضا، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي، حديث ٤٦٩٦.

لأن المؤمن الحقيقي سمح إذا باع، سمح إذا اشترى، سمح إذا اقتضى كما قال رسول الله.

وللتجار المتعاملين حيل ووسائل للتزييف والغش والمخادعة قد لا يضبطها القانون، ولكنها في حكم الله سحت وفساد في الأرض. ولذا نهى شعيب قومه بعد ذلك عن الإفساد في الأرض بعد ما أصلحها الله تعالى بدعوات رسله وأحكام شرائعه وهو نهي عام يشمل كلّ فساد في العقائد والسّلوك والآداب الاجتماعية مما تعارف عليه النّاس أنه خير وصلاح.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: الإشارة إلى كلّ ما تقدم من الأوامر والنّواهي بأنها كلّها خير وصلاح لمعاشكم ومعادكم، لا إعنات فيه ولا مشقة إذا ما تحمّلتم بصدق وإخلاص تبعات الإيمان بالله ورسله وباليوم الآخر. وذلك يقتضي منكم امتثال الأوامر واجتناب النّواهي بدافع من خشية الله وتقاه، لان ذلك هو الحارس الأمين لصلاح النّفس وخيرية المجتمعات البشرية.

﴿وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾:

يبدو من تأخير هذا النّهي إلى ما بعد ذكر تلك الأوامر والنّواهي من شعيب لقومه، أنهم ضاقوا ذرعا بدعوته، وأن فريقا من قومه قد آمن به واستقام على طريقه السّوي، فبدأت المواجهة بين الفريقين وأخذت طابع العنف والتّهديد بترصّد النّاس في كلّ طريق وصدّهم بالقوة تارة وبالتمويه والتّضليل أخرى، أي أنهم حاصروا دعوة شعيب داخليا وخارجيا حتى تبقى حبيسة في نطاق بلده وبين أهله وأقاربه، وهم يصدرون عن خبث مقصد ونية دنيئة بإرادتهم العوج والانحراف عن سبيل الله المستقيمة، وينشرون الرّعب والهلع بكبت الحرّيات الشّخصية وتضييق

الحـــريات الجماعـــية، وذلك أسوأ وضع يعيشه مجتمع يسود فيه الدّهماء ويستأسد البغاث.

ويعـــد ذلك الزّجر والمنع لمثبّطات الدّعوة، استعمل شعيب بعض المؤثرات المعـــنوية في نصحه وذلك بتذكيرهم بما كانوا عليه من ضعف وقلّة، وكيف كانت نعمـــة الله علـــيهم بمـــباركة نســـلهم وتكثير عددهم: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾.

ومـــا تحدي الكثرة الغثائية، حين يتخلّى النّاس عن عبادة الله واتّباع منهجه السّـــوي، ولم يعتـــبروا بمصير المفسدين، سيما ما كان من مصير قوم لوط وقوم صالح، وهم غير بعيدين من مواطنهم.

﴿وَإِن كَـــانَ طَآئِفَـــةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِالَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾:

وإذ يستنفد شعيب جهده في دعوة قومه إلى الله وإصلاح أوضاعهم المتعفّنة، وقـــد آمن منهم من آمن وكفر من كفر، فلم يبق إلا انتظار حكم الله الذي يفصل بـــين الفـــريقين بمـــا هو عدل وحق: ﴿فَاصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

وحكـــم الله هنا هو إنفاذ وعده ووعيده في الدّنيا بالنّصر والتّمكين لأوليائه، وبالعذاب والمحق لأعدائه، والظّاهر أن الخطاب للفريقين لأن كلا منهما ثابت على موقفـــه، ومـــن حسن كياسته أن يقحم نفسه في المحكوم بينهم لدخوله في فريق المؤمـــنين. والله خير الحاكمين عدلاً وجزاءً وفاقًا للفريقين لا تتخلّف سننه الكونية في تربيـــته لخلقـــه: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:٦٢).

فهلاّ اعتبر المسلمون اليوم بعرض واقعهم المعيش المؤسف على أحكام القرآن حتى يدركوا مواطن الخلل ويعملوا على تصحيحها، عسى الله تعالى يغيّر من أحوالهم؟؟.

فاللّهم أعزّ الإسلام وأهله، ولا تجعلنا فتنة للقوم الظّالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين، آمين، والله أعلم.

قصة شعيب مع مدين (٢)

أ)- النص:

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: العَوْد: الرّجوع إلى ما كان فيه المرء من مكان أو

عمـــل، أي تـــرجعون إلى ديننا اعتقادا منهم أن شعيبا كان على ملتهم. غلبوا في الخطاب الجمع على الواحد. ويتعدّى "عاد" بـــ"اللام" و"إلى" و"في". ﴿وَمَا يَكُونُ لَـــنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾: أي ليس من شأننا ذلك، إذ نفى العود نفيا مؤكدا بـــ"لام" الجحـــود. ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾: الفتح: إزالة الإغلاق والإشكال، وهـــو إمـــا حسيّ يدرك بالبصر كفتح الخزانة والقفل ...إلخ، وإما معنويّ يدرك بالبصيرة كفتح مغاليق المسائل العلمية. فتح الحاكم بينهم: أي فصل وقضى بينهم. ﴿الرَّجْفَةُ﴾: الزلزلة الشديدة. ﴿جَاثِمِينَ﴾: باركين على ركبهم. ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾: أي هلكت قريتهم كأنهم لم يعيشوا فيها مطلقا. ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: أعرض عنهم. ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾: كيف أحزن وأغتمّ.

ج)- البيان والتفسير:

يتـــابع السّـــياق لتتمة قصة شعيب مع قومه بعد أن بلغت دعوته مداها في نهـــيهم عن المنكرات والآثام، وإنذارهم من الانتقام. وهنا تحدث المواجهة بين الحق والباطل، وينتفش الملأ الأشراف -وقد أصبحوا مهدّدين في مصالحهم- فيقولون في تـــبجّح واســـتعلاء، ورفض لكل مهادنة واستخذاء في نظرهم: **﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْـــتَكْبَرُوا مِـــن قَوْمِـــهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.**

أكدّوا تهديدهم بالقسم مرتين وهم يتوعّدونه ومن اتبعه بأحد أمرين:

أ)- الإخراج والطّرد من "القرية"، والمقصود بها البلد الواحد أو القطر.

ب)- عودهـــم إلى ملة الكفر، وإكراههم على ذلك اعتقادا منهم أن شعيبا كـــان عـــلى ملـــتهم، إذ أنّ كونه مهيّأ من طرف العناية الإلهية لأن يكون نبيّا لا يشـــارك قومه في ضلالاتهم، لا يستلزم أن يعلم ذلك منه قومه، لأنّ طهارة الأنبياء

من الشّرك أمر باطني، وتركهم للمنكرات أمر سلبي لا يشعر به النّاس.

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾: استفهام إنكاريّ من شعيب أمام هذا العرض المجحف من المستكبرين. إنه الرّفض الجازم من صاحب الدّعوة أن يتنازل عن أمرها، والسّعي لتركيزها ولو تطلّب ذلك التّضحية بالهناء والاستقرار في الوطن، وبالسّكن النّفسي في محيط الأسرة، ذلك لأن العقيدة الرّاسخة لا تتزعزع أمام التّهديد والوعيد، كما لا يغويها بريق الإغراءات والوعود، فها هو ذا شعيب يعلنها رفضا قاطعا وأن ذلك اعتداء على حق الله بالكذب والافتراء فقال: ﴿**قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ**﴾.

لم يكتف شعيبٌ بأسلوب الإنكار والتّعجّب مما عرض عليه قومه، بل ترقّى في الجواب، فبيّن استحالة عودهم إلى الكفر، لأن العود إليه يستلزم الكذب على الله، وقد أرسله لنشر كلمة التّوحيد، فنجّاه ومن معه من وهدة الضّلال والكفر، والتّعبير بضمير المتكلمين هو على وجه التّغليب، لأن شعيبا لم يكن على ملّتهم قط. وللزّيادة في تفظيع العود إلى ملة الكفر أكّد نفيه بـ"لام" الجحود لنفي شأن الأنبياء والمؤمنين أن يفعلوا ذلك ولتيئيس الكافرين أن يطمعوا في ذلك فقال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

ومع ذلك الجزم القاطع في الثّبات على هدي الله وجمع الإرادة عليه أمام أولئك الطّغاة المستكبرين، فإنّ شعيبا لم يكتف في بيان موقفه بالإرادة الإنسانية التي قد تخور وتتوهّن؛ بل تأدّب مع الله -وهو قدوة المؤمنين به- إذ استثنى من تلك الأحوال البشرية حال مشيئة الله، فهو لا يتألّى على الله ولا يجزم بشيء أمام قدره، لأن الثّبات على الإيمان والوفاة عليه مما يجب على المؤمن أن يطلبه من الله، وهو

وحده تعالى مالك للقلوب ومقلّبها كيف يشاء. وقد علّمنا الله تعالى أن نطلب منه ذلك في دعائنا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران:٨). وكان الرّسول ﷺ يدعو بهذا الدّعاء: «**اللّهم يا مقلّب القلوب، ثبّت قلبي على دينك**».[1]

ولا تكون أحوال البشر وتدبير شؤونهم إلاّ وفق ما ثبت في علم الله الأزلي الواسع الشّامل، إنه الأدب النّبويّ العالي مع الله في إرجاع الأمر كلّه إليه، لأن ذلك دليل الملك المطلق له تبارك وتعالى، ودليل من البشر على الدّيونة والخضوع.

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾: وأمام تحدّيه لجبروت القوم يجد السّند القويّ والملاذ الحصين في التّوكّل على الله القويّ العزيز وحده نابذا غيره، بتقديم الجار والمجرور ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ على فعل ﴿تَوَكَّلْنَا﴾. ويفوّض إليه أمر كفايتهم من تأثير الأعداء، بالنّصر عليهم وبالثبات على الإيمان، لأن ذلك نصرة للحقّ الذي دعا إليه شعيب، وقد يئس من إيمان المستكبرين من قومه، كما يئسوا هم من إمكان مساومته في العود إلى ملتهم.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾:

جاء هذا القول معطوفا على "قال الملأ" الأول، إذ الرّاجح أن القائلين هنا هم القائلون هناك، وكانوا بكلا القولين ضالّين مضلّين. ومن الإمعان في الكفر والطّاغوت أن يحاول المناوئون لرسل الله وللدعوات الإصلاحية صدّ النّاس عنها إمّا قهرًا أو دعاية لتوهين صفّ الأتباع، فهؤلاء الطّغاة يحذّرون قومهم من أتباع

١- رواه الترمذي من حديث شهر بن حوشب عن أم سلمة، كتاب الدبائح، أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، حديث ٣٨٩٥، وقال: هذا حديث حسن.

شعيب، إذ يخشون عليهم من قوة حجّته وصدق بيانه، فلجأوا إلى التّهديد مرة أخرى بقلب الحقائق ومحاولة التّأثير على من بقي على الكفر بأنهم إن اتبعوا شعيبا كانوا من الخاسرين، فأكّدوا قولتهم هذه بمؤكدات عدة ليُرسّخوا مضمونها في نفوس المستضعفين من القوم، ولم يذكروا متعلق الخسارة لتعمّ كلّ الأنواع التي يتحاشاها النّاس في أموالهم وأهليهم وشرفهم.

أمّا وقد بلغ التّحدّي منتهاه، فقد حلّ بهم عذاب الله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

كان لهم نفس المصير الذي كان لقوم صالح عليه السلام، فالجثوم على الرّكب هو الجزاء الوفاق على الطّغيان والاستكبار، فقد انتهى كلّ شيء وأصبح القوم في حيز كان، فمن يا ترى هو الخاسر؟.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾:

بيان مستأنف لنقض ما قاله الملأ لشعيب في المرة الأولى والثّانية، فمقابل التّهديد بإخراج شعيب ونفيه من بلده كان انتهاؤهم وهلاكهم بتدمير قراهم التي كانوا يظنون أنهم متمكنون منها، حتى كأنهم لم يعمروها ولم يقيموا فيها بناتا. وفي مقابل ادّعائهم الخسران لمن يتبع شعيبا جاء الحكم عليهم بالخسران وحصره فيهم، إذ جنوا على أنفسهم في ما أصابهم من اهلاك، بينما الذين اتّبعوا شعيبا كانوا هم الفائزين.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؟:

تشابه موقف شعيب مع موقف صالح بعد هلاك قومهما، وتشابه تعليقهما

عـــلى ما حدث، وبأسلوب التوبيخ والتقريع يتمّم شعيب التعبير عن مشاعره وهو يتحسّـــر ويتبرّأ من موقف قومه مخاطبًا نفسه على طريقة التجريد: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَـــوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾؟، فينفي عن نفسه خاطرة الحزن، إذ نصح قومه وأنذرهم، واســـتنفد جهده في تبليغ رسالات الله لهم، لو أنهم اتبعوها لما أصابهم ذلك الهلاك، ومن أنذر فقد أعذر. والله أعلم.

سنة الله في ابتلاء الأمم بالخير والشرّ

أ)- النص:

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قَرْيَةٍ﴾: تجمع على قرى، مجتمع القوم حيث الحضارة والاستقرار، وغالبا ما يبعث الرّسل في أمّ القرى مما نصطلح عليه اليوم "العاصمة". ﴿أَخَذْنَا﴾: الأخذ

مجاز في التناول والإصابة بالمكروه الذي لا يستطاع دفعه. ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾: البأساء: الشدة والضوائق كالحرب والجدب والفتن. والضراء: كل ما يضرّ الإنسان في نفسه أو في معيشته. ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾: يخضعون ويتذللون. ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا﴾: التبديل: تعويض شيء بشيء ويتعدّى إلى المفعول الثاني بـ"الباء" المفيدة معنى البداية ويكون ذلك المفعول الثاني. فالمدخول للباء هو المتروك والمفعول الأول هو المأخوذ، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقرة:٦١). ﴿عَفَوا﴾: كثروا ونموا، من قولهم: عفا النبات، كثر ونما. ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾: فاجأناهم بالعذاب. ﴿بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: البركة جمعه بركات: أي الخيرات الصالحة، وهي أحسن أحوال النعمة. وتكون حقيقته كالأمطار ونعمة الشمس والقمر، وما توفره الأرض من الأرزاق والمنافع، وتكون معنوية كالوحي والهداية والتوفيق. ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾: أي استدراجه خلقه بالنعمة وتدبيره الخفيّ الذي يؤدي إلى ما لا يحتسبه الإنسان.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ﴾: قرأ الجمهور: ﴿فَتَحْنَا﴾ بالفتح أي بالتخفيف، وقرأها ابن عامر بالتشديد أي من "التفتيح" الدال على الكثرة. ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر "أو" بسكون الواو بمعنى ألمنوا ذلك الإتيان أو هذا؟، وقرأ الباقون بفتح الواو، على أن الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف كالذي قبله. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾: فيه حذف وإضمار، دلّ عليه قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ والتقدير: وما أرسلنا في قرية من نبي إلا كذبه أهلها فخوّفناهم. ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾: جملة حالية استغنت عن "الواو" و"قد"، إذ لا يجتمعان مع حرف الاستثناء "إلاّ" إلا نادرا. ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾: مكر الله كناية

على استدراج الله لعبده والتّمهيد لعقابه، وتكررت الجملة للتأكيد وزيادة التّقرير.

د)- البيان والتّفسير:

مـــا يـــزال السّياق يفصّل قصص الأنبياء مع أقوامهم، بدءًا من قوله تعالى: ﴿لَقَـــدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (الأعراف:٥٩). إلى قوله في الآيات اللاحقة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ (الأعراف:١٠٣).

وتجـــيء هذه الآيات معترضة بين تلك القصص على طريقة أسلوب القرآن في اســـتخلاص العـــبر والمواعظ من تلك القصص في بيان سنة الله العامّة في سائر الأمـــم المكذّبة برسلها أو المناوئة للدعوات الإصلاحية التي تحارب الفساد والشّرّ، وعطفها على ما سبقها هو من باب عطف العامّ على الخاصّ إذ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ، ثُمَّ بَدَّلْـــنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾.

لقـــد تقـــدّم معنى هذه الآية في سورة الأنعام، غير أن الأسلوب يختلف بين الآيتين، إذ عدّي الإرسال هنا بـــ"في" دون "إلى" كما في الآية الأخرى، والمقصود حقـــيقة القرية بالظّرفية المكانية، وزيدت "من" للتنصيص على العموم المستفاد من وقـــوع النّكرة في سياق النّفي. ثم الاستثناء بـــ"إلا" لإفادة الحصر. وأن هذه هي ســـنة الله في خلقـــه، فمـــع إرسال الرّسل وتأييدهم بالخوارق الدّالة على صدق دعواهم، فإن الله تعالى يربّي خلقه بالشّدائد والمصاعب إعدادًا لهم للانقياد والطّاعة والخضوع لعلهم يتبهلون إلى الله ليكشف ما نزل بهم.

وبمقتضى حكمة الله في الاستدراج يبدّل حالتهم من الشّدّة إلى الرّخاء ومن العســـر إلى اليســـر لعلهم يشكرون، إذ يعمّ الهناء ويستتبّ الأمن فتزكو الأموال

ويكثر الأولاد ولكنهم لا يرعوون بل يزدادون ضلالا وكفرا، فلا الضّراء أردعتهم ولا السّراء دفعتهم إلى الاعتبار. وهم مع ذلك يتعنّتون ويتعلّلون بما حدث لأسلافهم في قديم الأزمان، وأن ليس في تقلبّ الأحوال عليهم دليل على غضب الله ونقمته، غافلين عن سنة الله في إقامة الحجة قبل التّنكيل والتّعذيب بإرسال الرّسل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء:١٥).

ولكن هؤلاء لا يفقهون ذلك لفساد فطرهم وعمى بصيرتهم، بخلاف حال المؤمنين، فإنهم إما شاكرون على السّراء أو صابرون على الضّراء كما وصفهم رسول الله بقوله: «**عجبا لأمر المؤمن، لا يقضي الله قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سرّاء شكر، فكان خيرا له**».[1]

﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾: عقّب على زهوهم بكثرتهم واطمئنانهم لحظوظهم الدّنيوية بأخذهم بغتة، أي إهلاكهم فجأة بدون سابق إنذار ولا توقّع إذ هم لا يشعرون، وذلك أنكى في الخسرة والإيلام.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾:

الجملة معطوفة على سابقتها في سياق بيان سنن الله العامّة في تدبير شؤون خلقه، وأنّ الله تعالى لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. فإذا كان جزاء التمرّد والعصيان هو الإهلاك الفجائي بعد الاستدراج بالسّراء والضّراء، فإن سنة الله اقتضت -من جهة أخرى- أن يكون جزاء الطّاعة والانقياد والتّقوى هو فتح أبواب الخير من السّماء والأرض إنعاما بغير حساب، والمقصود بأهل القرى هنا هم

١- روى مسلم نحوه من حديث صهيب، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، حديث ٢٩٩٩.

المذكـــورون مـــن قبل، أي المكذّبين برسل الله، وفيه تعريض بأهل مكة المكذّبين برسول الله على اعتبار أنها "أمّ القرى" كما وصفها القرآن.

وهـــذه الآية شبيهة بآية سورة المائدة في شأن أهل الكتاب بأن الإيمان بالله واتّـــباع مـــنهجه في ما شرّعه لخلقه يؤهّلان لفيض من رحمات الله وبركاته، فقال تعـــالى: ﴿وَلَـــوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ (المائدة:٦٥-٦٦).

إنهـــا بركات متعددة الأصناف يوفّرها الخالق بما تعلم الخلائق أسبابه وبما لا يعلمون، والبركة لا تعني الكثرة الضّائعة، ولا تعني الإفراط في التّرف والبذخ الذي قـــد يصحبه القلق والحيرة، ويشوّشه الحرص واللّهفة. فقد تكون البركة مع القليل الذي تنمّيه القناعة، وتزكّيه التقى والصّلاح، فيكون حسن الانتفاع به.

وتربط هذه الآية الكريمة بين فعالية الإيمان والدّين وواقع النّاس، وأنهما ليسا مسألة تعبّدية تخصّ التوجّه الشّخصيّ للإنسان، بل هما يتناولان واقع النّاس في كل مجالات حياتهم، حين يجعلونها لله يحيون بها ويموتون عليها.

﴿وَلَكِـــن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾: أي بكسبهم للمعاصي والآثـــام النّاتجة عن تكذيبهم بالرّسل، فأخذناهم بعذاب الاستئصال وفق سنتنا في الذيـــن خلـــوا من قبل: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَنْ يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ، أَوَأَمِـــنَ أَهْـــلُ الْقُرَىٰٓ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ، أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

تهديـــد وتحذير مكرّر بالاستفهام الإنكاريّ للتعجّب من حال المكذبين، إذ يأمـــنون نزول العذاب عليهم على حين غفلة منهم بليل أو نهار ولم يعتبروا بما قصّ الله عليهم من أنباء الأمم الخوالي.

وفي اختيار وقتي البيات والضحى -أي في ليل أو نهار- ما يناسب حالتي الإنسان من نوم ولعب، لأنهما أدعى لانشغاله وغفلته، فالأجدر بالعاقل الكيّس أن لا يأمن فيهما بأس الله؛ وبأس الله إذا حلّ لا يستطيع الإنسان الوقوف أمامه، ولا يملك دفعه سواء في أوقات ضعفه وغفلته، أو في أوقات تأهبه واستعداده.

وفي هذا التعجيب -أيضا- تعريض بمشركي مكة المكذبين لدعوة رسول الله، وهم الطّغاة المترفون ممن تتناهم تلك الحالات من الدّعة واللّهو.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾: ومكر الله استعارة لاستدراج الله وإمهاله لعباده قبل إنزال العذاب، ونسبته إلى الله هنا مشاكلة لما تفرّع عنه في آخر الآية: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾. وهو حكم عامّ يتناول مشركي مكة وكل من شاكلهم في الكفر والتكذيب.

والخسران في أبشع صوره هو حظهم في كل مساعيهم، ذلك لأن فساد تصورهم لجلال الله وعظمته وحسن تدبيره لشؤون خلقه قد جعلهم مستهترين بالاسترسال في المعاصي، إما إعراضا عن نهج الله، أو اتكالا على عفو الله.

وفي كلتا الحالتين يقول المولى جلّ جلاله: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر: ١٥).

وقال مخاطبا العصاة في موقف الحساب في سورة فصّلت: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ، وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٢-٢٣).

والله أعلم

في قصص أهل القرى الماضية

عبرة لمن بعدهم من الوارثين لها

أ)- النص:

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾: أو لم يتبيّن، من الهداية يتعدى إلى مفعولين، يتعدّى إلى الأول بنفسه، وإلى الثاني تارة بنفسه وأخرى بالحرف يقال: هداه السّبيل وهداه له وإليه. ﴿يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾: الإرث: مصير مال الميّت إلى من هو أولى به. ﴿مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾: أي بعد هلاكهم، وهذا القيد تأكيد لمعنى ﴿يَرِثُونَ﴾. ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي نختم عليها بإحكام غلقها فلا يسمعون الموعظة. ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾: الإشارة إلى قرى الأقوام المذكورين من قبل، والخطاب لرسول الله، الأنباء: الأخبار الهامّة العظيمة. ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾: العهد قد يكون بين طرفين، أو من طرف واحد يتعهّد نحو الآخر بشيء يلتزمه، والميثاق هو العهد المؤكد. ﴿لَفَاسِقِينَ﴾: أي خارجين عن الصّراط السّويّ بنكثهم للعهود.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد الاستنكار والتّعجيب من أهل القرى في موقف اللاّمبالاة وعدم الاعتبار بمـا حدث للمكذبين الماضين، انتقل السّياق إلى التّعجّب من موقف الحاضرين في عـدم اتعـاظهم بمن سبقوهم، وإن كان الحكم عامًا في كل أمّة تخلف من سبقها بوراثـتها للأرض، فإن العرب هم المعنيّون بالدّرجة الأولى وقد ورثوا أغلب تلك القرى المذكورة من قبل قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

والمعنى: أو لم يتبيّن للناس الحاضرين بالأحصّ قريشًا -وقد سكنوا ديار من سـبقوهم بعد إهلاكنا لهم- أو لم يتبيّن لهم أنّ شأننا وسنتنا فيهم كشأننا مع من سـبقوهم؟، فهـم جمـيعا في قبضتنا، لو نشاء أهلكناهم بذنوبهم كما أهلكنا من سبقوهم. والإصابة هي التّمكن من نوال الشيء المطلوب، وهي هنا بمعنى الإهلاك والتّدمير المتسبّب عن كثرة الذّنوب والآثام.

وقـد جرت سنة الله أن يأخذ عباده بما اقترفوه من الذّنوب حين يتمادون علـيها، وكـان الأجـدر بهؤلاء المستخلفين في الأرض أن يتعظوا ويعتبروا، لأنّ الإصـرار عـلى الذّنوب يؤدّي بصاحبه إلى أن يختم الله على قلبه -والعياذ بالله- فـيحكم غلقها على الشّرّ والضّلال، وحينئذ لا تنفع فيها الموعظة والتّذكير، وتلك غاية ما ينتهي إليه الأشرار.

وجـيء بصـيغة المضارع في ﴿نَطْبَعُ﴾ للدلالة على معنى الاستمرار، وعند الختم على القلوب تصمّ الآذان عن سماع الحق بتدبّر وإمعان لإدراك مغزى النّصائح والمواعظ، وشبيه بهذه الآية قوله تعالى في سورتي طه والسّجدة:

أ)- ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ

فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (طـه:١٢٨).

ب)- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (السجدة:٢٦).

والقلوب بين إصبعين من أصابع الرّحمن كما قال رسول الله ﷺ، فليقصّر العصاة وليحذروا هذه المغبّة، إذ تنغلق قلوبهم وتعمى بصائرهم عن نور الحق وهداية الإيمان.

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ، وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾:

بعد تلك الجولة الاستعراضية لتاريخ الأمم السّابقة وبيان طبيعة البشر المتقلّبة، وركونها إلى الشّرّ والضّلال شيئا فشيئا إذا طال عليها الأمد بعد فترة الرّسل، يخاطب الله تعالى رسوله ليثبّت قلبه على الصّبر واليقين بربّه، وقد أنبأه عن طريق الوحي بطبيعة الدّعوات الصّالحة وموقف النّاس منها، وأن موقف قومه العدائي العنيف من دعوته ليس جديدا ولا غريبا عمّا عرفه التّاريخ البشريّ منذ وجد الإنسان على ظهر الأرض.

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا﴾: ما منها إلاّ وقد مضت عليها سنّتنا بالحق والعذاب بعد تكذيب رسلها ومجيئهم بمختلف المعجزات المؤيدة لهم من قبل الله تعالى، وكان شأنهم الإعراض والتّحدّي والتّمرّد من قبل مجيء البيّنات ومن بعدها حتى استغلقوا على الكفر والضّلال، كما قال تعالى في أمثالهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (يونس:٩٦-٩٧).

وكما كان طَبْعُ الله على قلوب أولئك السّابقين من الأمم الغابرة، فإنّه يختم كذلك على قلوب الحاضرين ممن أعرضوا عن دعوتك -أيها الرّسول-، فلا تكن في ضيق مما يمكرون.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾: الوجدان بمعنى العلم، والمتحدث هو الله تعالى، وعلمه الأزلي بطبيعة هؤلاء هو الذي تحقق على أرض الواقع وفق مشيئته تعالى.

ومجيء لفظ "العهد" نكرة في سياق النّفي يتناول كلّ أنواع العهود مما يلتزم الإنسان الوفاء به، سواء عهد الله العام على فطرة البشر أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، أو عهد الأسلاف مع أنبيائهم أن يصدّقوهم إذا ما جاؤوهم بالبيّنات، أو غير ذلك من العهود الأخرى، لأن من صفات الكافرين والمنافقين خلف الوعد: «وإذا وعد أخلف»، كما أن من سمات الإيمان الصّحيح الوفاء بالعهد: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المؤمنون:٨).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾، لم يعمّم الله الحكم بالفسق لأهل القرى لوجود بعض المؤمنين فيهم، والفسق هو الدّافع الخبيث لنكث العهود إذ يجمع الفاسق في سلوكه وأخلاقه كثيرا من الرّذائل يُعرف بها حتى تصبح لديه مألوفة مستساغة.

وهكذا تكون نهاية المطاف لتلك القصص المسرودة بهذا الملخّص البليغ تسلية لرسول الله وجماعته، وتثبيتا لهم على تحمّل أعباء الدّعوة إلى الله.

والله أعلم

قصة موسى عليه السلام

أ)- النص:

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا من بَعْدِهم مُّوسَى﴾. بعثنا: بمعنى أرسلنا المتقدم في القصص السابقة، إلا أنه إرسال من نوع خاص، لأنه يفيد الإشارة إلى الشيء المهم. من بعدهم: أي بعد الأمم والرسل المذكورين. ﴿إلى فرعون وملأيه﴾: أي إلى فرعون ملك مصر وعلية قومه من حاشيته ووزرائه. ﴿بآياتنا فظلموا بها﴾: الآيات هي ما

أيّد به موسى من المعجزات الخارقة للعادة مثل العصا واليد، والظّلم إمّا بمعنى التّعدية على حقّ الغير فتكون "الباء" للسّببية، وإما لتضمين الظّلم معنى الكفر. ﴿حَقِيقٌ عَلَىَّ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾: حقيق: بمعنى جدير وخليق وحريّ، يتعدّى بحرف "الباء"، فيقال: حقيق بي أن أفعل كذا، ويتعدى بـ"على". ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾: أخرج يده من جيب قميصه فصارت بيضاء بالنّور. ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾: أي بماذا تشيرون في معالجة هذا السّاحر. ﴿أَرْجِه وَأَخَاهُ﴾: أي أخّرْ المناقشة ومباراة السّحرة مع موسى وأخيه هارون. ﴿فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ﴾: جمع مدينة أي الحواضر الكبرى من مملكة فرعون، حيث يتواجد السّحرة. ﴿حَاشِرِينَ﴾: أي يجمع أعوان فرعون أولئك السّحرة. ﴿فَالَ الْقُوا﴾: أي ما عندكم من وسائل السّحر وحيله. ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: أي خوّفوهم بما تخيلوه أنها حيات تسعى.

ج)- أوجه القراءة:

﴿حَقِيقٌ عَلَىَّ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾: قرأه الإمام نافع بالياء في آخر "عَلَىَّ"، أي أنها ياء المتكلم دخل عليها حرف "على"، فـ"حقيق" خبر لأن عن "أنـي"، ويجوز أن يكون "حَقِيقٌ" صفة لـ"رَسُولٌ"، ثم وقع الالتفات من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم. وفاعل "حَقِيقٌ" هو المصدر المأخوذ من قوله تعالى: ﴿أَن لاَّ أَقُولَ﴾ أي حقيق على عدمُ قولي ...إلخ. ﴿قَالُوا أَرْجِه وَأَخَاهُ﴾: قرأه نافع وعاصم والكسائي وأبو جعفر: ﴿أَرْجِه﴾ بجيم ثم ها. وأصله: "أَرْجِئْه" بهمزة بعد الجيم، وقرأه الباقون على الأصل، أي بالهمزة السّاكنة.

د)- التّعريف بموسى وفرعون:

أ)- هو موسى بن عمران، والاسم قبطيّ المعنى، بعث في زمن شعيب عليه السلام فصاهره بزواج إحدى ابنتيه، بعثه الله لإنقاذ بني إسرائيل من جبروت فرعون، بعد

أن تـــربّى في قصـــور فـــرعون، وقد أنقذه الله من القتل وهو رضيع أخفته أمه في التّابوت وألقت به في اليمّ كما ألهمها الله.

تـــرد قصـــته مع فرعون وملئه، ثم مع مهاترات قومه في أرض "سيناء" ترد مفصّلة وموجزة في الكثير من سور القرآن الكريم، وقد ذكر اسمه في القرآن حوالي مائة وثلاثين مرة، وفي قصته أحداث مثيرة، وشريعته " التّوراة" في أصلها الموحى به مـــن الله فـــيها هـــدى ونور مثل شريعة الإسلام في جملتها، وقومه "بنو إسرائيل" تـــاريخهم مليء بالأحداث تتقلّب بين الضّعف والقوة، وبين العزة والذّلة، وهم قوم شـــديدو المـــراس لهم خصائص متميزة في الذّكاء والدّهاء، وكانت شريعة موسى وعيسى إرهاصا ومقدمات لشريعة محمد ﷺ والتي تتميز بالعالمية والشّمولية.

ب)- و"فـــرعون" عـــلم جنس لملك مصر في القديم، كـــ"قيصر" للرومان و"كســـرى" للفرس. واسم فرعون الذي أرسل موسى إليه "منفطاح الثّاني" أحد ملـــوك العائلة التّاسعة عشرة من العائلات التي ملكت مصر في حدود ١٤٩١ قبل الميلاد.

هـ)- البيان والتّفسير:

نحـــن بـــأزاء رسالة لأمة كرّمها الله وفضّلها برسول كريم قال عنه تعالى في ســـورة طه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾. وقال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (٣٩-٤٠-٤١). وقال عن قومه في سورة الـــبقرة: ﴿يَـــا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧). وقال عن شريعتهم في سورة المائدة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (٤٤).

. ولمـــا كانت شريعة موسى ﷺ إرهاصا لشريعة محمد ﷺ وكان بعض

الشّبه بين أمتيهما بوجود فريقين في كل منهما: مؤمن وكافر، فأهلك الله من كفر ونصر ومكّن في الأرض لمن آمن، **قلت**: لكلّ هذه الاعتبارات جاءت قصة موسى معطوفة بـ"ثم" التي تدلّ على التراخي الرتبي من حيث الزّمن بالنّسبة للأمم السّابقة، ومن حيث النّوعية والقدر فقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

تنتظم قصة موسى في هذه السّورة الكريمة ما يزيد عن سبعين آية، وهي تعرض عدة مشاهد، إنّ مع فرعون وملئه بالجدال والمباراة مع السّحرة حتى قتلهم من طرف فرعون وكيف كان مصيره مع جنده، وإنّ معاناة موسى مع قومه وهم يستسلمون ويقادون له، أو يتمرّدون ويتكسون إلى الضّلال.

ومطلع القصة هو عبارة عن ملخّص لأحداثها من بدايتها إلى نهايتها مع بيان الغرض منها في مجال العبرة والموعظة. الباعث هو الله تبارك وتعالى والمبعوث هو موسى عليه السلام، كان ذلك بعد فترة من أولئك الرّسل مع أقوامهم، أوّلهم نوح عليه السلام وآخرهم شعيب، وهو حم لموسى عليه السلام، وهو ما يزال لديه مع زوجه وأولاده، والمبعوث إليهم هم فرعون -ملك مصر- وملؤه، وهم أشراف قومه ورجال دولته. وكانوا يستعبدون بني إسرائيل ويسومونهم سوء العذاب إذلالاً وقهراً.

وقد أيّد الله تعالى موسى بمعجزات مادية كثيرة لتكون برهانا على صدقه في ما يبلغه عن الله، قال تعالى: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾، حذف مفعوله ليتناول جميع أنواع الظّلم لأنفسهم بالكفر والجحود، ولقومهم بالقهر والإذلال إلى حدّ ادّعاء الرّبوبية من فرعون ومحاولة وزرائه أن يبنوا له صرحا شاهقا يطّلع به إلى إله موسى، كما ذكر ذلك في السّور الأخرى مثل قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات:٢٤). وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ (القصص:٣٨).

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾: الخطاب لرسول الله ﷺ ولكلّ من

يتعظ ويعتبر عند سماع هذه الآيات، وقد نعت الله فرعون وملأه بالمفسدين، إذ لا أفسد للمجتمعات البشرية من الكفر والإلحاد الذي يميت القلوب ويعمي البصائر فتسُوء الأعمال وتفسد الأخلاق، فلا يقوم بذلك صلاح ولا عمران.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾:

عطف بالواو بين هذه الجملة وسابقتها لأن جملة: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ تفصيل لبعض ما تقدم. وفي النصّ طيّ لكيفية اختيار الله لموسى وأمره إياه بالذهاب إلى فرعون وباللطف له في الحديث ...إلخ، كما فصّل ذلك في السّور الأخرى، وأوّل تبليغ كان من موسى لفرعون بعد ما ناداه باسمه الدّال على الملك والسّلطان، أوّل التبليغ: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فيه إعلان صريح على أن الرّبوبية الحقة هي لله ربّ العالمين بما فيهم فرعون وملأه وقومه، وقد تضمّن هذا الإعلان إبطال دعوى فرعون بأنه الرّبّ الأعلى، وليس ذلك بالأمر الهيّن أمام جبّار عنيد لا يرحم ولا يلين.

ومن مستلزمات الرّسالة الأمانة والصّدق، ولذا نجد موسى عليه السلام يبالغ في وصف نفسه بذلك، على مقتضى حالة السّامعين من الارتياب والجحود، فهو لا يمكن إلا أن يكون صادقا في ما يبلّغه عن الله، لأن ذلك واجب وثابت عليه بمقتضى تلك الرّسالة، وليس من شأن الرّسول أن يكذب على الله، وقد عصمه من الكذب. وفي استعمال صفة "حَقِيقٌ" تضمين لمعنى الحرص والتمكّن كما أثبت ذلك بعض اللّغويين.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: ثم ذكر أن الرّبّ تعالى قد أيده ببيّنة ظاهرة الحجة في إثبات صدقه، وهي سند له من الله ربّ المخاطبين الذين هم مربوبون له لا لفرعون الذي يدّعي الرّبوبية علوّا واستكبارا.

ولمـــاّ أصبح موسى في موقف الواثق من نفسه بما يمتلكه من الحجة والبرهان أمـــام خصـــمه، فقد بادر في طلب التّسريح بالخروج لبني إسرائيل ليذهبوا معه إلى حيث أمره الله لإرشادهم إلى طريق الحق، وتدبير شؤونهم وفق أحكام الشّريعة التي خصّه الله بها.

ومـــا كـــان لفرعون في عزّ سلطانه أن يأذن لقسم من رعاياه بالخروج عن إطار سلطته طوعا وبدون مقابل، ولذا طلب من موسى الإدلاء بالبيّنة التي يدّعيها: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

قـــال ذلك وهو يشكّ في قدرة موسى على الإتيان بذلك، وليس المقام مقام الحجـــاج المنطقي والعقلي لأنّ القوة تعمى وتصمّ، وكان فرعون لا يتصوّر أن يأتي موســـى بمـــا يبهره أمام أعوانه وحاشيته، إذ لم يكشف موسى عن نوع البيّنة التي يمـــتلكها، فكـــان مـــن فرعون ذلك التّحدّي الصّارخ: ﴿فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، فهو شكّ مزدوج في حقّ موسى رسالةً وصدقًا.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَـــاهُ فَـــإِذَا هِـــيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ، فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾:

وإذ وقـــع التّحدّي من فرعون، فلا مناص لموسى من الإجابة للطلب حتى يتّضح الحق وتثبت الدّعوى، وما إن رمى عصاه من يده حتى استحالت ثعبانا مبينا لا يشـــكّ رائيه بأنه الخَلْق المرهوب لا شك فيه ولا تَخيّل، قال تعالى في سورة طه: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ (٢٠). هذه هي الحجة الأولى التي فاجأت فرعون وأعوانه وأضـــاف لها ما يسندها ممّا هو أعظم في الفجاءة إذ يخرج يده من جيب قميصه، فإذا هي بيضاء من غير سوء تبهر النّاظرين ببياضها، وهي من قبل كانت سمراء.

إنهمـــا معجزتان خارقتان للعادة لا يدّعي موسى أن له يدًا في تحقيقهما، بل هي بيّنة من ربّه العليم القادر، فأين قدرة فرعون وملائه؟. وما مصير حكمه إن هو

استسلم لبرهان موسى وينتهي هذا المشهد بمحاكمة الحقّ ودمغه للباطل، فلا بد -إذن- من انتهاج أسلوب التشهير والتشويش بتلفيق الأكاذيب وتحويل الأنظار إلى ما يتوقع من الأخطار الموهومة، شأن الطّواغيت في كل زمان ومكان.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ، قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾:

لا يكون الأعوان وحاشية الطّواغيت إلا أتباعًا لإرادة الطّاغية وأبواقًا لما يتذرّع به من الحجج والمبرّرات لمختلف مواقفه، فعندما يهزمهم موسى بآية الله تعالى في حضرة فرعون، بادر أشراف قومه إلى اتهام موسى بالسّحر: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

رسخ القدم في هذا الفنّ الذي استحوذ على عقول النّاس، وصار من ميزات ذلك العصر وشارة للعلم والمعرفة، وربّما كان هذا الوصف رفعا لشأن موسى في اعتبار النّاس، فلا بدّ من إضافة ما يثير حفيظة ذوي النّفوذ والسّلطان، فما هي الوسيلة لتحقيق ذلك؟، إنها اتهام موسى بالتّمرّد والعصيان: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، فما أسهل على المستبدّ الجبّار أن يرمي من يناوئه في سلطته بما نسمّيه اليوم "الخيانة العظمى"، لكي يزيحه من طريقه ولكي يضفي الطّاغية الشّرعية على قراره فإنه يتظاهر لأعوانه بالمشورة: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ، قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

أشار الملأ بإرجاء موسى وأخيه هارون أي طلب مهلة من الوقت يعدّون فيه عدّتهم لمواجهة موسى ومباراته في مجال الأعمال السّحرية، وذلك بتجميع وحشر كل من له إلمام بهذا الفنّ من أولئك السّحرة المنبثّين في مختلف المدن المصرية حتى يضربوا موسى بمثل سلاحه -في اعتقادهم-، لأن ذلك أدعى لاستمالة الرّعايا

وكسب ثقتهم.

﴿وَجَآءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ان كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ، قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ، قَالُواْ يَا مُوسَىٰٓ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَنْ نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ، قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾:

تمّ لفرعون ما أراده من حشر السّحرة وأعوانهم، وكان اجتماعهم بفرعون في مجلسه يمثل فرصة غالية للزلفى وطلب الحظوة زيادة على الأجر المستحق، الذي اعتبروه حقا شرعيا لقاء عملهم، والذي اجترأوا على المطالبة به صراحة، فما كان من فرعون إلاّ أن أقرّهم على ذلك مؤكّدا ومضيفا أنهم فوق حقهم من المال سيكونون من المقربين لديه فيجتمع لهم بذلك المال والجاه والحظوة، وذلك غاية ما يتمناه المتزلّفون للأمراء والحكّام.

﴿قَالُواْ يَا مُوسَىٰٓ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَنْ نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾: وفي اعتداد وثقة بأنفسهم، وفي تهوين -أيضا- من شأن الخصم خيّروا موسى في إلقاء وإظهار ما عنده من السّحر فيكون البادئ في تلك المباراة، أو يكونون هم البادئين؛ وذهب بعض المحققين أن أسلوب التّعبير عن إلقائهم يدلّ على رغبتهم في البدء، وذلك بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل "نَحْنُ" لتوكيد الضّمير المستتر به، غير أن موسى فضّل أن يكونوا هم البادئين.

ويقول صاحب المنار معلّلا ذلك بأنّ المتأخّر يكون أبصر بما تقتضيه الحال بعد وقوعه على منتهى شوط خصمه. وكلا الملحظين جيّد.

﴿قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾:

أجابهم موسى بأن أمرهم بإلقاء ما عندهم من حيل السّحر، وليس في ذلك

تسـويغ لهم بفعل السّحر -وهو منكر باطل- بل هو استخفاف وتهوين من شأنهم أمـام الأشياع والأتباع، لأن موسى عليه السلام كان واثقا من نفسه معتدّا بمساندة الله وعونـه عليهم، وأن الله تعالى يظهر الحق على باطلهم كما قال في سورة يونس: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨١).

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾: كان مـا أعدّه السّحرة عظيما في مظهره تأثرت به أعين الحاضرين، وبعثت في نفوسهم الرّهـبة. وحتى موسى عليه السلام قد تأثر بما شاهده، ولكن الله تعالى شدّ من أزره في ذلك الموقف، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ، قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ (٦٧-٦٨).

والله أعلم

إيمان السّحرة بربّ العالمين، وفتك فرعون بهم

أ)- النص:

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا

نَقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾: التّلقّف المبالغة في اللّقف، الابتلاع والازدراء بسرعة. والإفك: بالكسر اسم لما يؤفك أي يصرف ويحوّل عن شيء إلى غيره، ويستعمل في التّلبيس وقلب الحقائق لإخفاء الواقع كالكذب والزّور. ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾: الوقوع: سقوط الشّيء من الأعلى إلى الأرض، واستعير هنا لظهور أمر رفيع القدر. ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أي زال واضمحلّ مقصودهم، فلم يأت بفائدة. ﴿وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾: أي صاروا ورجعوا أذلاء مقهورين. ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾: أي لم يستمالكوا أن سجدوا بدون تردّد. ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾: أي لا يضيرهم تهديد فرعون لأنهم يعلمون أنهم صائرون إلى الله. ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾: أي يقطّع من كل ساحر يدا ورجلا متخالفتي الجهة يمنة ويسرة. ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾: أي أقدرنا يا ربنا لتحمّل ما توعّدنا به فرعون.

ج)- البيان والتّفسير:

لقد تمّت المواجهة بين موسى والسّحرة أمام فرعون وملأيه، وقد اغترّوا بما دبّروه من حيل سحرهم ورهبة النّاس بما شاهدوه. وتتوالى أحداث المشهد المثيرة، وموسى مشدود إلى توجيهات ربّه، وما إن تلقّى الأمر بإلقاء عصاه وتنفيذ ذلك بكل ثبات ويقين حتى أخذت تتلقّف وتبتلع كلّ ما سخّره السّحرة من الوسائل لممارسة سحرهم. وقد طوى السّياق ذكر بعض الجزئيات لعملية الحدث، إذ تفهم من خلال التّعبير -وهو من الإيجاز البليغ-.

ودلّ التّعبير بالمضارع في "تَلْقَفُ" و"يَأفِكُونَ" على تجديد العلمية واستمرارها بحيث تأتي على كلّ ما أحضروه من تلك الوسائل التي هي مجرّد تخيلات وتمويهات باطلة. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ، فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ، وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾:

لقد انبهر السّحرة بما شاهدوه من عصا موسى، وتيقّنوا أن ذلك لا يكون من صنع البشر -وهم أعلم النّاس بحقيقة فنّهم- وأن ما جاء به موسى هو الحق المبين، وقد زهق الباطل وخرّ صريعا، فإذا الغلبة لموسى وأخيه، وإذا الذّلة والصّغار لأهل الباطل، وقدرة الله قاهرة غالبة، وإذا السّحرة يستوفزون فرعون وأعوانه، بأن خرّوا ساجدين إيمانا بعظمة الله وقدرته، ربّ العالمين وربّ موسى وهارون.

إنه الخضوع والاستسلام التّامّ لمشيئة الله، وقد دبّ الإيمان في قلوبهم وانشرحت صدورهم لهداية الحق، فلا يلويهم عن ذلك تهديد ولا وعيد.

وأمام هذه المفاجأة التي ما كانت لترضي فرعون وملأه، أخذ في الملامة والتّوبيخ ووصف السّحرة بالمكر والكيد وبالتآمر على أهل مصر لإخراجهم من ديارهم وأموالهم: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿قَالَ آمَنتُم بِهِ﴾: قرأه الجمهور بصيغة الاستفهام، فمنهم من حقّق الهمزة الثّانية ومنهم من خففها، وقرأه حفص بهمزة واحدة. فيجوز أن يكون إخبارا، ويجوز أن تكون همزة استفهام.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ﴾ محاورا السّحرة المؤمنين السّاجدين لربّ العالمين

إذعانا للحق، قال موبّخا إياهم متظاهرا بالجَلَد ومخفيا هزيمته: «آمنتم بموسى قبل أن آذن لكم؟»، واعتبر ذلك منهم تمرّدا عن طاعته فهم بمثابة العبيد أمام سيدهم، فما يسعى لعبد أن يتصرّف بحرية حيّ ولو في التعبير عن أحاسيسه ومشاعره. ومنطق الطغيان لا يعدم تأويلا لتبرير المواقف ليتذرّع به في الانتقام، ولا أسهل عليه من تلفيق التّهم للخصم. فقد رمى فرعون أولئك السّحرة بالمكر وبالتآمر مع موسى لتدبير تلك النّتائج التي أفضت إلى هزيمتهم، وهو مجرّد تمويه على النّاس، إذ لم يسبق لهم أن اجتمعوا بموسى، ولا علموا ما عنده من المعجزة.

ولعل فرعون قد استند إلى قول موسى في أول ملاقاته: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الأعراف:١٠٥) ليموّه على أتباعه بأن خطّة موسى تهدف إلى إخراج النّاس من ديارهم ليستقرّ فيها مع قومه من بني إسرائيل.

وفي قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تفريع للوعيد والتّهديد، بعد التّقريع والتّوبيخ بصفة مجملة بيّنه بتفصيل في قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أقسم بأنه سوف يقطّع أيديهم وأرجلهم تقطيعا متخالفا يمنة ويسرة. وبتر الأعضاء قام به الإنسان من قديم الزّمان كأشدّ تنكيل بالأعداء ليكونوا عبرة لغيرهم، إذ المقصود به أن يبقى الشّخص معطوبا في حياة شاقة معذّبة، ولكن فرعون تدرّج في التّنكيل بالسّحرة إلى صلبهم على جذوع النّخل، ولا يعني بذلك قتلهم، لأن المقصود من إبقائهم أحياء مشوّهين هو التّخويف لغيرهم.

وروي عن ابن عباس أنه قال: "فرعون هو أوّل من صلب، ومن قطع الأيدي والأرجل من خلاف".

ويظهر أنّ ذلك كان ممارسا من قبل، وقد جعل الإسلام ذلك أعظم عقوبة لأفظع إجرام وهو الحرابة وقطع الطّريق قتلاً ونهبًا وهتكًا للأعراض. قال تعالى في

سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُاْ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ﴾ (٣٣).

ولكن السّحرة لم يعبأوا بتلك التّهديدات، وقد حوّلهم الإيمان بالله إلى منتهى الصّبر واليقين لتحمّل كلّ ما يصيبهم في سبيل عقيدتهم غير آبهين بجبروت فرعون وذلك من خلال إجابتهم الصّريحة بأنهم راجعون إلى الله جميعا، وهو الذي يفصل بين خلقه فصلا عادلا يتبيّن به الظّالم والمظلوم.

﴿قَالُواْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ، وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ ءَامَنَّا بِئَايَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾:

ولا شكّ أنّ الإيمان باليوم الآخر هو الوازع القويّ الذي يزوّد المؤمن بتلك الطّاقة العجيبة من الإرادة والعزيمة في مواجهة الشّدائد والأهوال، إذ يرسم لهذه الحياة هدفا نبيلا يرمي إليه الإنسان، وهو الرّجوع إلى الله وقد رضي عنه وأرضاه، بما يستقبله في الحياة الأبدية الخالدة.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾: ثم إنّ السّحرة يبدون أمام تهديدات فرعون مطمئني البال مرتاحي الضّمير، لأنهم يرون تنكيل فرعون بهم ليس عن فاحشة اقترفوها ولا جريمة ارتكبوها، بل كان لإيمانهم وإذعانهم لآيات الله عندما ظهرت لهم. وليس في ذلك لوم ولا غضاضة وأمام تزمّت الموقف فزعوا إلى الله أن يلهمهم الصّبر والثّبات لتحمّل ما ينتظرونه من فرعون.

وحسبهم فوزا وسعادة أن تكون لهم تلك الخاتمة الطّيّبة على ملّة الإسلام وفي عداد الصّدّيقين والشّهداء والصّالحين. "ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفّنا مسلمين".

والله أعلم

تآمر ملأ فرعون على موسى وقومه،

وكيف واجهه موسى بالنصح والإرشاد لقومه

أ)- النص:

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَتَذَرُ مُوسَى﴾، ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾: أي تتركه يفعل ما يشاء، ويترك آلهتك، وهي آلهة فرعية اتخذها فرعون لقومه وجعل نفسه هو الإله الأعلى، وكان أشراف القوم يغرون فرعون بذلك ليهلك موسى وقومه. ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾: أي يقتل المولودين من الرّجال ويستبقي النّساء على قيد الحياة لاتخاذهن سراري وخدما. والضّمير في الأبناء والنّساء راجع إلى موسى وقومه. ﴿قَاهِرُونَ﴾: القاهر: هو الغالب بإذلال. ﴿يُورِثُهَا﴾: يعطيها ويمكّن منها من يشاء. ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾: هي نهاية أمر من الأمور وآخره. ﴿أُوذِينَا﴾: الأذى الإصابة بما يؤلم ويحزن. ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾: أي يجعلكم خلفاء عن الله في أرضه. أي يكونون ملوكا أحرارا.

ج)- أوجه القراءة:

﴿سَنَقْتُلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ بفتح النون وسكون القاف وضمّ التاء. وقرأ الباقون بضمّ النون وفتح القاف وتشديد التاء ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ للمبالغة في التقتيل. ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾: عطفت ولم تفصل لأنها خارجة عن المحاورة التي بين فرعون ومن آمن من قومه بموسى وآياته. ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾: عطف على ﴿لِيُفْسِدُواْ﴾، وكلتاهما تعليل لقولهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ﴾. ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: "كيف" يجوز أن تكون استفهاما فتكون هي وما دخلت عليه مفعول لـ"ينظر". ويجوز أن تكون مجرّدة عن معنى الاستفهام دالة على مجرّد الكيفية، فهي مفعول به لـ"ينظر".

د)- البيان والتفسير:

من الثابت في تاريخ مصر القديمة أن القبط كانوا مشركين يعبدون آلهة متنوعة من الكواكب والأجرام السماوية كالشمس ويتخذون لها تماثيل. ويسمّون تمثال الشمس "رع" وهذا الاسم يتضمّنه اسم "فرعون". وهذا التمثال هو الذي ينتسب إليه فرعون ويعتبرونه ابنًا للآلهة حلّت فيه معاني الإلهية ويعتقد المصريون أن طاعته من طاعة الآلهة.

فعندما رأى ملأ فرعون إيمان السحرة وانبهارهم بمعجزة موسى خافوا سريان عدوى الإيمان لغير السحرة من قوم فرعون فحاولوا إغراءه وإثارة حميته ليضرب بقوة على أيدي الرعايا حتى لا ينخدعوا بموسى ومن معه: ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**﴾.

إنه مشهد آخر مما وقع في مجلس فرعون، وهو يضمّ الفرقاء المعنيين في

أحـــداث القصة، فرعون وملأه وجنوده، موسى وأخوه هارون، وقد انبثق من قوم فـــرعون فـــريق ثالـــث ميّزه الإيمان والسّجود لله، فانفصل عن قوم فرعون وهم السّـــحرة، فهؤلاء أصبحوا يشكّلون خطرا كبيرا على ملك فرعون وسلطته -في نظـــر الأشراف- وهم تبع لملكهم في الحظوة والجاه. ويبدون في هذا المشهد كيف يـــتآمرون بتحريض فرعون على الانتقام وسدّ الطّريق على سريان هداية الإيمان في صـــفوف الـــرّعايا بفعل التّأثر والمحاكاة للسّحرة، ويوغرون صدر فرعون بقولهم: ﴿أَتَـــذَرُ مُوسَـــىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، هكذا بصيغة الإغـــراء بالانتقام، وهم يرون في البطء والانتظار إفسادا في الأرض، إذ أن انتشار الدين الجديد معناه تقويض ملك فرعون وإلغاء لربوبيته على قومه من جهة، وإلغاء لعلاقـــة النّبوّة التي بين فرعون وآلهته التي يستمدّ منها شرعية سلطانه -وفق معتقد المصـــريين يومئذ- وذلك إفساد مضاعف من جهة أخرى. فهل تأثر فرعون بمقالة ملإه؟.

إنّ مثل هذه المؤامرات الدّنيئة معروفة ومألوفة لدى بطانة الأمراء والملوك من قديم الزّمان، وقلّما تسعى لما فيه الصّالح العامّ، سيما ما نصطلح عليه اليوم "القضايا المصـــيرية"، إذ لا يهـــتمّ هؤلاء المستشارون إلاّ بما يستبقي نفوذهم وحظوتهم عند صـــاحب السّلطة العليا. وقد حذّر الله أئمة المسلمين من اتخاذهم لمثل هذه العناصر السّـــيئة فقال جلّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (آل عمران:١١٨).

وقـــد انطبق هذا الوصف الإلهي على ملأ فرعون وهم يصبّون جام غضبهم على موسى وقومه. وما كان من فرعون إلا أن ثارت حفيظته فهاج وتوعّد فقال: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾.

إنّه العزم الأكيد على أن يستمرّ في التّعذيب والتّنكيل لبني إسرائيل، إذ عانوا ذلك منذ مولد سيدنا موسى بقتل الأبناء والإبقاء على النّساء إضعافًا لهذا الشّعب المقهور. فالرّجال هم طعم للموت في أبشع صورة من الذّبح والتّمثيل، والنّساء هن سراري وخدم للاستغلال والاستمتاع. فلنترك مشهد فرعون وملإه مشحونا بأساليب القهر والاستعلاء، ومنطق التّهديد والوعيد، وهم ماضون في التّنفيذ -لا محالة- فكيف كان موقف موسى مع قومه، وهم يواجهون مثل هذا المصير المشؤوم، ولم يذعن فرعون لإرسالهم وإطلاق سراحهم.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾:

إنها موعظة كلّ برّ صالح يعرف ربّه ويدعو إلى اللّياذ إليه والاستعانة به، فهو الذي يجير ولا يجار عليه، وهو الذي يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السّوء. والخوف والهلع من طبع الإنسان، سيما في من تربّى على الجبن والاستخذاء، فلا عجب أن يرهب بنو إسرائيل من وعيد فرعون وهم الذين عايشوا طغيانه وجبروته وذاقوا وباله ونكاله. فما لموسى من وسيلة لطمأنتهم غير تلك الالتماسات الحارّة النّابعة من قلب متصل بالملأ الأعلى معمور بفيض أنواره، عارف بقدرة الله وعظمته، وأنه المدبّر لشؤون خلقه كيف يشاء، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء.

أخذ موسى يلقن لقومه ويعلّمهم كيف يواجهون الشّدائد بالصّبر وطلب العون من الله غير مستحسرين ولا متعجّلين، لأن الأرض بكلّ من عليها وما عليها هي ملك لله، وهو الذي يورثها من يشاء من عباده، والنّاس إن هم إلاّ نزلاء فيها إلى حين، وليس الطّغاة المتسلّطون بمتمكّنين فيها إلاّ بقدر ما يمحّص الله عباده المؤمنين بالشّدة والبلاء، إلى أن تكون العاقبة لهم بالنّصر وحسن الجزاء.

فإذا كان موسى في مثل هذه الرّوح العالية إيمانا ويقينا بوعد ربّه، فإن قومه

ما يزالون في الخطوات الأولى من بشاشة الإيمان، وهم ما يزالون محطّمين بمسلسل التّعذيب الذي يعيشونه ويَشْكُون أمرهم إلى موسى.

﴿قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾: أي أنهم شكوا لموسى وضعيتهم في المعاناة والشّقاء، وامتداد ذلك منذ أن كان طفلا ومن بعد أن جاءهم رسولا، وهو تشخيص لواقعهم. ولا يرى فيه الإمام ابن عاشور امتعاضًا منهم لما لحقهم بسبب موسى، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين، لأنّه يرى أن التّعبير بالإتيان والمجيء هو للتفنّن في التّنويع اللّفظي إذ هما مترادفان في المعنى كما قرّر ذلك قطب الأئمة في التّيسير.

ويمضي موسى عليه السلام في تطمينهم وشدّ أزرهم بالأمل والرّجاء في نصر الله: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: إنه الرّجاء النّديّ والأمل الفيّاض في من يملك القوة والجبروت بحق، إنه الربّ تعالى، وهو الرّكن الرّكين والملاذ الأمين للمستضعفين: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (القصص: ٥-٦).

لَكَأنّ موسى يستشفّ الغيب بإلهام الله له فيرى قومه وقد حقّق الله لهم ما تمنّوه جزاء إيمانهم وصبرهم فأصبحوا أحرارا في أرضهم، سادة في تصرّفاتهم، ولكنّه يعبّر على ذلك بأداة الرّجاء "عسى"، لأنه لا أحد يعزم على الله في ما يريده، وهو الفعّال لما يريد، وهو الأدب النّبويّ الرّفيع مع الله، وهو الأسلوب الحكيم في التّربية حتى لا يركن قومه إلى التّواكل وينخدعوا بالأماني، ثم هو يوحي إليهم بأن المسؤولية تكليف لا تشريف، ومتطلبات الاستخلاف في الأرض تقوم على الابتلاء والاختبار من الله لخلقه، مما يندرج في القواعد الكونية والاجتماعية التي لا تتخلّف: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:٦٢).

أخذ آل فرعون بأنواع العذاب الدنيوي

أ)- النص:

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا﴾: يرد "الأخذ" في العذاب وما في معناه في كثير من آيات القرآن كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:١٠٢). ﴿بِالسِّنِينَ﴾: جمع سنة بمعنى الحول، وتستعمل لسنة القحط والجفاف، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾. ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: آل الرّجل هم خاصّته من أهل قرابته أو الموالين له في الرّأي والتوجّه. ولكن المراد بالآل هنا قوم فرعون عامّة، لأن العذاب أصاب الجميع. ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ﴾: يطلق التطيّر على التشاؤم أخذا من عادة العرب في زجر الطّير. قال الشّاعر الكندي:

فإن زجروا بالنّحس طيرا تمرّ بي ... زجرت لهم طيرا تمرّ بهم سعدا

﴿الطُّوفَانَ﴾: معناه لغويا: ما طاف بالشيء وغشيه، وغلب في طوفان الماء

يغمر البيوت والمزارع. ﴿الْقُمَّلَ﴾: هو السّوس الذي ينخر الحنطة، أو هو القراد الذي يأكل الزّرع. و"القُمّل" بسكون الميم هو الحشرة المؤذية التي تلزم الشّعر والجلود. ﴿الدَّمَ﴾: قيل: هو دم يحدث في مياه القوم فلا يستطيعون الشّرب منها. وقيل: هو رعاف يصيبهم فيزقون به.

ج)- حول مبنى النص، وأوجه القراءة:

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: بين الحسنة والسّيئة طباق، وجاء التّعبير في الحسنة بـ"إذا"، وعرّفت "الْحَسَنَةُ"، لأن "إذا" تدلّ على تحقق الوقوع، لغلبة رحمة الله وفضله على سخطه وعقابه. وعبّر بالإصابة في السّيئة التي وردت نكرة مسبوقة بـ"إن" التي هي أداة للشك لندرة الوقوع أو الشكّ فيه، والقوم في كلّ حالة لا يعتبرون ولا يزدجرون. ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾، ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ﴾: بينهما جناس اشتقاق. وأصل "يَطَّيَّرُوا" يتطيّروا قلبت التّاء طاء وأدغمت. سمّي العرب الشّؤم طائرا إذ جعلوا الطّائر أمارة، تسمية للمدلول باسم الدّالّ. ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا﴾: "مَهْمَا" مركّبة من "ما" الشّرطية و"ما" الزّائدة، ومعناها "كلّ ما" وهو اسم شرط، وهو إما في محلّ رفع مبتدأ، أو في محل نصب بالفعل. ﴿بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ"تأتنا". ﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾: حال منصوب مما قبله من الأشياء المذكورة.

د)- البيان والتّفسير:

انتهى المشهد السّابق من قصة موسى بإمعان فرعون في القهر والجبروت، وبالتّهديد والوعيد، وبمواجهة بني إسرائيل ذلك بالصّبر والثّبات تحت إرشاد موسى وتعهّده لهم بالنّصح وبرفع معنوياتهم، وفي هذه الآيات نستعرض مشهد هلاك فرعون وقومه، وهم يواجهون عذابا تلو العذاب، كما بشّر بذلك موسى قومه

بصفة مجملة حين قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾. وهنا بدأ السّياق في تفصيل أسباب ذلك العذاب، وهي كلّها آيات بيّنات لصدق موسى عليه السلام فقال جلّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

صدّر الجملة بـ"اللام" المشعرة بالقسم لتأكيد مضمونها، وهي تمهيد لتفصيل أنواع العذاب الذي أخذ الله به فرعون وقومه. وكثيرا ما ترد كلمة "الأخذ" في القرآن الكريم في بيان العذاب للأمم الظّالمة الكافرة، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (الحج:٤٨).

ومصيبة القحط والجدب وما ينجرّ عنها من شحّ الأقوات ونفادها هي من أقسى العقوبات التي يترلها الله على عباده ليحدّ من جماحهم في الطّغيان الماديّ والإسراف الشّهواني، لعلهم يتذكرون بذلك ضعفهم وافتقارهم إلى الله. وفرعون علا في الأرض واغترّ بما يدرّ عليه نهر النّيل في مصر وخصوبة أرضها من أنواع الخيرات. ومن طبيعة البشر أنهم يكفكفون من غلوائهم عند الشّدائد والمصائب، ويركنون إلى من يخفّف عنهم وطأتها، قال تعالى في سورة فصّلت: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ (٥١).

ولكن فرعون وآله لم ينعظوا بما أصابهم، بل أخذوا يلتمسون المبررات ويتعلّلون بأن وجود موسى بينهم كان شؤما عليهم: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلاَ إِنَّمَا طَآئِرُهُمْ عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

الشّدة والرّخاء من سنن الحياة بتدبير الله الحكيم، يصرّف شؤون خلقه كيف يشاء، وما النّاس في مسعاهم إلاّ وسائل وأسباب يخضعون لقوانين السّببية، وهم في ذلك لا يملكون حولا ولا قوة في ما يحبون ويختارونه لأنفسهم، ولكن

الطّغاة من أمثال فرعون لا يقرّون بتلك القوانين، فهم إذا جاءهم النّعماء فرحوا بها في زهو وخيلاء بأنهم أهلها ومستحقّوها بما لديهم من العلم والحيلة، وبما يتمتعون به من الجاه والحظوة، حتى إذا تولّت عنهم الدّنيا وعبس وجه الحياة علّلوا ما أصابهم بمختلف التّعليلات. وفرعون وآله غالطوا أنفسهم بمثل ذلك عندما تشاءموا بموسى ومن معه، وموسى بريء مما ألصقوه به، بل هو اليمن والبركة عليهم لو كانوا يفقهون. ولذلك جاء الرّدّ عليهم مبدوءا بأداة التّنبيه "ألا" وأداة الحصر "إنّما" للاهتمام بمضمون ذلك الرّدّ الذي يتصل بعقيدة المؤمن، بأن تصريف الخير والشّرّ وتقليب الشّدة والرّخاء هو من أمر الله تعالى، ليس لأحد من البشر دخل فيه.

وهذه الظّاهرة الاجتماعية لصيقة بواقع الإنسان مهما ارتقى في سلّم التّمدن والحضارة، فهؤلاء كفّار قريش يواجهون رسول الله بمثل ذلك المنطق السّفيه إذ قال تعالى في شأنهم في سورة النّساء: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (٧٨). وتلك هي حكمة التّصرّف الرّبّاني في خلقه بمقتضى سننه التي لا تتبدل. وهي امتحان واختبار للناس لعلهم يرجعون، قال تعالى في سورة الرّوم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١).

وإمعانا في الإعراض عن موسى ورسالته لم يزدد فرعون وقومه إلا عنادا وتمرّدا وتحدّيا له: **﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾**.

إنه الإصرار والكبرياء، إذ لم تنفع فيهم تلك القوارع، ولا هم اقتنعوا بتلك الآيات التي جاء بها موسى وعاينوها واعترفوا بأنها ليست من السّحر المألوف عندهم، وهاهم ينصبون الحواجز الوهمية لموسى بأنهم لا يصدقونه ولو جاءهم بكل آية معتقدين أنّه ساحر متميّز وليس رسولا كما يدّعيه، وبالتّالي فهم يمتنعون عن

إطلاق سراح بني إسرائيل.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾:

وأمام هذا الإصرار الطّاغي أنذرهم موسى بمجيء آيات هي أنواع العذاب من الله تترى عليهم، جزاء كفرهم وعنادهم. وقد أجمل الله تلك الآيات في سورة الإسراء بأنها تسع في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍۭ بَيِّنَاتٍ﴾ (١٠١). ذكر الله منها هنا خمسا هي:

أ)- **الطّوفان:** الأرجح أنه طوفان الماء غمر بيوتهم ومزارعهم فشلّ حركتهم وحجز أقواتهم حتى استغاثوا بموسى ليدعو الله أن يرفع عنهم تلك النّقمة. ونحن نعايش ونسمع عن تلك الفيضانات الكاسحة وما تخلّفه من دمار وإتلاف للعباد والمواشي، ثم ما ينتج عنها من أوبئة وأمراض يتعاون العالم كله اليوم في التّخفيف من ويلاتها ولا يكاد، ولذا ذهب بعض العلماء إلى تفسير الطّوفان بانتشار الوباء وكثرة الموت.

ب)- **الجراد:** وهو الحشرة المعروفة بإتلافها للمزروعات والأشجار، فقد أتى على ما سلم من مزروعاتهم وأشجارهم من الطّوفان، بل هو يضايق النّاس في أكلتهم عندما يفقس بيضه فيزحف في أسراب لا يقوى على الطّيران، ولا يعرف له نكوصا إلى الوراء مهما اتخذ النّاس له من تدابير إلا أن يحرق أو يباد.

ج)- **القمّل:** وهو على الأرجح نوع من السّوس ينخر مخزون الحنطة، أو هو نوع من القراد الصّغير يقضي على ما أبقاه الجراد، وقد اختلف عند المفسرين تحديد هذا النّوع من الآفة من فصائل الحشرات، وأيّا كان التّفسير الرّاجح لهذه الحشرة فهي من المؤذيات لراحة الإنسان إما في بدنه أو في أقواته.

د)- **الضَّفادع**: مفرده ضفدعة، فهي وإن كانت لا تؤذي إذا كانت بكميات معقولة في الغدران والحقول غير أنها تقلق الإنسان إذا تكاثرت بأعداد هائلة تزاحم الإنسان حتى في خلواته كما تذكره الرّوايات.

هـ)- **الدّم**: قيل: إن مياههم تحوّلت إلى دم حقيقي، وقيل: أشبهت الدّم في اللّون بفعل مؤثر خارجيّ، وقيل: أصابهم رعاف حادّ يتهدّدهم بالتّزيف الدّموي.

تلك هي الآيات المفصّلات التي أيّد الله بها موسى وهي هنا خمس، وقد اختلف المفسّرون في الأربع الباقية إلى أقوال، وكلّها مما ذكره القرآن في هذه السّورة أو السّور الأخرى، نؤمن بها كلّها وهي تسع كما ذكر الله في سورة الإسراء، وأما كيفية حدوثها والفترات التي حدثت فيها، فليس لدينا نصّ مقطوع به يوضّح ذلك إلا بكيفية مجملة مما يستفاد هنا من قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾. إذ من معاني الفصل التّفرقة بين الشّيئين بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر، ويستعار لإزالة اللّبس، أي الفصل المجازي. وقيل: إن المراد به الفصل بين هذه الآيات في الزّمان، والله أعلم.

وبعد هذه المصائب، هل انصاع فرعون إلى رسالة موسى، وهم في كل مصيبة يلتجئون إليه ليدعو الله لهم أن يرفع ذلك الزّجر كما تبيّنه الآيات اللاّحقة؟.

الإجابة في هذا التّفريع: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: لم يعترفوا بتلك الآيات استكبارا وعنادا لأنهم دأبوا على الإجرام فرسخت فيهم هذه الصّفة التي تنحرّ عن الاستكبار والعتوّ في الأرض. ألا فليتعظ الحكّام الجورة، لأن الله تعالى أيّد موسى ببرهانه وأدلّته التي تدمغ الباطل وتمكّن في الأرض للمستضعفين.

والله أعلم

هلاك فرعون وقومه، ووراثة بني إسرائيل ملكهم

أ)- النص:

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿الرِّجْز﴾: من معانيه الاضطراب النفسيّ بمعاناة أي ألم أو شدّة. وهو من أسماء الطّاعون كما ورد في بعض الأحاديث. ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾: أي بما علّمك ربّك من وسائل الإجابة عندما تدعوه. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾: أيَ إلى الأجل الذي قدّره الله لإهلاكهم فمانيا. ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾: ينقضون عهدهم ويصرّون على الكفر. وحقيقة النّكث: هو نقض المفتول من حبل أو غزل قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ (النحل:٩٢). ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾: الانتقام هو تسليط العقوبة الشّديدة على المجرم. ﴿ٱلْيَمِّ﴾: البحر والنهر العظيم كالنّيل. واللّفظ معرّب عن السّريانية أو القبطية. ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾: المقصود بهم هم بنو إسرائيل قوم موسى كما قال

تعالى في آية أخرى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ (الشعراء:٥٩). ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾: التدمير هو التخريب الشديد. ﴿يَعْرِشُونَ﴾: من العريش: وهو ما يرفع من دوالي الكروم وغيرها من النباتات المتسلقة.

ج)- البيان والتفسير:

بعد ذلك الاستدراج بأنواع المصائب المذكورة في الآية السابقة، خصّ بالذكر هنا عذاب "الرّجز" إذ اضطربوا له وتضايقوا به كثيرا، وترد في تحديده احتمالات كثيرة لدى المفسرين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا۟ يَا مُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾: فما المقصود بالرجز؟، هل هو الأنواع الخمسة المذكورة، أم هو العذاب الأخير "الدّم" أم هو عذاب سادس يتمثل في وباء "الطاعون"؟، كما يشير إليه الحديث المذكور في التفسير النّقلي قال ﷺ: «**الطّاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل -أو قال: على من قبلكم- فإذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه**».[1]

وتخصيص هذا النوع من العذاب بالذكر -على احتمال غير الخمسة المذكورة- لأن له وقعا أليما في نفوسهم دفعهم إلى الاعتراف بآيات موسى والالتجاء إليه أن يدعو ربّه فيزيله عنهم، وهو مستجاب الدّعاء بما له عند الله من محبة وتكريم، وبما حباه به من نبوءة ورسالة. ثم أقسموا له بأنهم إن رفع عنهم

١- رواه مسلم من حديث أسامة بن زيد، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة وغيرها، حديث ٢٢١٨.

العذاب فإنهم يصدقون بأنه مرسل من ربّه لإخراج بني إسرائيل من مصر. ووعدوه بأنهم سيستجيبون طلبه لإطلاق بني إسرائيل.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾:

وكشف العذاب عنهم محتمل فيه الوجوه السّابقة، أو العذاب الأخير، ولكل منهم أجل معيّن عند الله ينتهون إليه، فإذا هم يفاجئون موسى بالنّكث، وينقضون عهدهم.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾:

والنّكث بالعهود خيانة تستوجب العقاب، والله تعالى يمهل ولا يهمل، فلمّا بلغوا الأجل الذي استدرجهم الله إليه، سواء في كلّ مرّة من الآيات الخمس أو في مجموعها نزل بهم العذاب الذي أهلكهم بأن أغرق الله فرعون وجنوده في البحر. وعلّة ذلك هو تكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عن سنن الله الثابتة، وعن الحقّ الذي جاء به الرّسل، إذ كانوا يغالطون أنفسهم، ويمالئ بعضهم بعضاً حكّاماً ومحكومين في اتّباع الشّهوات والتّمسّك بالخرافات والأضاليل، وينحرفون عن منهج الله السّويّ بضروب من التّأويل.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾:

بعد بيان مصير الطّغاة الكفرة وكيف انتقم الله منهم، أبان الله في هذه الآيات المعطوفة على ما قبلها، أبان جزاء المؤمنين الصّابرين، وقد وصفهم الله تعالى بالمستضعفين، والمقصود بهم بنو إسرائيل، عبّر الله تعالى عن نصرهم بإيرائهم

الأرض، وهو يصبّرهم عند الشدّة عندما قال لهم: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

وأضيف إلى الأرض الموروثة لفظا "المشارق" و"المغارب" ليدلّ على سعتها، كما وصفت بالبركة للدّلالة على خصبها وسعة أرزاقها ووفرة أنهارها، كما فصّل الله ذلك في سور أخرى كقوله في سورة الشّعراء: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥٧-٥٩).

ولم يحدّد النّصّ الأرض الموروثة لبني إسرائيل، لأن القرآن لا يهتمّ بتلك الجزئيات، غير أن الواقع التّاريخي والرّوايات ترجّح أنها أرض مصر والشّام بما فيها فلسطين، وكانت كلها تحت حكم الفراعنة.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾: وصدق الله وعده ونصر عبده موسى بإهلاك العدوّ والاستخلاف في الأرض.

ووصف كلمة الله بـــ"الحسنى" وصف تشريف، إذ هي حسنة لبني إسرائيل جزاء إيمانهم وصبرهم، وسيّئة على فرعون وقومه جزاء كفرهم ونكثهم للعهود.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾: والتّدمير هو التّخريب الشّديد، ويتمثل في إزالة معالم الحضارة التي أقاموها على الصّناعة والزّراعة. ولا أدلّ على ذلك من آثار أهرامهم التي تعدّ من أعاجيب الدّنيا السّبع. وتلك هي عاقبة الطّغيان والجبروت، فهل يعي ذلك فراعنة كل زمان ومكان؟.

والله أعلم

قصة موسى مع قومه

أ)- النص:

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَجَاوَزْنَا﴾: من المجاوزة، وهي البُعد عن المكان عقب المرور فيه. ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾: أتوا: بمعنى مرّوا عليهم، عدّي بـ"على" لتضمين معنى المرور لا الإقامة. ﴿يَعْكُفُونَ﴾: بضمّ الكاف وبكسرها، من العكوف وهو الملازمة بنيّة العبادة. ﴿أَصْنَامٍ﴾: الصّنم: هو ما يصنع من خشب أو حجر أو معدن مثالاً لشيء خيالي، أمّا إذا كان مثالا لشيء حقيقي فهو "تمثال"، فإذا عبد فهو صنم. ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾: من التبار وهو الهلاك. ﴿أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾: أطلب لكم. ﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: المراد بالعالمين أمم عصرهم.

ج)- حول مبنى النصّ، وأوجه القراءة:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم﴾: قرأ ابن عامر "أنجاكم"، على أنه من كلام موسى، وقرأ

الباقون: ﴿أَنجَيْنَاكُم﴾ مسندا إلى الله على طريقة الالتفات. ﴿يَعْكُفُونَ﴾: قرأ حمزة والكسائي بكسر الكاف والباقون بضمّها. ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآءِيلَ الْبَحْرَ﴾: جاوز بمعنى "جاز" يتعدّى إلى مفعول واحد وإلى المفعول الثّاني بالباء، وهي للمصاحبة. ﴿أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾: أبغي مضارع "بغيت" بهمزة المتكلم وهو يتعدى إلى مفعول واحد، وتعديته إلى ضمير المخاطبين على طريقة الحذف والإيصال، وأصله "أبغي لكم" و "إِلَهًا" منصوب على التّمييز. ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: جملة في موضع الحال. ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: التّناظر بين الجملتين بتقديم المسند على المسند إليه.

د)- البيان والتّفسير:

بعد انتهاء قصّة موسى مع فرعون وقومه وكيف نصره عليهم، شرع الله تعالى في قصة موسى مع قومه بني إسرائيل وكيف تكوّنت أمّتهم، والمراحل التي مرّوا بها وفق سنة الله في خلقه ليكونوا عبرة لغيرهم فقال تعالى: **﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَآ إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، إِنَّ هَٰؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾**.

وقبل أن نشرع في تفسير هذه الآيات، نمهّد لها بتعريف الطّبيعة البشرية حين يطول عليها الأمد في الذلّ والهوان، وقد استحوذ عليها الخوف والرّعب من سياط الجلاّدين. يقول سيّد قطب في ذلك: "ليس أفسد للنفس البشرية من الذلّ والخضوع للطغيان طويلا، ومن الحياة في ظل الإرهاب والخوف والتّخفّي والالتواء لتفادي الأخطار والعذاب، والحركة في الظلام مع الذعر الدّائم والتّوقع الدّائم للبلاء. ولقد عاش بنو إسرائيل في هذا العذاب طويلا، عاشوا في ظل الإرهاب، وفي ظل الوثنية الفرعونية كذلك، عاشوا يقتل فرعون أبناءهم ويستحي نساءهم،

فإذا فتر هذا النّوع البشع من الإرهاب الوحشي، عاشوا حياة الذّل والسّخرة والمطاردة في كل حال، وفسدت نفوسهم وفسدت طبيعتهم، والتوت فطرتهم، وانحرفت تصوّراتهم وامتلأت نفوسهم بالجبن والذّل من جانب، وبالحقد والقسوة من الجانب الآخر. وهما جانبان متلازمان في النّفس البشرية حيثما تعرضت طويلا للإرهاب والطّغيان".[1]

قلت: إن العلاّمة ابن خلدون قد قرّر هذه القاعدة حين قارن بين حياة البداوة وحياة الحضارة، فوصف البُدَاة بكثير من الصّفات الخلقية الحميدة، كالكرم والشّجاعة والنّجدة، ثم علّل ما يتّصف به عادةً أهل الحضر من الذّلّ والخوف والجبن، علّل ذلك بما تربّوا عليه منذ نعومة أظفارهم من ضرب أبشارهم في محيط الأسرة ثم في محيط الكتّاب والمدرسة، فينشأون على الخوف والجبن، وفي هذا الإطار التربوي الحكيم في التنديد بالضّرب والتّخويف للناس يندرج حديث رسول الله ﷺ إذ يخبر عن أنواع من النّاس لم ير مثلهم في النّار منهم: «**قوم بأيديهم سياط كأذناب البقر يضربون بها النّاس**»[2]، وهم رجال الشّرطة سيما شرطة مكافحة الشّغب. وقد قال عمر ﷺ لعمّاله في الأمصار: "لا تضربوا أبشار النّاس فتذلّوهم".

ولنأخذ بعد هذا التّمهيد الذي ندرك من خلاله مدى معاناة موسى مع قومه في استصلاح نفوسهم، ومتاعبه في تعديل طبائعهم.

قال تعالى: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا۟ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ**﴾.

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٩/٥٩-٦٠.

٢- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، حديث ٢١٩٢.

لقد تمّ الإنقاذ لبني إسرائيل، وهاهم يشاهدون مصرع عدوّهم وزوال ملكه، وعايشوا مرّة أخرى معجزة موسى في عصاه وهي تضرب البحر فينفلق ويجعل الله حواجز للماء حيث يجتاز موسى وقومه آمنين إلى الشّاطئ الآخر، ثم ينطبق الموج على فرعون وجنوده، كما وردت تفاصيل ذلك في سور أخرى. إنها يد الله الحانية: ﴿وَجَاوَزْنَا﴾.

وإنه اليقين والثّبات والثّقة في قدرة الله من طرف موسى حين اضطرب قومه لملاحقة فرعون إياهم فقالوا له كما حكى الله عنهم في سورة الشّعراء: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٦١-٦٢).

وما تزال في القوم قابلية للنكوص إلى ما ألفوه من جهل ووثنية، فـ مرّ أن مرّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم تحرّك في نفوسهم الحنين إلى المعبودات التي ألفوها، ولم تكن فكرة التّوحيد قد تغلغلت في نفوسهم على ما بذله موسى من جهد مضنٍ في إنقاذهم من أرجاس الشّرك. وهذه الحادثة تجسّد خطر العدوى والمحاكاة في الطّبيعة البشرية وتبيّن مدى تأثّرها بواقع البيئة، وتحكي الرّوايات أنّ هؤلاء هم الكنعانيون الذين يعرفون عند العرب بـ"العمالقة" وأصنامهم في ما قيل كانت على صور البقر ويسمونها "بعل"، وهذا النّوع من التّماثيل قد أثار فيهم الحنين إلى المعبود الذي كانوا يعبدونه مع المصريين وهو على صورة عجل ويسمونه "أبيس"، وهو ما يفسّر اختيار السّامريّ لصورة العجل حين أضلّهم في غياب موسى كما سيأتي. وقد هاموا في تقديسه وحبّه كما قال تعالى عنهم: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ (البقرة:٩٣).

وشبيه بحادثة قوم موسى في تعلّقهم بمظاهر الشّرك ما ترويه السّيرة النّبوية في التّفسير المأثور عن أبي واقد اللّيثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حُنَيْن فمررنا

بسدرة فقلت: يا رسول الله: اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار "ذات أنواط" فقال: الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾. إنكم تركبون سنن من قبلكم».[1]

ولم يسلم المسلمون من هذه الانحرافات في تقديسهم لأضرحة الأولياء والصّلحاء يتوسلون بها إلى الله، بل حتى في تقديس بعض الأماكن الطّبيعية. وأذكر حادثة مرت عليّ وأنا طفل صغير اصطحبت والدتي -رحمة الله عليها- إلى بني يزقن للمشاركة في عرس إحدى قريباتها هناك إذ مررنا على سدرة كبرى في مجرى وادي "بنورة" فتوقفنا عندها لنستريح في ظلها برهة، فإذا بوالدتي تدعو الله بحرارة وتلتمس خرقة في أثوابها لتعلقها على الشّجرة تبرّكا -وكم بها من تلك الخرق- وعندما سألت والدتي عن سرّ تلك الشّجرة قالت: إنها شجرة مقدّسة مباركة، والدّعاء عندها مستجاب. وكانت ميزة تلك الشّجرة -في نظر البسطاء السذّج- أنها تنتج ثلاثة أنواع مختلفة من الحبوب والأعشاب التي يتداوى بها قديما وهي تتفرع من جذع واحد. وذلك أمر طبيعي في كثير من الأشجار، غير أن الشّيطان يوحي للناس بمثل تلك الأفكار الزّائغة.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، إِنَّ هَٰؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾:

فُصلت الجملة لوقوعها في جواب المحاورة، ويتّسم جواب موسى بشيء من التّعنيف والقساوة، إذ وصفهم بالجهل على إطلاقه، وبصيغة المضارع للتجدّد والاستمرار، ثم بإسناد الجهل إلى القوم ليشمل كلّ من يكون على شاكلتهم في الجهل والضّلال.

١- رواه الترمذي من حديث أبي واقد، كتاب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، حديث ٢١٨٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: تعليل لذلك الجهل، وجاء الحكم على أولئك القوم مؤكدا وعرّفوا باسم الإشارة ﴿هَؤُلَاءِ﴾ لتمييزهم بتلك الحالة من تلبّسهم بالباطل وهلاك أمرهم في نهاية المطاف، لأن الباطل زاهق منهما انتفش واستطال: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء:٨١). وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء:١٨).

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: بعد ذلك التّعنيف على الغفلة والنّسيان يتعجّب موسى من ذلك الطّلب منكرا اتّخاذ غير الله إلها مقدما المفعول الثّاني لفعل "أبغي" للمبالغة في الإنكار، وقد اشتدت غيرة موسى على دين الله مذكّرا قومه بما أنعم الله عليهم، إذ أنقذهم من براثين الذّلّ والهوان وعبادة الإنسان للإنسان، وفضّلهم على سائر الأمم في زمنهم بهدايتهم إلى توحيد الله وتكريمهم برسالة الله، وتوريثهم الأرض المقدسة حيث يعلو فيها شأنكم وتتحقق فيها عزّكم وكرامتهم.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾:

وعلى طريقة أسلوب الالتفات على قراءة الجمهور ينتقل السّياق إلى خطاب الله إليهم موصولاً بكلام موسى تأييدا له وتكريما لمقامه، وقد امتنّ الله على بني إسرائيل بقوله: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم﴾. والتّقدير: اذكروا إذ أنجيناكم مما كنتم فيه من الشّقاء والعذاب، وما تعرّضتم إليه من فرعون وقومه بخصوص ذلك العذاب المتمثل في قتل أولادكم واستحياء نسائكم، وفي ما أصابكم اختبار وامتحان من ربّكم.

وفي الإنجاء من العذاب والخروج من المحنة عبرة للقلوب الحيّة والعقول النّيرة، وشهادة على قدرة الله ونعمته ما أحدركم بتذكّرها وإعطائها حقّها من الشّكر.

ويرى بعض المفسرين أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَ أَنجَيْنَاكُم﴾ هو لليهود الموجودين في زمن رسول الله على اعتبار أنهم أمّة واحدة مع أسلافهم الأقدمين، وهو بعيد، إذ أن سورة الأعراف مكّية وليس في القرآن المكي مجادلة لليهود، والله أعلم.

مناجاة موسى لربّه في الميقات، وإنزال التوراة عليه

أ) - النص:

وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ۚ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ۖ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿ثلاثين ليلة﴾: المراد بالليالي مع أيامها، لأنّ الغالب في الكلام العربيّ التوقيت بالليالي إذ هي متوطئة بظهور الأهلّة. ﴿فتمّ ميقات ربّه﴾: الميقات: قيل هو مرادف للوقت، وقيل: هو وقت قدّر فيه عمل ما كميقات الحجّ والصلاة، وتمامه هو بمعنى التمام والتفوق، بمعنى ميقاتا كاملا. ﴿اخلفني في قومي﴾: كن خليفة

عنيّ، والخليفة يقوم بعمل من خلفه، فرئاسة بني إسرائيل كانت لموسى وأما أخوه هارون فكان بمنزلة الوزير، لقوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي﴾ (طه:٢٩ -٣٠). ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾: المجيء هو انتقاله من بين قومه إلى سيناء حيث تقع المناجاة. ﴿لَن تَرَانِي﴾: "لَن" تستعمل لتأبيد النفي، ولتأكيد النفي في المستقبل. ﴿تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾: التجلّي: حقيقته الظهور وإزالة الحجاب كما قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ (الليل:٢). وهو هنا مجاز يراد به -والله أعلم- إزالة الحوائل المعتادة التي جعلها الله حجابا بين الموجودات الأرضية وبين قوى العظمة والجبروت التي استأثر الله بتصريفها، والله أعلم بكيفية ذلك. ﴿جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً﴾: أي مدكوكا، والدكّ أو الدقّ: الهدّ وتفرّق الأجزاء، بحيث أصبحت أجزاء الجبل مفككة ومستوية بالأرض. والخرور: السّقوط على الأرض. والصعق: بمعنى مصعوق، مغشيا عليه. ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾: اخترتك على النّاس الموجودين في زمنه. ﴿الأَلْوَاحِ﴾: جمع لوح: قطعة مربعة من الخشب كانت معهودة للمسلمين بالكتابة عليها، وهي هنا مجاز بالصّورة. أما مادتها أو كيفية ذلك فعلمها عند الله. ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾: تمثيل لحالة العزم على العمل بما في الألواح بمنتهى الجدّ والحرص.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾: قرأ أبو عمرو: ﴿وَوَعَدْنَا﴾ من الوعد. والوعد يكون من واحد لآخر لا يطلب منه شيء لأجل الوفاء. وقرأ الباقون: "واعدنا" من المواعدة وهو الاتفاق على الشّيء بين اثنين أو أكثر كالتّلاقي في زمن أو مكان معيّن. ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾: قرأ الجمهور "دَكّاً" بالتنوين والمراد به أنه مدكوك. وقرأ الكسائي وحمزة وخلف "دَكَّاءَ" بمدّ وتشديد الكاف، والدّكاء: النّاقة التي لا سنام لها. فهو تشبيه بليغ. ﴿اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي﴾: وقرئ "برسالاتي" جمعا.

د)- البيان والتفسير:

بعد النصر الذي حققه الله لموسى بإهلاك عدوّه، ومجاوزته البحر بقومه، وقد شعروا بالنجاة وبالسيادة والاستقلالية، انتقل السّياق إلى بيان كيفية اصطفاء الله لموسى وبتشريفه بإنزال التوراة التي تشرّع لبني إسرائيل مناهج هدايتهم في ما يأتون وما يذرون من أحكام الحلال والحرام بما تستقيم به أحوال معاشهم ومعادهم وهم مرتحلون إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

الجملة معطوفة على ما قبلها: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾، وقد تقدّم الكلام على ميقات موسى مع ربّه في سورة البقرة مجملا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة:٥١). وهنا فصّل مدة الميقات بأنها ثلاثون ليلة ينقطع فيها موسى إلى الله صومًا واعتكافًا إعدادًا للّقاء الموعود لتزكو نفسه وتسمو روحه بعيدا عن صخب الدّنيا. وقيل: إن موسى كره أن يلقى ربّه بخلوف فمه، فاستاك بلحاء شجرة، فأمره الله أن يكمل صيام عشرة أخرى، وقيل: إنها ليالي ذي القعدة وعشر من ذي الحجة وهو الموعد الذي حصل فيه التّلقي عن الله لموسى وأكمل الله فيه الدّين لمحمد ﷺ. ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة:٣) أي يوم النّحر، وقيل: هو يوم عاشوراء.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾:

جعل الله تعالى هارون سندا لموسى، فالسّيادة لموسى إذ قال لأخيه: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾، فبنو إسرائيل هم قومه، ساد عليهم بأمر من الله. وهارون

تبع له بأمر من الله كذلك، أمره موسى أن يخلفه في تدبير شؤون القوم عند غيابه إلى الميقات، إذ لا يصلح القوم فوضى لا سُرَاة لهم، سيما مَنْ أُلِفَ التبعية والاستعباد. والخلافة على أمثال هؤلاء تتطلب حنكة وسياسة بالغة، كان على موسى أن يقدّم لهارون وصية تجمع قواعد تلك السّياسة، وهي تدور على محور الإصلاح لشؤون الأمة في جميع أحوالها، بحيث تعود بالخير والصّلاح لفاعلها ولغيره، وتحذيره من اتّباع سبيل المفسدين بوحي بأن هناك مفسدين في المجتمع الإسرائيلي، إذ لم تكن فكرة التوحيد قد تغلغلت في نفوسهم بالقدر الذي يجعل مجتمعهم يتغلب عليه طابع الصّلاح.

قال الإمام ابن عاشور: "لا جرم أن كان قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ جامعا للنهي عن ثلاث مراتب من مراتب الإفضاء إلى الفساد وهو العمل المعروف بالانتساب إلى المفسد، وعمل المفسد وإن لم يكن مما اعتاده، وتجنّب الاقتراب من المفسد ومخالطته".[1]

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

كان مجيء موسى لميقات ربّه وتكليم الله إياه خلال ذلك أمرًا حاصلاً غير محتاج للإخبار عنه، فجُعلا شرطا لحرف "لَمَّا" ليجيء ما بعدهما من إظهار عظمة الله وجلاله في دكّ الجبل إخبارا له. ومكان المناجاة هو جبل الطّور في سيناء، انتقل إليه موسى بأمر الله ليسمع كلام الله -وهو إحدى ظواهر الوحي المثبتة في قوله تعالى من سورة الشورى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٨٨/٩.

حجاب أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (٥١). ولا شكّ أن إسناد الكلام إلى الله تعالى هو إسناد مجازيّ، لأن النطق بالألفاظ المفيدة للمعاني وفق مصطلح التكليم لدينا نحن البشر مستحيل على الله. وتبقى ظاهرة الوحي في أنواعها الثلاثة أمرا غيبيا نؤمن به إيمانًا جازمًا دون أن ندرك الكيفية التي تتمّ بها لأنها تقع في دائرة المواهب اللدنية الربّانية لا كسب فيها للإنسان العادي.

فموسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام بدون واسطة الملك، وقيل: إن السّبعين المختارين للميقات سمعوه معه، وفي ذلك المقام القدسي التشريفي لموسى في موقف الميقات حيث غشاه جلال النبوءة بسماع الكلام استشرفت نفسه إلى رؤية الذّات العلية لزيادة المعرفة بالجلال الإلهي فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾.

وقول موسى: ﴿أَرِنِي﴾ فيه معنى الاستعانة وطلب الإمداد الرّوحاني من الرّبّ تعالى حتى يقوى ويرتقي إلى ذلك المقام. ولكن الإجابة الإلهية جاءت نافية نفيا تأبيديا للرؤية في الحاضر والمستقبل، إذ ليس لأحد من الخلق القدرة على ذلك، وقد ظنّ موسى أن مقام الحظوة التي حباه الله بها في الاتصال بالملأ الأعلى تخوّله تلك الميزة للاستشراف إلى ذلك المقام العالي. ولكن جلال الألوهية فوق الطّاقة البشرية المحدودة. وفي الحديث الشّريف تصوير بليغ لذلك الجلال إذ يقول الرّسول في ما رواه الإمام مسلم عن أبي موسى الأشعري: «**حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**».[1]

﴿وَلَكِنُ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾: وإقناع موسى عليه السلام بعدم قدرته على رؤية الذّات العلية، جاء هذا الاستدراك بأمر الله

١- رواه مسلم من حديث أبي موسى، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام» وفي قوله: «حجابه النور»، حديث ١٧٩.

تعالى لموسى أن ينظر إلى الجبل الذي هو فيه، والذي هو شبيه به في خلقته من المادة الفانية لهذا العالم. ينظر إليه هل يثبت في مكانه حين يتوجه إليه الجلال الإلهي بشيء من سبحاته؟، وتعليق إمكانية الرؤية باستقرار الجبل في مكانه إعلان باستحالة ذلك، إذ يقول تعالى بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

لقد اندكّ الجبل على عظمته وصلابته عند التجلّي الرّباني، فأين قوّة موسى من قوة الجبل، وقد صعق لهول المشهد المادي، فكيف به أمام جبروت الله وعظمته لو أزيلت الحواجب؟.

لقد أدرك موسى عندما أفاق أنه تطاول إلى مقام لا يملك فيه المؤهلات التي ترفعه إليه -وهو المخلوق الضّعيف- بالمقارنة إلى الجبل المدكوك، ولذلك سارع إلى التّوبة مما بدر منه: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

لقد كان ذلك الصّعق أمام هول المشهد بمثابة المنبّه لموسى إلى ما يجب عليه نحو الله من التّقديس والتّنزيه. فبادر بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، وهو مصدر لإنشاء الثّناء على الله وتنزيهه عما لا يليق به. ويقول المفسّرون أنّ وجه التّنزيه والتّوبة من موسى أنه سأل الرّؤية بغير إذن من الله تعالى فتاب ورجع عما طلب.

وإقراره بأنه أوّل المؤمنين، تعبير عن قوة الإيمان الذي لا تردّد فيه ولا نقص. يقول ابن عباس ﷺ في تفسير هذه الجملة: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه لا يراك أحد.

وقضية "رؤية الله" كانت وما تزال مثار جدل كبير بين المتكلمين، فأمّا رؤيته في الدّنيا فهي مستحيلة إجماعا، ويبقى محلّ الخلاف في رؤيته بالآخرة على اعتبار قاعدة أن "أحكام تلك الدّار ليست كهذه".

يقول الإمام ابن عاشور: "وقد يؤول الخلاف بين الفريقين إلى اللفظ، فإن الفريقين متفقان على استحالة إحاطة الإدراك بذات الله واستحالة التحيّز".[1]

﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾:

القائل هو الله تبارك وتعالى وقد شرّف موسى بتكليمه من وراء حجاب وبدون وساطة الملك جبريل عليه السلام، والمقول مؤكد بـ"إنّ" للاهتمام بمضمونه من اصطفاء الله لموسى بالرّسالة وبالكلام المقدّس. فمعيار التّفضيل والاصطفاء هو كونه رسولا من ربّ العالمين إلى قومه، وقد تلقّاها بواسطة الكلام، وهي أقدس وأشرف وسيلة لتلقي الوحي، وأما المفضولون فهم جميع النّاس في زمانه من قومه وغيرهم. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج:٧٥). ولا يقتصر هذا التّفضيل والاصطفاء من طرف الله على مستوى الخلق العادي، إذ يختار من بينهم رسلا وأنبياء، بل يشمل مستوى الرّسل في ما بينهم أيضا. إذ قال تعالى في سورة البقرة: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (٢٥٣). وقد شهد الله بالأفضلية للرسل الثلاثة: محمد وموسى وعيسى، كما تقدم تفصيل ذلك في سورة البقرة.

وكان هذا الإخبار منه تعالى لموسى تطييبًا لخاطره وتخفيفًا لوطأة الصّدمة بانذكاك الجبل وصعقه هول المشهد. ثم فرّع على ذلك قوله: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾، وما آتاه الله هو شريعة التّوراة، امتنّ الله بها عليه إذ كانت هدى ونورا لقومه يعزّ بها شأنهم ويمكّن لهم في الأرض. وذلك نعمة منه تعالى يستحق عليها الشّكر والثّناء، والله أعلم.

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ٩/٩١-٩٢.

عاقبة التكذيب بآيات الله والغفلة عنها

أ)- النص:

وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾: أي سترون عاقبة من خالف أمري وانحرف عن سبيلي. ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: الصَّرف هو الدَّفع والصَّدّ، أي يصرفهم الله عن اتّباع آياته لأنهم جُبلوا على التكبّر في الأرض بغير الحق. ﴿الرُّشْدِ﴾: الصّلاح والاستقامة، ضدّه ﴿الْغَيِّ﴾: العمى والضّلال والسّفه. ﴿لِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾: البعث والنّشور. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: بطلت فلا ثواب عليها.

ج)- البيان والتفسير:

بعد تسلية الله لموسى عليه السلام وتطييب خاطره بعد فاجعة صعقه بقوله تعالى:

﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾، انتقل النصّ إلى بيان طبيعة المتكبّرين في كل زمان ومكان، وأنهم يعرضون عن كلّ ما هو خير وصلاح، إذ يكذبون بآيات الله ولا يؤمنون باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

يندرج هذا الخبر في تكريم الله لموسى عليه السلام وبيان مكانته عنده بما اصطفاه به من الكلام والرّسالة، وهي ما تنزّل عليه من التوراة في الألواح.

وتسمية الألواح التي أعطاها الله لموسى ألواحًا مجاز بالصّورة -الله أعلم بشكلها وكيفيتها-، والألواح معهودة للمسلمين في مجال التعليم، وإسناد الكتابة إلى الله فيها هو على معنى أن ذلك تمّ بقدرته لا كسب لأحد فيها، أو على معنى أنها كُتبت بأمره عن طريق الوحي.

وقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقد حذف مفعول "كتبنا" ليكون شاملا لكلّ ما يحتاجه بنو إسرائيل في تدبير شؤون معاشهم ومعادهم من أصول التشريع. ولذا قال بعض العلماء: إنها تشتمل على أصول التوراة الإجمالية ثم كانت الأحكام التفصيلية تنزل عليه تباعا. وهذا مثل قوله تعالى في شأن القرآن: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨).

﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾: منصوبان على الحال، أي تشتمل تلك على المواعظ التي ترغّب في طاعة الله وتلين القلوب لطلب مرضاته، كما تشتمل على بيان أقسام الأحكام المبيّنة للحلال والحرام وأصول الآداب.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾: يتعيّن أن يكون هذا ممّا خاطب الله به موسى بدلاً من قوله: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾، أي فقلنا له: خذ الألواح بقوة، أي بإرادة وعزم في تطبيق أحكام الله وتجسيدها في واقع الحياة امتثالاً للأوامر واجتنابا للنواهي.

وخوطب الرّسول موسى بأخذ تلك المبادرة في قومه لأنه المبلّغ عن الله والمسؤول الأول عن التّنفيذ والتّطبيق، وبما أن للأمة مسؤولية في تحمّل الأمانة جاء الأمر أيضًا بأخذها لأحكام التّوراة لما فيها من الحسن التّامّ الكامل وليس المقصود بقوله: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ المفاضلة، بل هو للمبالغة في الحسن، لأنّ كلّ ما في التّوراة حسن ليس بينه تفاضل كما وصف رسول الله القرآن كلّه بأنه زقٌّ عسل.

وهذا الوصف للتوراة هو شبيه بقوله تعالى للمسلمين: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ (الزمر: ٥٥).

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾: تحذير من التّقصير والتّفريط في الأخذ بأحكام التّوراة ببيان عاقبة الفاسقين لأن الخطاب لموسى وقومه، وإرادته تعالى لهم عاقبة الفاسقين فيه مزدجر لهم لئلا يقعوا في الفسق والفجور.

﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾: لها احتمالات في المقصود منها فقيل:

أ)- إنّها ديار فرعون وقومه في مصر، لأنّ رجوع موسى وقومه إلى مصر بعد هلاك ثابت بنصّ القرآن.

ب)- إنها أرض الشّام يتعظون بمصير من أهلكهم الله في تلك الأرض بسبب كفرهم وعنادهم من الأمم الخوالي.

ج)- إنّها الأرض المقدسة الموعودة لهم، إذ تؤول إليهم فيدخلوها ويورثها الله لهم بعد أن يخرج الوثنيون منها، فيشاهدون كيف كانت عاقبة المفسدين.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: يجيء هذا البيان لعاقبة المتكبرين في نهاية مشهد من مشاهد قصة موسى يتضمّن طبيعة صنف من النّاس ممن شأنهم الكبر والطّغيان، والكبر هو غمط الحق واحتقار الخلق، يرى المتّصف به أنه أكبر من أن يخضع لحقّ، أو يسوّي نفسه بشخص آخر، ودافعه

الإفراط في حبّ الذّات إلى حدّ تقديسها وعبادتها، والكبرياء صفة للذات العلية، وما تكون كبرياء العبد إلاّ بغير الحق -غالبا- وتنحرّ عنه صفات ذميمة أخرى تلازم هؤلاء المتكبرين، فهم من طبعهم يأنفون سبل الرّشد والصّلاح، ويجنحون إلى سبل الغيّ والضّلال حيثما لاحت لهم، بل يجتهدون في طلبها وتلمّسها بدوافع غريزية فيهم، فهؤلاء بهدّدهم الله تعالى بأنّه سيختم على قلوبهم ويطمس أبصارهم عن أنوار الحق والهداية، فلا ينتفعون بآيات الله الصّامتة أو النّاطقة مهما توفرت بين أيديهم، فهم لا يتدبّروها ولا يتّعظون بها: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (البقرة:٧).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾: في هذه الإشارة تعليل لما آلت إليه أحوال هذا الصّنف من النّاس، فبيّن الله تعالى أنّ كبرهم واتّباعهم سُبُل الغيّ والضّلال سببه تكذيبهم بآيات الله ابتداءً، بحيث أصبح ذلك شأنهم الملازم لهم، لا ينقلعون عن تلك الصّفة، فصرف الله قلوبهم عن الانتفاع بتلك الآيات فهم دومًا غافلون عنها عن قصد وسبق إصرار، لأنّ الغفلة قد تكون عن اللاّمبالاة وغير قصد، فتلك لا تؤاخذ عليها، كما قال رسول الله: «**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**».[1]

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

قد تبدو بعض أعمال أولئك المتكبّرين الغافلين في صورة برّ وإحسان يدافع أو بآخر فيحمدهم النّاس على ذلك ويصفونهم بالنّفع والصّلاح، ويظنّون أن ذلك

١- رواه الحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس بلفظ: «تجاوز الله عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، حديث ٢٨٠١.

ينفعهم في يوم الحساب، فأزال هذا الوهم الخاطئ بهذا الحكم الذي بيّن الله فيه أنّ مناط القبول للأعمال إنّما هو الإيمان بالله وإخلاص العبادة له، والإيمان بلقائه في اليوم الآخر، وكلّ تكذيب بهذين العنصرين الأساسيين في العقيدة الإسلامية ينجرّ عنه الحبط في الأعمال، والخسر والخيبة في المآل.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أي أنّهم جوزوا على حسب معتقدهم واختيارهم بأن كذّبوا بلقاء الآخرة -وهو يوم الجزاء العادل- وكان حبط تلك الأعمال التي تبدو صالحة جزاءً وفاقًا تقتضيه العدالة الإلهية، لأنّ المكذّب بآيات الله ابتداءً لا يقرّ بمبدأ الجزاء على الأعمال، إذ يبقى حبيس وهمه بالنّظرة المادية في الحياة العاجلة، فهو لا يؤمن بيوم الحساب. وقد مضت سنة الله أن يكون الجزاء في الآخرة أثرًا للعمل يترتب عليه ترتب المسبّب على السّبب، قال تعالى في شأن النّفس البشرية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (سورة الشمس:٩-١٠).

والله أعلم

قصة اتّخاذ العجل وعبادته في مغيب موسى

أ)- النص:

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿مِن بَعْدِهِ﴾: أي بعد ذهابه إلى ميقات ربّه في جبل الطّور. ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾: ما تتّخذه المرأة للزّينة من ذهب وفضّة. ﴿عِجْلاً﴾: العجل: يجمع على عجول، ولد البقرة. والخوار: هو ولد النّاقة. ﴿خُوَارٌ﴾: صوت البقرة. والرغاء: صوت الإبل. ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾: كناية عن النّدم عما فعلوه. ويقال: "فتّ في ساعده" ومن تعابير النّدم في القرآن: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ (الكهف:٤٢).

ج)- أوجه القراءة:

﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾: قرأ الجمهور: "حُلِيِّ" بضمّ الحاء وكسر اللاّم وتشديد الياء، وقرأ حمزة والكسائي: "حِلِيِّ" بكسر اللام مع الحاء، وقرأ يعقوب: "حَلْيِهِم" بفتح الحاء وسكون اللام على صيغة الإفراد. ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾: قرأ الجمهور بـــ"ياء" الغيبة في الفعلين ورفع "رَبُّنَا"، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بـــ"تاء" الخطاب، ونصب "رَبَّنَا" على النّداء. ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾: مبني للمجهول، كناية عن النّدم وتبيّن الخطأ، فمعنى: "سُقط في يده" أي سقط في يده ساقط فأبطل حركة يده، إذ المقصود أن حركة يده تعطّلت بسبب غير معلوم إلا بأنه دخل في يده فصيّرها عاجزة عن العمل، وذلك كناية عن كونه قد فجأه ما أوجب حيرته في أمره. ويقال في هذا المعنى: فتّ في ساعده ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ (الكهف:٤٢).

د)- البيان والتّفسير:

هذا مشهد آخر من مشاهد قصة موسى مع قومه، فبعد قصة المناجاة وإنزال

الألواح، عطف على ذلك قصة ما جرى من قوم موسى أثناء غيابه لميقات ربّه من اتخاذ العجل وعبادته من دون الله فقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ﴾.

ما يزال بنو إسرائيل تناوشهم الضّلالات القديمة من وثنية فرعون وقومه، فكلّما بدت لهم بادرة للانتكاس عن إيمانهم طاروا إليها، سيما في غياب الرّسول المرشد، مما يدلّ على هشاشة إيمانهم، لقد سألوا موسى أن يجعل لهم إلها بمجرّد أن رأوا قومًا يعكفون على أصنام لهم، وهاهم اليوم عندما خلا لهم الجوّ بغياب موسى لميقات ربّه، يرتكسون مرة أخرى بمجرّد إغراء السّامري لهم عندما صنع لهم عجلا من مصوغ نسائهم وبنائهم فشكّل منها تمثالاً على صورة عجل، واتخذ له من فنيات الصّنعة ما يكون له بها خوار -وهو صوت الأبقار- وذلك بتحرّك الهواء في جوفه على تقدير من الصنعة مخصوص.

وقد ذهب بعض المفسّرين أنّ العجل المجسّد صار له لحم ودم وحلّت فيه الحياة تفسيرًا لما ورد من تفاصيل قصة السّامري في سورة طه -كما سيأتي إن شاء الله تعالى-، ولكن الأوصاف التي وردت له في هذه الآية تدلّ على أنه جسد بلا روح وأنه صنع من حليّ الذّهب، ويؤيّد ذلك الجملة المستأنفة للتعجيب من حالهم إذ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

تقريع لهم وبيان لفساد نظرهم في هذا المعتقد، حتى إن هارون عليه السلام لم يقوَ على ردّهم عن ذلك الضّلال، وقد استخلفه موسى فيهم ووصّاهم بعبادة الله وحده وحذّرهم من الانسياق وراء الضّلالات. وفي هذا التّقرير التّعجيبي من حالهم يذكر شأن الإله الحقّ أنه يكلّم من اصطفاه لرسالته كما كلّم موسى، ويرسم لخلقه طريق الهداية والصّلاح. بينما هذا العجل المصنوع فاقد لتلك الخصوصيات، فكيف

يليق بهم أن يعبدوه وقد صنعه واحد منهم وهو لا يملك لهم ضرًا ولا نفعا.

﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾: توكيد لفعل "الاتخاذ" زيادة في التعجب من أمرهم، حال كونهم ظالمين لأنفسهم بهذا التقليد الأعمى لغيرهم من الوثنيين، وربما كان لبريق الذهب المصنوع به العجل أثر في استمالة نفوسهم لعبادته -وهم عبّاد الذهب من قديم الزمان-.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: السقوط في اليد تعبير تصويري يكنّى به عن فرط الندم والحسرة، والندم إحدى خصائص المؤمن عندما تندّ به الغفلة والتقصير في القيام بواجبه، ويكون ذلك دافعًا له إلى التوبة والإنابة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠١).

وقد طوى السياق ذكر السبب لذلك الندم، كما بيّن الله ذلك في مواضع أخرى، وأن موسى عليه السلام غضب وأسف على ما أحدثه قومه من بعده، فقد انكشفت لهم الحقيقة وتبيّنوا خطأهم واعترفوا بضلالهم، فالتجأوا إلى الله يرجون رحمته وعفوه، مما يدلّ على عودة وعيهم الإيماني فجاءت إنابتهم مؤكدة بـ"اللام" المشعرة بالقسم بأنهم من الخاسرين إذا لم تتداركهم رحمة الله ومغفرته، وطلب الرحمة في هذا الموقف أولًا هو الأنسب، لأنّ ذلك يكون سببًا للمغفرة والعفو، والمرتكز في ذلك هو حسن التوبة والإنابة إلى الله، كما قال رسول الله ﷺ في حديث: «لن يدخل الجنة أحدا عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا إن تغمّدني الله برحمته، فسدّدوا وقاربوا»[1]، والله أعلم.

١- روى نحوه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، حديث ٦٠٩٨.

غضب موسى عليه السلام لموقف قومه في عبادة العجل، وتعنيفه لأخيه هارون عليه السلام بسوء خلافته

أ)- النص:

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾: الأسف بدون مدّ صيغة مبالغة للآسف بالمدّ، من الأسف وهو الحزن الشديد وقد يستعمل الأسف بمعنى الغضب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ (الزخرف:٥٥). ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾: ضدّها: نعمًا. أي بئست خلافة خلفتموني بها خلافتكم. ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾: عجل يكون بمعنى لم يتم، ويكون بمعنى سبق وبادر، والأمر بالمعنى الأول هو ما أمرهم الله به من الإيمان والمحافظة على الشريعة وبالمعنى الثاني هو وعيد الله بمبادرتهم إلى أسباب غضبه وسخطه. ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾: رماها إلى الأرض إظهارا للغضب. ﴿ابْنَ أُمَّ﴾: منادى بحذف حرف النداء قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح الميم، وذلك بحذف ياء المتكلم وتعويضها بألف ثم بحذف للتخفيف، وأما كسرها فقرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر وخلف، والكسر على الأصل. ﴿فَلَا

تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَآءَ﴾: من الشَّماتة وهي سرور النَّفس بما يصيب غيرها من الأضرار بدافع العداوة والحسد. ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾: الإدخال في الرَّحمة استعارة لشمول الرَّحمة لهما في جميع أحوالهما.

ج)- البيان والتَّفسير:

يقول الإمام ابن عاشور في موقع هذه الآيات من سابقتها يقول: "كان مقتضى الظَّاهر في ترتيب حكاية الحوادث أن يتأخَّر قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ عن قوله: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾، لأنه ما سقط في أيديهم إلاَّ بعد أن رجع موسى ورأوا فرط غضبه وسمعوا توبيخه أخاه وإيَّاهم. وإنَّما خولف مقتضى التَّرتيب تعجيلا بذكر ما كان لاتِّخاذهم العجل من عاقبة النَّدامة وتبيّن الضَّلالة موعظة للسامعين لكيلا يعجلوا في التَّحوّل عن سنتهم حتى يتبيَّنوا عواقب ما هم متحوّلون إليه".[1]، وهو ملحظ دقيق.

قلت: إن رجوع موسى إلى قومه على تلك الحالة النَّفسية من الغضب والأسف كان بإنباء الله تعالى إيَّاه بما أحدثه قومه من بعده، كما بين ذلك في سورة طه بقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٨٥). وهنا طوى السِّياق ذلك الإنباء، واكتفى بتصوير الحالة النَّفسية لموسى والبادية في قوله وفعله العنيفين.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾:

الغضب والأسف أو الانشراح والسّرور والرّضى من الأحوال النَّفسية التي تنتاب الإنسان في حياته اليومية وعلاقته بالنَّاس، وتختلف أحوال النَّاس وطبائعهم في

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١١١/٩.

سياسة الآخرين والتّعامل معهم، فمنهم الغضوب السّريع الفيء، ومنهم الغضوب البطيء الفيء، ومنهم الحليم الرّزين. وسيدنا موسى عليه السلام من ذلك النّوع الحادّ الطّبع، ولعلّ للبيئة التي نشأ فيها بين فرعون وقومه أثرًا قويًا في تكوين شخصيته، وكانت بيئة استفزازية تقوم على العنف والحدّة والغضب، ولا أدلّ على ذلك من وكزه للقبطيّ حتى قضى عليه، وربّما كان هذا الطّبع الحادّ منه عليه السلام أنسب لسياسة قومه، وقد كانوا غلاظ الرّقاب شديدي المراس.

لقد أنبأه الله في الميقات عما أحدثه قومه من الكفر والضّلال بعبادة العجل، فعظم عليه ذلك واعتملت الخواطر في نفسه، وظنّ التّقصير في أخيه هارون، وتزداد حدّة غضبه عندما رجع إلى قومه وعاين ما هم عليه من عبادة العجل وإهمالهم لوصيته بملازمة عقيدة التّوحيد وعبادة الله.

والشّاهد للمنكر يتأثر عادة أكثر مما يتأثر به الغائب، لأن الشّاهد يرى ما لا يراه الغائب. وقد روي عن ابن عباس في هذا المعنى أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يرحم الله موسى، ليس المعاين كالمخبَر، أخبره ربه عزّ وجلّ أن قومه فتنوا بعده، فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح**».[1]

وقد تجلّى غضب موسى بعد عودته في قوله وفعله، فألقى بالألائمة على قومه وعلى رأسهم هارون، ولكلٍّ جريرته، فأمّا هارون فلتقصيره في حسن الخلافة، وأمّا القوم فلانحرافهم عن الحقّ الذي تركهم عليه موسى، فاستحقت هذه الخلافة النّاقصة منهم ذلك الذّمّ الفظيع من موسى: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيَ﴾، وشتان بين حال الخلف وحال المخلوف عنه.

١- رواه ابن حبّان في صحيحه من حديث ابن عباس، حديث ٦٢١٤، ١٤/٤٩٧؛ ورواه الحاكم في المستدرك، حديث ٣٤٣٥، وقال بعد إيراده حديثًا آخر (والظاهر أنه بنفس الإسناد): هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ٢/٤١٢.

ثم أردف قائلا: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، الاستفهام للتأنيب والمعنى ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي استبقتم أمره لكم في المحافظة على شريعته وانتظار عودة موسى من ميقات ربّه، حتى يأتي بالتوراة بعد الأربعين؟، وقد قال السّامريّ لهم حين أخرج العجل: إن موسى لن يرجع وأنه قد مات.

ويصوّر هذا الموقف طبيعة العجلة في الإنسان: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ (الإسراء:١١)، سيما أمام المغريات المادية المشتهاة. وربما كان لبريق الذّهب أثر في نفوس القوم. والإيمان بوحدانية الله يرتكز أساسا على الغيب، وهو مفرق الطّريق بين المؤمن والكافر.

﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾: وتأخذ شدّة الانفعال على موسى جوانب نفسه فيلقي الألواح من يده إلى الأرض -وهي أمانة مقدّسة من ربّه- إظهارا منه لشدّة الغضب لدين الله ونصرة الحق؛ فقد بلغ به الغضب مبلغا أفقده الرّويّة والأناة، فنسي الأدب مع الله، مما دعاه بعد ذلك إلى التّوبة والاستغفار، ولم يتمالك عن تعنيف أخيه إذ أخذ يجرّه بذؤابة شعره ولحيته كما ورد في سورة طه.

وقد ظن أن أخاه قد قصّر في مهمّة استخلافه على القوم، ولم يفعل ذلك به إهانةً وإذلالاً، وإنّما غيرة على دين الله، حتى أنّه عاتبه على بقائه معهم بعد أن عصوه، ويرى من واجبه أن يلحق به إلى الطّور: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا، أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (طه:٩٢-٩٣).

وقد اجتهد هارون عندما رأى أن مصلحة القوم تقتضي بقاءه معهم حتى يرجع موسى، ولكن موسى لم يقبل عذره عندما قال له: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (طه:٩٤). بل اتخذ معه ذلك الأسلوب من التّعنيف لتأديبه على ما قصّر فيه، ولذا بادر هارون إلى الاعتذار فقال: ﴿ابْنَ أُمَّ

﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

عرف هارون كيف يستعطف أخاه ويكفكف من حدّة غضبه بهذا النّداء الذي استجاش به عاطفة الأخوّة الرّحيمة "يا ابن أمّ" ليخبره عن حقيقة موقفه الضّعيف أمام هيجان القوم إن هو تمادى في الإنكار عليهم حتى همّوا بقتله، فلم يكن له بدّ إلاّ أن يسكت حفاظا على نفسه من الهلاك. والتّقية من الهلاك في مثل هذه المواقف يؤيّدها الحديث الذي يبيّن فيه رسول الله مراتب تغيير المنكر.

وتفرّع عن هذا الاعتذار من هارون طلبه من أخيه أن يكفّ عن تأنيبه وتعنيفه محافظة على كرامته أمام تجاوزات القوم، لأن شماتة الأعداء هي أنكى ما تتألّم به نفس الحرّ الأبيّ؛ فهو بذلك يستنصر أخاه في موقف يحتاج فيه إلى النّصرة، ومن له بالنّصير الوفيّ في غير الأخوّة الرّحيمة؟، ثم طلب منه أن لا يعدّه في زمرة الظّالمين من عبدة العجل لأن ذلك لا يجوز في حقّه وهو نبيّ كريم.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾:

لقد هدأت ثائرة موسى بعد ذلك التّلطف والاستعطاف من طرف أخيه هارون، فتوجّه إلى الله يطلب منه المغفرة على ما بدر منه من إلقاء الألواح وكسرها غضبًا، وعلى ما فرط من أخيه هارون من التّفريط أو التّقصير في ردع عبدة العجل، ويطلب من مولاه أن يشملهما برحمته الواسعة وهو أرحم الرّاحمين.

وفي هذا الدعاء النّديّ إرضاء وجبر لخاطر هارون، وإرغام للشامتين بإظهار رضاه عنه، وهو المسؤول الأول في قومه.

والله أعلم

جزاء الذين اتخذوا العجل وجزاء التائبين، ونهاية قصة العجل بأخذ موسى للألواح

أ)- النص:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾: أي اتخذوه إلها يُعبد. ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾: النول والنيل: الإصابة. ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾: إرادة الله السّوء بعبده وعقابه له في الدّنيا والآخرة. ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: شعورهم بهوانهم على النّاس واحتقارهم لهم. ﴿الْمُفْتَرِينَ﴾: الافتراء: الاختلاف في أصول الدّين بعقائد فاسدة. ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾: السّكوت هنا مستعار لذهاب الغضب بهدوء النّفس. ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾: من النّسخ، وهو نقل مثل المكتوب في لوح أو صحيفة أخرى. ﴿يَرْهَبُونَ﴾: الرّهبة هي الخوف الشّديد.

ج)- البيان والتفسير:

بعد بيان ذكر موقف موسى العنيف من عَبَدَة العجل وعتابه لأخيه هارون

تستشرف النفس لمعرفة ما يستحقه القوم من الجزاء، وما يكون من شأن موسى وهارون في أمرهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.

هذا الكلام المستأنف احتمالان:

أ)- أنه من تمام كلام موسى عليه السلام مما أوحاه الله إليه في شأن ما استحقه عبدة العجل من العقاب الدنيويّ والأخرويّ، بأنهم مغضوب عليهم من طرف الله تعالى وسيظهر ذلك عليهم محنًا ومصائب ومتاعب في حياتهم وطردًا من رحمة الله في الأخرى إن لم يتوبوا، ونيلهم الذلّة يكون مما يشعرون به من هوانهم على الناس واحتقارهم بما اقترفوه كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ (٦١).

ولله تعالى شؤون في تربية خلقه بتسليط أنواع العقوبات عليهم مادية ومعنوية، قد لا ينتبهون لها بحكم الغفلة والتبلّد، لأنه من تمام التوفيق لفرد أو جماعة أن ينتبهوا لمواطن خطئهم ويحاولوا تداركها قبل فوات الأوان. وقد نبّه القرآن إلى هذه القاعدة الاجتماعية عندما قال في سورة الرّوم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١).

ب)- والاحتمال الثاني: أن يكون هذا الكلام معترضًا خاطب الله به رسوله محمدا ﷺ تعريضا باليهود المجاورين له في المدينة، بما سيلقاهم من سوء العواقب في إعراضهم عن الله ورسوله على اعتبار أنهم خلف لأولئك الأسلاف من عبدة العجل، وأنّ سنّة الله لا تتخلّف في السّلف والخلف. ولكن الاحتمال الأول أظهر وأنسب بسياق القصة.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾: تذييل بحكم عامّ مطرّد في كلّ المفترين على الله في كلّ زمان ومكان يأخذهم الله على جرائرهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى

الله كَذِباً﴾ (الأنعام: ٢١).

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

وعلى أسلوب القرآن من تعقيب التهديد بالترغيب جاءت هذه الآية المعطوفة على ما قبلها تفتح باب الأمل للتائبين مهما كانت جرائرهم، وأعظمها الكفر بالله، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له إن حسنت توبته. وبما أن المرتكب للسيئات قد يتمادى عليها وهو يسوف في التوبة، وقد يحمله ذلك على القنوط من رحمة الله -وذلك من خدعة الشيطان-.

وإلحاحاً للعاصي إلى التوبة جاء العطف بـ"ثم" وهي تفيد التراخي لإفادة رجاء القبول ولو بعد زمان من فعل السيئات، وتلك منة من الله لعباده، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِهَا﴾، أي التوبة الخالصة بعد ارتكاب السيئات. وعطف الله الإيمان على التوبة من باب عطف السابق على اللاحق، وذلك للاهتمام بعنصر الإيمان والعمل بمقتضاه، لأن الإيمان هو مناط القبول للأعمال الصالحة، أو يقصد بذكره لاحقا هنا نوعية الإيمان المطلوب بأن يكون إيمانا خالصا ثابتا، لا مجرد التصديق القلبي.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ذكر الربوبية هنا مناسب لصفتي المغفرة والرحمة، وتأكيدها بـ"إن" و"لام" التوكيد للترغيب في التوبة ودفع القنوط من رحمة الله، و"كاف" الخطاب يعتوره الاحتمالان السابقان، أن يكون لمحمد أو لموسى عليهما السلام.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾:

جاءت هذه الآية لتكملة قصة العجل وهي معطوفة على قوله: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾، فبعد دعاء موسى إلى الله وطلبه المغفرة والرحمة له ولأخيه، سكن الغضب في نفسه وهدأت ثائرته وقد رأى الحقّ يعود إلى نصابه بندم قومه وندمهم على ما بدر منهم، والسكوت مستعار لذهاب الغضب، شبّه فيها انقطاع الغضب بانقطاع الكلام.

وأوّل ما بادر به موسى بعد سكوت غضبه هو أخذه للألواح التي ألقاها على الأرض، ومتى هدأت ثورة الغضبان وثاب إلى رشده، فإن أوّل محاولة له هي أن يتدارك ما فرّط فيه أثناء غضبه، فأخذه للألواح سكون بمعنى الاهتمام بها، وبما تحمله من هدى ونور، وهو مكلّف بتبليغها لقومه، وقد وجد فيها موسى هدى للحيارى ورحمة للعصاة التائبين.

وفي معنى "النسخة" يقول القطب -رحمه الله- في التيسير: "﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي فيما كتب فيها، "فُعلة" بمعنى "مفعولة" أي مكتوبها، وهو الحروف كما هو ظاهر، أو الألفاظ بواسطة الحروف، أو المعاني بواسطة الألفاظ المدلول عليها بالحروف، أو المراد ما نسخ موسى الألواح المكسورة -وهو الأنسب- لأن أصل النسخ غير الكتابة الأولى، إلا أن يعتبر أن الألواح نسخت من اللوح المحفوظ".[1]

﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾: "اللام" للتقوية أو للتعليل، وتقديم المفعول على وجه الاختصاص للاهتمام به، ورهبة الربّ هي صمام الأمان للمؤمن من المعاصي والآثام.

والله أعلم

١- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٥/١٩٣.

اختيار موسى وفد قومه لميقات ربه، ومناجاته لله بعد الرجفة

أ)- النص:

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَاخْتَارَ﴾: الاختيار من فعل "اختار"، وهو تمييز شيء مرغوب فيه من بين أشياء مختلطة. ﴿أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾: أصابتهم هزة أرضية، أو هي صاعقة نزلت عليهم من السماء، فأخذهم الخوف والرهبة. ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾: أي ليتك أمتهم قبل خروجي بهم فلا يتهمني بنو إسرائيل بقتلهم. فـ"لو" بهذا المعنى تفيد التمني، ويجوز أن تفيد معناها الأصلي فتكون حرف امتناع لامتناع، ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَآءُ مِنَّا﴾: الاستفهام للاستعطاف أو التفجع، والسفهاء هم الذين عبدوا العجل. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: متولي أمورنا، والولاية حلف يقتضي النصرة والإعانة. ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾: رجعنا إليك بالتوبة.

ج)- البيان والتفسير:

رجح كثير من المفسرين، ومنهم الإمام الرازي وكذا القطب رحمه الله

رجّحوا أن الميقات هنا هو الميقات المعهود من قبل في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾، فبعد الاستطراد لبيان قصة العجل عاد النّصّ إلى إتمام قصة الميقات فقال جلّ من قائل: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾.

فالعطف من نوع عطف القصة على القصة، والفائدة من ذلك هي إتمام الموعظة والعبرة ببيان عظمة الله ورحمته، وكيف يستنزل أصفياؤه تلك الرّحمات، بما في أدعيتهم المخلصة من الخير والبركات. وقد وقع اختيار موسى هذا الوفد من قومه عندما أمره الله بالمجيء إلى المناجاة. فهم يمثلون الأسباط الإثني عشر، وهؤلاء ليسوا من عبدة العجل، ذهبوا مع موسى لميقات ربّه حتى يتأكدوا من صدق نبوءته، وقيل: إن الرّجفة التي أخذتهم كانت عندما حرّ موسى صعقا بعد ذلك جبل الطّور.

إنّ كثيراً من المفسرين يرجّحون هذا التّوجيه في ضمّ مشاهد قصّة الميقات الموزعة في النّصّ، وأنّه ميقات واحد، قال القطب: "﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ هو الميقات المعهود في قوله جلّ وعلا: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ وقيل: إن الرّجفة التي أخذتهم وصعقوا بها كانت جزاء خطيئتهم عندما قالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ (البقرة:٥٥). وتذكر القصة أنهم ماتوا جميعا. ففجع موسى من ذلك وقام يناشد ربه ويدعوه ويستعطفه. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾:

خشي موسى أن يقع في حرج مع قومه، وهو يرى خيار قومه قد صعقوا، فناشد ربّه، وتمنّى على الله أن لو أهلكهم قبل خروجهم معه وأهلكه معهم. لم يقرن نفسه مع قومه في طلب الإهلاك، بل فرّق بين الطّلبين، ذلك لأنّ سبب

الإهلاك بالنسبة إليه لا يمكن أن يكون عن سفاهة ارتكبها مع الله كما فعل ذلك بعض من قومه في قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَآءُ مِنَّا﴾؟.

ولورود هذا الاستفهام الذي يدلّ على التفجّع، يرى بعض المفسّرين أنّ هذه الآية تحكي عن ميقات ثان لمناجاة ثانية حين ذهب القوم للاعتذار عن عبادة العجل وأخذهم بالرّجفة، إنّما كان هول الموقف من تجلّي آثار عظمة الله في جبل الطّور، وقد وقعوا في توبيخ الضّمير، إذ سكتوا عن المنكر ولم يسندوا هارون في موقفه، وكانوا سلبيين من فتنة السّامريّ، وقد بادر موسى بذلك الدّعاء لربّه مستعطفا مسترحما، وهو يخشى أن تكون تلك الرّجفة مقدّمة لعذاب منتظر يستأصلهم جميعا.

ولعلّ الذي يرجّح هذا الاحتمال الثّاني هو قوله تعالى على لسان موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَآءُ مِنَّا﴾، لأن السّفاهة تبدو في عبادة العجل أكثر من قولهم عند الميقات الأول: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (النساء:١٥٣). وقد سبقهم موسى في طلب ذلك من الله. والرّجفة قد وقعت في الميقاتين -لا محالة- إذ ورد في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (البقرة:٥٥).

ثم استطرد موسى في دعائه قائلا: ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ**﴾، والفتنة هنا بمعنى الاختبار الذي هو من سنن الله في خلقه لقوله تعالى في هذا المعنى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(الأنبياء:٣٥) والمقصود بها فتنة عبادة العجل، أيّ أن ذلك كان من تقدير الله، وإيجاد أسباب حدوثها. وبهذا المعنى -لا غيره- كان إسنادها إلى الله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾.

والنّاس أمام التّمحيص والاختبار مهتد وضالّ، وكلا الفريقين يلتبس بما قدّر الله له من الهداية أو الضّلال وفق ما يختاره كلّ فريق من نوايا وميول، وفي

إدلاء موسى بهذا الخبر في مقدّمة دعائه تمجيد لله بسعة العلم والحكمة والقدرة، ثم أضاف بقية الدّعاء بقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ، وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾:

وقد حصر موسى الولاية في الله -وهو ما يقتضيه الإيمان الصّحيح- لأن المؤمن لا يتولّى غير الله ولا يستنصر بغيره، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ (٢٥٧).

وبعد هذا التّمجيد لله فرّع عن الولاية طلبه المغفرة من الله مقدّمة عن طلب الرّحمة منه تعالى، لأنّ مغفرة الله عند اقتراف الذّنوب أجدر بطلب العبد، من الرّحمة، ذلك لأنّ الذّنوب والآثام مدعاة لغضب الله وسخطه، وحين يحبب المولى بالعفو والمغفرة فإنّ رحمته بعبده تستتبع ذلك بفضله وإحسانه، ثم أكّد معنى المغفرة بقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾. وهو تعالى يقول في سورة طه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (٨٢).

ثم أضاف موسى في دعائه: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾: هذا الدّعاء شبيه بما علّمنا الله تعالى أن ندعوه به في سورة البقرة بعد بيان بعض أحكام الحجّ إذ قال تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢٠٠-٢٠٢).

ويلاحظ أن موسى عليه السلام اختار أن يقول لربّه: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ﴾، وبين التّعبيرين "الإثبات" و"الكتابة" فرق -لا محالة-، وللإمام ابن عاشور ملحظ دقيق بين المعنيين، يقول -رحمه الله-: "﴿وَاكْتُبْ﴾ مستعار

لمعنى العطاء المحقق حصوله، المجدّد مرة بعد مرة، لأن الذي يريد تحقيق عقد أو عدة أو عطاء، وتعلّقه بالتجدّد في المستقبل يكتب به في صحيفة، فلا يقبل النكران ولا النقصان ولا الرجوع، وتُسمّى تلك الكتابة عهدا". إلى أن يقول: "ولو كان العطاء أو التعاقد لمرّة واحدة لم يحتج للكتابة، فالمعنى: آتنا الحسنة تلو الحسنة في أزمان حياتنا وفي يوم القيامة، دلّ على هذا لفظ "اكْتُبْ"، ولولاه لكان دعاءه صادقا بإعطاء حسنة واحدة، فيحتاج إلى العموم بقرينة الدّعاء، فإن النكرة يراد بها العموم في سياق الدّعاء". اه[1]

قلت: إن ذلك يتناسب مع طباع بني إسرائيل في حرصهم الشّديد وحبّهم للمال، فقد ركّزوا على حسنة الدّنيا والتي تعني الحياة الطّيبة في العزة والكرامة وتمام السّيادة والبسطة في الأموال والنّفوذ مع طاعة الله والتزام شريعته حتى يتحقّق لهم بذلك حسن المآل في الآخرة.

﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾: إقرار مؤكد بالرّجوع إلى الله وبالتّوبة والإنابة وهو تعليل للطلب والاستجابة، والله أعلم.

ربط أول سورة الأعراف بآخرها

في الدّعوة إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ

أ)- النص:

قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٢٨/٩.

ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾: أي تعمّ كلّ الخلائق، بل حتى ما يكون من الجمادات وغيرها. ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾: هو بمعنى ضمان الحصول عليها كما تقدم، تفريع على سعة الرّحمة، بنالها من تحققت فيهم الصّفات المذكورة. ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾: الرّسول من الرّسالة، أي هو من أوحى الله إليه وأمره بالتّبليغ، و﴿النَّبِيِّ﴾: إما من النّبوءة وهي الارتفاع، وإما من النّبأ، وهو الخبر العظيم الشّأن، وفي المصطلح الشّرعي هو من أوحى الله إليه، ولم يأمره بالتّبليغ. و﴿الْأُمِّيَّ﴾: الذي لا يقرأ ولا يكتب، قيل: نسبة إلى الأمّ، لأن النّساء عند العرب لا يقرأن ولا يكتبن إلا بعد مجيء الإسلام. ﴿الْمَعْرُوفِ وَالْمُنْكَرِ﴾: ﴿الْمَعْرُوفِ﴾: شامل لكل ما تقبله العقول والفطر السّليمة. ضدّه ﴿الْمُنْكَرِ﴾. ﴿الطَّيِّبَاتِ وَالْخَبَائِثَ﴾: الطّيّب من الأشياء ما لا ضرّ فيه ولا قذارة. ضدّه الخبيث: ما يضرّ أو كان وخيم العاقبة، أو كان مستقذرا تنفر منه العقول السّليمة. ﴿إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ﴾: الإصر: هو الثّقل الحسّي الذي يحبس صاحبه عن الحركة: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾: استعارة تمثيلية بتشبيه حال المزال عنه ما يحرجه من التّكاليف بحال من كان محمّلا بثقل فأزيل عن ظهره. ﴿الْأَغْلَالَ﴾: جمع "غُلّ" بضم الغين، وهو إطار من حديد يجعل في رقبة الأسير والجاني ليمسك به. ﴿عَزَّرُوهُ﴾: أيّدوه وقوّوه ومنعوه بحيث لا يقوى عليه عدوّ.

ج)- البيان والتفسير:

بعد ذلك الدعاء الخاشع من طرف موسى عليه السلام، وقد هدأت الرجفة وبحا القوم وخلصت توبتهم إلى الله جاءت هذه الإجابة الإلهية تنمّ عن فضل الله ورعايته لموسى، وتتضمّن الدعوة إلى الإيمان برسالة محمد عليه السلام وتقيم الحجة على أهل الكتاب بما تتضمّنه كتبهم من البشارة ببعثته وذكر نعوته وأوصافه. قال تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

يلاحظ حسن الترتيب في الإجابة وفق النسق الذي جاء عليه دعاء موسى، إذ أنه أظهر لربّه الإشفاق من أن يناهم عذابه بما فعل السفهاء منهم، وهو يستعطفه ويقول: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّا﴾، فتعليق الإصابة بالعذاب على المشيئة الربّانية، فيه طمأنة لموسى وللبرآء من قومه، وأن الله قادر على إهلاك من عصى وإبقاء من خشي واتقى، وهو ما يقتضيه العدل. غير أن الرحمة الإلهية هي أشمل وأوسع. وجيء بالفعل الماضي معها ليدلّ على قدمها وثباتها وأنها ملازمة للذات العلية منذ الأزل كما جاء على لسان حملة العرش: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ (غافر:٧).

وبما أن موسى عليه السلام قد طلب المغفرة والرحمة في دعائه: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾، فقد جاء قوله تعالى في الإجابة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، جاء مقابل ذلك الدعاء، وعدا منه تعالى لموسى ومن معه بحصول تلك الرحمة، التي لها مظاهر كثيرة، وهي تتمثل في مجالات مختلفة، كما تستوعب الخلائق كلها حتى ترفع الدابّة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه، كما مثل رسول الله. غير أن تلك الرحمة تتفاوت مراتبها عند الناس وفق طاعتهم وخضوعهم لله، أو تمردهم وعصيانهم، ولإبراز هذا المعنى جاء هذا التفريع عن سعة تلك الرحمة فقال جلّ من قائل: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ، ٱلَّذِينَ

﴿يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾.

ما هي شروط الاستحقاق لتلك الرّحمة الواسعة؟. إنّها للذين تثبت فيهم الصّفات التّالية:

أ)- ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: الشّرك والمعاصي خوفا من عذاب الله.

ب)- ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: خصّصت الزّكاة بالذّكر دون الصّلاة، لأن فتنة المال من أكبر المعوّقات التي تعقد النّاس عن الإيمان والتّضحية في سبيل الدّعوات الصّالحة والقيم المثلى، وفي ذلك تعريض بطبع اليهود في شدة حبّهم للمال.

ج)- ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾: وآيات الله شاملة لكلّ الدّلائل والبراهين الدّالة على وحدانية الله، وصدق الرّسالات التي أنزلها على رسله، وكماية شرائعه للناس وصلاحيتها في تنظيم شؤون معاشهم ومعادهم.

د)- ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾: وتعتبر هذه الصّفة من الإيمان برسالة محمد ﷺ، تعتبر حلقة الوصل بين الرّسالتين التّوراة والقرآن، وتعتبر الجسر الممدود بين الرّسولين موسى ومحمد عليهما السّلام، وبالتّالي فإن الإيمان بموسى يقتضي من بني إسرائيل اتّباع نهج محمد ﷺ وهذا الرّبط العجيب يتمّ التّخلّص إلى البشارة ببعثة محمد ﷺ، بعد ذلك الاستعراض التّاريخي لمسيرة موسى ﷺ في إنقاذ بني إسرائيل وهدايتهم إلى خطيرة الإيمان بالله ووحدانيته، وذلك تمهيد إلى ربط أواخر السّورة بما ورد في أوائلها من الإشادة بالقرآن، والدّعوة إلى التّصديق والإيمان به.

وقد جمعت الآية في وصف الرّسول بين الرّسالة والنّبوءة والأمّية، لأنها أوصاف خاصّة لرسول الله محمد ﷺ لا يشاركه فيها أحد من النّبيين، لينطبق ذلك على ما ورد في التّوراة والإنجيل من الأوصاف التي يعرفها اليهود والنّصارى،

ويحاولون تحريفها أو إخفاءها، ولا شك أن تلك الرّحمة الواسعة تشمل كل من آمن بهذا الرّسول الكريم من بني إسرائيل وغيرهم، وإن كان المقصود من السّياق هم بنو إسرائيل، ولذلك أضاف إلى الأوصاف الثّلاثة: الرّسالة والنّبوءة والأمية أضاف قوله: ﴿الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾، أي يجدون نعوته وأوصافه الخاصّة به، حتى لكأنها تشخّص ذاته الشّريفة بحيث لا يشكّون فيه ولا يلتبس عليهم أمره كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ (البقرة: ١٤٦).

ولتأكيد تلك المعرفة وتعدّد مصادرها عندهم عبر الأجيال ذكر كلاً من التوراة والإنجيل ليشهد بعضهم على بعض، وكلا الكتابين لبني إسرائيل، وقد ورد بيان ذلك على لسان عيسى عليه السلام في سورة الصّف قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَاتِي مِن بَعْدِيَ اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف:٦).

وفي مهمة هذا الرّسول الكريم الخاتم تأتي هذه الأسس التي تضع معالم شريعته الغرّاء، في منهج الله السّويّ من الوسطية والاعتدال فقال جلّ من قائل: **﴿يَامُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالاَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾**:

إنها خمسة أسس: منها ما تشترك فيه كل الرّسالات السّماوية، ومنها ما يختصّ بالرّسالة الخاتمة، وهي قوام الفطرة السّليمة التي فطر الله النّاس عليها، لتبقى خالدة متأصلة في مسار الحضارة البشرية إلى قيام السّاعة.

أ)- **﴿يَامُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾**: وقوام ذلك التّعظيم لأمر الله بحسن عبادته والإقرار بوحدانيته والشّفقة على خلق الله، بإنفاذ شريعته وتعظيم شعائره، وتلك مهمّة جميع الرّسل. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ

اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ (النحل:٣٦).

ب)- ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾: إذا كان مجال الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر واسعًا يشمل الجوانب العقدية والخلقية، فإن الطّيبات والخبائث تتناول الجوانب السّلوكية في حياة الإنسان، ومن ذلك ما يتعلق بمأكله ومشربه وملبسه ...إلخ، فالطّيب هو ما لا ضرّ فيه ولا قذارة، والخبيث ضدّه مما يضرّ ويستقذر. ويندرج ذلك -أيضا- في مهمة الرّسل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُواْ صَالِحًا﴾ (المؤمنون:٥١). وفي مجال التّشريع لكافة الخلق قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ (المائدة:٤).

ج)- ﴿يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾: وقد عرفنا مما تقدّم أن الله تعالى أخذ بني إسرائيل بالشّدة في كثير من الأحكام التّشريعية جزاء تعنّتهم وقساوة قلوبهم كما تقدم تفصيل ذلك في سورة الأنعام. ولئن كانت رسالة عيسى عليه السلام هي المنطلق في تخفيف بعض الأحكام على بني إسرائيل لقوله تعالى على لسانه في سورة آل عمران: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (٥٠). فإن تمام ذلك وكماله قد تحقق برسالة محمد ﷺ رسالة الحنيفية السّمحاء، فالأرجح أن الضّمير في قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ يرجع إلى اليهود، لأنّ غيرهم من أمة الدّعوة لمحمد عليه السلام لم يكن لهم شرع ولا تكاليف، وإن كانت كثير من الأمم ترزح هي الأخرى في أغلال من الأعراف والتّقاليد التي لا تخلو من التّعسف والظّلم كما كانت وضعية العرب في جاهليتهم. فجاءت رسالة الإسلام رحمة وسلاما للعالمين، تكريما لحقوق الإنسان وتحريرا لعقله واستجابة لفطرته السّليمة، وتنظيما لحياته الفردية والاجتماعية، مما يحقق للمؤمنين بها المتبعين لمنهجها الفلاح الدّنيوي والأخروي كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

قصر الله الفلاح على الذين آمنوا برسول الله محمد ﷺ لأن مرجع الضّمائر في الآية كلها إليه. والذين آمنوا به حين بُعث هو شامل لقوم موسى وغيرهم من الأمم. وأسند الإيمان القلبي بأعمال ثلاثة تجسّد ذلك الإيمان على أرض الواقع، وتتمثل في قوله تعالى: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾، فالتّعزير هو بمعنى حمايته وتقويته ونصرته مع التّعظيم والإجلال حبًّا وتقديرًا لا ضغط فيه ولا إكراه.

﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾: أي يتمّ ذلك التأييد والنّصر لرسول الله على مقتضى ما أنزل إليه من هداية القرآن الذي يشبه النّور في إرشاد السّالكين.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: أي إن أولئك المتّصفين بتلك الصّفات والمطبقين لها في واقعهم هم وحدهم المستحقون لرحمة الله، وهي مناط الفوز والفلاح. فطوبى لأصحاب رسول الله وإخوانه الذين جاؤوا من بعدهم وساروا على هداهم جعلنا الله منهم، آمين، والله أعلم.

عالمية الرّسالة الإسلامية وعمومها

أ)- النص:

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

- ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾: كلمات الله تشمل كتبه كلّها، ومنها القرآن المنزل

على النبي الأمّيّ. يقول الإمام ابن عاشور في ملحظ دقيق لمعنى اختيار "كَلِمَاته" بدلا من "كتبه" يقول: "وأوثر هنا التعبير بكلماته دون كتبه، لأن المقصود الإيمان إلى إيمان الرّسول ﷺ بأن عيسى كلمة الله، أي أثر كلمتاه، وهي أمر التكوين" إلى أن قال: "فاقتضى أن الرّسول يؤمن بعيسى أي بكونه رسولا من الله، وذلك قطع لمعذرة النصارى في التردّد في الإيمان بمحمد ﷺ، واقتضى أن الرّسول يؤمن بأن عيسى كلمة الله وليس ابن الله، وفي ذلك بيان للحق، وردّ على اليهود فيما نسبوه إليه، وردّ على النصارى فيما غلوا فيه".[1]

ج)- البيان والتّفسير:

قبل عودة السّياق إلى قصص بني إسرائيل وعلى تذكيرهم بما في التوراة والإنجيل من البشارة ببعثة رسول الله ﷺ وبيان ما يستحقه متّبعوه من الجزاء والسّعادة في الدّنيا والآخرة، جاء هذا الأمر الإلهي لرسوله أن يبيّن للناس مزية الرّسالة الإسلامية في عالميتها وشمولها لجميع الأجناس. قال تعالى: ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾.

الخطاب لجميع البشر، والمتكلم بأمر الله هو رسول الله محمد ﷺ، هو نداء لأمة الدّعوة مؤكّد بـ"إن"، وكلمة "جَميعاً" لدفع دعوى بني إسرائيل بخصوصية رسالة محمد إلى العرب. وقد وردت في القرآن آيات أخرى تؤكد هذا المعنى، ولا تناقض بينها وبين الآيات التي تخصّص بعض النّاس أو بعض الأمكنة كقوله تعالى في أول الدّعوة لرسوله:

أ)- ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤).

ب)- ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (يس:٦).

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٩/١٤١.

ج)- ﴿هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ (الجمعة:٢).

د)- ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى:٧).

أما الآيات التي تدلّ على شمولية الدّعوة الإسلامية فهي قوله تعالى:

أ)- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

ب)- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (سبأ:٢٨).

ج)- ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ (الأنعام:١٩).

قلت: لا تناقض بين هذين النّوعين من الآيات، إذ أن طبيعة الدّعوات أنها تتدرّج في مجال انتشارها، ولا بد أن ترتكز في منطلقها على أشخاص أو جماعات معيّنة، ولا بدّ أن يكون للداعية الأول انتماء جنسي ومحيط لغوي كأداة للتبليغ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم:٤).

وبمقتضى هذا القرار الإلهي لعمومية الرّسالة الإسلامية تحرّك رسول الله في دعوته بدءاً بعشيرته وقومه، واتّصالاً بمختلف القبائل العربية، ثم مكاتبة ومراسلة لمختلف الملوك والأمراء في الأرض.

وعلى رفع شأن الرّسول هذه الإضافة التّشريفية: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ وصف الله تعالى نفسه باختصاص الرّبوبية ووحدانية الإلهية، وعظمة القدرة بالإحياء والإماتة فقال: **﴿الذي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾**.

أ)- صفة الملكية للسماوات والأرض تقتضي للمالك التّصرّف المطلق في ما يملكه، فهو الرّبّ والسّيّد، يصطفي من يشاء من خلقه، فلا يستعظم من الله الواحد القهار أن يرسل رسلا متعددين، ولا أن يفضّل بعضهم على بعض.

ب)- وحسن التّدبير للملكوت يقتضي وحدانية الألوهية، إذ لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا.

ج)- والإحياء والإماتة من أعظم مظاهر قدرة الله وهي تقتضي الإيمان بالبعث والحساب.

وهكذا تضمّنت الآية الكريمة العناصر الأساسية للعقيدة الإسلامية. وتفرّع عنها الدّعوة إلى الإيمان بالرّسول النّبي الأمّيّ فقال تعالى: ﴿فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الذِي يُومِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

تكرر الوصف الثّلاثي لمحمد ﷺ بالرّسالة والنّبوءة والأميّة، وفي مطلب الإيمان جمع بينه وبين لفظ الجلالة، مع تقديم الإيمان بالله، حتى يشمل الأمر كلّ أنواع النّاس، فليس لأحد عذر أن يفرق بين الإيمان بالله والإيمان بالرّسول، وفي ذلك إيماء لليهود الذين أنكروا رسالة محمد ﷺ وقالوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض.

وزيادة على الوصف الثّلاثي قال تعالى في شأن رسوله: ﴿الذِي يُومِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾، أي إن هذا الرّسول هو القدوة في ما يدعوكم إليه من الإيمان بالله وكلماته، أي كل الكتب المنزلة على رسله، لا يفرّق بين أحد منهم. ومن اختيار لفظ: "كَلِمَاتِه" إشارة بالخصوص إلى موسى وعيسى عليهما السّلام على اعتبار أن الأول كليم الله والثّاني كلمته، وفي ذلك إيماء وإيحاء لبني إسرائيل.

﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: تأكيد لاتّباع نهجه الذي يجد فيه النّاس سعادتهم الدّنيوية والأخروية، وتتحقّق هدايتهم إلى صراط الله المستقيم.

وقد جمعت الآية بين الإيمان والعلم، وهما جوهر الدّين الصّحيح ومقوّماته. هدانا الله إلى ما يحبّه ويرضاه وأغنانا بفضله عمن سواه، والله أعلم.

الصالحون من قوم موسى ،

ونعم الله على بني إسرائيل في صحراء التيه

أ)- النص:

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ
ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ
ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ
مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟
هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ
قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾: قوم موسى هم أتباع دينه قبل بعثة رسول الله ﷺ ﴿أُمَّةٌ﴾: جماعة كثيرة متفقة في عمل يجمعها. ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾: التقطيع يراد به التقسيم إلى فرق وقطع. الأسباط: جمع سبط وهو ولد الولد، والأسباط عند بني إسرائيل كالقبائل في ولد إسماعيل. ﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾: طلبوا منه سقيا الماء عندما كانوا في التيه. ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾: انفجرت عيون الماء،

ونجس مطاوع شقّ. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾: الغمام سحاب رقيق أبيض، ويطلق على السّحاب كيفما كان. ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾: المنّ: مادة تنزل كالنّدى على ورق الشّجر وغيره وهي حلوة المذاق كالعسل والسّلوى طير شهيّ اللّحم يشبه السّمان سخّره الله لهم ييسر. ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾: القرية هي بيت المقدس. ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: أي حطّت عنّا أوزارنا وخطايانا. ﴿رِجْزًا﴾: العذاب.

ج)- أوجه القراءة:

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾: قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب: ﴿تُغْفَرْ﴾ بتاء فوقية مبنيا للمجهول و﴿خَطِيئَاتُكُمْ﴾ بصيغة جمع السّلامة للمؤنث. وقرأه ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿نَغْفِرْ﴾ بالنون مبنيا للفاعل، و﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ بصيغة جمع المؤنث السّالم أيضا. وقرأه أبو عمرو: ﴿نَغْفِرْ﴾ بالنّون و﴿خَطَايَاكُمْ﴾ بصيغة جمع التّكسير مثل آية البقرة. وقرأ ابن عامر: ﴿تُغْفَرْ﴾ بالفوقية. و﴿خَطِيئَتُكُمْ﴾ بالإفراد، وفي ذلك تفنّن في أسلوب حكاية القصة في كل من سورة البقرة والأعراف.

د)- البيان والتّفسير:

خلال الاستعراض لأحداث قصة موسى مع قومه جاء ذلك الاستطراد الخاصّ بنبوءة خاتم النّبيين محمد ﷺ وضمان المغفرة والرّحمة للذين يتبعونه من قوم موسى أو من غيرهم ووصفهم بالفلاح. وبقي بيان حكم خواصّ أتباع موسى ممن كانوا متبعين له حقّ الاتّباع قبل بعثة الرّسول محمد ﷺ، وحتّى لا يتوهّم القارئ لقوله تعالى في ما سبق: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾، يتوهّم أن قوم موسى كلّهم من هذا القبيل فجاء هذا البيان لتخصيص ذلك التّعميم، وأنّ من قوم موسى جماعة مهتدية في حقّ نفسها اتّباعًا للحقّ الذي جاء

من عند الله، وفي حق النّاس حكما بالعدل، فقال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

وقد جعل بعض المفسرين عطف هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾، ولذلك قدّم الجار والمجرور: ﴿من قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ على متعلّقه لدفع توهّم العموم لقوم موسى في عبادة العجل، وهؤلاء القوم هم الموفون بعهد الله إيمانًا واتّباعًا لهدي موسى حتى في فترات الضّعف والضّياع لنصوص التّوراة.

ومن عدل الله في الحكم على الأمم أنّه لا يعمّم الحكم على كلّ أفرادها مهما ضعف الدّين وتقلّص الإيمان، فقد امتدح الله هذه الطّائفة من أهل الكتاب بالقيام على الدّين والالتزام بأحكامه في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾(١١٣)

ولا شك أن هؤلاء يندرجون في حكم الفلاح الثّابت لأتباع رسول الله، ويثبت الأجر مرتين لمن أدرك منهم بعثة رسول الله وآمن به واتّبع هداه حقّ الاتّباع كعبد الله بن سلام وأمثاله الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ، أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (القصص:٥٣-٥٤).

وصف الله هذه الطّائفة من قوم موسى بصفتين:

أ)- مهتدون بالحق الذي آمنوا به، يهدون النّاس إليه ببيان فضائل الدّين الإلهي ونشر هداه.

ب)- يعدلون في الحكم بين النّاس على مقتضى ذلك الحقّ الذي آمنوا به، والتزام الحق في السّلوك والعدل في الحكم هما دعامتا الرّقيّ والتّحضّر.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانۢبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾:

عطفت هذه الجملة من الأخبار التي تنبي بأحوال قوم موسى بعد خروجهم من مصر، عطفت على قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾، وهي الحالة الأولى لهؤلاء القوم في موقفهم من رسالة موسى، فمنهم المهتدون العادلون، ومنهم المنحرفون الفاسقون. وكثرة عددهم يقتضي ذلك التقسيم إلى اثني عشرة مجموعة تمتاز كلّ منها بنظامها في تدبير شؤونها. وقيل: إن موسى عليه السلام جعل على كلّ سبط عريفا لينضبط أمرهم وتنتظم أحوالهم فلا يتحاسدون ولا يتدابرون، وأنّ عدد الأسباط كان بعدد أولاد يعقوب عليه السلام، وإذ هم في صحراء قاحلة لا طعام فيها ولا شراب ولا ظلال، فإنّ موسى عليه السلام قد تحمّل مسؤوليتهم في كفاية ضروراتهم، ومن غير الله تعالى كفيلا وراعيا؟ وما يزال قومه على استعصاء وتردّد لأدنى ضيق أو حرج يلمّ بهم وهم في ذلك التّيه الموحش.

وهنا تتوالى نعم الله على موسى، وهو يلتجئ إليه في كلّ مرّة خاشعًا متذلّلاً. والماء هو أوّل ضرورة تلحّ عليهم في طلبها باستسقاء موسى، وقد أفكهم العطش فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك الحجر، فنتج عن ذلك انشقاق ذلك عن اثني عشرة عينا بعدد مجموعات الأسباط؛ إنها معجزة تحققت بقدرة الله تعالى، وإلا فما قدرة العصا يضرب بها الحجر القاسي ليتفجّر ماء، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (٧٤).

ولكن حكمة الله اقتضت أن يرتبط تحقّق المعجزة بذلك السّعي البشريّ، وإن كان ضئيلا -في مثل تحريك العصا والضّرب بها- حتى لا تنتقض سنّته في تدبير شؤون الحياة بربط المسبّبات بأسبابها، وحتى لا ينتظر خلقه المعجزات الخوارق تنزل من السّماء. وعند ندرة المياه وشحّها فإن النّاس يتدافعون ويتصارعون على مواردها، ولكن المدبّر الحكيم قد فجّرها اثنتي عشرة عينا بعدد الأسباط تعيّن لكل منها مشربهم درءًا لكل تنازع أو خلاف.

ب)- والنّعمة الثّانية: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ يقيهم لفح الشّمس في بقعة لا شجر فيها ولا ظلال توفيرا لراحة المكان، وليس فيه من صنعهم ما يستظلون به ولا ما يعرشون.

ج)- النّعمة الثّالثة: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ عسل بريّ ولحم طريّ سخّره الله تعالى رزقا طيّبا يحصلون عليه بدون عناء ولا مشقة، وهم لا يملكون في ذلك التّيه أدنى وسيلة لكسب الرّزق، ولكنه الله الرّزاق ذو القوة المتين وفّر ذلك الرّزق الطّبيعي الذي يغطّي أعدادهم الوفيرة. فسبحان الخلاّق وكافل الأرزاق.

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾: إنها طيّبات من الرّزق تنفع آكليها، فالأمر بأكلها وكونها من الطّيّبات إنما هو للامتنان والتّعظيم من شأنها، وللتذكير بما يجب عليهم من الطّاعة لله وشكر نعمه.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: وصفهم بالظّلم بعد ذكر النّعم يدلّ أنهم كفروا بتلك النّعم سواء أثناء التّيه أو بعده من الأجيال اللاحقة، لأنّ الحكاية بما وقع للأجداد فيها عبرة للأخلاف، ولكلّ من ظلم نفسه بكفران النّعم. والذي يكون وبالاً على نفوس الظّالمين، لأن الله المنعم غنيّ عن الخلق لا تنفعه طاعتهم ولا تضرّه معصيتهم.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ، فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾: من عطف القصة على القصة، والقائل هو الله تعالى يبيّن هنا ألوانًا من عصيانهم ومخالفتهم لأمر الله، بعد أن وصفهم بالظّلم وجحود النّعم حتى وهم في التّيه يتخبّطون، فأراد الله لهم السّكن والاستقرار في القرية، على أن يلتزموا بصيغة الدّعاء الذي يردّدونه عند الدّخول ويلتزموا بهيئة السّجود، وهم يدخلونها شكرا لله واعترافا بنعمته وفضله كما فعل رسول الله عند دخوله مكة عام الفتح.

وفي مقابل ذلك الالتزام والطّاعة لأمر الله تجيء مغفرة الله لذنوبهم التي ارتكبوها خلال خروجهم من مصر وأثناء مسيرهم في التّيه، ومع مغفرة الذّنوب زيادة الثّواب والأجر للذين أحسنوا تفضّلا من الله تعالى، ولكن أنّى للطبع المعوّج أن يستقيم، وأنّى للظلم أن يرتدع؟ ولا تتحقّق الطّاعة إلاّ بالامتثال لأمر الله، لقد أراد الله لهم أن يستقرّوا في تلك القرية وأن ينعموا بخيراتها كيفما شاؤوا ليعودوا إلى الحياة الطّبيعية، ولم يحدّد القرآن قرية بعينها. ويذكر المفسرون أنها "أورشليم" بيت المقدس -وما أكثر خيراتها- ولا تزال، غير أن صفة الظّلم لم تبرح نفوس فريق منهم، فلم يردّدوا صيغة الدّعاء المطلوب منهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، أي: اللّهم حطّ عنا خطايانا. ولا هم دخلوا على الهيئة التي أمروا بها سجودا لله عند الدّخول. إذ بدّل أولئك الظّلمة كل ذلك ميلا إلى ما في طبعهم من الانحراف والتّمرّد فكان من نتيجة ذلك أن سخط الله عليهم بإنزال عذاب من السّماء بعد أن تنزل عليهم منها ما لذّ وطاب، وتلك هي عاقبة الظّلم يأخذ الله بها النّاس بما كسبوا.

وقد أطنب المفسّرون في بيان وجوه المخالفة في التعبير على أحداث القصة ما بين سورتي البقرة والأعراف وليس بينهما تناقض، وإنما هو التفنن في الأسلوب وكلّه فصيح وبليغ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (سورة النساء:٨٢).

وفي بيان العبرة والموعظة يقول صاحب المنار: "إن الله تعالى أنزل القرآن هدى وموعظة، وجعل قصص الرّسل فيه عبرة وتذكرة، لا تاريخ شعوب ومدائن ولا تحقيق وقائع ومواقع. والعبرة في هذه القصة أن نتقي الظّلم والفسق، ونعلم أنّ الله يعاقب الأمم على ذنوبها في الدّنيا قبل الآخرة، وأنّه قد عاقب بني إسرائيل بظلمهم، ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من المزايا والفضائل وكثرة وجود الأنبياء فيهم".[1] والله أعلم.

عدوان اليهود في صيد الأسماك يوم السّبت، وعقاب الله للمخالفين المعتدين

أ) - النص:

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٩/٢٧٤.

ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾: القَرْيَةُ: مقصود بها المدينة عند العرب لا يراعى فيها الصَغر -أي تجمّع سكني بسيط- مثل ما يكون في الأرياف. وقيل: هي "أيلة" والمسماة اليوم "العقبة" وهي على شاطئ البحر الأحمر وكونها "حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ" أي متصلة به. ﴿يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾: من العدوان والظّلم بتجاوز حدّ الله بالصّيد يوم السّبت. ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾: حيتان: جمع حوت أي السّمك، ويطلق الحوت على الجمع أيضا. ﴿شُرَّعًا﴾: جمع "شارع" وهي التي تظهر على الماء. ﴿لَا يَسْبِتُونَ﴾: أي لا يقطعون العمل في الأيام الأخرى من الأسبوع. ﴿نَبْلُوهُم﴾: نختبرهم في طاعتهم بتعريضهم لدواعي العصيان. ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: أي إن موعظتنا للظالمين هي معذرة منّا إلى الله حتّى لا نوصف بالتّقصير في النّصح والإرشاد. ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍ﴾: أي شديد، مأخوذ من البأس وهو الشّدة، أو من البؤس وهو المكروه. ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟﴾: من العتوّ: أي تكبّروا عن ترك ما نُهوا عنه. ﴿قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾: قردة جمع قرد، وخاسئين: بمعنى صاغرين أذلاء وهو عذاب المسخ والعياذ بالله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: قرأه الجمهور بالرّفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: موعظتنا لهم معذرة منا إلى الله. وقرأه حفص عن عاصم بالنّصب على أنه مفعول لأجله، أي وعظناهم لأجل المعذرة. ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍ﴾: "بِيسٍ": قرأه نافع وأبو جعفر بكسر الباء الموحّدة مشبعة بياء تحتية ساكنة وبتنوين السّين. وقرأه ابن

عامر "بَئِسٍ" بالهمزة السّاكنة وإبقاء التّنوين. وقرأه الجمهور: "بَئِيسٍ" بفتح الموحدة وهمزة مكسورة بعدها تحتية ساكنة وتنوين السّين. وقرأه أبو بكر عن عاصم: "بَيْئَس" بوزن "صيقل" على أنه اسم للموصوف بفعل البؤس مبالغة.

د)- البيان والتّفسير:

ينتقل السّياق إلى ذكر نوع آخر من عصيان اليهود ومخالفتهم لأمر الله مما هو معلوم عند اليهود بما يرويه أحبارهم، لأنه قيل: إن هذه القصة ليست مما كتب في التّوراة ولا في كتب أنبيائهم ولكنّها معروفة عندهم بدليل قوله في سورة البقرة مخاطبا بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (٦٥). فما ورد هنا في هذه الآيات هو تفصيل لذلك الإجمال في سورة البقرة. وبما أن سورة الأعراف مكية، ولم يكن رسول الله قد لقي اليهود ليطّلع على بعض أحوال تاريخهم، فإن الإخبار بتفاصيل هذه القصة دليل على أنه وحي من الله إذ قال: ﴿**وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ**﴾.

تغيّر الأسلوب في ذكر هذا الحدث خلال قصة بني إسرائيل، تغيّر من أسلوب الحكاية إلى أسلوب المواجهة بالسّؤال مباشرة على اعتبار أن المسؤولين ممن حضر من اليهود في المدينة وقت التّنزيل هم مع أسلافهم المحكي عنهم أجيال متصلة تتوارث تلك الصّفات الذّميمة من قساوة الطّبع والمكر والحيلة. وقال المفسّرون: إن هذه الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ هي مدنية رتبت في سورة الأعراف المكّية تكملة لقصة بني إسرائيل.

يأمر الله رسوله أن يسأل اليهود عن حدث يعرفونه بالرّواية عن أحبارهم.

فالسّؤال له معنى التّقرير يجرّ المخاطب إلى الاعتراف بما حدث، وفي ذلك تقريع وتوبيخ لهم، بكون العصيان والتّمرّد من طبعهم وسليقتهم قديما وحديثا.

ومفاد القصة: أن جماعة من بني إسرائيل كانوا يسكنون مدينة ساحلية، ومن العادات المتأصّلة في تاريخ بني إسرائيل دينيًا واجتماعيًا اعتبار يوم السّبت يوما مقدّسا ينصرفون فيه للعبادة، ولا ينشغلون فيه بتدبير شؤون المعاش، فأراد الله تعالى أن يختبرهم فيه بما يقوّي إرادتهم ويحشد عزائمهم أمام المغريات والأطماع. وتلك سنة الله فيمن يعدّه للنّهوض بتكاليف الأمانة، ويحمّله مسؤولية الدّعوة إلى الإيمان والتّقوى.

وسكان السّواحل غالبا ما يتخذون من البحر موردا لأرزاقهم، ومن حكمة الله وقدرته أن تتجمّع الحيتان يوم السّبت بحيث تتراءى لهم لكثرتها على السّاحل، ولكنهم لا يستطيعون صيدها لأنهم أمروا بتعظيم يوم السّبت، أما في غيره فكانت تبتعد وتختفي في عرض البحر. وهنا مكمن الاختبار حين تتعارض الواجبات مع الرّغبات والمشتهيات. وفي هذا الموقف لا بدّ للإنسان من رادع يحميه من الوقوع في المحظور، والرّادع إمّا مادي سلطاني مما نسمّيه اليوم بالقوانين الزّاجرة، وإمّا ديني روحاني ينبع من حنايا القلب تُقًى وخشية لله وامتثالا لما شرعه من الأحكام.

وتختلف مواقف النّاس إزاء ذلك، كما اختلفت مواقف بني إسرائيل:

أ- كانت طائفة منهم تحتال على الله في مخالفة أمره بتعظيم يوم السّبت، فكانت تقيم الحواجز للحيتان لتحبسها عن الهروب، ثم تصيدها يوم الأحد. ويبرّرون عملهم ذلك بأنهم لم يصيدوها يوم السّبت. وهكذا الفسّاق في كلّ زمان ومكان سرعان ما يجدون تأويلات للنّصوص القانونية أو الشّرعية ويخضعونها لممارساتهم الرّعناء، ومتجاهلين أن الله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السّماء، وهكذا دأب أولئك الفسّاق من بني إسرائيل في يوم السّبت. لقد

سقطوا في اختبار الإيمان والتقوى. فما هو موقف غيرهم ممن يساكنوهم ويعاشروهم؟.

ب)- ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾:

أزاء تلك الطّائفة العاصية، تدلّ هذه الآية المعطوفة على ما قبلها: ﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ تدلّ أن هناك طائفة استنكرت ذلك العمل المحرّم، إذ قامت بالموعظة والنّصح لأولئك العصاة، مما يقتضيه الواجب الدّينيّ في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

ج)- وهناك طائفة ثالثة لها موقف سلبي في الإنكار إذ أصابها الإحباط وركبها اليأس من اتعاظ القوم العصاة وانتصاحهم بما يسمعون إلى درجة أنهم أيقنوا بأن الله تعالى مهلكهم ومعذبهم عذابا شديدًا، ويقتضي حكمهم على هؤلاء بأنهم قد جرّبوا مع العصاة الموعظة والنّصح، ولكنهم يئسوا من عودتهم إلى جادّة الصّواب. ولذلك فهم ينكرون على من بقي يعظهم بالرّغم من إصرارهم وعنادهم. ولكن الدّائبين على الوعظ أجابوا بأننا نعتذر إلى ربنا بأننا لم نقصّر في القيام بواجبنا، وعسى يثوب هؤلاء إلى رشدهم ويرجعون إلى ربهم تائبين.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ، فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾:

النّسيان والغفلة من طبع الإنسان فهو في حاجة دائما إلى التّذكير، ومع التّذكير قد يكون الإصرار والتّمادي، والله تعالى يمهل ولا يهمل ويستدرج العصاة من حيث لا يعلمون، ومن رحمة الله تعالى بالذين قاموا بواجب الموعظة والإنكار باللّسان -وهو أعظم تأثير في التّربية متى توفرت شروطه- وأدنى من ذلك الإنكار

بالقلب كما فعل اليائسون، كلا الفريقين كانوا من الناجين، أمّا العصاة الضالّون فالعذاب في شأنهم على مرحلتين على حسب ظاهر الآية.

أ)- العذاب الشديد على الكيفية التي قدرها الله لهم ويا ما أكثر أنواع العذاب الذي يسلطه الله على عباده في الدنيا قبل الآخرة جزاء بما كانوا يكسبون.

ب)- عذاب المسخ إلى قردة أذلاّء مهينين عندما بلغ بهم الإصرار والتكبّر أوجه، أما كيف مسخهم الله إلى قردة، وهل هو مسخ خَلقي حقيقي أم هو مسخ خُلقي معنويّ كما ذهب إليه بعض المفسّرين القدامى والمحدثين، فذلك مسكوت عنه في النصّ القرآني، ولم يثبت شيء صحيح عن رسول الله في ذلك، ولو أن جمهور المفسرين يرون أن المسخ حقيقي، وأنه كان إلى صورة القردة والخنازير وبين النوعين تفاوت في الخصائص الحيوانية القذرة وذلك يكون -والله أعلم- على حسب درجة العتوّ والعصيان في الممسوخين، أعاذنا الله من الرجز والمسخ، والله أعلم.

سنة الله في عقاب الأمم، وما تحقق منها على اليهود

أ)- النصّ:

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ

يَاخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾: مشتق من الإذن -العلم- وأصله العلم بالخبر، أي أعلم وأخبر. وقال الزمخشري: "معناه عزم ربك، لأن العازم على الأمر يحدث نفسه به". ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾: أي يسلّط عليهم من يذيقهم سوء العذاب، مأخوذ من السّوم، وهو تقدير العوض الذي يستبدل به الشيء، أي يجعل الله لهم سوء العذاب كالقيمة المناسبة لهم إلى يوم القيامة -وقد وقع ذلك لهم تاريخيا-. ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾: أي دون مراتب الصّلاح، أي ناس منحطّون. ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: الخلف من يأتي بعد غيره من سابقيه في مكان أو عمل أو نسل. وقال اللّغويون: الأكثر استعمال "الخلْف" بسكون اللاّم فيمن يخلف في الشّرّ، وبفتح اللام فيمن يخلف في الخير. ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾: أي التّوراة عن آبائهم. ﴿يَاخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾: العرَض: الأمر الذي يزول. والأدنى: المقصود به حطام الدّنيا وما يعرض للمرء من الشّهوات والمنافع. ﴿وَإِن يَاتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَاخُذُوهُ﴾: أي يعصون بدعوى أن سيئاتهم مغفورة، ولذلك يعودون إلى ما فعلوه. ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾: النّتق: الفصل والقلع، والجبل: هو جبل الطّور، والظّلة: السّحابة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾: بالتاء، قرأ بها نافع وابن عامر وابن ذكوان وأبو جعفر وسهل ويعقوب وحفص، على أن الخطاب فيها لليهود المحكيّ عنهم، أو هو خطاب لسائر الأمة لتعتبر بحالهم. ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾: قرأ الجمهور: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بتشديد السين. وقرأ أبو بكر وحمّاد: ﴿يُمْسِكُونَ﴾ بالتخفيف، وهو من الإمساك.

د)- البيان والتفسير:

متابعة لذكر مخازي اليهود وعقاب الله لهم بالمسخ، تأتي هذه الجملة المعطوفة بتقدير فعل "أذكر" للظرف "إذ"، يبيّن الله في هذه الآية كيف قضى بالذّل والمهانة على اليهود، ويلازمهم ذلك إلى يوم القيامة، وكيف شتتهم في الأرض وسلّط عليهم من لا يرحمهم، إذ كانوا الخلف الذي يخون عهد الله بعد أن تعهّد السّلف بأخذ التوراة والالتزام بأحكامها بعد تهديدهم بإسقاط جبل الطّور عليهم فقال تعالى: **﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**.

إنه الإذن الأبديّ من الله تعالى لما يسلّطه على اليهود من أنواع الذّلّة والمهانة والعذاب. ولقد أشرب هذا الإذن الإلهي معنى القسم، وهو يعلم به أسلاف اليهود على لسان أنبيائهم بأنه قضى عليهم ذلك في علمه الأزلي، وأمر الله نافذ لا محالة. وقوله تعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ بصيغة المضارع يدلّ على الوقوع في فترات مختلفة وبكيفية مستمرة إلى غاية يوم القيامة. فكلما طغى اليهود في الأرض وكان لهم سلطان، وكانت لهم جرأة على التعسّف والظّلم -كما يفعلون اليوم في الشّرق الأوسط-، كلما تحقق علوّهم في الأرض تسلّط عليهم عقاب السّماء يجريه الله على يدي

حلقـــه فيسومونهم سوء العذاب. وقد تحقق ذلك تاريخيا، وآخر ذلك ما فعل بهم الزّعيم الألماني "هتلر" في القرن الماضي، وصدق الله مولانا العظيم إذ يقول في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ (٤-٨)

وتســـليط الله عباده على بعضهم بعض هو نوع من التربية والعقاب بالنّسبة للعصـــاة المتمردين، بل الفتنة بين النّاس هي أقسى ما تتعرض إليه المجتمعات البشرية كمـــا قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾(٦٥). وهـــذه السّـــنة الاجتماعية هي تجلي لصفات الذّات العلية، في كونه تعالى سريع العقاب يوقعه على العصاة في الوقت المناسب، لا يردّه أحد ولا يتأخر عن موعده، كمـــا أن مغفرته وعفوه للتائبين هو من تمام عدله ورحمته، ويقتضي ذلك من بني إسرائيل اتّباع الرّسول النّبي الأمّي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التّوراة والإنجيل:

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾:

ومـــن أنواع العذاب التي تتعرض إليها المجتمعات البشرية بعد جور السّلطان أن يتوزّع جبل الأمة الواحدة أشتاتا، كما حدث لبني إسرائيل، إذ تفرقت وحدتهم مـــن بعد موسى فتشتت أوزاعا في أرجاء الأرض وفيهم الصّالحون والمذنبون، غير أن الفتـــنة إذا نزلـــت فإنهـــا تشمل الجميع كما قال تعالى في سورة الأنفال يحذّر المسلمين من الوقوع في الفتنة: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ (٢٥). والصّـــالحون هم من وفّوا بعهد موسى وذلك يقتضي إيمانهم بجميع الأنبياء والرّســـل الذيـــن جاؤوا من بعده حتى رسول الله ﷺ وهؤلاء يتفاوتون في درجة الصّـــلاح كمـــا يتفاوت المذنبون في درجة الفساد، والله تعالى يبلو الفريقين بالخير

والشّـــرّ للتمحيص والتّذكير بما يتناسب مع حالة كلّ فريق رجاء رجوعهم إلى الله واستقامتهم على الهدى.

﴿فَخَلَـــفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُـــونَ سَـــيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِـــتَابِ أَن لاَّ يَقُولُـــواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِيـــنَ يَـــتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ، وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾:

إنّمـــا سنة الله في خلقه بتتابع الأجيال خلفا عن سلف، والأسلاف من قوم موســـى على ما كانوا عليه من تفاوت في الصّلاح والطّلاح قد خلفهم من أبنائهم وأحفادهم خلف سوء وشرّ، مع أنهم ورثوا الكتاب عن آبائهم وأجدادهم ودرسوا مـــا فيه من الهدى والنّور، ولكنهم لم يتجاوبوا معه في منهجية الصّلاح والتّقوى، حـــتى ضعف في نفوسهم الوازع الدّيني وطال عليهم الأمد كلّما بعدوا عن مصدر الرّسالة ووقت نزولها، فآثروا عرض الحياة الدّنيا، وتفانوا في جمع حطامها بما كانوا يأكلونه من الرّبا والسّحت والرّشى: ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ (آل عمـــران:٧٧). يفعلـــون ذلك وهم يتمنّون على الله الأماني بأنهم شعبه المختار وأنه سيغفر لهم ذنوبهم ولا يعذّبهم بها.

وهـــم إذ يقولـــون ذلك يصرّون على ذنوبهم ويمعنون في الباطل والفساد، ويعلمون أن الله لا يغفر الذّنوب إلاّ لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى، وهذه الآيـــة هـــي نظير قوله تعالى في سورة مريم: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّـــلاَةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ (٥٩). ويردّ الله زعمهم الباطل وأن ذلـــك مـــناف لما عاهدوا الله عليه وفاء بالعهد واتّباعا للحق، فيقول: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾.

الاستفهام للتقرير المقصود به التوبيخ على ذلك الادّعاء الباطل، وميثاق الكتاب هو وصايا التوراة وبالأخصّ الوصايا العشر التي تدعو للوفاء بعهد الله وإقرار الحق بالصّدق والعدل، وقد درسوا ذلك ووعوه من كتابهم، وما تجدي الدّراسة النّظرية إذا لم يصحبها التّطبيق العملي لما وعاه الدّارس من الحقّ والعدل في ما درسه؟.

﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾: وخيرية الدّار الأخرى على متاع الدّنيا الفاني لا يعقلها إلا المؤمنون بها حقّ الإيمان. إنّ فعالية ذلك في قلب المؤمن هي التي تضمن التّوازن في سلوكاته فلا تستفزّه الرّغبات والشّهوات ولا تغريه مفاتن الدّنيا مهما ناوشته من كلّ جانب ومكان.

وما زال الافتتان بمتاع الدّنيا والجري وراء حطامها هو الخسيسة التي استحوذت على بني إسرائيل، وكلّ من سار على سننهم من المسلمين الجغرافيين اليوم وذلك مناف للتقوى والصّلاح ويقظة العقل والضّمير.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾:

وأزاء الذين يفرّطون في الكتاب بتكالبهم على الدّنيا، يذكر الله جزاء المتمسّكين به بجزم وقوة: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾، هكذا بالتّضعيف ليدلّ على توخّي الحزم والصّرامة في تطبيق أحكام كتاب الله وفي مقدّمتها إقامة الصّلاة. أولئك هم المصلحون الجديرون بمغفرة الله ورحمته. وفي هذا التّعقيب الذي يأخذ الحكم العامّ تعريض بأولئك الأدعياء من بني إسرائيل الذين لا يلتزمون بأحكام كتابهم. وقد ركّز الله الإصلاح على دعامتين لا بدّ من تكاملهما في كل عملية إصلاحية:

أ)- التّمسّك بالكتاب إيمانا وقناعة بما فيه من الهدى والنّور.

ب)- إقامـــة الصّلاة وهي نموذج لممارسة العبادة لله امتثالا لأوامره واجتنابا لنواهيه.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

تـــرد هـــذه الحالة في ختام قصة بني إسرائيل للتذكير ببدء حالهم في إنزال الكـــتاب فضـــلا مـــن الله عليهم، ثم إنّها جاءت بعد بيان مخالفتهم لأحكام ذلك الكتاب ونقضهم لعهده وعاقبة أمرهم في ذلك.

أذكر -أيها النبي- لهذا الخلف المضيّع لميثاق الكتاب كيف رفعنا جبل الطّور فـــوق رؤوس أسلافهم كأنه سحابة أرعبتهم وتوقعوا سقوط الجبل عليهم، وكانوا مـــترددين في أخذ الكتاب، وعندما رأوا قدرة الله في تلك المعجزة الخارقة، وتهيأت نفوســـهم للاستجابة جاء الأمر الإلهي أن يأخذوا الكتاب -التّوراة- بجدّ وصرامة وأن يلـــتزموا بما فيه من الأحكام مهما كانت ثقيلة وشاقة، وألاّ ينسوها مهما تكن الدّواعـــي، لأن ذلك مما يقوّي إيمانهم ويهذّب نفوسهم فلا يتخاذلون ولا يتهاونون في خشية الله وتقاه، وهما صمام النّجاة ومناط القبول والرّضوان، والله أعلم.

أخذ الله الميثاق العامّ على بني آدم

أ)- النص:

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً

مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ﴾: التّقدير: أذكر يا محمد حين أخذ ربك، أخرج من ظهورهم. ﴿ظُهُورِهِمۡ﴾: والظّهر: هو العمود الفقري لهيكل الإنسان حيث يقع النخاع الشّوكي الذي عليه مدار حياته. ﴿ذُرِّيَّاتِهِمۡ﴾: والذّرّيّة: سلالة الإنسان من ذكور وإناث. ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: أي طلب أن يشهدوا على أنفسهم، وتكون الشّهادة بلسان الحال أو بلسان المقال. ﴿أَن تَقُولُواْ﴾: تقع الجملة في موقع المفعول لأجله تقديره: خشية أن تقولوا لئلاّ، تقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾: أي أن هذا التوحيد نجهله. ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: أيّ اقتدينا بهم في الشّرك.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَن تَقُولُواْ﴾: قرأ الجمهور بـ"تاء" الخطاب، وقرأه أبو عمرو وحده بـ"ياء" الغيبة. ﴿ذُرِّيَّاتِهِمۡ﴾: قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بجمع السّلامة، وقرأ الباقون بالإفراد: ﴿ذُرِّيَّتِهِمۡ﴾، ورسمها في المصحف الإمام واحد.

د)- البيان والتّفسير:

يتناسب هذا المقطع إلى آخر السّورة مع ما ورد في أوائلها لتركيز أصول الدّعوة الدّينية: من توحيد الله، وتقرير البعث والجزاء، وتقرير الوحي والرّسالة، وتقرير رسالة محمد ﷺ، وهي المقاصد التي تركّز عليها كل السّور المكية.

وبعد تقرير قضيّة التّوحيد من خلال استعراض قصص الأنبياء، بالأخصّ

ذلك الاستعراض المطوّل لقصة بني إسرائيل، وإلزامهم بأخذ الميثاق الخاصّ بهم، ينتقل السّياق إلى ذكر الميثاق العامّ الذي أخذه الله على بني آدم وهم في عالم الذّرّ مستكنّين في أصلاب آبائهم فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾.

وللتناسب في أخذ الميثاقين جاء العطف بين السّياقين مصدّرا بأمر الله لرسوله أن يذكر لجميع النّاس كيف أخذ الله الميثاق عليهم بأنه ربهم -لا إله إلا هو- وهم ما يزالون ذرّا في أصلاب آبائهم جيلاً بعد جيل، فخلقهم على فطرة الإسلام، وأودع في نفوسهم غريزة الإيمان، بدءًا من آدم نفسه ثمّ من ذرّيته جيلاً بعد جيل وبطنًا بعد بطن.

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾: أي هذا العهد المأخوذ حصل بالخطاب الإرادي التّكويني من الله تعالى بأن جعل معنى التوحيد والإقرار بالرّبوبية مستكنًّا في أعماق النّفوس البشرية ممزوجا بفطرتها كما قال في سورة الرّوم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠).

والإشهاد على النّفس من طرف ذرية آدم هو لحملهم على الإقرار بتلك الحقيقة التّوحيدية، فكانت تلك الإجابة منهم بلغة الاستعداد النّفسي، والحالة الفطرية: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾. إنه الاعتراف لله بالرّبوبية والإدانة له بالعبودية والإقرار له بالوحدانية.

هكذا يطرح القرآن الكريم هذه القضية الغيبية بأسلوبه المبسّط، لندرك من خلال ذلك مشيئة الله وإرادته في تهيئة هذا الخلق المكرّم، وهو ما يزال مستكنًا في ضمير الوجود ذرًّا مجموعا في قبضة الخالق. أمّا كيف تمّ ذلك أو كيف كان طرح السّؤال وكيف كانت الإجابة؟، فتلك أمور غيبية نؤمن بها كما بسطها النّصّ

القـــرآني، ونَكِل فيها الأمر إلى الله في جملة أفعاله وبديع صنعه في خلق السّماوات والأرض ومـــا بثّ فيهما من دابّة. وبهذا التّناول للآيات المتشابهات تجتنب المزالق الكلامية والتّأويلات المفرطة.

على أن خلق البشر على فطرة التّوحيد، إلاّ أنهم ينحرفون بمؤثرات خارجية، قـــد قـــررته النّصوص الشّرعية في القرآن والحديث كالآية المتقدمة، وكقوله ﷺ: **«كلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تلد البهيمة جمعاء، هل تحسّون من جدعاء»؟.**[1]

وفي صـــحيح مســـلم: قـــال رسول الله ﷺ: **«إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشّياطين فاجالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم».**[2]

ولســـيّد قطب-رحمه الله- في ظلاله ملحظ دقيق في التّعليق على هذه الآية الكـــريمة إذ يقـــول بعد أن بيّن طريقة السّلف والخلف في تناول مثل هذه الآيات المتشابهات يقول: "وفي أيّ من الحالين يخلص لنا أنّ هناك عهدًا من الله على فطرة البشـــر أن توحّـــده، وأنّ حقيقة التّوحيد مركوزة في هذه الفطرة، يخرج بها كلّ مولـــود إلى الوجود، فلا يميل عنها إلاّ أن يفسد فطرته عامل خارجي عنها، عامل يستغلّ الاستعداد البشري للهدى والضّلال، وهو استعداد كذلك كامن تخرجه إلى حيّز الوجود ملابسات وظروف.

إن حقيقة التّوحيد ليست مركوزة في فطرة الإنسان وحده، ولكنها كذلك

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي...، حديث ٤٥٦؛ ورواه مسلم من حديثه أيضا، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، حديث ٢٦٥٨.

٢- رواه مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث ٢٨٦٥.

مـــركوزة في فطرة هذا الوجود من حوله، وما الفطرة البشرية إلاّ قطاع من فطرة الوجـــود كلّه، موصولة به غير منقطعة عنه، محكومة بذات النّاموس الذي يحكمه، بيـــنما هي تتلقّى كذلك أصداءه، وإيقاعاته المعبّرة عن تأثره واعترافه بتلك الحقيقة الكونية الكبيرة".[1]

قلـــت: إن ديـــنونة الكون كلّه وتسبيحه للخالق بالكيفية التي يعلمها ورد التّعبير عنها في كثير من آيات القرآن منها قوله تعالى:

أ)- ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ (الإسراء:٤٤).

ب)- وفي معـــنى السّجود المعبّر عن خضوع جميع الكائنات لله بما فيها هذا الإنسان -وهو جزء من فطرة الوجود- ولكنّه وحده قد ينحرف عن تلك "الفطرة بمؤثـــرات خارجية يقول تعالى في سورة الحجّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَـــثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ (١٨).

وفي هـــذا الإقـــرار التّوحيدي المستكنّ في فطرة الإنسان حجّة عليه إذا ما تنكّـــب عـــن فطرته السّويّة، وبالتّالي فهو لا يجد معذرة عند الله في حساب يوم القـــيامة بالجهل بحقيقة التّوحيد، ولا بتقليد الآباء في الضّلال والشّرك، قال تعالى: **﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾**.

وهذا تعليل لذلك الأخذ والإشهاد، يسدّ الطّريق عن المشركين فلا يملكون

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ١٠٧/٩.

الاعتذار يوم القيامة إذا سئلوا عن مبرّر الكفر والإشراك، وهو يتمثل في:

أ)- غفلة العقول وجهلها، لأنها فُطرت على فكرة التوحيد من أوّل وجودها، فكان ذلك الإشراك إمّا عن عمد وإمّا عن تقصير، وكلاهما لا ينهض عذرًا.

ب)- تقليد الآباء في الشّرك والضّلال على أنهم هم المسؤولون عن تربية أولادهم، والأولاد يقتدون بآبائهم عن حسن ظن بهم وهم لا يدركون بطلان شركهم.

وبهذا السّؤال التّعجيبي: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾، يحاولون دفع العذاب عنهم، ولكن الله تعالى لا يقبل منهم الاعتذار، سيما وأنه من تمام رحمته وعلمه بطبائع خلقه أنّه بعث الرّسل وأنزل الكتب لدرء تلك الغفلة وذلك الجهل، ولاستنقاذ تلك العقول المميّزة إذا ما ضلّلها الشّيطان والهوى، وللتحذير مما عليه الآباء من الشّرك والضّلال: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥).

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: بمثل هذا البيان البليغ وهذا التّفصيل البديع يقيم الله دلائل التّوحيد لبني آدم حتى ينير عقولهم لتدبّر آياته ورجاء أن ترجع إلى فطرتها السّليمة فتدين بحقيقة التّوحيد لخالقها.

والله أعلم

سنة الله فيمن اتّبع هواه ولو كان عالمًا

أ)- النص:

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾: التلاوة: قراءة الكلام الذي يعاد ويكرّر للاعتبار به. ﴿نَبَأَ﴾: الخبر الذي له شأن مهمّ. ﴿ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾: أي كان عالما بما أنزل الله من دلائل عظمته ووحدانيته. ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾: أي تجرّد منها وترك الاعتبار والاتعاظ بها. ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾: لحقه الشيطان وتمكن من وسوسته. ﴿الْغَاوِينَ﴾: من الرّاسخين في الغواية والضّلال. ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾: أي ركن ومال إلى زينة الدّنيا متسفّلا شهوانيا. ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث﴾: أي تلاحقه بالزّجر والطّرد. واللّهث واللّهات -بضمّ اللاّم- هو التنفس الشّديد مع إخراج اللّسان. ﴿سَآءَ مَثَلاً﴾: أي قبح شأنهم وساء يأتي للذم كـ"بئس".

ج)- البيان والتفسير:

في إطار محاور السّورة التي تركّز على قضية التّوحيد والشّرك تتعدد

الأساليب في عرضها من الاستعراض القصصي لتاريخ الرّسل مع أقوامهم، إلى بيان بعض الأسرار الغيبية بما هو ثابت في علم الله وواقع في خفايا الكون والوجود، إلى ضرب الأمثال بنماذج من البشر ممن لا ينتفعون بما خصّهم الله به من العلم والحكمة، كهذا الذي ضرب الله به مثلا في هذه الآيات إذ قال تعالى مخاطبا رسوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

بعد أن بيّن الله تعالى كيف أخذ الميثاق العام على بني آدم قاطبة بأنّ الله تعالى هو ربّهم وخالقهم، ضرب هذا المثل للمكذّبين بآيات الله الدّالة على عظمته وقدرته، سواء منها النّاطقة أو الصّامتة، وهم مع ذلك عالمون بها، عارفون لقواعدها وأحكامها، واعون لإرشاداتها وتوجيهاتها، ولكنّهم لا يعملون بمقتضاها لغلبة الهوى عليهم ووسوسة الشّيطان لهم، وشبّه الله تعالى هذا النّموذج من العلماء الضّالين، إذ لم ينتفعوا بعلمهم كالحيوان الذي يُسْلَخ عنه جلده، إذ أن المفارقة بين العلم والعمل انفصال معنوي، يُسلَب صاحبه خير الانتفاع بذلك العلم.

الضّمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ راجع إلى المشركين المكذّبين ومن ضمنهم بنو إسرائيل، ويبدو أن الممثل به في القصّة معلوم لدى المخاطبين، وذلك ما يفيده الاسم الموصول المفرد، والنّصّ لم يوضّح اسمه ولا جنسه ولا معتقده لأن ذلك لا يعني موضوع الاتعاظ والاعتبار، وقد استفاضت الرّوايات النّقلية منها ما تقول إنه من علماء بني إسرائيل، ومنها ما يقول إنه من حكماء العرب. ولم يرد في ذلك خبر صحيح يُعتمد عليه. وبالتّالي فإن العبرة بما يوحيه النّصّ من عبرة وموعظة لمن يتلو هذا القرآن سواء في فترة نزوله أو بعد ذلك إلى ما يشاء الله في هذا الزّمن الممتدّ.

والعبرة تتمثّل في ذلك النّموذج البشري الذي لا يخلو منه زمان ولا مكان،

ممن آتاه الله العلم والحكمة فتخلّى عن الانتفاع بهما في عمله وسلوكه اتّباعًا للهوى وإيثارًا للمنافع العاجلة.

وسواء اعتبرنا هذا من قبيل الواقع التّاريخي المشخّص أو التّمثيل التّصويري البليغ، والاحتمالان واردان في كتب التّفسير، وأيًا كان الاحتمال فإنه مثل رائع حيّ مناسب لذلك النّموذج من البشر -وما أكثرهم في هذا الزّمان النّكد-، مثّل له إيحاءات وإيقاعات تحرّك الوجدان وتحزّ الخواطر وتبعث على التّأمّل والتّنظير.

ذلك لأنّ تشبيه تخلّي صاحب العلم من الانتفاع بعلمه بحيوان يُسلَخ عنه جلده يعني بأنه قد أصبح مسخًا معرّضًا لأيّ تشويه، إذ أن الجلد هو الدّرع الواقي لمكوّنات الجسم، وهو الذي يعطي له صورته الآدمية المميّزة. وقد ذكر الله قبل هذا المثل كيف خلق هذا الإنسان على الفطرة السّليمة التي تقرّ بوحدانية ربها وتؤمن بعظمته وقدرته، فهي بمثابة الجلد الواقي لكيان الجسد. فكان الذي ينحرف عن تلك الفطرة الإيمانية كالحيوان المسلوخ، قد تعرّى عن أعظم مقوّمات جسمه، فلا مناص من أن يجد الشّيطان إلى قلبه منافذ الغواية، ولم يبق له من عزيمة الإيمان ولا من محفّزات التّقوى ما يستشرف به منازل القربى عند الله ولا مراقي الخير والصّلاح بين النّاس، فينحطّ إلى عفونات الأرض ويسقط في مهاوي الرّذيلة والضّلال.

ولذكر المشيئة الإلهية في تصوير هذه الحالة المشينة: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ إيحاءاته في التّصوّر الإسلامي للمعتقد الصّحيح في مجال الهداية والتّزكية والتّوفيق، إذ أنّ لكلّ ذلك وسائل وأسبابا، والمفروض في العلم والمعرفة أنهما طريق إلى معرفة الله تهدي معالمها إلى الإيمان به لو أن الله تعالى قدّر ذلك، ولكن واقع الرّجل المُمَثّل به جاء مناقضا لتلك المشيئة، وفق الفعل الإرادي الذي اختاره الرّجل. والذي تدلّ عليه الأفعال الثّلاثة: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾، ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

فليس أنسب لهذا المسخ الإنساني، وقد تجرّد من مقوّماته الإنسانية، من تشبيهه بالكلب اللاّهث، لأنّ الإخلاد إلى قاذورات الأرض، واتّباع الهوى يُذكي سعار الشّهوات بحيث لا هدأ ولا تقنع بالقليل منها، فيعيش صاحبها لاهثًا في طلب المزيد من المتعة واللّذة، ولا يستبقي في الحصول عليها أيّ مال ولا جهد، وتلك هي حالات الكلب اللاّهث في أقبح صورها، سواء هاجمته أو تركته، وهو تشبيه بليغ للاضطراب والقلق في كل حالة.

والقوم الذين كذّبوا بآيات الله يصدق فيهم هذا المثل، لأنّهم كانوا في حالة الجاهلية والكفر يتمنّون أن يكونوا كأهل الكتاب في الفضل والعلم، ولكنّهم تولّوا عن رسول الله مستكبرين جاحدين، كما يصدق المثل في حقّ اليهود الذين عرفوا الحقّ فأنكروه، وهم الذين بشّروا ببعثة رسول الله لما كانوا يعرفون من نعوته في نصوص التّوراة، وفي كلا الفريقين يقول تعالى:

أ)- في مشركي قريش: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ، أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ (الأنعام: ١٥٥-١٥٧).

ب)- ويقول في بني إسرائيل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (البقرة: ١٤٦-١٤٧).

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: تذييل مناسب لهذا المثل، وإذ عرضه الله في قالب قصّة، فقد أمر رسوله أن يتلو على النّاس قصص القرآن لما فيها

من التذكير والموعظة، لأنّ ضرب الأمثال ورواية القصص تقرّب المعاني الخفية إلى الأفهام، وتجسّد الحقائق المجرّدة في قوالب حيّة تدفع النفوس إلى تأمّلها والتفكير فيها، ومن شأن ذلك أن يؤثّر في تلك النفوس علّها تذكّر أو تتعظ.

﴿سَآءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾: بعد المثل المضروب للذين كذّبوا بآيات الله تجيء هذه الجملة المستأنفة لذمّ حالهم وتشنيع تصرّفهم، إذ لم ينتفعوا بما حباهم الله من فضل، فوقعوا بذلك في ظلم عظيم، ويرجع ذلك الظّلم على أنفسهم أوّلا وبالذّات، لأنّ الرّسول وأصحابه مطمئنون إلى الحق الذي اتبعوه، فلا يضرّهم من ضلّ، بل هم يرثون لحالهم كيف اختاروا طريق الكفر والضّلال، وهم يدّعون الفهم ويُعْدِمون النّظر. وهكذا يفعل الملحد الضّالّ بنفسه ما لا يفعله العدوّ به، وذلك هو عقابه من الله تعالى: خزي وخذلان في الحياة الدّنيا، وعذاب وذلة وهوان في الحياة الأخرى.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام:٢١)، والله أعلم.

مشيئة الله في الهداية والإضلال، ودعاؤه بأسمائه الحسنى

أ)- النص:

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾: حقيقة الهداية هي إبانة الطّريق، وتطلق على مطلق الإرشاد لما فيه النّفع. ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾: القصر هنا على اعتبار الكمال باستمرار الاهتداء إلى وفاة صاحبه، وأمّا غيره فليس بمهتد وإن بدا في ظاهره ذلك كالمنافق مثلا. ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾: بمعنى خلقنا وأوجدنا، وتطلق جهنم لدار العذاب الأخروي لا لخصوص طبقة منها، وهي مستعملة هنا في الأفعال الموجبة لها بعلاقة المسبّبية، لأنّ جهنم لا يقصد إيجاد خلق لتعميرها. ﴿الْجِنِّ﴾: هو خلق غير مرئيّ لنا، وظاهر وصف القرآن لهم أنهم عقلاء مكلّفون مثلنا ومنهم الشّياطين الأشرار. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾: القلب في التّعبير القرآني اسم لموقع العقل في الذّات الإنسانية، وهو أداة الحكم على الأشياء المدْرَكة، وهو مناط التّكليف. ﴿يَفْقَهُونَ﴾: فسّره اللّغويون بالعلم بالشيء والفهم له وكذا بالفطنة، يقول الرّاغب: الفقه هو التّوصّل بعلم شاهد إلى علم غائب. ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾: الاسم هو اللّفظ المجعول عَلَمًا على الذّات بالتّخصيص أو بالغلبة. و﴿الْحُسْنَى﴾: مؤنث "الأحسن"، وهو المتصف بالحسن الكامل في ذاته المقبول لدى العقول السليمة. ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: أي اتركوهم وانبذوهم. و"يلحدون": من الإلحاد، وهو الميل والانحراف عن وسط الشّيء إلى جانبه.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد ضرب المثل بعالم السّوء الذي انسلخ من آيات الله، ينتقل السّياق إلى التّعقيب على المثل ببيان أسباب الهدى والضّلال، حين يوظف الإنسان السّويّ

الفطرة ما وهبه الله من العقل والحواسّ في إدراك الخير والشرّ فيقول تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

فللهداية والضّلالة أسبابهما، وإسناد ذلك إلى الله لا يعني الإجبار والإكراه، بل لبيان مشيئة الله وقدَره في تدبير شؤون خلقه وفق علمه الأزلي، وأنّ للإنسان كسبًا واختيارًا في السّبيل الذي يسلكه بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (القتال:١٧). وقوله في سورة التّغابن: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١). وقوله في سورة العنكبوت: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦٩).

وتفيد الآية الكريمة هنا أنّ المهتدي الحقيقي هو ذلك الذي وفّقه الله إلى تسخير ما وهبه الله من قوّة العقل ونفاذ البصيرة في إدراك عظمة الله وقدرته والتماس الطّريق التي تحقّق رضاه.

وتوخّي أسلوب القصر في قوله: ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ يدلّ على الاهتداء الحقيقي الكامل الذي يلازم الإنسان طيلة حياته، أمّا غيره من ضعاف الإيمان والمظاهر السّطحية، فليسوا بالمهتدين الحقيقيين كالنّموذج السّابق من علماء السّوء. ثم قابل المهتدي بالخاسر ولكن جاء بصيغة الجمع على عكس ﴿الْمُهْتَدِي﴾ لرعاية معنى "مَنْ" الشّرطية التي للإفراد والجمع. وللقطب معنى لطيف في تنويع هذا الأسلوب إذ قال: "راعى لفظ "مَنْ" الأول فأفرد تلويحا بأن المهتدين كواحد لاتحاد دعواهم، بخلاف الضّالين فلهم سُبُل لا تنحصر، لأنها بحسب هواهم، ونفسهم الأمارة بالسّوء والشّياطين".[1]

ثم بعدما نقلت من التّيسير هذه الجملة وجدت نظيرها في تفسير المنار

بأوسع تحليل وتنظير.

ثم فصّل الله معنى الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

اختار بعض المفسّرين أن يكون عطف هذه الجملة على المثل المتقدم للمنسلخ من آيات الله، لأنّه اختار سبيل الضّلال بعد أن عرف آيات الله، ذلك لأن الله قدّر أن يكون من أهل جهنّم، فأكّد هذا الخبر بـ"لام" القسم لما في قضية القضاء والقدر وأفعال الإنسان من حيرة وغرابة. وإسناد فعل "ذَرَأْنَا" إلى الله هو بمعنى الإيجاد والخلق والتّقدير، وفي الفعل المختار "ذرأ" معنى بث الأشياء وبذرها وتفريقها.

وملخّص القول أن الله تعالى خلق الكثير من خلقه الكثيف واللّطيف لأعمال الشّرّ المفضية إلى النّار بما أودع في نفوسهم من قوى الشّرّ التي تشوّه فطرتهم السّليمة، ثم بيّن الله أسباب ذلك الانحراف عن منهج الله السّويّ في مثل هؤلاء الخلق، بأنّهم عطّلوا ما وهبهم من أدوات الإدراك والفهم لمعاني الخير والبرّ بما يحقق لهم الخير الدّنيوي والسّعادة الأبدية. وذكر من تلك الأدوات الفؤاد والسمع والبصر.

وكم أشاد القرآن بهذه النّعم التي أكرم الله بها هذا الإنسان ليسخّرها في جلب النّفع ودفع الضّرّ وليتأمل بها عظمة الله وقدرته في نفسه وفي الآفاق لمعرفة الحق وترسيخ الإيمان فقال تعالى:

أ)- ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:٧٨).

وإذ ميّز الله تعالى الإنسان بهذه القوة المدركة فقد جعلها مناط التّكليف فحمّل مسؤولية استعمالها على الإنسان وجعلها بمثابة الأمانة التي يحافظ عليها، ويحاسب فقال تعالى:

ب)- ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ انَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء:٣٦).

وبما أن هؤلاء الضّالّين قد عطّلوا هذه الأدوات و لم ينتفعوا بها في ما خلقت لأجله فقد نفت عنهم الآية عملها على وجه العموم للمبالغة في عدم تطبيقهم لما يعلمون، وبالتّالي فهم المتسبّبون في ذلك المصير المشؤوم الذي ينتظرهم، كما تقدّر ذلك في علم الله الأزلي.

ومن أفدح الخسائر على الإنسان، ومن أعظم النّقم عليه أن يحول الله بين المرء وقلبه، وأن يأخذ سمعه وبصره كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ (الأنعام:٤٦). وكما قال في سورة البقرة يصف الذين كفروا: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧).

ولاشك أن مشركي مكة مندرجون بالدّرجة الأولى في هذا الحكم، وعلى ذلك فهم لا يعتقدون أنهم على ضلال، بل يحسبون أنفسهم في المراتب العليا من الفهم والإدراك، ويحكمون على أنفسهم بهذا الوصف الشائن حين يدعوهم رسول الله إلى الهدى فيجيبونه بقولهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ (فصلت:٥).

﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾: عُرّفوا بالإشارة لتميزهم بتلك الصّفات، فهم يشبهون الأنعام في أنّ لكلّ منها تلك الأدوات، ولكنّها لا تنتفع بها إلاّ في المجالات الغريزية التي تبقي على حياتها، بل هؤلاء

ينحطّون عن الأنعام في درك الضّلال لأنّ الأنعام لا تؤدي بنفسها إلى المهالك، بينما هؤلاء لهم استعدادات فطرية لحجز أنفسهم عن الشّقاء العاجل والآجل، ولكنهم عطّلوها، وهم بذلك قد انتهوا إلى الحدّ الأقصى من الغفلة لا يشبههم فيها أحد.

ولمّا كان أعظم الضّلال هو الشّرك بالله توجّه الخطاب إلى المؤمنين يحذّرهم الله من الكفر والإلحاد كما يفعل أولئك الضّالون، ويدعوهم إلى دعاء الله بأسمائه الحسنى. فقال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.

للإلحاد صور كثيرة -وهو بمعناه اللّغوي- الميل عن وسط الشيء إلى جانبه، والإسلام دين الوسطية والاعتدال، فكلّ انحراف عن مبادئه وأحكامه يعدّ إلحادا يرمي بصاحبه في متاهات الضّلال والكفر، وأعظمها الزّيغ في المعتقد. والمشركون قد ألحدوا بأسماء الله الحسنى حين سمّوا أو وصفوا بها آلهتهم الباطلة. وقد قيل: إنّ سبب نزول هذه الآية أنّ بعض المسلمين دعا "الله" أو "الرّحيم" في صلاته ودعا "الرّحمن" مرة أخرى فقال المشركون: محمد وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون ربّا واحدا، فما بال هذا يدعو اثنين؟، فأنزل الله هذه الآية، لتبيّن أن هذه الأسماء هي كلّها لله الواحد وليست لآلهة متعددة كما يزعمون، وهي كلّها حسنة تدلّ على كمال ذاته تعالى، فبأيّها دعاه المسلم فإنه على حق وصواب.

وكونها تسعة وتسعين كما روي في الصّحيحين عن أبي هريرة لا يعني حصرها في هذا العدد، بل تعني أنّ من عدّها وأحصاها معتقدا بها دخل الجنة، ولا يمنع ذلك أن لله أسماء أخرى، وقد ثبت في الحديث الصّحيح بأنّ الرّسول قد دعا الله بـــ"يا حنّان ويا منّان"، وكلّها اسم لمسمّى واحد، فلا حرج على المؤمن أن يدعو الله بأيّها شاء، من كل اسم أطلقته الشّريعة في القرآن والسّنة مما هو مدح لله

لا ريبة فيه من إشراك أو ذمّ -تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرا- مصداقا لقوله ﷺ: «اللّهمّ لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».[1]

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أمر للمؤمنين أن يعرضوا عن أولئك الضّالّين الملحدين، حتى لا يدخلوا معهم في مراء وجدال غالبًا ما يكون مزلقا كبيرا في التّلفظ بكلمة الكفر، كما أمر بذلك المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (النساء:١٤٠). فإنّ الله تعالى هو الذي يجزيهم بما كانوا يعملون.

وفي اختيار صيغة المضارع: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ دليل على أن ذلك الإلحاد في أسماء الله ملازم لأولئك الضّالين يستمرون عليه في كل أحوالهم، والله أعلم

أمة الدّعوة وأمة الإجابة، واستدراج الله للأمم

أ)- النص:

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾
أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى
مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ
ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ

١- رواه مسلم من حديث عائشة، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث ٤٨٦.

لَهُمْ وَنُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾: من الاستدراج، وهو مشتقّ من الدّرجة وهي المرقاة. استدرجه: أي رقاه من درجة إلى أخرى. ويقال: درّج الكتاب والثّوب وأدرجه إذا طواه. ويقال: هذه آثار قوم درجوا، بمعنى انقرضوا، وهو تمثيل بديع مبني على تشبيه حسن الحال برفعة المكان، وضدّه بسفالة المكان. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾: من الإملاء: وهو الإمداد في الزّمن والإمهال، مشتق من الملوة والملاوة، وهي الطّائفة الطّويلة من الزّمن. والمَلاَ: -بالقصر- المفازة الواسعة الممتدة. والإملاء: التّلقين للكاتب ما يكتبه. ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾: الصّاحب هو رسول الله، ليس مصابا بالجنون كما يدّعيه الكفار. ﴿مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: أي الكون بأجمعه. ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: أي يتركهم في ظلمهم وغيهم يترددون في حيرة وقلق.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: قرأ حمزة والكسائي: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بـ"الياء" والجزم على أنه عطف على موضع جواب الشّرط: ﴿فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾. وقرأه نافع وابن كثير وابن عامر: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ بـ"النون" والرّفع على أنه عطف على جملة: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾، على طريقة الالتفات من الغيبة إلى التّكلم.

د)- البيان والتّفسير:

تثبت الرّوايات أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «**هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ**

يَعْدِلُونَ﴾».[1] والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ فبعد بيانه تعالى شؤون البشر العامّة في الإيمان والكفر والضّلال والأسباب المؤدية إلى كلّ منها، انتقل السّياق إلى بيان شأن الأمة المحمدية بالتّنويه بشأن المسلمين والتّنديد بالمكذبين مع تفنيد ما عرض لهم من الشّبهات في إنكارهم للدعوة المحمدية فقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

لقد قابل رسول الله في حديثه بين ما أوتي قوم موسى وبين ما أوتيت أمته لأوجه الشّبه بينهما في التّوحيد والإيمان والتّكريم برسالة السّماء. ويستوقفني في تقابل الآيتين قوله تعالى في شأن الأمة المحمدية: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ﴾، ولم يقل مثلا: "ومن قومك أمة". والنّكتة في ما أرى -والله أعلم- أن الرّسالة الموسوية محصورة في قوم معينين -وهم بنو إسرائيل- كما أنها محدودة بفترة معيّنة، بينما الرّسالة المحمدية فهي لكافّة الخلق أجمعين، وهي لامتداد الزّمان إلى قيام السّاعة مما يسمّيه العلماء بأمّة الدّعوة.

وبما أن سنّة الله لا تتبدّل في تدبير شؤون خلقه، فقد انقسم أتباع الأمّتين إلى مصدّقين مهتدين، وإلى مكذّبين ضالّين. وتفسير الآية قد تقدّم نظيره في تفسير الآية السّابقة: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ويعبّر العلماء عن الأمة المهتدية بأمة الإجابة، وهي الفرقة النّاجية -إن شاء الله- كما ورد في حديث افتراق الأمة المحمدية إلى ثلاث وسبعين فرقة وقوله ﷺ في هذا الفريق النّاجي من الأمة: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم من**

١- أنظر: الطبري، جامع البيان، ٩/١٣٥؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢/٢٧٠.

خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».[1]

وأما الفريق الثاني من أمة الدّعوة فهم المكذّبون بآيات الله، وقد توعّدهم الله بسوء العاقبة حين ينتقم الله منهم ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وإن هم اغتروا بقوتهم وكثرة عددهم وأمدّ الله لهم حبل الافتتان والغرور حتى فرحوا بما أوتوا، فإن ذلك من الله استدراج لهم ليصلوا إلى غايات هلاكهم وهم غافلون في غمرة زهوهم وتطاولهم، لأن الله تعالى يمهل ولا يهمل كما قال تعالى: ﴿**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾.

وسنة الاستدراج والإملاء للطّغاة المتكبرين هي من تدبير الله الخفيّ في تدبير شؤون الخلق، وهو من القوة والشّدة والتّحكّم بحيث لا ينفلت الظّالم من عدالة الله، وإن أمدّ الله له الأسباب كما جاء في حديث رسول الله: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**».[2]

فالآية الكريمة، وإن كانت تواجه وضعية قوم من مشركي مكة في أول الدّعوة، فإنها تعمّ كلّ الأوضاع المشابهة في كلّ زمان ومكان، فلابدّ للحقّ أن ينتصر وإن انتفش الباطل وتطاول بعض الوقت.

﴿**أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾: لقد تكرّر

١- روى البخاري نحوه من حديث معاوية، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، حديث ٧١. وأخرج نحوه مسلم من حديث ثوبان، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي...»، حديث ١٩٢٠. وللحديث ألفاظ وطرق أخرى.

٢- رواه البخاري من حديث أبي موسى الأشعري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: «وكذلك أخذ ربك...»، حديث ٤٤٠٩؛ ورواه مسلم من حديث أبي موسى أيضاً، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث ٢٥٨٣.

وصف المكذّبين لرسل الله بالسّحر والجنون فقال تعالى في سورة الذّاريات: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الذينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ الاَّ قَالُواْ سَاحِرٌ اَوْ مَجْنُونٌ﴾ (٥٢). وقد نال رسول الله الحظ الأوفى من تلك الأوصاف الدّنيئة من طرف مشركي مكة وأشياعهم كما تبيّنه هذه الآية الكريمة، فبعد أن ندّد الله على المكذبين بأنهم لا يستعملون عقولهم وحواسّهم في النّظر الحصيف والتّأمّل الواعي. وإذ وقعوا بغفلتهم في شبهات حول شخصية رسول الله، فقد دعاهم إلى إعادة النّظر ردّا على تلك الشّبهات بهذا الاستفهام الذي يدلّ على التّعجيب والإنكار عليهم، فقد جيء بنفي مؤكد لإفادة الاستغراق.

ووصف الرّسول بـ"صاحبهم" لا يقصد به صحبة حبّ ومودّة من طرف المشركين، وإنما يقصد به انشغالهم بأمره وخوضهم في شأنه. وفيه معنى التّوبيخ لموقفهم ذاك، إذ كيف يكذّبون بالرّسول وكيف لم يُفكّروا في مسار نشأته بينهم وقد صاحبهم في كثير من مراحل عمره ولم يعهدوا عنه كذبا ولا فسوقا ولا خبالا في عقله، وما هو اليوم في دعوته إلا نذير مبين في ما يرشد إليه يخوّفهم من عذاب الله، وما ينتظرهم من سوء العواقب في الدّنيا.

﴿اَوَ لَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَّكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُومِنُونَ﴾:

وإذ هم لم يقتنعوا بآيات الله النّاطقة المنزّلة على رسول الله لشبهتهم في ظاهرة الوحي كيف تنزّل على بشر مثلهم؛ فإنه تعالى يدعوهم إلى النّظر والاستدلال العقلي بالتّأمّل في ملكوت السّماوات والأرض لمعرفة حقيقة الوجود التي من خلالها يدركون واجب الوجود، وأنّه واحد في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله. ومن شأن هذا التّأمّل في بديع صنع الله في ملكه الواسع العظيم أن يدلّ على عظمة الخالق وأنه المتفرد بالألوهية والرّبوبية، وهو ما يدعوهم إليه رسول الله،

كما أن التأمّل في دقائق خلق الله في سائر الموجودات يؤدي -لا محالة- إلى إدراك قدرة الله وعزة شأنه وجلال سلطانه.

وقوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ يشعر المخبّر عنهم بأن مصير ذلك الكون إلى الفناء وأنهم آلون إلى نفس المصير، وبما أن آجال الأمة أو الأفراد غيب مجهول لا يعلمه إلا الله فإن تذكير النفوس بماجس الموت له وقعه في القلب الإنساني يهزّه ليستفيق من غفلته مما قد يؤدي به إلى التأمّل المطلوب لإيقاظ الوعي؛ وقال ابن عباس: "أراد بـ"اقتراب أجلهم" يوم بدر ويوم أحد".

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾: إنه الاستفهام الإنكاريّ لإفادة التوبيخ على موقفهم المتصلّب بعد أن استنفد الرّسول في دعوتهم وإرشادهم كلّ وسائل الموعظة والتذكير بما لا مزيد عليه من البيان، ومع ذلك فإن إيمانهم مستبعد، ذلك لأن الله تعالى جعل هذا القرآن أعظم وسيلة للهداية، وجعل الرّسول أعظم نموذج للمهتدين -إذ كان خلقه القرآن كما وصفته أمّنا عائشة ﷺ- وبما أن هؤلاء المعاندين قد فقدوا الاستعداد للإيمان فإن الله تعالى يكلهم إلى أنفسهم، فلا تجد الهداية سبيلا إلى قلوبهم.

﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: أي أنهم بممارستهم للكفر والضّلال ورسوخهم فيه إلى حدّ الإسراف فقد اختاروا لأنفسهم حياة العَمَه والتّردّد، كما سبق ذلك في علم الله، ولكنّهم هم المتسبّبون في ذلك المصير المشؤوم بالإسراف في الطّغيان والإفراط في التّحدّي. ومن تركه الله لنفسه فلا مطمع في هدايته مهما تعددت وسائل نصحه وإرشاده.

ونسبة الضّلال إلى الله في الآية إنما هي من قبيل النّسبة إلى سننه في ربط المسبّبات بأسبابها كما تقدم ذلك في الآية السّابقة.

والله أعلم

عند الله علم السّاعة، والرّسول لا يعلم الغيب

أ)- النص:

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿السَّاعَة﴾: هي لغة: جزء قليل غير معيّن من الزّمن، ويحدّده الفلكيون بجزء من أربعة وعشرين جزءا من اليوم في نهاره وليله. وهي في اصطلاح القرآن علم بالغلبة لوقت فناء العالم الدّنيوي والدّخول في العالم الأخروي، وقد يطلق على ذلك يوم القيامة ويوم البعث. ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾: أي متى يكون إرساؤها، حصولها واستقرارها، والمُرسى مصدر ميمي من الإرساء. ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا﴾: من التّجلية وهي الكشف، بمعنى: لا يكشف حجابها ولا يظهرها في وقتها إلا الله تعالى. ﴿لوَقْتِهَا﴾: تسمّى هذه "اللام" لام التّوقيت كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ (الإسراء:٧٨). ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: أي ثقل أمرها بما يقع فيها من الأهوال. ﴿لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾: أي فجأة من غير توقّع وعلى حين غفلة. ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: من قولهم: أحفى في السّؤال، أي ألحف

وبالغ، والاحفاء هو الاستقصاء، وهو حفيّ عن الأمر: بليغ في السّؤال عنه. ﴿لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾: الخير هو كل ما يرغب النّاس فيه سواء كان ماديا كالمال ونحوه، أو معنويا كالعلم والمعرفة. ﴿السُّوءُ﴾: ما يرغب النّاس عنه لما فيه من ضرر.

ج)- البيان والتّفسير:

اعتاد العلماء أن يقسّموا آجال النّاس عندما تنتهي بهم وفق تقدير العليم الخبير، قسّموها إلى ساعة صغرى، وساعة وسطى، وساعة كبرى. فالصّغرى لآجال كل فرد، والوسطى بزوال الدول وهلاك القرون والأجيال واستدلوا عليه بقوله ﷺ: «**إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته**».[1] وأمّا الكبرى فهي فناء هذا العالم الدّنيويّ وهلاك الخلائق كلّها. ولهذا فإن المناسبة بين هذه الآية والآية المتقدمة تكون تامّة، ذلك لأن الله تعالى أرشد إلى التّفكّر في اقتراب آجال المكذبين بآيات الله في وقت التّنزيل، ومن يكون على شاكلتهم لما في ذلك من الموعظة والاعتبار.

وفي هذه الآية يرشد إلى التّفكّر في قيام السّاعة العامّة الكبرى -وهي أدهى وأمرّ- فقال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ لاَ تَاتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً**﴾:

إنكار البعث والحساب والجزاء كان من القضايا الحسّاسة في أمر العقيدة التي تطاول فيها المشركون وأكثروا فيها اللّغط والجدال، واتخذوها ذريعة لتكذيب رسول الله، وقد جعلها اليهود وسيلة لتعجيزه بدعوى أنهم يعلمون عنها الكثير مما

١- رواه الأصبهاني في حلية الأولياء بسنده عن عمر بن عبد العزيز قوله، ٣٢٥/٥. وبسنده عن زياد النميري قوله، ٢٦٨/٦.

كانوا يقرؤونه في كتبهم. والسّائلون على الأرجح هم كفار قريش، ولذلك يتعيّن أن يكون المضارع للحال، لأنّ المشركين يعلّقون صدق نبوءة الرّسول بحسن إجابته على مثل هذه الأسئلة التّعجيزية، فيكثر في القرآن إيراد جملة ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس:٤٨).

ومن بلاغة القرآن أن يظهر السّائلين في سورة الأحزاب -وهي مدنية- فيقول: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ (٦٣). حتى يندرج اليهود في زمرة هؤلاء السّائلين على وجه التّكذيب والتّعجيز.

وفي التّعبير عن وقوعها بلفظ "الإرساء" الذي يدلّ على الاستقرار يورد صاحب المنار نكتة بلاغية فيقول: "إنّ قيام السّاعة عبارة عن انتهاء أمر هذا العالم وانقضاء عمر هذه الأرض التي تدور بمن فيها من العوالم المتحركة المضطربة، فعبّر عن إرسائها عن منتهى أمرها ووقوف سيرها.

والسّاعة زمن وهو أمر مقدّر لا جسم سائر أو مسيّر، وما يقع فيها ويعبّر بها عنه فهو حركة اضطراب وزلزال لا رُسُوّ ولا إرساء. إلى أن يقول:" فلم يبق لإرسائها معنى إلا إرساء حركة هذا العالم فيها، وإنه لتعبير بليغ"[1]

وإن ذلك من الإعجاز العلمي في القرآن، لأنّ معرفة حركة الأرض حول محورها وحول الشّمس لم تكن محددة لدى الفلكيين القدامى، بل حتى كرويّتها كانت محلّ جدال حتى بين العلماء الأوروبيين في عصر التّنوير. وكانت سبب قهر الكنيسة للكثير منهم وفي معنى الاستقرار والرسوّ يقول تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ (يس:٣٨).

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٩/ ٤٦٤.

وقد تكرر في القرآن ذكر أهوال السّاعة وأنها شيء عظيم، كما تناول بالذّكر بعض ما يقع فيها من أحداث مهولة يلخّصها قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ (٤٨). ويقول في تفجّع الخلائق بها في سورة المزمّل: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً﴾ (١٧). ويقول في سورة الحج: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ (٢).

والإيمان بقيام السّاعة الذي يندرج في أحداث اليوم الآخر يشكّل إحدى الرّكائز في العقيدة الإسلامية يقوم البنيان الإيماني عليها، لأنّه الرّادع القويّ الذي يحفظ المؤمن من الانتكاس عن مبادئ دينه، أو الارتكاس في مهاوي الفسق والرّذيلة. وبما أنّ قيام السّاعة أمره وعلمه عند الله، والإنسان مأخوذ بعامل الزّمن ويغترّ بامتداده عبر ملايين السّنين بالنّسبة لعمر الأرض، كما يغترّ باستقرار النّظام الكوني من حوله، فإنه يستحوذ عليه الشّكّ ويماري في وقوع السّاعة.

يقول ربّ العزة في سورة المعارج: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً، وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ (٦-٧) ويقول في سورة الشّورى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ (١٨).

وآية الأعراف هذه تجيء مكمّلة لركائز الإيمان بعد التّدليل على وحدانية الله وصدق الرّسالة والنّبوءة، وفي تناولها لموضوع السّاعة تذكّر بالحقائق التّالية:

أ)- إنّها من الأمور الغيبية التي استأثر الله بها، وليس في مقدور أيّ مخلوق أن يعلم بموعد وقوعها، مهما كانت منزلته عند الله نبيًّا مرسلاً أو ملكًا مقرّبًا. فلا يظهرها في موعدها المحدود إلاّ الله، لأنّ ذلك من خصوصية الرّبوبية كما قال:

﴿قُلِ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾.

ب)- ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: وذلك أوّلا لإخفاء موعد وقوعها على الخلائق، كإخفاء آجال النّاس حتى يكون ذلك زاجرا لهم عن فعل المعاصي، ودافعا لهم للاستعداد إلى حسن الخاتمة. وأمر الغيب ثقيل على النّفوس لما يحاك حوله من توقّعات، وقد قال تعالى في شأن الغافلين المستهترين: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ (الإنسان:٢٧). ويجوز أن يكون الثّقل مستعارًا للمشقّة، وذلك لما يتوقّع فيها من أحداث مهولة كما تقدم.

ج)- ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾: أي عنصر المفاجأة والمباغتة في مجيئها، وذلك لا ينافي ما ورد في القرآن والسّنة من بيان بعض أشراطها، لأن ظهور العلامات لا يكون إلا بالتّدرّج الزّمني، ومن خلال حركة الحياة الدّائبة قبل اختلال نظام الكون من حولنا، ولعلّ أفضل مثل على ذلك هو قول رسول الله في حديث صحيح: «**بعثت والسّاعة كهاتين**».[1] فقرن بين السّبابة والوسطى.

وقد قطع المسار البشري أربعة عشر قرنا منذ ذلك الحين، وعنصر المباغتة لقيام السّاعة قد تكرّر في القرآن عدة مرات، وبيّنه رسول الله في حديث رواه أبو هريرة ﷺ قال ﷺ: «**لا تقوم السّاعة حتى تطلع الشّمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها النّاس أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت في إيمانها خيرا. ولتقومنّ السّاعة وقد نشر الرّجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن السّاعة وقد انصرف الرّجل بلبن لقحيه (الشّاة**

١- رواه البخاري من حديث سهل بن سعد، كتاب التفسير، باب تفسير سورة والنازعات، حديث ٤٦٥٢؛ ورواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، حديث ٨٦٧.

الحلوب أو الحامل) فلا يطعمه، ولتقومنّ السّاعة والرّجل يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن السّاعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها».[1]

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾:

تأكيد جملة ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ مع تكرار الإجابة بأنّ علمها عند الله دليل على مدى اهتمام القوم بهذه القضية وما يكتنفها من غرابة وتعجيب حتى لكأنّ رسول الله في اعتقادهم قد بالغ في سؤال ربّه عنها ليخبره عن وقتها. ويجوز أن يكون معنى: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ بمعنى رضي بهم وبالغ في إكرامهم لأنهم قرابته وقومه فهم يستعطفونه ليخوض معهم في تحديد وقتها.

وقد روى ابن عباس في هذا المعنى قوله: "قالت قريش لمحمد: إن بيننا قرابة فأسرّ إلينا متى السّاعة؟ فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾".

وبما أن زيغ المعتقد في هؤلاء المكذّبين يحول بينهم وبين الصّواب في الحكم على الأشياء، فإن الله جعلهم بمثابة من لا يعلم فقال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، أي القليل من النّاس هم المدركون لهذه الحقائق لأنهم يؤمنون بالغيب، ويصدّقون بما خبّر الله به على ألسنة رسله كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ (الشورى:١٨).

وبمناسبة بيان أمر السّاعة وأنها من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله تعالى، أمر رسوله أن يبيّن للناس أن علم الغيب ليس من خصائص النّبوءة؛ بل الرّسول بشر، وإنما

٢- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الرقاق، باب طلوع الشمس من مغربها، حديث ١٦٤١.

يوحي إليه من الله ليرشد النّاس بأسلوب البشارة والنّذارة فقال:﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً الاَّ مَا شَآءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ انَ انَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾.

الآية الكريمة تبيّن خصائص النّبوءة، وأنّ الرّسول مهما خصّه الله به من اتصال بالملأ الأعلى وحيًا وتنزيلاً من عند الله، فإنّ ذلك لا يسلخه من بشريته، ولا ينفي عنه العبودية لله كسائر الخلق، فإذا كان الرّسول لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا لأن ذلك من عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً﴾ (لقمان:٣٤). فكيف يملك ذلك لغيره؟.

وقد ورد النّفع والضّرّ نكرة في سياق النّفي ليعمّ كل الأنواع مهما كانت ضئيلة، وورود الاستثناء بعدهما: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ﴾ لإفادة أنّ تمكين الإنسان من ذلك لا يتمّ إلا بمشيئة الله فيقدر عبده على كسب ذلك وحصوله.

وللاستدلال على انتفاء علم الرّسول بالغيب، ذكر عدم قدرته على الاستكثار من الخير لنفسه ودفع السّوء عنها، لأنّ الإنسان مجبول على حبّ نفسه وإيثارها على غيره، فهو يتطلّع إلى علم الغيب وكشف المجهول ليعلم من خلال ذلك كيف يستكثر من الخير ويتجنّب الشّرّ.

﴿انَ انَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾: وإذا انتفى عن الرّسول علم الغيب -وهو مبعث العجب عند القوم- فما هي مزيته عن البشر؟. المزية والخصوصية هي الاتصال بالملأ الأعلى لتلقّي أمر الله وتبليغه لخلقه بأسلوب النّذارة والبشارة، فالإنذار للمكذّبين والتّبشير للمؤمنين، ولكن التّعبير طوى ذكر المكذّبين وأولى الإنذار والتّبشير للمؤمنين لأنّ ذلك مفهوم من خلال النّظم، ثم للإفادة أنّ الانتفاع بذلك لا يتأتّى إلاّ بالإيمان، والله أعلم.

تذكير الخلق بالنشأة الأولى، والنهي عن الشرك

أ)- النص:

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: يطلق الزوج على الرجل والمرأة. كلاهما زوج للآخر وتذكير الفعل المقصود به هو الرجل. ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: السكون مجاز في الاطمئنان والتأنس. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً﴾: ﴿تَغَشَّاهَا﴾: والغشاء هو غطاء الشيء الذي يستره من فوقه قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ (الليل:١). أي يحجب الأشياء، وهو في الآية الكريمة كناية عن الجماع و"التاء" والتضعيف للدلالة على تكلف الجهد فيه. و"الحمل" بفتح الحاء هو حبل المرأة إذا حملت في بطنها جنينا. ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾: والمرور: الاجتياز، ويستعار للتغافل وقلة الاكتراث بالشيء، أي لا تفكر المرأة في حملها عند بدايته ولا تفكر في شأنه

لأنه ما يزال خفيفا ضدّه ﴿أَثْقَلَت﴾، أي أصبح الحمل كاملاً يثقل الحامل. ﴿آتَيْنَا صَـالِحا﴾: أي بحذف الموصوف، تقديره: ولدا صالحا. ﴿شِرْكًا﴾: أي جعل لله شـركة وهي تقتضي شركاء لله. ﴿تَعَالَى اللَّهُ﴾: أي تنزّه الله عن شركهم وتعاظم مجده. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾: أي يتجدّد خلقهم، يجوز أن يكون عائدا إلى الأصنام أو المشركين الذين عبدوها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿جَعَلاَ لَهُ شِرْكًا فِيمَآ ءَاتَاهُمَا﴾: قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر: ﴿شِرْكًا﴾ بكسر الشّين وسكون الرّاء، وقرأ بقية العشرة ﴿شُرَكَاءَ﴾ جمع شريك. ﴿لاَ يَتْبِعُوكُمْ﴾: قرأ نافع بتخفيف التّاء وقرأ الباقون بتشديدها.

د)- البيان والتّفسير:

تتناسب أواخر السّورة مع أوائلها على طريقة العود على البدء في الدّعوة إلى توحـيد الله والإشـادة بالقرآن الكريم، وأنّه من وحي الله تعالى لرسوله، كما أن المناسـبة القريبة هي التّذكير بأخذ الله الميثاق العامّ من بني آدم للتركيز على توحيد الله، وفي هـذه الآية تدليل على قدرة الله بالنّشأة الأولى والتجاء الإنسان إلى الله في طلـب الولـد، ثم انتكاسه إلى الشّرك. قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾**:

أي الله لا غـيره خلقكم من نفس واحدة هي أبونا آدم وجعل منها زوجها وهي أمّنا حوّاء. ولفت الأنظار إلى التّأمّل في النّشأة الأولى لجنس البشر للتعرّف من خلالهـا عـلى قـدرة الله تكرر في القرآن، ومن أبرز الآيات في الزّوجية البشرية وتكوّن المجتمعات قوله تعالى:

أ)- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ (الحجرات:١٣).

ب)- ولا تقتصر الزّوجية على الجنس البشري، بل هي سنّة كونية قدّرها العزيز العليم لعمارة الكون وامتداده بحيث لا يخرج عن إطارها أي مخلوق من الذّرة الصّغيرة إلى أعظم الأجرام السّماوية حجما. وقد أثبت ذلك العلم الحديث فقال جلّ من قائل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات:٤٩).

وفي امتنانه تعالى علينا بتوفير السّكن النّفسي في كنف الزّوجية الشّرعية كما ورد في هذه الآية الكريمة قال تعالى في سورة الرّوم: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (٢١). فكون النّفس الواحدة هي آدم وزوجها هي أمّنا حواء فإنّ الآيات القرآنية تضافرت على بيانها.

وجمهور المفسرين أنّهما المقصود بهذه الآية الكريمة، غير أنّ الإشكالية في مثل هذا التّفسير هي كون الأبوين قد جعلا لله شركا في ما آتاهما من الولد، ومن الثّابت اليقيني أنّ آدم وحوّاء لم يكونا مشركين. وفي فكّ تلك الإشكالية اجتهد المفسّرون في ضروب من التّأويل لا يخلو من تعسّف، سيما ما يتعلق به من رواية بعض الإسرائيليات، غير أنّ المحقّقين اهتدوا إلى تخريج المعنى بما لا يتنافر مع النّصّ، وذلك من خلال الأسلوب القرآني الفصيح، منها:

أ)- منها -والله أعلم- أن يكون المراد جنسيّ الذّكر والأنثى لا يقصد فيه إلى معيّن فيكون المعنى: خلقكم جنسًا واحدًا وجعل أزواجكم منكم أيضا لتسكنوا إليهن. يقول الإمام ابن عاشور في هذا المعنى جامعا بين الاحتمالين: "تعليق الفعل باسم الجمع ﴿خَلَقَكُم﴾ في مثله في الاستعمال يقع على وجهين:

- أن يكون المراد الكلّ المجموعي، أي جملة ما يصدق عليه الضّمير، أي

.٤٨٦

خلـــق مجموع البشر من نفس واحدة، فتكون النّفس هي نفس آدم الذي تولّد منه جميع البشر.

- وثانـــيهما: أن يكون المراد الكلّ الجميعي، أي خلق كلّ أحد منكم من نفـــس واحدة، فتكون النّفس هي الأب أي أبو كلّ من المخاطبين على نحو قوله تعـــالى: ﴿إِنَّـــا خَلَقْـــنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ (الحجرات:١٣). وقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ (القيامة:٣٩)."[١]

هـــذا وقد تفرّع عن الاحتمال الثّاني في التّفسير أن أسقطه بعض المفسّرين عـــلى اليهود والنّصارى والبعض على المخاطبين من قريش، والتّعبير أعمّ من ذلك، إذ يشمل كلّ من تخلّى عن شكر المنعم بعد أن تحقق مطلبه.

وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، بيان وتعليل للمقصود الشّرعي من الحياة الزّوجية، وقد تقدم ذلك مبسوطا في سورة النّساء.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾:

ومـــن الدّقة في التّعبير القرآني الكناية بفعل "تغشّى" عن العلاقة الزّوجية في ممارســـة الجنس، والفعل يحمل معنى التّستّر والخفاء والاندماج بين الزّوجين. وزيد بالتّاء والتّضعيف ليدلّ على معنى التّمكّن والقوة. وذكّر الضّمير المرفوع ليدلّ على الزّوج الرجل وأنّث الضّمير المنصوب ليدلّ على المرأة. وينتج عن هذا الجماع الولد تحملـــه الأمّ في أحشائها متدرّجا من النّطفة، ويكون الحمل عندها خفيفا لا يعيق المرأة ولا تخفل بأمره في أوّل اللّقاح حتى إذا تدرّج الجنين في الأطوار التي بيّنها الله

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ٨/٢١٠.

في سورة المؤمنون وقال بعدها: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٤). عندئذ يكون خلقا سويًا يتحرّك وينمو فيثقل ويتهيأ للوضع، وفي هذا الطّور حيث يكون الوالدان بين الخوف والرّجاء من سلامة المولد وانفصاله عن أمّه طبيعيا، يتّجهان إلى الرّبّ اللّطيف بعباده أن يهب لهما ولدا صالحا، أي نافعا لهما، أي الصّلاح بالمعنى المتعارف عليه عند الوالدين لا بمفهوم الحقّ والهدى.

والدّعاء لله في الشّدة مما جُبل عليه الإنسان عند الضّيق والشّدة، ويصدق ذلك على المشركين العرب، إذ أنهم يعترفون أن الله هو خالقهم، فهم في دعائهم إلى الله يتعهّدون له بالشّكر لنعمته بما يستلزمه الشّكر من العبودية لله ونفي الشّركاء عنه.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: والإنسان إذا تجرّد عن الإيمان الصّحيح فإنّه يعود إلى كفره وجحوده متى تحقّق له مراده كما تعبّر عنه هذه الآية الكريمة، وكما وصفه الله تعالى في سورة العاديات: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ، وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾. (٦-٨).

وفي معرض التّعجيب من أمر الوالدين الدّاعين لله في وقت الشّدة، أن يصدر منهما هذا الموقف المجحف في حقّ الله بعد أن حقّق لهما طلبهما في صلاح الولد. فإذا بهما بعد الحصول عليه قد جعلا لله شركاء في إعطائه ذاك، أو في ما أعطاه لهما بأن يكون ذلك الولد سببا لوقوعهما في الشّرك، لأنّ للشرك الخفي كثير من الصّور، وإن كانت لا ترقى إلى الشّرك العلني الظّاهر، فإنها مزالق خطيرة قد تمسّ من عقيدة المؤمن إن لم ينتبه، ولعلّ أشدّها فتنة للناس أن ينشغل الوالدان بفرط حبّ ولدهما عن ذكر الله فيحبّانه أكثر من حبّهما لله، وتعالى الله وتنزّه عن كلّ

شـــريك. وجمـــع الضّمير في فعل: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بعد صيغة التّثنية ليتناول الوالدين وكل من يتناسل من ذريتهما.

﴿أَيُشْـــرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ، وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾:

تسفيه وتفنيد لرأي المشركين والاستفهام للإنكار والتّوبيخ، وصيغة المضارع لـــتجدّد ذلـــك الشّرك منهم، ويردّ عليهم بانتفاء الخالقية عن تلك الأصنام، لأنها خصوصـــية لله، وهـــم يعترفون بذلك بأن الله هو خالقهم وخالق كلّ شيء، بل الخلـــق يقع عليهم، فكيف يتصور الخلق من مخلوق؟. قال تعالى مبيّنا منتهى العجز في تلـــك الآلهـــة المعـــبودة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجْـــتَمَعُواْ لَـــهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ (الحج:٧٣). فإذا انتفت الخالقية عن هذه المعبودات الباطلة فإنها أعجز من أن تحقّق نصرا لمريديها وعابديها، بلـــه أن تنصـــر نفسها إذا أذاها غيرها بكسر أو تخريب أو سرقة ما يقدّم لها من قرابين.

وبما أن هذه المعبودات الباطلة قد تكون مخلوقات حية فقد عبّر عنها بصيغة العقلاء، ومن عادة العرب أن يستنصروا بتلك الأصنام توهّما منهم أنها تقوى على ذلـــك: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لاَ يَتْبَعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾.

يتعـــيّن المخاطـــبون في هـــذه الآية المعطوفة على ما قبلها بتحديد الجمل المعطوف عليها، وفي ذلك احتمالان:

أ)- يجوز العطف على قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً﴾، زيادة في الإنكـــار عـــلى المشـــركين، فيكون الخطاب موجها إلى الرّسول والمسلمين، بأن

٤٨٦.

دعوتهم المشركين إلى الهدى لا تجدي نفعا في رجاء اتّباعهم للدعوة.

ب)- ويجـوز أن يكون العطف على جملة الصّلة في قوله: ﴿لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، فيكون المشركون هم المخاطبين على أسلوب الالتفات من ضمير الغيـبة في شأنهم إلى الخطاب. والمعنى أن هذه المعبودات الباطلة لا تسمع دعاءكم فكيف ترجون منها الاستجابة إلى ما تدعون، فسيّان دعاؤكم لها أم صمتكم. قال صـاحب المنار: " فالتّعبير بالوصف: ﴿أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ لإفادة كون إحداث الدّعاء واستصحاب الحالة الثّابتة قبله واستمرارها سواء".[1]

ونظـير هذا الوصف للأصنام في انتفاء الحياة وعجزها عن الاستجابة والنّفع قـول الله تعالى في سورة النّحل: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٢٠-٢١).

والله أعلم

الدعاء لغير الله، وكون الأصنام دون عابديها

أ)- النّص:

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ٩/٥٢٦.

﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾: العبد: أصله هو المملوك لسيّده، ضدّه الحرّ. وقد أطلق على المخلوق عامّة، والمشهور أنّه لا يطلق إلا على المخلوقات الآدمية. ﴿فَادْعُوهُمْ﴾: الدّعاء هو النّداء لدفع الضرّ أو جلب النّفع يوجّهه الدّاعي إلى من يعتقد أن له سلطانا يمكنه من أن يجيبه. ﴿يَبْطِشُونَ بِهَا﴾: البطش: الأخذ باليد بقوة، والإضرار باليد بقوة. ويجيء مضارعه بالكسر والضّم. فقرأه الجمهور بالكسر، وقرأه أبو جعفر بضمّ الطّاء. ﴿كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾: الكيد هو الإضرار بالغير في صورة ماكرة، حذفت منه "ياء" المتكلم في قراءة الجمهور غير أبي عمرو. وأما "تنظرون" فمعناه تمهلوني، قرأه الجميع بحذف "الياء" أيضا إلا يعقوب فقد أثبتها. ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾: الوليّ هو النّاصر والكافي والمتوليّ لأموري. ﴿إِلَى الْهُدَىٰ﴾: معنى الهدى هنا ما فيه صلاح ونفع للمدعوّ.

ج)- البيان والتفسير:

تركيز كلمة التّوحيد في ذلك المجتمع الجاهلي عملية شاقة تحتاج إلى جهود مضنية وإلى دعوة متكررة بمختلف الأساليب. ولذلك جاءت هذه الآيات لتأكيد مضمون الآيات السّابقة في نفي أيّة صفة حيوية عن الأصنام، بله صفات الألوهية من الخلق والإبداع. فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

الخطاب للمشركين عبدة الأوثان، صُدّر بحرف التّوكيد على مقتضى حالهم من فساد التّصوّر في تقديس تلك الآلهة الباطلة واعتبارها أرفع شأنا منهم. والمماثلة المذكورة: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ إمّا للتهكّم والاستهزاء، بإنزال الجمادات منزلة الأحياء العقلاء، وإمّا لكون تلك الأصنام رموزا لمعبودات عاقلة عبدوها من دون الله كالملائكة والأنبياء والصّلحاء والزّعماء. ولكن المشركين بطول توجّههم بالدّعاء لها فقد نزّلوها بمنزلة ما وضعت لأجله، أو هي مماثلة في مطلق المخلوقية مشاكلة دون مراعاة للحياة والعقل. فتفرّع عن ذلك أمر الله التّعجيزي للمخاطبين إن هم دعوا تلك الأصنام أن تستجيب لدعائهم.

والدّعاء مخّ العبادة كما جاء في الأثر، يتوجّه به المؤمن لمن يملك القدرة على الاستجابة، فهل في مقدور تلك الأصنام العاجزة أن تستجيب؟ فثبت بذاك عجز المشركين وثبت كذبهم في ما يدّعون من قدرة تلك الآلهة في تحقيق ما يرغبون بقوة ذاتها أو بكونها شفيعة عند الله لهم ليحقق لهم ما يريدون كما يقولون عنها. ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (يونس:١٨). وإذ تمّ عجزهم في إثبات المماثلة انتقل إلى بيان أن تلك المعبودات هي أحطّ منزلة من المخلوقية البشرية فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

الاستفهام للإنكار، وقد جاءت هذه الجمل بعده لتؤكد مضمون ما تقدم قبلها من نفي الفاعلية والاستجابة عن الأصنام لإثبات عجزها، وذكرت جوارح أربع، وهي الأرجل والأيدي والأعين والآذان. وهي المعهودة في خلقة الإنسان للسعي والكسب، وإذا انتفى وجود هذه الجوارح للأصنام وجودا حيويًا تنتج عنه الحركة والسّعي لجلب النّفع ودفع الضّرّ، فهي -إذن- أدنى منكم شبهًا ومماثلة، بل تفضلونها أنتم بما أودع الله فيكم من الحركية العضوية والقوة الفكرية، فلماذا

تلتجئون إليها تستنصرونها وتستنجدونها وهي لا تملك لنفسها بل بله غيرها نفعا ولا ضرًا. ثم تأبون استجابة من يدعوكم إلى الهدى -وهو بشر مثلكم- خبرتموه في الصّدق والأمانة؟.

ويلاحظ غياب الوصف الوجداني لتلك الأصنام بذكر القلوب لها مثلا، لأنّ ذلك لا يمكن أن يتجسّد ماديًا في تصوير تلك الأصنام على الصّور الآدمية كالجوارح المذكورة؛ مما ينمّ عن سطحية وسذاجة في التّصوّر البدائي الذي لا يتعدى نطاق المرئيات المادية.

﴿قُلُ ادْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴾: إنها دعوة الرّسول إلى التّحديّ لأولئك المأفونين في تصوّراتهم والمتحجّرين على معتقداتهم البالية، أن يبادروا بمواجهة الرّسول بما هدّدوه به من الأضرار التي تلحقه من آلهتهم إن لم يكفّ عن شتمها وسبّها. وللمبالغة في التّحديّ جمع الأمر والنّهي في قوله : ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴾، لأنّ الرّسول واثق من حقّ دعوته، ومن رعاية الله له، وهو ساخر من سفاهة أحلام أعدائه في استنصارهم بتلك الجمادات، ولتأكيد تعجيزهم عبّر بقوله: ﴿فَلاَ تُنظِرُونِ﴾ لاستعجال ذلك الكيد الذي يتوهّمونه في معبوداتهم على أن لها تدبيرًا خفيًا في إلحاق الضّرر بكلّ من سخر منها. فما هي دوافع الرّسول لمثل هذا التّحديّ السّافر ؟، ومن هو نصيره في تلك المواجهة العنيفة؟، إنه الرّبّ القويّ العزيز: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

ومن كان الله وليّه فإنه في منعة من مكائد النّاس، والتّأكيد بـــ"إن" لردّ ذلك الإنكار الذي يتركّز في معارضة هؤلاء على ارتيابهم في أمر نبوءة الرّسول. ولذا جاءت صلة الموصول: ﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ لتبطل دعواهم في ذلك الارتياب لإثبات نزول الكتاب المعهود عندهم -وهو القرآن الكريم- أنه نزل من عند الله حقًا

وصدقًا. وهو الذي يتولّى حماية الصّالحين من عباده، أولئك الذين استقاموا على هدى الله وصلحت نفوسهم بابتعادهم عن الزّيغ والضّلال. وفيه تعريض بالمشركين بأنهم غير صالحين بفساد عقائدهم وأعمالهم: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

عطفت هذه الجملة على ما قبلها من إعلان ثقة الرّسول بربّه لتأكيد عجز الأصنام بافتقارها إلى من ينصرها بله أن تكون ناصرة لغيرها. وليت هؤلاء الذين يدّعون أنهم على ملّة إبراهيم عليه السلام ليتهم يذكرون ما فعله إبراهيم بأصنام قومه حين حطّمها ثم تحدّاهم باستنطاقها لتعرّف لهم بفاعل ذلك إن كانت تنطق حقا.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾:

إكمال لبيان منتهى العجز في تلك الأصنام لأنّها لا تسمع ولا ترى، وإن تخيّل الرّائي قوّة الإبصار في أعينها البارزة المتخذة لها صناعيا، فأنّى لها أن تهب هداية أو نصرًا لعابديها، فحصل من نفي السّمع والبصر عنها تمام عجزها وعدم إدراكها، لأن الحركة والإدراك عند المخلوقات هما من أسرار الحياة، وهي من خصوصية الخالق العظيم، لا تتأتى للصناعة البشرية. ويقول صاحب المنار: "وفي الآية وجه آخر ذهب إليه بعضهم، وهو أن الخطاب فيها للمؤمنين والرّسول في مقدمتهم بناء على أن الكلام في الأصنام قد تمّ فيما قبلها وعاد الكلام في عابديها".[1]

قلت: إن هذا الاحتمال لمعنى الآية هو أوضح في الآية السّابقة: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لاَ يَتَّبِعُوكُمْ﴾، أمّا هنا فالأرجح هو التّفسير الأول.

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ٥٣٢/٩.

أصول الآداب والتشريع، ومقاومة الشياطين

أ)- النص:

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: العفو: يُطلق في الأصل على معان متقاربة، يطلق على خالص الشيء وجيّده، وعلى الفضل الزائد فيه أو منه، وعلى السّهل الذي لا كُلفة فيه، وعلى ما يأتي بدون طلب ولا إلحاف ويقال: "عفت الرّياح الأثر" أزالته، ومنه العفو عن الذنب. ﴿الْعُرْفِ﴾: مرادف للمعروف. وضدّه: النكر. والتعريف فيه يفيد الاستغراق. ﴿خُذِ﴾: والأخذ: تناول شيء للانتفاع به أو لإضراره. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾: والجهل هنا يراد به الطّيش والسّفاهة ضدّه: الحلم والرّشد. قال الشّاعر معبّرا عن الجهل عند العرب:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: النزغ: المراد به هنا يترغنك "نازغ" من إسناد الفعل إلى المصدر. والنّزغ: النّخس والغرز وفي معناه الفسخ "أي إصابة الجسد برأس شيء محدّد

٤٨٦.

كالإبرة والمهماز". وأكثر ما يستعمل في وسوسة الشّيطان. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾: أي ألجأ إلى الله وتوجّه ليكفيك شرّه. ﴿مَسَّهُمْ طَآئِفٌ﴾: المسّ يستعار للإصابة. والطّائف أو الطّيف هو الذي يمشي حول المكان ينتظر الإذن له وأطلق هنا على الخواطر النّفسية التي تدفع إلى فعل شيء نهى الله عنه. قرأه الجمهور: ﴿طَآئِفٌ﴾ بألف بعد الطّاء وهمزة بعد الألف. وقرأه ابن كثير وعمرو والكسائي ويعقوب: "طيف" بدون ألف. والطّيف: الخيال الذي يأتيك في النّوم. ﴿يَمِدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾: أو يعاونونهم في الشّرّ والضّلال. قرأ نافع: ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾: بضم الياء وكسر الميم من الإمداد وقرأه البقية: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ بفتح الياء وضمّ الميم، من مدّ الحبل يمدّه إذا طوّله. ﴿ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾: من الإقصار، الإمساك عن الفعل مع القدرة على المزيد. ﴿لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا﴾: من الاجتباء، وهو الاختيار. أي هلاّ اخترت آية -أي معجزة- فطلبت ربك أن يعطيكها. ﴿هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾: جمع بصيرة، وهو ما به اتّضاح الحق. وتطلق البصيرة على القوة المدركة في الإنسان والجانب الوجداني اليقظ في نفس المؤمن.

ج)- البيان والتّفسير:

لقد كانت الآيات السّابقة تكريسًا لعقيدة التّوحيد بأسسها الثّلاثة: الإيمان بوحدانية الله، وصدق النّبوءة، والإيمان باليوم الآخر. إذ انتهى السّياق بعد تلك الجولة الطّويلة من أول السّورة، انتهى إلى فضح ضلال المشركين وفساد معتقدهم وتسفيه آلهتهم، وإن الله تعالى يتولّى الصّالحين من عباده، ولا مولى للمشركين إذ أن فاقد الشّيء لا يعطيه، مما يرجونه في تلك الأصنام من النّصر والتّأييد. وفي مواجهة هؤلاء العتاة المتكبّرين تأتي هذه الإرشادات الإلهية لرسوله، ومن خلاله للمؤمنين لتضع منهجية السّلوك الحكيم في معاملة النّاس وتبيّن أخلاقيات الدّعوة في

التذكير والإرشاد فقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾:

إنها أوامر ثلاثة تضع منهجية التعامل الرشيد وتقرر القواعد الشرعية للعلائق الاجتماعية مركزة على توخي السماحة واللين، وعلى التبشير والتآلف:

أ)- ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: وللعفو صور كثيرة ومعان متقاربة أوردها المفسرون وهم يتتبعون استعمالات اللفظ في القرآن الكريم، وهي تصبّ في أخذ الناس باليسر والصفح وعدم إعنائهم بالتشدد والغلظة، سيما في حالات التمرد والعصيان كشأن المشركين مع رسول الله وأصحابه. فقال جلّ من قائل بالنسبة لمعاملة الخصوم بصفة عامة: ﴿فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ (البقرة:١٠٩).

وقال في شأن الأولاد والأزواج المتمردين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التغابن:١٤).

وقال في شأن معاملة الأصحاب واستبقاء مودتهم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران:١٥٩).

والعفو من صفات الله الحسنى التي كان الرسول يدعوه بها كما في دعائه المأثور: «**اللّهم أنت العفوّ تحبّ العفو فاعف عنّي**».[1]

١- رواه الحاكم في المستدرك من حديث عائشة، حديث ١٩٤٢، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ١/٧١٢؛ ورواه الترمذي من حديث عائشة أيضا، كتاب الدعوات، حديث ٣٥١٣، وقال: هذا حديث حسن صحيح. ولفظه: «عفو كريم».

وبما أنّ هذه الصّفة الخلقية الكريمة تتطلّب جهدا نفسيا في تمدئة سورة الغضب والمشادّة مع الخصم فقد جاء التّعبير القرآني: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ بما يدلّ على تشتّت النّفس الجموحة بين عدّة خيارات عاطفية وأمام مواقف متباينة، تقتضي الميل وحمل النّفس إلى توخّي السّماحة والسّهولة مع الطّرف الآخر، ويظهر فضل ذلك أكثر إذا كان العفوّ يتّصف بالقوة والقدرة على الانتقام.

ب)- الأصل الثّاني: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، والعرف والمعروف أصل عظيم اعتمدته الشّريعة في كثير من أحكامها، وهو كلّ جميل من الأفعال مما تعارف عليه النّاس من الخير واستحسنته العقول السّليمة، ولذا فهو جامع لكلّ ما يلتزم به المؤمن من طاعة الله والتّقرب إليه، ومن البرّ والإحسان لخلقه، وضدّه المنكر، وفيه معنى المعرفة، فيكون ضدّه المجهول. وهو من أصول الدّعوة الإسلامية التي تجب على الأمّة جمعاء وجوبًا كفائيًا تقوم به الجماعة المؤهّلة لذلك، كما أمر الله بذلك في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:١٠٤).

ج)- الأصل الثّالث: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، السّفاهة والجهل من أقبح ما يتّصف به السّفهاء من النّاس. ومن نكد الدّنيا على الحليم الحرّ أن يُغرى به السّفهاء فلا يستطيع هو مجابتهم بالمثل كما قال الشّاعر العربي:

ومن نكد الدّنيا على الحرّ أن يرى عدوًا له ما من صداقته بدّ

وفي مثل هذه المواقف التي قد تمليها على الإنسان الحرّ الظّروف المعيشية، فلا مفرّ له من مجابهة السّفاهة بالحلم، غير أن مجانبة الاحتكاك بالسّفهاء هي أسلم لتحاشي الاصطدام معهم. ومثل هذه الأخلاق العالية لم يكن العرب الجاهليون يتعاملون بها في مجتمعهم الذي يطاله العنف والظّلم حتى قال قائلهم:

وإذا بليت بظالم كن ظالما .....

بينما يجيء الإسلام بتربيته الحكيمة فيقول لهم: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤). ويقول: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (الشورى:٤٣). ثم إن هناك دوافع نفسية قد تحرّك الإنسان إلى الانتقام لنفسه، وتملي له في الغضبية ليتحرّش بغيره، حتى لكأنها نزغات تستثيره للشرّ، وقد عبّر عنه القرآن بنزغ الشّيطان فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقد تقدم في أوائل السّورة قصة النّشأة الأولى، وكيف تمرّد الشّيطان عن أمر ربّه بعدم سجوده لآدم، وكان ذلك سببًا لطرده من رحمة الله، فاقتضت حكمته تعالى أن تستحكم العداوة بين الجنسين، أي بين بني آدم وبين الشّيطان وذريته، وهم من المخلوقات الخفية نحسّ بآثار وسوستها في نفوسنا ولا نراها، ولها مسارب إلى خبايا النّفوس تحرّك فيها داعية الشّرّ، ويتّقيها المؤمن بذكر الله فيستجير به من شرّ الشّياطين، لأنّ الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء. وهكذا يصبح المؤمن محصّنا في خارج نفسه من شرّ السّفهاء ومن داخلها من الشّياطين، وهذا التّحصّن توضّحه الآية التّالية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

وفيها تأكيد الأمر بالاستعاذة على اعتبارها ملجأً حصينًا للمؤمن المتّقي، لأنّ الإنسان مهما تكن عزيمته في منازل الصّلاح والتّقوى فإنه معرّض لتلك الوساوس تحرّش به من حين لآخر، كما ورد في أحاديث تعرضت لهذه الحقيقة الوجودية، منها ما رواه الإمام مسلم عن عائشة وابن مسعود أن النبي قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينه من الجنّ. قالوا وإياك يا رسول الله؟؟ قال: وإياي إلا**

أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير».[1]

ويؤيّـده قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (١١٢).

فمجـاهدة الشّيطان والتّيقظ لمكايده واجب حتمي أمر الله به رسوله ومن خلالـه أمّته من المؤمنين المتّقين الذين يتوفرون على الأوصاف المذكورة في أوائل البقرة.

والتّعبير بـ"إذا" الفجائية، ثم اختيار صفة الإبصار: ﴿مُبْصِرُونَ﴾ يدلّ على أن مـسّ الشّـيطان إذا ما انتاب المؤمن المتّقي فإنه يضرب على قلبه ضبابية تغشي بصره عن رؤية الحق لحينها، غير أنّ ذكر الله سرعان ما يزيح تلك الضّبابية فتتضح الـرّؤيا فلا يكاد ينحرف عن الصّراط السّوي. وقد يكون مجال الرّؤيا أشدّ ضبابية عـندما يضـعف وازع التّقوى في النّفس، حتى ينحاز صاحبه إلى حزب الشّيطان فيصـيبه من وسوسته على قدر غفلته، وقد تنطمس أنوار الهداية والتّقوى في القلب حتى يصبح في عداد الشّياطين صداقة وأخوّة. فهؤلاء قال تعالى فيهم: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يُمِدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾.

والضّمير في: ﴿إِخْوَانُهُمْ﴾ يعود إلى ما دلّ عليه السّياق من المتحدّث عنهم -وهـو المشركون- فيتم بذلك التّقابل بين الأضداد، وهذه الآية هي في معنى الآية المـتقدمة مـن سورة الأنعام: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (١١٢).

١- رواه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه، حديث ٢٨١٤.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾:

ومن إغواء الشّياطين وإضلالهم لإخوانهم من المشركين أن هؤلاء يمارون الرّسول في ما يوحى إليه من الآيات القرآنية إذا تأخّر نزولها فيطلبون أن يفتعلها من عند نفسه، لأنهم لا يصدّقون بأنها وحي منزّل من عند الله، أو المعنى من الآية أنهم لا يقتنعون بمعجزة القرآن، فهم يطلبون من الرّسول آيات كونية تصدّقه في ما يقول. وقولهم: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾: هلا اخترت آية وطلبتها من الله فيلبّي طلبك؟.

والجواب هو أن يقول الرّسول لهؤلاء: ما أنا بمبتدع ولا بمقترح على ربّي ما يتزلّه عليّ من الآيات، بل أتّبع ما يوحى إليّ من ربّي ولا أتعجّل نزوله. أو: ما أنا إلاّ بشر يوحى إليه، لست بقادر على الإتيان بالمعجزات الكونية.

ثم جاء هذا التّذييل الذي ينوّه بشأن القرآن ليربط آخر السّورة بأولها، فقال جلّ من قائل: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الإشارة إلى القرآن، أو إلى كلّ ما تقدّم في السّورة، كما يجوز أن تكون هذه الجملة من مقول القول المتقدم، أو منقطعة عمّا قبلها انتقالاً من غرض إلى غرض. والإخبار بأن القرآن بصائر وأنها من الرّبّ العظيم والإضافة تشريفية للمؤمنين.

واختير الجمع "البصائر" ليشمل كلّ مناهج الحقّ والهدى التي ينتفع بها المؤمن، ويكون ذلك سببًا لرحمة الله لهم في الدّنيا والآخرة. ولا ينتفع به غير المؤمنين لأنهم منشغلون عنه بتمسّكهم بالأوهام والضّلالات، لاهون بطلب خوارق المعجزات، والله أعلم.

آدابُ تلاوة القرآن وسماعه وطريقة الذكر

أ)- النص:

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَاسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾: الاستماع: الإصغاء بعناية وقصد، والإنصات السكوت لأجل الاستماع والإحاطة بكل ما يسمع. ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾: التضرّع: التذلّل وإظهار الضراعة أي الخضوع والذلّة. ﴿خِيفَةً﴾: الخيفة: اسم مصدر للخوف. ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾: الغدوّ مصدر غدا يغدو ذهب غدوة وهو أول النهار من الفجر إلى طلوع الشمس، وتوسّع فيه حتى استعمل بمعنى الذهاب مطلقا بمقابلة الرواح وهو الرجوع عشية. ﴿وَٱلْـَٔاصَالِ﴾: جمع أصيل وهو العشي من العصر إلى غروب الشمس. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾: أي الملائكة المقرّبون.

ج)- البيان والتفسير:

وإذ تقدمت الإشارة إلى القرآن والتنويه بشأنه العظيم في التذكير والهداية أمر الله تعالى بحسن تلاوته والإنصات إليه، مما يضمن نيل الرحمة ويحصّن من نزغ الشيطان فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ﴾.

عطفت الجملة على ما قبلها، فهي مثلها في كونها من جملة مقول القول الذي أمر رسول الله أن يقوله للمشركين، أو هي على احتمال انقطاع ما قبلها فتكون عامّة.

والقرآن الكريم كانت بلاغته وفصاحته تسحر نفوس سامعيه، فأصبح مصدر قلق للمشركين، إذ غزاهم بسحره وبيانه في عقر ديارهم يجتذب إليه الأسماع فيولع بسماعه الأهل والأولاد، وما يملك الكفّار أن يتحاشوه إلاّ باللّغو والصّخب كما بيّن الله ذلك في قوله: ﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت:٢٦). وهو المعجزة الخالدة لرسول الله ﷺ لا تنقضي أسراره وعجائبه، وقد تحدّى الله به البشر أجمعين أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

ولكي يتحقق الغرض منه في التّأثير الرّوحيّ لدى المؤمنين أمر الله تعالى بحسن تلاوته فقال: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾ (المزمل:٤). وفي هذه الآيات يأمر بحسن الاستماع والإنصات إليه، بحيث يستحضر المؤمن جلال الله وعظمته حتى لكأنه يستمع إلى كلامه مباشرة كما كان بعض الصّحابة يعبّرون على ذلك بقولهم: "سمعت الله تعالى يقول: كذا وكذا". لأن حسن الاستماع والإنصات مدعاة إلى تدبّر معانيه والتّجاوب مع إيحاءاته وإرشاداته.

والأمر في الآية يدلّ على الوجوب غير أن العلماء قد اختلفوا: هل على عمومه في كل الأحوال، أم هو لحالة دون حالة، نظرا لما يكون في بعضها من المشقة والحرج؟ فالجمهور على أنه واجب بقراءة الرّسول في وقته لأن الله أمره بالتّبليغ لعامّة النّاس عندما قال له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾

٤٨٦.

(المائدة:٦٧). وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (التوبة:٦). ثم هو واجب في الصّلاة وخطبة الجمعة بتأكيد.

غير أن النّاس درجوا على تلاوته في المناسبات يتجمع لها النّاس أفراحًا وأتراحًا، أو هم منشغلون بأعمالهم في مراكز أعمالهم وحتى في مراكبهم عند السّفر، فالواجب يقتضي من المؤمن أن يراعي حرمة القرآن عندما يُتلى فلا ينشغل عن سماعه بشغل الدّنيا. أما إذا انشغل بلغو وصخب فإنه يخشى أن يتصف بما ندّد القرآن به على الكفار.

ولما يقع من الحرج من وجوب الاستماع إلى القرآن في بعض الأحوال رأى العلماء أن الأمر للاستحباب والنّدب في غير الصّلاة وخطبة الجمعة، ولكلّ من القارئ والمستمع بخشوع وتدبّر أجره عند الله، وتستحسن القراءة بترتيل وتنغّم دون ما تكلّف ولا تطريب لما رواه أبو هريرة أن الرّسول قال: «**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصّوت يتغنّى به**».[1]

ولما كان الاستماع إلى القرآن يحرّك الوجدان ويذكّر بعظمة منزّله عطف عليه الأمر بذكر الله عامّة في كل الأحوال فقال: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ**﴾.

الخطاب للرسول ومن اتّبعه، فيه إرشاد لآداب الذّكر بأن يكون معتدلا متبعثا من أغوار النّفس وسويداء القلب مستشعرا جلال الله تضرّعا ورجاء لمثوبته ومغفرته ورضاه وخوفا من سخطه وعذابه.

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين لصوت بالقرآن، حديث ٧٩٢.

ولما كان أنسب الأوقات للذكر هو أول النّهار وآخره خصّهما بالذّكر كما ورد ذلك في آيات أخرى مثل قوله تعالى:

أ)- ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ﴾ (هود:١١٤).

ب)- ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ (طـه:١٣٠)

ج)- ﴿يَـا أَيُّهَـا الذِيـنَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ اللهَ ذِكْراً كَثِيراً، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الأحزاب:٤١-٤٢).

وجديـر بالمؤمن أن يفتتح نهاره بذكر الله ويختمه به تعظيما لله واستعانة به لينصـرف إلى شغله أو إلى نومه وقلبه مطمئن بذكر الله. ولا يعني ذلك أن يكفّ عـن ذكره في غير ذينك الوقتين، بل المقصود أن يتزوّد بذلك الذّكر حتى لا ينسى الله في غمـرة عملـه بين ذلك. بل يذكره حتى وهو في غفوة نومه حين يستفيق ويتقلـب في مضـجعه فـيذكر ربّه بالأدعية المأثورة: "اللّهم لك الحمد أنت نور السّماوات والأرض"...إلخ.

وللنهي عن الغفلة في ما بين طرفي النّهار من الأوقات جاء قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾.

ويحـتاج الإنسان إلى القدوة الحسنة التي تقوّي عزيمته في الحصول على تلك المـبرات، وذلك بأن يتشبّه الإنسان بكرام الخلق على الله من أصفيائه فقال تعالى: **﴿إِنَّ الذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ، يَسْجُدُونَ﴾**.

وهـذه العندية تشريفية، ثم إن الإضافة إلى كلمة "الرّب" دون لفظ الجلالة تـدلّ عـلى كمال الرّعاية من الله لهذا الصّنف من الخلق الذي يجدر بالمؤمن أن يستشرف مثلهم إلى منازل القربى عند الله.

ويـــرجّح العلماء أنهم حملة العرش والحافّين به، أو هم مطلق الملائكة الكرام عـــلى اعتـــبار مقامهم عند الله بالنّسبة للبشر. وصفهم بما هو أهل لهم من التّسبيح والسّـــجود لله وحـــده كما يدلّ عليه تقديم الجار والمجرور، هو وصف تشريف وتكريم، ولكن الملاحظ أنه بدأ بنفي الاستكبار عن عبادة الله للتعريض بالمشركين الذين يأنفون السّجود لله تكبّرا وأنفة.

جعلنا الله من عباده المقرّبين ندين لعظمة الله ونحيا لعبادته، آمين.

والله أعلم

تمّت

سورة الأنفال مدنية وآياتها ٧٥

بين يديّ السّورة الكريمة:

سورة الأنفال مدنية، وهي السّورة الثّامنة في ترتيب المصحف الشّريف، سميت بسورة "الأنفال" من عهد أصحاب رسول الله، وذلك لورود اسم الأنفال في أولها، ولبيان حكم "الأنفال" أي الغنائم خلال آياتها، وتسمى أيضا سورة "بدر" كما روي ذلك عن ابن عباس ﷺ، وذلك بتعرضّها لبعض أحداث غزوة بدر الكبرى التي وقعت في السّابع عشر من شهر رمضان في السّنة الثّانية من الهجرة. وقيل: إنها السّورة الثّانية نزولا بالمدينة المنوّرة بعد سورة البقرة، وتعدّ السّورة التّاسعة والثّمانين في عداد نزول سور القرآن الكريم في رواية جابر بن زيد عن ابن عباس ﷺ أجمعين.

وعدد آياتها في عدّ أهل المدينة وأهل مكة وأهل البصرة ستّ وسبعون، وفي عدّ أهل الشّام سبع وسبعون، وفي عدّ أهل الكوفة خمس وسبعون. وتعدّ غزوة بدر وما اكتنفها من أحداث جرت للجماعة المسلمة، تعتبر كلّها من أسباب نزول هذه السّورة الكريمة، جاءت لبيان الحلول فيها واتخاذ التّدابير اللاّزمة عند الحالات الحربية، سواء ما يجب على المؤمنين فيما بينهم وعلى قيادتهم رسول الله ﷺ وفيما بينهم وبين أعدائهم من المسالمين والمحاربين.

وأما الأغراض التي عالجتها السّورة فنوردها مما لخصّه الإمام ابن عاشور بنصّها، إذ يقول: "ابتدأت ببيان أحكام الأنفال وهي الغنائم وقسمتها ومصارفها، والأمر بتقوى الله في ذلك وغيره، والأمر بطاعة الله ورسوله في أمر الغنائم وغيرها، أمر المسلمين بإصلاح ذات بينهم، وأن ذلك من مقوّمات معنى الإيمان الكامل. ذكر

الخروج إلى غزوة بدر، وخوفهم من قوة عددهم وما لاقوا فيها من نصر، وتأييد من الله ولطفه بهم وامتنان الله عليهم بأن جعلهم أقوياء، ووعدهم بالنصر والهداية إن اتقوا بالثبات للعدوّ والصبر. الأمر بالاستعداد للحرب، والأمر باجتماع الكلمة والنهي عن التنازع، والأمر بأن يكون قصد النصرة للدين نصب أعينهم. وصف السبب الذي أخرج المسلمين إلى بدر وذكر مواقع الجيشين وصفات ما جرى من القتال. تذكير النبي ﷺ بنعمة الله عليه إذ أنجاه من مكر المشركين به بمكة وخلّصه من عنادهم وأن مقامه بمكة كان أمانا لأهلها، فلما فارقهم فقد حقّ عليهم عذاب الدّنيا بما اقترفوا من الصدّ عن المسجد الحرام. دعوة المشركين للانتهاء عن مناوأة الإسلام وإيذائهم بالقتال، والتحذير من المنافقين.ضرب المثل بالأمم الماضية التي عاندت رسل الله و لم يشكروا نعمة الله. أحكام العهد بين المسلمين والكفار، وما يترتب على نقضهم العهد، ومتى يحسن السلم وأحكام الأسرى. أحكام المسلمين الذين تخلفوا في مكة بعد الهجرة وولايتهم وما يترتب على تلك الولاية" اه.[1]

وأحسن ما قيل في المناسبة بين سورة الأنفال وسورة الأعراف أنّ الأولى بيّنت حال الرّسول مع قومه في مسار الدّعوة الإسلامية، والثّانية عمّمت في بيان أحوال أشهر الرّسل مع أقوامهم، وفي كلتا السّورتين تثبيت لقلب رسول الله ومساندة له في دعوته الكريمة.

ولنأخذ الآن في تفسير آيات السّورة نصًا بعد نصّ وبالله التّوفيق.

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٩/٢٤٧.

السّؤال عن حكم الغنائم وبيان أوصاف المؤمنين

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾: السّؤال حقيقته الطّلب، ويتعدّى بنفسه فيكون لطلب إعطاء الشّيء، ويتعدّى بـ"عن" فيكون لطلب معرفة المجرور به. ﴿الأَنفَالُ﴾: جمع نَفَل، بالتّحريك، وهو مشتق من النّافلة، وهي الزّيادة في العطاء، وأطلقها العرب على الغنائم في الحرب، ويقال: نفلني كذا، أي أغنمني. ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: ذات البين: الصّلة التي تربط بين شيئين، والإصلاح: جعل الشيء صالحا، وإصلاح ذات البين يكون بالوفاق والتّعاون والمؤاساة. يقول الإمام ابن عاشور: "واعلم أني لم أقف على استعمال "ذات البين" في كلام العرب، فأحسب أنها من مبتكرات القرآن". ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: الوجَل: خوف مع فزع لاستعظام الموجول منه. يقال: وجِل يوْجَل، من باب فرِح، قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ

عَلِيمٍ﴾ (الحجر:٥٣). ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾: زيادة الإيمان: قوة الإيمان في نفس الموقن بدفع الشّك العارض للنفس. ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: والدّرجة في حقيقتها ما يتخذ من بناء أو غيره لإمكان الصّعود إلى مكان مرتفع عن الأرض، وهي مستعارة هنا لعناية الله ببعض من يصطفيهم من خَلقه، فتكون لهم المنازل العالية في الجنة. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: الرّزق: اسم لما يُرزق أي يُعطى للانتفاع به، وكريم: بمعنى نفيس في صنفه أو نوعه.

ج)- البيان والتّفسير:

كان الجوّ الذي نزلت فيه سورة الأنفال بالمدينة المنوّرة جوًا مشحونا بالأحداث الطّارئة التي اكتنفت غزوة بدر الكبرى، كانت فيها للجماعة المسلمة شؤون وأيّ شؤون، وهم يواجهون أول تحدّ لأعدائهم منازلة ومقارعة في ميدان المعركة. كان منهم ذلك التّردّد وتلك الحيرة في الخروج إلى مصادرة القافلة القرشية، وقد ازداد تحرّجهم عندما انفلتت عنهم فأمرهم الرّسول واستشارهم في مواجهة أعدائهم بوادي بدر. ثم ما كان منهم بعد النّصر والغلبة من خلاف في موقفهم من الأسرى، أيقتلونهم أم يقبلون منهم الفدية؟. ثم تنازعهم في أمر الغنائم كيف يقتسمونها ومن هم أولى بالاستفادة منها؟، إلى آخر تلك الشّؤون.

ولذلك افتتحت السّورة بجملة: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾، هكذا بصيغة المضارع مما يدلّ على تكرار السّؤال منهم. والمشكل المسؤول عنه هو كيفية اقتسام الغنائم، لأن لهم عادات متّبعة في اقتسامها في الجاهلية، فتخالف المقاتلون في شأنها، قال تعالى: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**.

وفي سبب النّزول روي عن ابن عبّاس أنه قال: لما كان يوم بدر ذهب

٤٨٦.

الشّبّان للقتال، وجلس الشّيوخ تحت الرّايات، فلمّا كانت الغنيمة جاء الشّبّان يطلبون نفلهم، فقال الشّيوخ: لا تستأثرون علينا، فإنّا كنّا تحت الرّايات، ولو انهزمتم لكنّا ردءًا لكم. واختصموا إلى النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾.

قلت: ليس بدعا للجماعة الإسلامية أن تختلف في أمر الغنائم، لأن الاختلاف هو منطلق التّغيير، علما بأن الرّسول ﷺ لم يتقدم منه قول في الغنائم قبل القتال كما أثبته "الجصّاص". وكثيرا ما يحدث ذلك الخلاف في بعض القضايا ممّا ألفه النّاس في الجاهلية، ولا يفصل الرّسول في شأنها إلا بوحي من الله، فتطرح القضية في شكل سؤال تكون الإجابة عنه من الله مباشرة، وهو أسلوب حكيم في مناهج التّربية الحديثة.

وقد اختلف اللّغويون والفقهاء في تحديد معنى "النّفل" إذ يتردّد المعنى بين ألفاظ ثلاثة استعملها القرآن وهي: النّفل، والفيء، والغنيمة في سورتنا هذه وفي سورة الحشر بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ (٧). ولبيان ذلك نثبت ما قاله الرّاغب قال: "النّفل قيل: هو الغنيمة بعينها، لكن اختلفت العبارة عنه لاختلاف الاعتبار، فإنه إذا اعتبر بكونه مظفورا به يقال له غنيمة، وإذا اعتبر بكونه منحة من الله ابتداءً من غير وجوب يقال له نفل. ومنهم من فرّق بينهما من حيث العموم والخصوص". إلى أن قال: "والنّفل ما يحصل للإنسان قبل القسمة من جملة الغنيمة، وقيل: هو ما يحصل للمسلمين بغير قتال وهو الفيء، وقيل: ما يحصل من المتاع قبل أن تقسم الغنائم، وعلى هذا حملوا قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾."[1]

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٩/ ٥٨٧.

إذن، المسؤول عنه في الآية هو حكم الأنفال لمن هي: للشبان أم للشيوخ؟ أم للمهاجرين أم للأنصار؟، وللمطلوب من السؤال جهتان محتملتان: حلّ أكلها والانتفاع بها، أو كيفية قسمتها وعمن ترجع إليه قسمتها. والجواب الإلهي يدلّ على أن المقصود هو الجهة الثانية، بأنّ قسمتها لله ورسوله يقسمها الرّسول بينكم كما أمره الله بمقتضى التفصيل والبيان الذي يأتي بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...﴾ (الأنفال:٤١).

وفي هذا الصدد يقول الفقهاء: للإمام أن ينفّل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس تحريضا على القتال وحسن البلاء، لما روي عن النبي ﷺ أنه قال يوم حنين: «**من قتل قتيلا فله سلبه**».[1]

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: فرّع على الجملة السابقة الأمر بتقوى الله، وإصلاح ذات البين، وإطاعة أوامر الله ورسوله.

والأمر بالتقوى في معالجة هذا المشكل مناسب في هذا المقام، إذ يدلّ ذلك على أن المسلمين ارتكبوا ما ينافي التقوى بوقوع النزاع بينهم. والتقوى هو جامع لطاعات، وتذكيرهم بها يستوجب الرّضى والقبول منهم بما حكم الله، وإن جاء على غير عاداتهم في الجاهلية. والتقوى هو الدّرع الحصين عن كلّ مخالفة تستوجب سخط الله، ومن أشدّها تشتيت الجماعة وإشاعة الفرقة.

ومن ثمرات التقوى عند حدوث خلاف: إصلاح ذات البين بعد فساده التنازع والتخاصم، ويرتكز ذلك الإصلاح على مقتضى ما أمر الله به، وذلك بنبذ

١- رواه البخاري من حديث أبي قتادة، كتاب أبواب الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب، حديث ٢٩٧٣.
٤٨٦.

الشّهوات والأغراض وإيثار التّعاون والوفاق.

والأمر بإطاعة الله ورسوله يستلزم الرّضوخ والإذعان لأوامر الله وأحكامه، والنّزول على بيان الرّسول فيها دونما تردّد ولا احتيال عليها.

ثم علّق الله تعالى هذه الأوامر الثّلاثة على الإيمان فقال تعالى: ﴿إن كُنتُم مُّومنينَ﴾، إذ أن الإخلال بواحد من تلك الأوامر هو إخلال بالتّصديق الإيماني، وتلك الصّفات هي جديرة بالمؤمن لا بغيره.

ولا ينافي صفة الإيمان ما قد يقع فيه المؤمن من مخالفة أو ذنب يتوب منه إلى الله ويرجع إليه: ﴿إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ، زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، الذينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

كثيرا ما يرسم القرآن الكريم إطار المؤمنين أو المتقين بذكر جملة من الصّفات التي تناسب المقام وتتلاءم مع السّياق.

وقد ركّزت الآية الكريمة على مفهوم الإيمان باستعمال أداة الحصر "إنّما" وبتكرار صفة "الْمُومِنُونَ" ثلاث مرّات، ثم التّوكيد في آخر الآية: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُومِنُونَ حَقّاً﴾. ولذلك كلّه معناه المقصود في تحديد مفهوم هذه الكلمة التي كثر فيها الجدل قديما وحديثا بين المتكلمين: أهي التّصديق القلبي وحده؟ أم هي اعتقاد بالجنان وإقرار باللّسان وعمل بالأركان؟.

ومهما يكن من أمر ذلك الخلاف فإن النّصّ يعطي مواصفات لهذا الصّنف من النّاس تتحدّد بها صورة المؤهلين لها في عالم الواقع كما يريدها الله تعالى، وهي:

أ) ـ ﴿إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: إنها حالة من الموجدة والحبّ

المصحوب بإجلال عظمة الله تهتزّ له الفرائص وتقشعرّ منه الجلود، ويصحب ذلك -غالبا- انسكاب دموع العين من خشية الله، وهي حالة تجلّ عن الوصف لأنها من الهبات اللّدنية لا يجدها كل مؤمن. قال عنها الشّاعر المتصوّف:

لا يعرف الشّوق إلا من يكابده ولا الصّبابة إلا مـــن يعانيهـــا

وقلب المؤمنين في حالتي الخوف والرّجاء يجمع بين الوجل والاطمئنان عندما يذكر الله فلا منافاة بينهما، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر:٢٣).

ب)- ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾: والإيمان بمفهومه الكامل، أي بكونه قولا وعملا، يزيد وينقص، ويبلى ويتجدّد، كما ثبت ذلك عن رسول الله. وتلاوة القرآن تنمّي ذلك الإيمان حين يتجاوب قلب المؤمن مع القرآن يتلوه في خشوع وتدبّر، ويتذوّق حلاوته. وأمّا المنافقون فقد حجبت عنهم تلك الإشراقات الرّبانية، فلا توجل قلوبهم ولا تهتز لذكر الله.

وفي زيادة الإيمان وردت عدة آيات في القرآن تثبت ذلك:

أ)- يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣).

ب)- وفي سورة التوبة يقول: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٢٤-١٢٥).

ج)- وفي سورة الأحزاب يقول: ﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا

مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ (٢٢).

ج)- ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: أي يتوكّلون عليه وحده بمقتضى قوّة إيمانهم بجلال الله وقدرته، وأنّه المتصرف والمدبّر للأمور، فهم لا يستعينون إلاّ به في ما ليس لهم به طاقة ممّا هو من وراء الأسباب المخوّلة للإنسان في تدبير أموره وكسب معاشه، ويُعتبر التّوكل على الله من أعلى مقامات التّوحيد.

د)- ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾: وإقامتها لا يكون بمجرّد أدائها كيفما اتفق كما يفعل المنافقون، بل هي الصّلاة المركّزة الخاشعة التّامّة بشروطها وأركانها وسننها، والتي تصل العبد بربّه صلة حبّ وإجلال وتعظيم، وتزكّي نفسه وتنهاه عن الفحشاء والمنكر.

هـ)- ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: أي من زكاة وغيرها من أنواع الصّدقات والقربات، لأنهم يعتقدون أن ذلك المال من رزق الله وقد استخلفهم فيه، فهم ينفقون منه سرًا وعلانية ابتغاء ما عند الله من الأجر، وسعيًا لتحقيق التّكافل الاجتماعي مما يزيل الأطماع والأحقاد.

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُومِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: إنّه الإيمان الحقّ في معايير الله تعالى، والذي يترتّب عليه الجزاء العادل، إنّه الدّرجات العليا عند الله، تتفاوت بقدر ما يكون عند المؤمن من تلك الصّفات، تجلّلها مغفرة الله للذنوب التي تعكّر صفو تلك الدّرجات، ويزيد في سعادتها الرّزق الكريم الذي لا يعلمه إلا الله، والله أعلم.

مجادلة كارهي القتال للرسول،
ووعد الله المسلمين إحدى الطائفتين

أ)- النص:

كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ﴾: المقصود هنا خروج الرسول بأصحابه من المدينة. ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾: قيل: المقصود من "الحق" هو قتال أعدائهم إذ لم يبق من الطائفتين إلا هم بعد انفلات القافلة. ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾: أي أنهم من فرط جزعهم كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون إليه بأعينهم لكراهتهم له. ﴿إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾: أي العير الآتية من الشام، أو النفير لمقاتلة أعدائهم. ﴿غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾: أي العير. والشوكة: الحدة والقوة، واحده "الشوك" تشبه بها أسنة الرماح، ويقال: شاكي السلاح. ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: يستأصل شأفتهم، ودابر القوم: هو آخرهم الذي يأتي في دُبرهم. ولن يصل إليه الهلاك إلا بهلاك من قبله.

ج)- نبذة عن موقعة بدر الكبرى:

ملخّص الرّوايات في ذلك عن ابن عباس ﷺ أوردها صاحب المنار كما يلي: "قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلا من الشّام ندب المسلمين إليهم وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلّ الله أن يَنْفلُكُمُوها، فانتدب النّاس، فخفّ بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله يلقى حربا، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز من يتحسّس الأخبار، ويسأل من لقي من الرّكبان تخوّفا على أمر النّاس حتى أصاب خبرا من بعض الرّكبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمر الغفاري فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أنّ محمدا قد عرض لها في أصحابه. فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ واديا يقال له "ذفران" فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار رسول الله النّاس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر ﷺ فقال وأحسن، ثم قام عمر ﷺ فقال فأحسن. ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة:٢٤). ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد يعني "مدينة الحبشة" لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله خيرا ودعا له بخير.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها النّاس». وإنما يريد الأنصار. وذلك أنهم كانوا عدد النّاس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا يا رسول الله:

إبراء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فأنت وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا.

وكان رسول الله يتخوّف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ من بلادهم. فلما قال رسول الله ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ﷺ؟ قال: «أجل». فقال: قد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السّمع والطّاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله. فو الذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلّف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غدا، إنا لصُبُر عند الحرب صدُق عند اللّقاء، ولعل الله يريك منّا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله.

فسرّ رسول الله بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال: «**سيروا على بركة الله وابشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطّائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم**». انتهى.[1]

د)- البيان والتّفسير:

يعتبر التّشبيه بأداة الكاف: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾ الرّابط بين الآيات السّابقة واللاحقة، يعتبر به وجه التّناسب بينها ووجه الشّبه هو حصول الكراهة من الصّحابة في كلا الموقفين، حكم الأنفال وقسمتها على غير ما كانوا يأملون، وإن رضوا فيها بحكم الله، ثم كراهتهم للخروج إلى قتال عدوّهم فقال جلّ من قائل: **﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ،**

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٩/٥٩٨-٥٩٩.

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

وقد تعدّدت من المفسّرين أوجه الإعراب لـ"كاف" التّشبيه وصلت إلى ما يزيد عن العشرة، فهو إمّا في محلّ نصب صفة لمصدر محذوف تقديره: قل الأنفال ثابتة لله والرّسول ثبوتا كما أخرجك ربّك ...إلخ. أو يكون وصفا لقوله: "حَقًّا"، وهناك وجه للرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا الحال كحال إخراجك ...إلخ.

فلا غضاضة في كراهية الصّحابة في ذينك الموقفين: موقف قسمة الغنائم، وموقف الخروج لقتال العدوّ، لأنهم في الموقفين لم يتنزّل عليهم حكم الله في قسمة الأنفال بعد ولم يعرفوا أي الطّائفتين يتحقق فيها وعد الله، والإنسان من طبعه هَيُوب شفوق أمام المجهول، وكان الرّسول ﷺ يتصرّف بحكمة مع أصحابه مقدّرا فيهم الضّعف الإنساني الذي يدفع بهم إلى تلك الكراهة وهم لا يعرفون ما تخبئه الغيوب في علم الله وقدره في ماجَرَيات الأحداث. ولكنهم حينما يعزم الرّسول أمره بإرشاد من الله تعالى فلا يبقى في نفوسهم تردّد ولا حيرة، ويتجلّى لنا ذلك واضحا في أجوبتهم للرسول عندما قال: «**أشيروا عليّ أيها النّاس**».

وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾، أي أن أمر الله بالخروج من المدينة كان وفق ما قدّره الله من الخير والمصلحة للجماعة المسلمة، وإن كره ذلك فريق من المسلمين، مما يدلّ على أن البعض كان مذعنا لما أمر به الرّسول. وزيادة في التّعجيب من موقف ذلك الفريق جاءت الجملة الحالية: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾. وقيل: إن المقصود بـ"الحق" هنا قتال العدوّ، لأنّ ذلك هو باعث الكره لعدم استعدادهم إليه عند خروجهم.

ومعنى تبيّن الحق أنهم قد علموا بانفلات العير، فلم يبق إلا قتال العدوّ، وقد

وعدهم الله بالنّصر عليه، فكان من الواجب -وهم المؤمنون- أن لا يجادلوا في ما ظهرت مصلحته وتعيّن فيه وعد الله.

وقوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ تشبيه لحالهم المضطرب في وقت المجادلة بحال من يساقون إلى الموت ويرونه رأي العين. ولئن كانت للموت كراهية لدى الأحياء -وهي غريزة فطرية لحفظ النّوع- فإن للموت أسبابا متعدّدة ومن أقربها تحقيقا له القتال والحرب على ذلك فهو موت مظنون لا متيقن. وكم من أبطال خاضوا المعارك العديدة فلم تكتب لهم الشّهادة كما حدث ذلك لخالد بن الوليد ﷺ وقد تغبّن لذلك أشدّ الغبن عندما قال أمام نفر من أصحابه: "وها أنا ذا أموت في فراشي كما تموت العير، فلا نامت أعين الجبناء".

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾:

أي اذكروا حين وعدكم الله الظّفر بإحدى الطّائفتين العير أو النّفير، و"اللام" للملك بمعنى الظّفر بها والغلبة عليها.

انتقل الأسلوب إلى صيغة الخطاب للجماعة المسلمة لإزالة ما في نفوسهم من حيرة واضطراب لمواجهة أعدائهم، ومنشأ ذلك -كما تقدم- ليس هو ضعف الإيمان أو خذلان رسول الله بقدر ما هو إشفاق على جماعتهم أن تهلك أمام بطش الأعداء وقوتهم.

واختيار فعل ﴿تَوَدُّونَ﴾ مناسب لتصوير حالة التّردّد النّفسيّ وهي تنساق وراء المتمنيات ولا تهتدي إلى الأمثل منها والأصوب، وإن كانت النّفس البشرية تميل إلى السّهل: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، أي الظّفر بالقافلة لما فيها من أموال، ولسهولة الاستيلاء عليها.

﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾: وشتان بين أفعال الله وأفعال العباد، فإرادة الله هي مشيئته في إنجاز ما وعد به المؤمنين من النّصر لإحقاق الحق في مقارعته للباطل، وإن كان يشق عليهم ذلك.

وقوله: ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾، "الباء" للسببية، وجمع "كلمات" يفيد العموم لكل أنواع الكلام الذي يوحي به الله على الملائكة أو على الرّسل في تثبيت ذلك الحق.

واختيار "إحقاق الحق" نتيجة للإرادة الإلهية فيه تنويه بمساعي الجماعة الإسلامية وجهودها بأنها لإحقاق الحق الذي يحقق العدل والمساواة وما فيه المصلحة والخير لخلق الله.

ثم أكد ذلك بعد "لام" التعليل لبيان الدّاعي والغرض من ذلك: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾، وقد قابل تعالى إحقاق الحق بضدّه وهو إبطال الباطل، وهو بمنزلة التّوكيد له، لأن الشيء قد يؤكد بنفي ضدّه.

ولا شك أن الحقّ الذي يريد الله إثباته وتركيزه هو ما وعد به الرّسول من النّصر المؤزّر على أعدائه، وشتّان بين ما يريده الله لكم وما تريدون من السّلامة في أبدانكم وأموالكم، لأنّ إرادة الله هي نصرة الحق، فقدّر لكم مواجهة أعدائكم لخضد شوكتهم ومحق ما يريدون من الباطل.

وقد وصفهم الله بوصفين: الكافرين والمجرمين، أي ما تلبّسوا به من الشّرك والكفر -وهم ما يزالون في قوة ومنعة- يدفعهم إلى الإجرام بمحاولة إحقاق الباطل الذي هم عليه، ومقاومة إرادة الله تعالى في إحقاق الحقّ الذي يكرهون. وهيهات، فإن الله تعالى غالب على أمره.

والله أعلم

الإمدادات الربانية للمسلمين في معركة بدر

أ)- النص:

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾: طلب الغوث والنجدة والإنقاذ من الهلكة. ﴿مُرْدِفِينَ﴾: من الإرداف: وهو الركوب من الوراء على ردف الدابة، والمقصود أنهم يتزلون متتابعين. ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾: يغشيكم: يجعله عليكم كالغشاء يسترهم. النُّعاس: النوم الخفيف يهدئ الأعصاب ويريح الجسم. أمَنَة: أي أمنا من الخوف والاضطراب. ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾: الرجز والرجس والركس

بمعنى الشيء المستقذر حسًا أو معنى، ورجز الشيطان وسوسته بإلقاء الظنون والأوهام في قلوب المسلمين. ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾: أي تثبيتها وحملها على الصبر. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾: إما حقيقة بأن لا تسوخ في الرمل، وإما كناية عن الشجاعة والصمود. ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾: أي اقلقوا منهم الرؤوس. والمثل الشعبيّ يقول: اقطع الرأس تزل الخصومة. ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾: أي اقطعوا الأيدي والأرجل لأنها أداة الضرب والكرّ والفرّ. ﴿شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أي عادوهما حتى أصبح كل من الفريقين في شقّ غير الذي فيه الآخر.

ج)- أوجه القراءة:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾: قرأه نافع بالتخفيف من "الإغشاء"، وقرأه الأكثرون بالتشديد من "التغشية"، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو: ﴿يَغْشَاكُمُ﴾ من الثلاثي مع رفع ﴿النُّعَاسُ﴾ على أنه فاعله. ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾: قرأ الجمهور ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ﴾ بفتح الهمزة وقرأها أبو عمرو بكسرها، أي قائلا: إنّي ممدّكم. ﴿مُرْدِفِينَ﴾: قرأ نافع ويعقوب وأبو جعفر بفتح الدّال، وقرأ الباقون بكسرها.

د)- البيان والتفسير:

تكرر استعمال ظرف "إذْ" للربط بين إرادة الله المذكورة في الآية السابقة بأنه تعالى يحقّ الحقّ ويبطل الباطل، وبين استجابته تعالى لدعاء الرسول والمؤمنين حين استغاثوا بربهم مشفقين على الدعوة أمام تحديات المشركين بخيلائهم. وقد وردت روايات كثيرة لأدعية الرسول في تلك الاستغاثة، منها ما رواه البخاري من طريق عبد الله بن عبد الله بن عتبة قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله إلى المشركين وتكاثرهم وإلى المسلمين فاستقلّهم، فركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه

فقال رسول الله ﷺ وهو في صلاته: «**اللّهم لا تودع مني، اللّهم لا تخذلني، اللّهم لا تتركني، اللّهم أنشدك ما وعدتني**»، وفي رواية للبخاري عن ابن عباس: أن أبا بكر ﷺ أخذ بيد رسول الله ﷺ فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر:٤٥).[1]

قال تعالى مبيّنا الإمدادات الرّبانية للجماعة المسلمة، والتي قلبت ميزان القوى في معركة بدر فكانت لصالح الرّسول وأصحابه: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾.

يجيء هذا التّذكير للمؤمنين بفيوض نعمة الله عليهم في موقف الخوف والإشفاق عند الاستعداد للمعركة، وفي موقف الاختلاف والنّزاع بعدها، يجيء في مكانه المناسب للإنابة إلى الرّشد واستعادة الوعي، لأنّ الإنسان مهما بلغ من النّضج الإيماني والكمال الخلقي فإنه قد يسهو وقد ينسى الألطاف الرّبانية الخفية التي تصرّف الأقدار وتدبّر الأمور. فالرّسول ﷺ وهو النّموذج البشريّ الأعلى في السّموّ الرّوحي والكمال الخلقي قد أعطى المقام حقّه، عند ما أعطى للوسائل والأسباب ما تستحقّه من الإعداد والتّرتيب، ثم توجّه بعد ذلك إلى مولاه يستغيثه ويستنجده. فها هي يد الله الحانية تمتدّ إليه وتستجيب له بذلك الإمداد الرّوحانّي من الملائكة.

فقوله تعالى: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، هو العمل المستجاب به، ويتمثل في ذلك العدد الممدود به من ملائكة الله تتابع أفواجهم في

١- رواه البخاري من حديث ابن عباس، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي، حديث ٢٧٥٨.

ميدان المعركة ويردفهم غيرهم حتى بلغ عددهم خمسة آلاف كما صرحت به سورة آل عمران. ويعتبر إرداف المدد من العمليات الإستراتيجية في الحرب قديما وحديثا، سيما في حراسة طرقها وتأمين وسائلها. أما كيفية ذلك، أهو مدد روحانيّ لشدّ العزائم وتثبيت القلوب، أم أنهم قاتلوا مع المسلمين بالفعل؟، فذلك غيب لا يعلمه إلا الله، وإن كان في الآيات اللاّحقة ما يشير إلى المدد الرّوحانيّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾.

وتتمثل تلك البشرى في ما وعد الله به من النّصر للمؤمنين، ولا شك أن الإخبار بمدد الملائكة على ما فيه من أسرار الغيب يمثل الدّعم المعنويّ لما نسمّيه اليوم بـــ"الجانب البسيكولوجي" للجيش، سيما بعد ذلك الاضطراب والإشفاق الذي وقع فيه المسلمون وهم يرون كثرة أعدائهم وعدّتهم. ولا يستبعد في الطّرف الآخر من المشركين -والملائكة تلقي في قلوبهم الرّعب- أن يروا المسلمين كثرة كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (١٣).

ولو اجتمعت الأسباب المادية والمعنوية كما تحقق ذلك -بفضل الله- للمسلمين، فليس ذلك بكاف لتحقيق النّصر، لأن الله وحده هو الفاعل للنصر والمنجز للوعد بألطافه الخفية مما وراء الأسباب.

﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: أي الله ذو القوة المتين والتّدبير الحكيم لا يخطئ تقديره ولا يختلّ تدبيره.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾:

وهذا مدد إلهي آخر يذكّر الله به العصبة المؤمنة، إنهما إمدادان عظيمان: معنويّ وماديّ:

أ)- ما كان من الأثر السّحريّ لغشيان النّعاس أجفان المؤمنين، وما وجدوه من الطّمأنينة والارتياح في نفوسهم بعده، وكان ذلك من لطف الله عليهم ليزيل من نفوسهم الاضطراب والقلق. وإسناد الإغشاء أو التّغشية إلى الله يذكر المؤمنين بتلك النّعمة وأنها من تدبير الله وألطافه الخفية، كما وقع ذلك في غزوة "أحد" لبعض المؤمنين، إذ قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ (١٥٤).

ولم يزد النّصّ القرآني على التّذكير بتلك النّعمة، أما متى وقعت وكيف؟ فقد اختلفت فيه الرّوايات في وقوعها قبل المعركة أو خلالها أو بعدها. وفي كل حالة، فإن الأثر الفعّال للنعاس في نفس المهموم شيء معروف لا شكّ فيه، وقد جعل الله تعالى نعمة النّوم لنا من دلائل قدرته فقال في سورة الرّوم: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(٢٣)

ب)- ويتمثل المدد الماديّ في إنزال المطر من السّماء، وقد كان المسلمون في وضعية حرجة من فقدان الماء قبل أخذ الرّسول برأي الحباب بن المنذر في تغيير المنزل الذي عسكر فيه المسلمون، وبناء قُلَيب لهم لتجميع الماء، ثم تغوير البقية من القُلَب لحرمان المشركين.

رتب الله تعالى لهذا المطر النّازل أربع منافع:

أ)- ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾: والتّطهير مادّي ومعنوي، وقد أثبتت الرّوايات أن طريقهم كان رملا ليّنا قبل نزول المطر، فخافوا أن تسوخ أقدامهم عند القتال، وفي ذلك من الخوف والاضطراب ما يضعف قوتهم المعنوية، ثم إن الكثير منهم قد

بصاب بجنابة فلا يجد ما يتطهّر به -ولمّا تنزل آية التيمّم-، فكان ذلك الإنزال من الله تعالى كرامة وتثبيتا لهم.

ب)- ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾: أي وسوسته لكم بما وقعتم فيه من الحدث وفقدان الماء، وقد روي عن ابن عباس قال: "إن المشركين غلبوا المسلمين في أوّل أمرهم على الماء فظمئ المسلمون وصلّوا مجنبين محدثين، وكان بينهم رمال، فألقى الشّيطان في قلوبهم الحزن وقال: أتزعمون أنّ فيكم نبيّا وأنّكم أولياء الله وتصلّون مجنبين محدثين؟، فأنزل الله من السّماء ماءً فسال عليهم الوادي ماء، فشرب المسلمون وتطهّروا وثبّت أقدامهم، وذهبت وسوسته".

ج)- ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾: والرّبط مجاز على التّثبيت وإزالة الاضطراب، ومنه رباطة الجأش عند الجريء الشّجاع. والقلب يوجل ويضطرب عند القلق والفزع كما قال تعالى في سورة الأحزاب تصويرا لحالة المؤمنين وهم يتخندقون لمواجهة أعدائهم: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ (١٠)

هـ)- ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾: يثبتها حتى لا تسوخ في الرّمل، بعد أن تتماسك ببلل المطر، سيما وأغلب المقاتلين من المسلمين راجلون.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾:

بين هذا المدد الرّباني والذي سبقه اتصال وثيق بالظّرف "إذ" وهو متعلق بفعل: ﴿يُثَبِّتَ﴾، وتوجّه الخطاب لرسول الله تلطّفا به وتثبيتا له في ذلك الظّرف الحرج، وذلك ببيان عمل الملائكة يوم بدر، وإضافة الإيحاء إلى الرّب يدلّ على معنى الرّعاية واللّطف لرسول الله، إذ كان أوّل من استغاث بربه. ثم بيّن الله تعالى مضمون ذلك الإيحاء بأنه تثبيت للذين آمنوا، وإرعاب للذين كفروا. وكلاهما من

الأمور الغيبية التي نكل أمرها إلى الله، ونحن نؤمن إيمانا جازما بأن الملائكة جند من جنود الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. أما كيف حصل ذلك التثبيت وذلك الإرعاب فليس في النّصّ ما يدلّ عليه، إلا ما كان من معيّة الله لملائكته، ومن كان الله معه فلا يخيب ولا يخسر.

﴿فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾: لقد لفت نظري وأنا أنتقل إلى تفسير هذه الآية: ﴿فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ لفت نظري في الآية السّابقة ما وقع فيها من فرق في إسناد التّثبيت للذين آمنوا إلى الملائكة، وإسناد إلقاء الرّعب في قلوب الذين كفروا إلى الله. فإذا بالإمام ابن عاشور -رحمه الله- قد حسم الأمر -ولم أكن قد اطلعت على ما كتبه من قبل- إذ يقول: "ولم يسند إلقاء الرّعب في قلوب الذين كفروا إلى الملائكة، بل أسنده الله إلى نفسه وحده بقوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ﴾، لأن أولئك الملائكة المخاطبين كانوا ملائكة نصر وتأييد فلا يليق بقواهم إلقاء الرّعب، لأن الرّعب خاطر شيطاني ذميم، فجعله الله في قلوب الذين كفروا بواسطة أخرى غير الملائكة، وأسند إلقاء الرّعب في قلوب الذين كفروا إلى الله على طريقة الإجمال دون بيان لكيفية إلقائه، وكلّ ما يقع في العالم هو من تقدير الله على حسب إرادته، وأشار ذلك إلى أنّه رعب شديد قدره الله على كيفية خارقة للعادة" انتهى.[1]

لقد اعتبر كثير من المفسرين أن قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ﴾ اعتبروا الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا لتتفرع عنها جملة: ﴿فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ ...إلخ.

ولذلك تعدّدت توجيهات المفسّرين لهذا الأمر الإلهي، أهو للملائكة على

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير، ٢٨٢/٩.

اعتبار أنهم قاتلوا بالفعل في المعركة كما تنقله بعض الرّوايات؟، أم هو للذين آمنوا وقد أيّدهم الله بذلك المدد الرّوحاني من الأسباب المادية والمعنوية التي امتن الله بها عليهم، فكانت ضرباتهم مسدّدة لمقاتل أعدائهم بحزّ الأعناق؟، وإبطال فعالية السّلاح بحزّ الأيدي. ولصاحب المنار كلام طويل في ترجيح القول الثّاني تمشيا مع المدرسة العقلية لأستاذه الإمام محمد عبده -رحمه الله- يقول في آخره ما ملخصّه: "مقتضى السّياق أن وحي الله للملائكة قد تمّ بأمره إيّاهم بتثبيت المؤمنين كما يدل عليه الحصر في قوله عن إمداد الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ بدء كلام خوطب به النبي ﷺ والمؤمنون تتمة للبشرى، فيكون الأمر بالضّرب موجّها إلى المؤمنين قطعا، وعليه المحقّقون الذين جزموا بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر، وتأوّله هؤلاء بأنه تعالى أمرهم بأن يلقوا هذا المعنى في قلوب المؤمنين بالإلهام كما كان الشّيطان يخوّفهم ويلقي في قلوبهم ضدّه بالوسواس".

ثم قال بعد ترجيحه لهذا القول بالأدلة: "وما أدري أين يضع بعض العلماء عقولهم عندما يغترون ببعض الظّواهر وبعض الرّوايات الغريبة التي يردّها العقل ولا يثبتها ما له قيمة من النّقل؟ فإذا كان تأييد الله للمؤمنين بالتّأييدات الرّوحانية، وتسهيله لهم الأسباب الحسية لم يكن كافيا لنصره إياهم على المشركين، فأيّ مزية لأهل بدر فضلوا بها على سائر المؤمنين ممن غزوا بعدهم، وبماذا استحقوا قول الرّسول لعمر ﷺ: **«وما يدريك لعل الله عز وجلّ اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**.[1]

١- رواه البخاري من حديث علي بن أبي طالب، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، حديث ٢٨٤٥.

ألا إن في هذا من شأن تعظيم المشركين ورفع شأنهم وتكبير شجاعتهم وتصغير شأن أفضل أصحاب الرّسول وأشجعهم ما لا يصدر عن عاقل". انتهى بتصرف.[1]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: الإشارة بـ"ذلك" لكلّ ما ذكر من تأييد الله للمسلمين وخذلانه للمشركين وبأن ذلك كان بسبب الموقف العدائي من المشركين لله ورسوله حين اختاروا جانب الشّرّ والباطل، ومن ثمّ استحقوا عقاب الله، وهو الخزي في الدّنيا بمثل تلك الهزائم والمصائب، والعذاب الشّديد في الآخرة.

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: الخطاب للمشركين المهزومين على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، أي ما حدث لكم من القتل والأسر وما ينجرّ عنهما لكم من الخزي والعار هو العذاب الموعود لمن يشاقق الله ورسوله. وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ للشماتة والتّقريع، ولكم في الآخرة عذاب النّار نتيجة لكفركم وعنادكم. وقد اختير الإظهار: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ للاستغراق، والله أعلم.

تحريم الفرار من الزّحف، ونصرة الله للمؤمنين بتوهين كيد أعدائهم

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ٦١٤/٩

فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ
تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ
وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ
ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟
فَهُوَ خَيْرًا لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ ۚ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ
مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿زَحْفاً﴾: مصدر زحف، إذا انبعث من مكانه متنقلا على مقعدته كما يزحف الصّبي، ثم أطلق على مشي المقاتل إلى عدوّه في ساحة القتال، ويطلق على الجيش الكثير. ﴿فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾: أي لا توجّهوا إليهم أدباركم، كناية عن الفرار من العدو، لأن الدّبر ضدّ القُبل، أي الظّهر وما تراه من الإنسان عند انصرافه. ﴿إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ﴾: التّحرّف هو الانصراف إلى الحرف، وهو المكان البعيد عن وسطه، وهو يستدعي تولية الظّهر لذلك المكان بمعنى الفرار منه. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ﴾: من الحوز، معناه أن يرجع المقاتل القهقرى ليلتحق بطائفة من أصحابه فيتقوّى بهم. ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ﴾: بمعنى رجع ملابسا لغضب الله تعالى عليه. ﴿مُوَهِّنُ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾: الوهن: الضّعف، أي أن الله تعالى يضعف مكائدهم فلا تضرّ المسلمين. ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾: أي تطلبون الفتح وهو النّصر، لما قيل: إن أبا جهل وأصحابه لما أزمعوا الخروج إلى بدر استنصروا الله تجاه الكعبة، وحين واجهوا المسلمين قالوا: ربنا افتح بيننا وبين محمّد وأصحابه.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مُوهِنُ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر: ﴿مُوَهِّنُ﴾ بفتح الواو وتشديد الهاء ونصب كيد. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف ويعقوب: ﴿مُوْهِنُ﴾ بتسكين الواو وتخفيف الهاء ونصب كيد. وقرأ حفص عن عاصم: ﴿مُوهِنُ﴾ بالإضافة إلى كيد. ﴿وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُومِنِينَ﴾: قرأه نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر بفتح همزة "أَنَّ" على تقدير "لام" التعليل. وقرأه الباقون بكسر الهمزة تذييلا للآية في معنى التعليل.

د)- البيان والتفسير:

لقد اشتملت السورة الكريمة على ستّ نداءات توالت بعد ذكر بعض أحداث بدر، جاءت كلّها بالصّفة الإيمانية للمخاطبين، وبصيغة الجمع لإشعار المسلمين بالمسؤولية التضامنية في تنفيذ أوامر الله ورسوله، وقد جاء هذا النّداء الأول مرتبطا بما سبقه في تعليم المؤمنين قواعد القتال. وهنا يأمر الله بالالتزام بتماسك الصّفوف في المواجهة فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الاَدْبَارَ، وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ اَوْ مُتَحَيِّزاً اِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئسَ الْمَصِيرُ﴾**.

بعد ذلك العرض الإلهي العجيب لألطافه بالمؤمنين، وإمداداته الرّوحانية لهم خلال المعركة، وكيف دبّر الله أمر سيرها حتى تحقّق لهم النّصر على قلّتهم وضعفهم، يجيء هذا النّداء الإلهي الأول للمؤمنين، وقلوبهم متهيّئة للتلقّي والاستجابة، ونفوسهم مقتنعة بنجاحهم في التّجربة الأولى مع أعدائهم، يجيء هذا التّوجيه الحربي السّديد، أن يثبتوا صفًّا متماسكًا أمام الأعداء عندما يتواجه الجيشان

في حالة الزّحف سواء منهم أو منكم، على الاحتمالين في متعلق الحال: ﴿زَحْفاً﴾ أن يكون هو ضمير "لقيتم"، أو يكون حالا من "الذين كفروا"، فالزّحف على الاحتمالين هو المخطط الحربي الفعّال لاختراق صفوف العدوّ وتطويقه، وهو يتطلب إعدادا محكما يستنفد كل الإمكانيات المتاحة لأحد الفريقين. وكلّ ثغرة في الصّف أو إخلال في الهجوم تحدث ارتباكا لدى المقاتلين، وتمكن العدوّ من استغلال تلك الثّغرة للإيقاع بخصمه.

وفي معنى هذا التّماسك في مواجهة الأعداء يقول الله تعالى في سورة الصّفّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (٤)

نهى الله المؤمنين عن الفرار في تلك الحالة، إلا أن يكون ذلك التّحرّك لمكيدة حربية في ما يسمى بالكرّ والفرّ، أو "التّكتيك القتالي" من موقع أحسن، أو انضمام إلى فئة أخرى من المقاتلين. ثم توّعد الله الفارّين بأشدّ العذاب: غضب الله ونار جهنم -والعياذ بالله-.

وجمهور العلماء على أن هذا الحكم عام لا يخصّ أهل بدر أو القتال الذي يكون فيه رسول الله ﷺ، واعتبروا الفرار يوم الزّحف كبيرة من السّبع الموبقات كما روي عن رسول الله أنه قال: «**اجتنبوا السّبع الموبقات: قيل: يا رسول الله: وما هن؟..**». فذكر منها: «**التّولّي يوم الزّحف**».[1]

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً انَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

التّحذير والوعيد الشّديد في الآية السّابقة يتولّد عنه التّعرّف لداعية ذلك، إذ

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث ٨٩.

يبدو فيه نوع من الإحراج، فجاء هذا التّنبيه إلى ألطاف الله تعالى في تدبير أمر تلك المعركة، وكيف استجاب لاستغاثتهم بإمداد الملائكة وتثبيتهم على القتال، وكيف ألقى الرّعب في قلوب أعدائهم حتى تمّ لهم النّصر.

وحتى لا يغترّ المسلمون في نشوة النّصر بأنهم هم الذين قتلوا ورموا وأسروا نفى الله كل تلك الأسباب المادية وأسندها إليه، إذ كان القتل والضّرب والرّمي من سيوف وأيدي المسلمين صوريا لا تعويل عليه أمام تدبير الله وجنده الخفيّ، فالقتل المنفيّ هنا هو كونه صادرا عن أسبابهم، وإلى هذا المعنى اللّطيف يشير قوله تعالى في سورة التّوبة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٤).

وفي قضية الرّمي تذكر الرّواية أن رسول الله ﷺ بعد أن حرّض المؤمنين على القتال يوم بدر أتاه جبريل فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها المشركين ثم قال: «شاهت الوجوه» ثم نفحهم بها، ثم أمر أصحابه فقال: شدّوا. فكانت الهزيمة على المشركين. وقال غيره -أي الراوي-: لم يبق مشرك إلا أصابه شيء من الحصا في عينيه فشغل بعينيه فانهزموا. [1]

فالرّامي إذن هو رسول الله، وهي معجزة للرسول من ورائها -أيضا- قدرة الله، إذ هو المؤثر الحقيقي في تحقيق النّتائج، وما أفعال البشر إلا وسائل وأسباب قد تنجح وقد تخيب.

﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾: تعليل لقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾، والإبلاء بالهمز جاء بصيغة المضارع، وهو مشتق من البلاء والبلوى أي الاختبار،

١- رواه مسلم من حديث إياس بن سلمة عن أبيه، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، حديث ١٧٧٧.

ووصفه بالحسن يعني الإثابة والجزاء على تضحيتهم وإخلاصهم بنصرهم على أعدائهم في الدّنيا والجنة والرّضوان في الآخرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: صفتان للذات العلية مناسبتان للمقام، إذ سمع استغاثتهم وعلم مبلغ إخلاصهم وتضحيتهم فاستحقوا ذلك الإبلاء الحسن.

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾: الإشارة إلى الإبلاء الحسن، وهي للتنبيه على أهمية ما يذكر بعدها، وهو توهين الله لكيد الكافرين وإحباط تدابيرهم للإضرار بكم والمفاخرة بالخروج إليكم في خيلاء بالغناء وشرب الخمر، فقد خيّب آمالهم وكساهم ثوب العار أمام العرب بالهزيمة والاندحار.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

وخلال تعداده تعالى لمنه على المؤمنين يأتي هذا الالتفات لمخاطبة مشركي مكة تبكيتا وتهكّما، وهو يذكّرهم بأمور ثلاثة:

أ)- ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾: وقد تقدّم أن كبراءهم طلبوا من الله في أستار الكعبة أن يفتح بينهم وبين محمد، فهاهم يرون كيف انتهى أمرهم وعرفوا أيّ الفريقين هو أكرم عند الله وأهدى سبيلا.

ب)- ﴿وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: ترغيب لهم في ما هو خير لهم من العناد والكفر بأن يكفّوا عن إذاية الرّسول والمسلمين.

ج)- ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾: إنه الوعيد والترهيب لإزالة العنهجية، وشنشنة التّباهي بالقوة، إنها عودة الله بالنّصر والتّأييد للمسلمين كما وقع في بدر.

ولتيئيس المشركين في أيّ انتصار مستقبلا جاء قوله تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِيَ

عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وشتان بين فئة فقدت عناية الله لأنها استغنت بما عندها، وفئة كان الله معها في ما مضى ويكون معها في ما يأتي.

والله أعلم

الأمر بالسّمع والطّاعة لله ورسوله، وموقف المخذولين المعاندين

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَطِيعُواْ﴾: من الطّاعة وهي امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه. ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾: التّولّي: الانصراف، وهو مستعار للمخالفة والعصيان. ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾: الدّواب: جمع دابة. وشرّ: اسم تفضيل محذوف الهمزة. والدّابّة الصّماء البكماء هي شرّ الدّوابّ لانتفاء أي جزء من الإدراك عندها. ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾: أي لأفهمهم ما يسمعون، ولكن حرموا من قابلية الاهتداء من أصل جبلّتهم.

ج)- البيان والتّفسير:

هذا هو النّداء الثّاني للجماعة المسلمة جاء بعد التّعرّض لبعض أحداث بدر،

وما كان فيها من الألطاف الرّبانية التي يجب عليهم أن يشكروها، ثم ذكر خلالها بعض قواعد القتال وآداب الحرب. ثم توالت النّداءات تنصح وترشد المؤمنين لما يجب عليهم أن يلتزموا به لتركيز قواعد الإيمان وبيان مقاصد الإسلام. وملاك ذلك كله هو السّمع والطّاعة لله ولرسوله، سمع تدبّر وإمعان، وطاعة إجلال وإذعان، فقال جلّ من قائل: ﴿**يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ**﴾.

لقد جاء الأمر بطاعة الله ورسوله في مفتتح السّورة، ثم أرى الله المخاطبين نتائج تلك الطّاعة ومخالفة ما تهواه أنفسهم من الرّكون إلى السّهل، أراهم نتائج ذلك بما تحقق لهم من النّصر.

وفي هذه الآية الكريمة يكرّر الأمر بالطّاعة مقرونا بالنّهي عن المخالفة والعصيان، وضرب المثل لذلك بشرّ الدّوابّ عند الله، لأنّ الطّاعة والسّمع لإرشادات الله هي العنصر الأصيل في حكمة التّشريع، وهي السّمة المميّزة للمؤمنين الأوفياء. قال تعالى في سورة النور: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُومِنِينَ إِذَا دُعُواْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ﴾ (٥١-٥٢).

وبنقيض ذلك يصف القرآن الكفار والمنافقين فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ (فصلت:٥). وقال في اليهود وأشياعهم من المنافقين: ﴿مِنَ الذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ (النساء:٤٦).

تأكّد الأمر بالطّاعة بالنّهي عن التّولّي والإعراض عن رسول الله، وأضاف

الجملة الحالية: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ للإشعار بتوفّر أسباب الطّاعة وهو الإدراك للمسموع بأنّه الحقّ من عند الله، وأن طاعة الرّسول هي من طاعة الله: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠).

ثم أشعرهم بأن عدم السّماع -وإن كانوا مؤمنين- يجعلهم في الواقع بمثابة أولئك الذين خلت قلوبهم من الإيمان، فحذّرهم من التّشبّه بهم فقال: ﴿**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ**﴾.

وقد ذكر في التّفسير المأثور هؤلاء الذين تنزلت هذه الآية في شأنهم فقال ابن عبّاس: هم بنو عبد الدّار بن قصيّ من قريش، وقال غيره: هم نفر من قريش من غير تحديد، وقيل: المراد هم اليهود...إلخ. غير أن هذا الصّنف من النّاس لا يخلو منهم زمان ولا مكان، ولذا يكون الحكم عامًا لكل من يتّخذ من هؤلاء الوسيلة للإيهام والمراوغة، حتى يصبح ذلك عادة في مواقفهم من الحقّ، وهو ما تفيده صيغة المضارع: ﴿وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾.

﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾: وزيادة في التّنفير من التّشبه بهؤلاء علّل كلا من الأمر والنّهي المتقدمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾، فأخبر تعالى بأسلوب التّعريض بأن هؤلاء -كانوا في حكم الله وتقديره- شرّ خلق الله، لأنهم ارتضوا لأنفسهم مثل ذلك الوضع في كونهم كالدّوابّ في عدم الفهم والإدراك، وزادهم انغلاقا أنهم صمّ لا يسمعون بُكم لا ينطقون، وهي أسوأ صورة تكون عليها الدّابّة من العجز والعيب، كما قال تعالى في شأن هؤلاء بسورة الأعراف بعد أن نفى عنهم الانتفاع بما متّعهم به من الحواس: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩). وإذ هم كذلك فلا يُرجى منهم فهم ولا إدراك، إذ حُرِموا فضيلة

العقل الذي يميّز بين الحق والباطل.

ثم عطف على ذلك الوصف الشّنيع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

بمعنى أنهم إذ اختاروا هذه الوضعية لأنفسهم، فإن ميلهم إلى الشّرّ والباطل أصبحوا مجبولين عليه، كما سبق ذلك في علم الله، وبذلك صاروا غير مستعدّين لقبول نور الحق، ولو كانوا يسمعونه بما يتلى عليهم من آيات الله، ولانتفاء جبلّة الخير من نفوسهم فقدوا قابلية الاهتداء بالقرآن ومواعظه، وبالتّالي يعرضون عن رسول الله ودعوته.

وهكذا تجري سنة الله في خلقه وفق ما يكون فيهم من الاستعدادات الفطرية لقبول الحق أو رفضه ابتداء بدون سماع لهدى القرآن، أو حتى بسماعه لهم لا يستجيبون. ولما كان شأن المؤمنين على عكس ذلك بحسن الاستجابة لنداء الحق والتّجاوب معه، انتقل السّياق إلى تجديد النّداء الإيماني تشريفا للمخاطبين به.

والله أعلم

التّحريض على الاستجابة لله ولرسوله، والتّحذير من الوقوع في الفتنة

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ

قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ﴾: الإجابة بزيادة "السين" و"التاء" للتأكيد غالبا ما يتعدّى بـ"اللام". ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: من الإحياء، ضدّه الإماتة، وهو هنا مستعار لما يشبه إحياء الميّت، وهو إعطاء الإنسان ما به كماله. ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾: من الحوْل، ويقال: الحوْل: منع شيء اتصالا بين شيئين أو أشياء. قال ابن عباس: يحول بين المؤمن والكفر، ويحول بين الكافر والإيمان. ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾: معنى الفتنة يرجع إلى اضطراب الآراء واختلال السّير وحلول الخوف والحذر في نفوس النّاس. ﴿فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾: الإيواء: جعل الشيء آويا أي راجعا إلى الذي يجعله، أي بمعنى الحفظ والرّعاية. والتّأييد: جعل الشّيء ذا أيد، أي ذا قدرة على العمل.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد التّحذير للمؤمنين من التّسويف والتّردّد في السّمع والطّاعة لله ولرسوله، وأن لا يكونوا مثل الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، أردف الله ذلك بمناداتهم مرة أخرى لشحذ همّتهم وتقوية عزائمهم في الاستجابة لأوامر الله ورسوله فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

والإيمان الصّحيح يقتضي من المؤمن هذه الاستجابة، قناعة وثقة بأن الله ورسوله لا يدعوان إلا لما فيه خير المؤمنين وصلاحهم، على اعتبار أن قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾، ليس قيدا للأمر بالاستجابة، بل هو تنبيه على أن دعوتهما لا تكون إلا

للخير والصّلاح، وقد تكرّر حرف الجرّ بعد حرف العطف. ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾: للتأكيد على الاستجابة لكليهما لأن طاعة الرّسول من طاعة الله: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء:٨٠). بل قال العلماء: إن الاستجابة هنا هي أعمّ من الاستجابة لله، أي أنها تشمل نداءه لأحد بطلب القدوم، وطلبه إياه ليقوم بعمل من الأعمال. وفرّعوا على ذلك أحكاما تتعلق بوجوب تلك الاستجابة حتى في بعض الأحوال الخاصّة التي تمنع من الاستجابة كالصّلاة مثلا. وأن الصّلاة لا تبطل باستجابته، وذلك بناء على ما ثبت من أحاديث تذكر أحوالا لصحابة رسول الله ﷺ وقعت لهم وكان الرّسول يرشدهم إلى هذه الآية. منها حديث رواه الإمام البخاريّ عن سعيد بن المعلّى قال: كنت أصلّي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه -أو قال فلم آته حتى صلّيت ثم أتيته- فقلت يا رسول الله إنّي كنت أصلّي. فقال: ألم يقل الله: ﴿اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾.[1]

وبناء على ذلك يرى بعض الفقهاء أن إجابة دعاء الرّسول لا تفسد الصّلاة، ويرى قطب الأئمة أن ذلك من خصوصية الرّسول.

وخلاصة القول: أن طاعة الرّسول واجبة حيّا أو ميّتا في كلّ ما دعا إليه من أمور الدّين تبليغا عن الله تعالى.

وقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعمّ كلّ ما يكون فيه الخير والصّلاح للمجتمع المسلم من العلم والمعرفة، ومن العزّة والكرامة ومن السّيادة والتّمكين في الأرض، ثم من الجنة والنّعيم المقيم في الآخرة، كما وعد الله بذلك كلّ مؤمن يعمل بمقتضى إيمانه في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً

١- رواه البخاري من حديث سعيد، كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، حديث ٤٢٠٤.

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٧).

ثم أكمل مضمون الأمر بالاستجابة بهذا التهديد: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ومع التحذير من التسويف في الاستجابة والطّاعة لله ولرسوله يجيء التنبيه إلى أمرين خطيرين في الحياة النفسية للإنسان مفتتحا بقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ للاهتمام بمضمون ما بعده:

أ)- ﴿أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾: أيّ أن الإنسان معرّض في كلّ حالة إلى عوارض الفتنة بالخير والشّرّ. ومعنى الحيلولة بين المرء وقلبه هو كما رواه ابن عباس: أن الإنسان يتقلب بين الكفر والإيمان، ويعتريه الرّشاد والضّلال. ذلك لأن القلب كما صوّره رسول الله ﷺ: «**مضغة في الجسد إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله**».[1] وهو مستودع العواطف ومركز الوجدان. وكان الرّسول على سموّ روحه وتقى قلبه يكثر من الدّعاء: «**يا مثبّت القلوب ثبّت قلبي على دينك**».[2] فسألته زوجه أمّ سلمة عن حكمة ذلك فقال لها: «**يا أم سلمة، إنه ليس آدميّ إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الرّحمن تعالى**

١- رواه البخاري من حديث النعمان بن بشير، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث ٥٢، ١/٢٨؛ رواه مسلم من حديثه أيضاً، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث ١٥٩٩.

٢- رواه الترمذي من حديث أنس بن مالك، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن،، حديث ٢١٣٩، وقال: وفي الباب عن النواس بن سمعان وأم سلمة وعبد الله بن عمرو وعائشة، وهذا حديث حسن. وهكذا روى غير واحد عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس وروى بعضهم عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ﷺ، وحديث أبي سفيان عن أنس أصح.

فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ».[1]

وقيل: إن معنى الآية أن الله تعالى يعلم ما في القلوب من النوايا والمقاصد قبل أن يتجسّد ذلك أفعالا في عالم الواقع، أي في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:١٦).

ب)- ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: أيّ أن من علم وتيقن باليوم الآخر يوم الحساب والجزاء، فإنه جدير بأن يراقب أحوال قلبه خوفًا ورجاءً، والتي تنعكس على جوارحه أخلاقًا وسلوكًا. وتقدم الجار والمجرور: "إِلَيْهِ" يفيد الحصر. أي تحشرون إليه لا إلى غيره ممن تركنون إليهم في الدّنيا طلبا لمغنم أو دفع ظلم. فالله وحده هو الذي يحاسبكم ويجازيكم.

﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾:

بعد التّحريض على التزام طاعة الله ورسوله من المستجيبين لدعوته يجيء هذا التّحذير من شرور المتخاذلين المعرضين، إذ لا يلتزمون الموقف السّلبيّ من دعوتكم. بل يشوّشون عليكم دينكم ويفتنونكم فيه: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة:١٩١). فإن لم تكونوا -أيها المؤمنون- صفًا واحدا في درء تلك المفاسد وكبت تلك الفتنة، فإنها توشك أن تعمّكم جميعا، وتلك سنة الله في خلقه، إذ يذيق بعضهم بأس بعض ليربيّهم ويجزيهم بعض ما عملوا.

وكم ذاق المسلمون من ويلات تلك الفتن قديما وحديثا، وهذا كتاب الله

١- رواه الترمذي من حديث أم سلمة، كتاب الدعوات، حديث ٣٥٢٢، وقال: هذا حديث حسن.

صريح في معالجة تلك الأحوال المزرية، وهو ينادي أتباعه بالنّداء الجماعيّ التّضامني إشعارا لكل مؤمن بمسؤوليته الفردية والجماعية ليعلم أن هذه هي سنة الله في عقابه للأمم عندما يستشري فيها الفساد.

وبعد هذا التّحذير يذكّر الله الجماعة المسلمة بما كانوا عليه من القلّة والضّعف والخوف وكيف آيّدهم وآمنهم وآواهم فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذَ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَئَاوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فما أروع هذا التّذكير في أسلوب التّربية الحكيمة، وما أحوج الإنسان إليه عندما تنتابه العوارض الملهية، أو تبطره النّعم المنسية. وإن كان الخطاب في هذه الآية الكريمة موجّها إلى الجماعة المسلمة بعنصريها الأساسيين من المهاجرين والأنصار، فإن التّوجيه فيها عام للمؤمنين لا يختصّ بقوم دون قوم ولا بزمان أو مكان، فهي توجيهات تذكّر بسنن الله تعالى في الاجتماع البشريّ لأن الإنسان هو الإنسان في طبعه وخلائقه مهما تنوّعت حضاراته وتعدّدت ثقافاته. فهو ينسى ويغفل، وهو يقصّر ويهمل، وهو يستفزّه الحرص ويلهيه الأمل، ولذا فهو يحتاج إلى مثل هذا التّذكير حتى يحفظ توازنه النّفسيّ والخلقي.

أما عن صحابة رسول الله في واقع السّيرة النّبوية فإنّ وضعيتهم كانت قبل الهجرة إلى المدينة المنوّرة كما وصفهم الله تعالى من القلة والضّعف والخوف لا يملكون حولا ولا قوة أمام أعدائهم من مشركي مكة وأحلافهم مغلوبين على أمرهم، حتى لكأنهم شيء ميسور في متناول يد الخاطف يأخذه بسرعة.

والإيواء هو ما وجده المهاجرون من الأمن والاستقرار في كنف إخوانهم الأنصار بالمدينة المنوّرة، كما مدحهم الله في آخر هذه السّورة بأنهم آووا ونصروا.

وكلّ ذلك قد تمّ لكم بتدبير الله ورعايته.

ومع الأمن والاستقرار رزق الطّيبات بما حصلتم عليه من الغنائم يوم بدر وغيره، وكل ذلك يقتضي شكر المنعم لأن الشّكر قيد لتلك النّعمة، وإنكم إن نسيتم وجحدتم نعمة الله عليكم فإن الله تعالى سيغيّر من أحوالكم -لا محالة-.

فإذا أسقطنا هذا الإرشاد الإلهي على تاريخ المسلمين إلى يوم النّاس هذا، فإننا نتأكّد من هذه السّنة الاجتماعية، حين نحلّل أسباب القوة والضّعف في الدّول الإسلامية المتعاقبة، وما يتبع ذلك من النّصر أو الهزيمة أمام الأعداء. فليت المسلمين يتعظون بإرشادات كتابهم. وصدق رسول الله إذ يقول: « **بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء**» .[1] ولكل أجل كتاب، وإلى الله ترجع الأمور.

والله أعلم

سوء الخيانة وفضل التّقوى

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا، حديث ١٤٥.

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿لاَ تَخُونُواْ اللهَ﴾: من الخيانة والخوْن، وهو إبطال ونقض ما وقع عليه التّعاقد، والخوْن هو النّقص. وضدّ الخيانة الوفاء، وفيه معنى التّمام. واستعملت الخيانة في معنى الإخلال والنّقص والغدر وإخفاء الشّيء. وتشمل الخيانة كل معصية خفية. ﴿أَمَانَاتِكُمْ﴾: جمع أمانة، وهي اسم لما يحفظه المرء عند غيره وهي مشتقة من الأمن. ﴿إِن تَتَّقُواْ اللهَ﴾: التّقوى هي حسن الطّاعة لله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وسميت بذلك لأنها تقي العبد من النّار. ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾: الفرقان مصدر كالغفران، وهو ما يفرق ويميز بين شيئين متشابهين، وقد أطلق على القرآن لأنه يفرّق بين الحق والباطل، كما سمّيت غزوة بدر "يوم الفرقان"، لأنه ميّز بين عهدين: عهد الخوف والضّعف للمسلمين وعهد القوة والنّصر.

ج)- البيان والتّفسير:

يشتمل النّص على نداءين الرّابع والخامس، وبينهما من المناسبة والارتباط ما بين ترتيب العامّ على الخاصّ، فالامتناع عن الخيانة والاتصاف بالأمانة خلق رفيع يتّصف به المؤمن بدافع من تقوى الله وحسن طاعته، كما أن الاستجابة لدعوة الله ورسوله التي جاء الأمر الإلهي بها في النّداء الثّالث، تقتضي طاعتهما في السّرّ والعلن.

وبما أن الخيانة عصيان بالطّرق الخفية فإن الله تعالى يحذّر منها المسلمين وينبّه إلى دواعيها وأسبابها فيقول: **﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**.

تكرار النّداء بوصف الإيمان في هذه الإرشادات الإلهية المتتابعة يؤذن

بوجوب الاهتمام بها وتطبيقها عمليا في المجال الاجتماعي التضامني لما لها من الأثر الفعّال في تماسك المجتمع. ومهما قيل عن أسباب النزول ومدى صحة رواياتها فإن حكم النداء عامّ يشمل كل مخالفة لأوامر الله ورسوله. واعتبار ذلك خيانة لله ولرسوله.

ومن أخطرها على كيان الأمة إفشاء أسرارها للعدوّ، كما يروى في سبب النزول أن أبا لبابة بن المنذر الأنصاريّ لمّا سأله بنو قريظة -وقد حاصرهم الرّسول- سألوه عن أمر الرّسول فيهم فأشار إلى حلقه يقول: «الذّبح». إذ كان عندهم ماله وعياله وولده. فلما نزلت الآية قال أبو لبابة: ما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله. وقيل غير ذلك في أسباب النزول. ولكن اشتهرت منها قصة أبي لبابة.

وخيانة الله ورسوله تتمثل في عصيان أوامرهما، وعدم الإذعان لأحكام الشّرع الحنيف بصفة عامة لأن الإيمان بالله ورسوله هو عهد مقدّس بين العبد وربّه يقتضي عبادته وطاعته: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ، وَأَنُ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (يس:٦٠-٦١).

أما النّهي عن خيانة الأمانة فيشمل كل الأمانات الخاصة والعامّة، المادية منها والمعنوية، فقد عظّم القرآن الكريم شأن الأمانة فذكرها بمعناها الشّامل بمعنى التّكليف للخلق بشرع الله الحنيف في سورة الأحزاب بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (٧٢). كما ذكرها القرآن بمعناها الخاصّ للودائع التي نؤتمن عليها فقال تعالى في سورة النّساء: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (٥٨). ويرى رسول الله ﷺ أن في ضياع الأمانة انحلال الأمة وانهيار

الدّولة إذ روى الإمام البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا ضيّعت الأمانة فانتظر السّاعة**». قيل: يا رسول الله: وما تضييع الأمانة؟ قال: «**أن يوسّد الأمر إلى غير أهله**».[1]

وقال تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، حال من ضمير: ﴿تَخُونُوا﴾ للدلالة على تشنيع المنهيّ عنه من خيانة الأمانة لأن الفاعل للشيء المنهيّ عنه وهو يعلم قبحه يكون أشنع في فعله.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: هذا بيان للدواعي والأسباب التي قد تدفع الإنسان إلى الخيانة، لأنّ شهوة المال والولد عارمة لدى الإنسان، سيما إذا ضعف فيه الوازع الإيماني في مراقبة الله، فجاء هذا التّنبيه مدعّما بفعل: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ للاهتمام به، وهو بيّن للمخاطبين أنّ المال والولد فتنة يبلوهم الله بهما ليتحمّلوا مسؤوليتهم الكاملة في أداء شكر المنعم بهما. وجيء بأسلوب القصر "أنّما" للمبالغة في التّحذير من شهوتهما، ثم عطف على ذلك بقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ للدلالة أنّ ما عند الله من الأجر والثّواب هو خير وأبقى. وبذلك يصبح المؤمن متّزنا يسلك مسلك القصد والتّضحية، كما قال أمير الشّعراء:

ومن يعدل بحبّ الله شيئـا ... كحبّ المال ضلّ هوى وخابا
فلا تقتلك شهـوته وزنهـا ... كما تـزن الطّعام أو الشّرابـا

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾:

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب العلم، باب فضل العلم، حديث ٥٩.

بعد تلك النّداءات المتتابعة التي تدعو كلّ واحدة منها إلى خصلة من الخصال الحميدة التي تعدّ شعبة من شعب الإيمان، يأتي هذا النّداء الخامس يدعو إلى ملاك الأمر كله وإلى جماع الخير، وهو تقوى الله وبيان نتائجها المثمرة بأن يجعل الله للمتقين فرقانا يميزون به بين الحق والباطل بنور الهداية والتّوفيق، فلا تزلّ أقدامهم ولا تطيش أحلامهم عند المدلهمّات التي تربك الأحوال وتعتّم الرؤى، وإذا ما عرف النّاس سبيل الحق واستقاموا على طريقته استقامت لهم الحياة وعاشوا سعداء مطمئنين.

ونجد نظير هذا المعنى في قوله تعالى بسورة الحديد: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٨).

وكم للتقوى من مثل تلك النّتائج المثمرة في سلوك المسلم ذكرها القرآن الكريم، سيما في ما تعظم فيه مسؤولية الإنسان أمام الله كرعاية الأسرة مثلا. يقول تعالى في سورة الطّلاق:

أ)- ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾(٢-٣)

ب)- ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ (٤).

ج)- ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾. (٥).

ومن نتائجها في علاقة المسلم بربّه أن يكفّر عنه سيئاته ويغفر له ذنوبه، إذ يوفّقه إلى التّوبة النّصوح ويكتب له بالخاتمة السّعيدة. والله تعالى عظيم الفضل واسع المغفرة. ويتلخّص من ذلك أنّ المؤمن المتقي يمنّ الله عليه من فضله رحمة ومغفرة، فلا يكشف في الدّنيا ولا يخزى في الآخرة، جعلنا الله تعالى من المتقين الفائزين، والله أعلم.

ائتمار قريش بالرّسول، وطعنها للقرآن

أ)- النص:

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾: المكر هو التدبير الخفي لإيصال المكروه إلى الممكور به من حيث لا يحتسب، والغالب أن يكون المكر في ما يسوء ويذمّ من الكذب والحيل، وإسناده إلى الله: ﴿وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ هو من باب المشاكلة في اللفظ، ومعناه هو تخييب سعي الكافرين في مكرهم وإحباط مؤامراتهم. ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: ليحبسوك موثقا بالقيود لا تستطيع الحركة. ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾: أي يطردونك من بلدك مكة. ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾: أي القرآن الكريم. ﴿أَسَاطِيرُ﴾: جمع أسطورة، وهي القصص والأحاديث التي لا نظام لها مما دوّن في الكتب القديمة.

ج)- البيان والتفسير:

عود إلى التذكير بنعم الله على الجماعة المسلمة بعد ما تحقّق لها من النّصر الكاسح على أعدائها يوم بدر، تذكير بالوضعية التي كان عليها رسول الله مع قومه في مكة وما عاناه من المكر والإذاية، إذ ازدادت وتيرة الضّغط عليه بعد موت

زوجه خديجة ﷺ وموت عمّه أبي طالب حتى اعتبرت تلك الفترة من مسيرة دعوته ﷺ بأنها عام الحزن قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

التّقدير: اذكر أيها الرّسول ما تآمر به عليك قومك، وما يزال أصحابك في قلّة وضعف، اذكروا كيف كنتم وكيف أصبحتم بعد أن نصركم الله على عدوّكم، فإن الشّكر لله الذي صدقكم وعده يقتضي منكم تلك الذّكرى لتزدادوا يقينا وثباتا في سعيكم وحبّكم لله ولرسوله.

وتتمثل المؤامرة التي دبّرها المشركون ضدّ رسول الله في ما ثبت من أخبار السّيرة أنّ المشركين احتاروا في أمر رسول الله، وإصراره على تبليغ دعوته، ورفضه لكلّ ما حاولوا إغراءه به من جاه ومال، فاجتمعوا في دار النّدوة للتشاور، وذلك قبل أيام من هجرته إلى المدينة المنوّرة، فقال أحدهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق وسدّوا عليه منافذ بيته إلا من كوّة تلقون إليه منها الطّعام. وقال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كلّ بطن في قريش فتى جلدا فيجتمعون ثم يأخذ كلّ واحد منهم سيفا ويأتون محمدا في بيته فيضربونه ضربة رجل واحد، فلا تقدر بنو هاشم على قتال قريش بأسرها فيأخذون العقل ونستريح منه. وقال آخر: الرأي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضرّكم ما صنع.

تلك هي الثّلاثية الماكرة التي دبّرها الكفار ضدّ رسول الله: الحبس أو القتل المشترك، أو الإخراج من البلاد. ثم وقع اختيارهم لرأي أبي جهل في القتل المشترك. ولكن الله العلي القدير كان لهم بالمرصاد إذ تولّى رعايتك وحفظك فخرجت من بين أيديهم إلى حيث وفّر لك الأمن والاستقرار في دار الهجرة.

وصيغة المضارع في: ﴿يَمْكُرُونَ﴾ تدلّ على الدّوام والاستمرار، وأنّ ذلك

هو شأنهم معك، والله تعالى من ورائهم محيط يخبط مسعاهم ويردّ مكرهم. والله أشدّ مكرا وأقوم تدبيرا وأبلغ تأثيرا من مكرهم، لأنه إحقاق للحقّ وإحباط للشرّ. وسمّيَ كله مكرا لمشاكلة مكر النّاس، لأنّ تدبيره تعالى لشؤون خلقه كله خير ورحمة.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

وقد تعدّدت أفانين مكرهم من إذاية الرّسول في شخصه الكريم إلى الطّعن في ما يبلّغه عن الله من آيات قرآنه، وذلك بعد أن تحقّق عجزهم عن الإتيان ولو بأصغر سورة من مثله. وكان دأبهم الإعراض عن سماع القرآن كما تقدم، فهاهم يكابرون ويدّعون أنهم قد سمعوا آيات القرآن وفهموا محتواها فوجدوها مجرّد أساطير قديمة في استطاعتهم الإتيان بمثلها. وقد نسب القول إلى مجموع الكفار بينما القائل شخص واحد كما تذكره الرّوايات، على اعتبار أن القائل قال ذلك بلسانه وغيره برضاه والرّاضي بالشيء كفاعله. فقيل: هو الحرث بن النّضر، وقيل: هو أبو جهل.

وقولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ ادّعاء منهم على القدرة على ذلك، ولكنهم امتنعوا ترفّعا وكبرياء وازدراء، إذ عللّوا ذلك الادّعاء الكاذب بقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، والإشارة إلى القرآن الكريم على أنه -في زعمهم- أخبار وأقاصيص قديمة في مقدورهم أن يقتبسوها من مصادرها وينقلوها إلى لغتهم وهم الفصحاء البلغاء. ولكن الواقع أنهم عجزوا عن ذلك وقد تحدّاهم القرآن أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ

صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ (٢٣-٢٤). والمعروف من السيرة أن هؤلاء الكفار كانوا يخشون سماع القرآن، لأنه يجتذبهم بسحر بيانه قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ (فصلت:٢٦). ولكنه الجحود والعناد أعمى بصائرهم وقد تهددهم الله تعالى وفند ادعاءاتهم في مثل قوله:

أ)- ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا، قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما﴾ (الفرقان:٥-٦).

ب)- وفي تهديد القائل نزل قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين، وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم﴾ (لقمان:٦-٧).

فاللهم ارحمنا بالقرآن العظيم واجعله لنا إماما ورحمة وهدى ونورا وشفاء.

والله أعلم

الرّدّ على استعجال المشركين لعذاب الله، والتهكّم من عبادتهم

أ)- النص:

وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ

عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ﴾: الإشارة إلى القرآن الذي يتلوه محمد ﷺ ويدّعون أنه يقوله من عنده، وقائل ذلك هو كلّ من النّضر بن الحارث وأبو جهل، وإسناده إلى الجمع إسناد إلى القوم جميعهم بما فعله رئيسهم. ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾: دعاء لأنفسهم بالهلاك، فيرجمون بحجارة من السّماء شبه إلقاء الحجارة بإنزال المطر من السّماء. وهو مثل قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (١٣). ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾: الصّلاة: الدّعاء، والبيت هو المسجد الحرام. والمكاء: التّصفير. والتّصدية: التّصفيق، مصدر صدّى بالشّدّ بمعنى صفّق، والصّدى هو الصّوت الذي يرجع من الهواء الصّلب. وفي أصل الكلمة احتمالات أخرى. ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾: أي لا يستحقون الولاية على المسجد الحرام لكفرهم.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد ذكر ما كان يمكر به المشركون لإذاية شخص رسول الله ﷺ عطف عليه مكرا آخر يتعلّق بما كان يتلوه عليهم من القرآن لدعوتهم إلى الحقّ. وحسب الرّوايات فإن القائل هو النّضر بن الحارث، وقيل: أبو جهل. ويقال في اختيار صيغة الجمع: "قَالُوا" ما قيل في القول السّابق قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا

اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

دعاء على أنفسهم بالهلاك، وكان العرب يأتون بمثل هذا الدّعاء إذا أرادوا تقرير أمرهم جازمون به فيكون ذلك بمثابة القسم الذي يؤكد الكلام ويقويّه، وهم ينفون هنا نفيا قاطعا أن يكون القرآن حقًّا كلام الله منزلاً من عنده كما يدّعيه محمد. وهم لجزمهم بأنه غير الحق، فقد رتّبوا على ذلك طلب إهلاكهم من الله بنوعين من العذاب: خاصّ وعامّ.

فالخاصّ: هو أن يمطرهم الله بحجارة العذاب ترجمهم من السّماء، كما فعل الله بأصحاب الفيل، ثم عمّموا أيّ نوع آخر من العذاب يكون أليما. وكل هذه المهاترة منهم لجزمهم بأن القرآن غير حقّ، وأنّه كما قالوا عنه: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾، وبالتّالي فهم لا يعاقبون على مخالفته. وتلك غاية العناد والكبرياء في هؤلاء القوم باستنزال عذاب الله، لاعتقادهم أن ذلك لا يكون، ما داموا يعتقدون أن القرآن غير حق.

والله تعالى لا يعجزه أن يأتيهم بعذاب عاجل، ولكنّه تعالى يمهل ولا يهمل ويحدّد لكلّ قضاء ميعاده قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (العنكبوت:٥٣). ذلك في العذاب الدّنيويّ العاجل، وقد لحق ذلك ببعضهم في غزوة بدر.

ثم بيّن الله حكمة تأخّر العذاب عمن بقي منهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

إنّه لطف الله ورحمته بخلقه برفع عذاب الاستئصال عن أمّة الدّعوة لرسول الله، وإبقاء الرّعاية البالغة لرسوله، وهو يوجّه الخطاب إليه تشريفًا وتعظيمًا بقوله:

﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾، كيف وأنت الرّحمة المهداة والنّعمة المسداة، بل وحتى في عذاب الاستئصال للأمم الخوالي كان الله تعالى ينجّي رسله والمؤمنين بهم قبل نزول العذاب. إنه الاستدراج الإلهيّ لهؤلاء القوم الذين علم الله بأن سيكون منهم مؤمنون أقوياء في الإسلام، كما كانوا أقوياء في الجاهلية، كما قال عنهم رسول الله.

والسّبب الثّاني لإمهال العذاب هو استغفارهم. قال ابن عبّاس: "كانوا يقولون في الطّواف: اللّهم غفرانك"، فهم في هذا الاستغفار يتوجهون إلى الله الذي يؤمنون بوجوده ولو كانوا فجّارا في تصوّرهم لحقيقة الألوهية.

ولهذه الجملة الحالية: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ احتمالات أخرى ضعيفة وهي:

أ)- قيل: إنهم ندموا على دعائهم بذلك فاستغفروا فنزلت.

ب)- قيل: إن المستغفرين هم المؤمنون المستضعفون الباقون في مكّة، نظر الله إليهم بعين الرّحمة، فأجّل العذاب عن المشركين وهم بين أظهرهم.

ج)- قيل: الاستغفار هنا باعتبار من سيسلم منهم.

د)- وقيل: استغفار من في أصلابهم إذا ما ولدوا وكبروا في أحضان الإسلام.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَآءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾:

الاستفهام إنكاريّ، واللام في "لَهُم" للاستحقاق. والمعنى: ما الذي ثبت لهم من الحظ في انتفاء العذاب عنهم وهم غير مهتدين وهم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام، سيما لأداء النّسك كما فعلوا ذلك في صلح الحديبية؟، فهم -إذن-

مستحقون لذلك العذاب. وفي هذا الإخبار بصيغة الاستفهام الإنكاريّ ردّ لادّعائهم بأنّهم سدنة البيت الحرام فلا يعذّبهم الله، ولذلك نصبوا أنفسهم ولاة للبيت يصدّون من يشاؤون عنه ويتركون من يشاؤون.

نفى الله عنهم تلك الولاية لشركهم ومناوءتهم لرسوله وقيامهم بأعمال تنافي حرمة البيت مثل طوافهم عراة رجالا ونساء، فهم وإن كانوا من ذرية إبراهيم، فقد انحرفوا عن ملّته وظلموا أنفسهم بالشّرك والكفر، وقد نفى الله عهده عن الظّلمة حين أجاب الله إبراهيم بجعل الإمامة في ذريته فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٢٤).

ثم عيّن الله الأولياء الحقيقيين للبيت، وهم المتقون لله الرّافضون للكفر والشّرك، وبالتّالي فهم الآمنون من عذاب الله.

جاءت صيغة الحصر لتأكيد نفي الولاية عن المشركين، ولكن أكثر هؤلاء القوم لا يعلمون هذه الحقيقة بأنّ منازل القربى عند الله لا تنال بالحسب والنّسب كما يدّعون، وإنما بالخشية والتّقى، وذلك بعد أن تبيّن الرّشد من الغيّ بدعوة الإسلام. كما قال الشّاعر:

أبي الإسلام، لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميـــم

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾:

المقصود بالبيت هو المسجد الحرام، والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لبيان عدم أهليتهم لولاية البيت، لأنّ صلاتهم به ليست بصلاة شرعية لاختلال شروطها وأركانها بما يقومون به من التّصفير والتّصفيق كما رواه

ابن عباس إذ قال: "كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفّر وتصفّق". وروى غيره أنهم كانوا يعارضون النّبي ﷺ في الطّواف ويهرّشون عليه في صلاته إيذاءً له واستهزاءً به. وقول ابن عبّاس أنسب بالسّياق إذ ينفي الله عنهم أيّ نوع من العبادة الصّحيحة التي تقرّبهم إلى الله، أو تجعلهم مؤهلين لولاية البيت، ولذلك استحقوا عذاب القتل والأسر يوم بدر وقد استعجلوا به، فأتاهم من حيث لم يحتسبوه، وهذا جزاء الكفر والعناد، وإن للطاغين لشرّ مئاب، والله أعلم.

إنفاق الذين كفروا للصدّ عن سبيل وسوء عاقبتهم

أ)- النص:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أيّ لمحاربة الدّعوة الإسلامية بشتّى الوسائل، وأعنفها الحرب والقتال. ﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾: أي أنها سوف تذهب سدًى بانهزامهم الذي يورثهم أسفًا وندمًا. ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾: من الميز بين شيئين متضادّين كالخبيث والطيّب. والتّمييز هنا بالنّسبة إلى الله تعالى ما كان بالفعل والجزاء ليظهر في الواقع، ولا يكون ذلك إلاّ بعلمه لأن الله بكل شيء عليم.

﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً﴾: أي بعضه منضمّ إلى بعض متراكبا كالسّحاب المركوم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾: قرأ الجمهور: ﴿لِيَمِيزَ﴾ بفتح الياء الأولى وكسر الميم مضارع ماز يميز بمعنى فرز. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضمّ الياء الأولى وفتح الميم وتشديد الياء الثّانية مضارع ميّز تمييزا أي محص الفرز.

د)- البيان والتّفسير:

لم تقتصر إداية المشركين لرسول الله وأصحابه على الأذى البدني بالحبس والتّنكيل والمطاردة، بل تعدّاه إلى محاولة إبادتهم واستئصالهم بالحرب والقتال. إذ أخذوا يجمعون الأموال ويستنفر بعضهم بعضا استعداداً للحرب، ولكن الله تعالى وعد رسوله بالنّصر والغلبة وتوعّد أعداءه بالهزيمة وما يعقبها من الحسرة والنّدم فقال جلّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

تختلف دواعي إنفاق الأموال من شخص لآخر ومن جماعة إلى أخرى، وقديما قال امرؤ القيس:

ولو أنني أسعى لأدنى معيشة كفاني -ولم أطلب- قليلاً من المال
ولكنني أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالي

وقال عنترة:

وإذا شربت فإنني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يُكلم

والمقصود بـ"الذين كفروا" في الآية الكريمة هم قريش، غير أن اللّفظ بعمومه يتناول كلّ من كان على شاكلتهم في كلّ زمان ومكان. فقد روي عن ابن عباس

ومجاهد وغيرهما أن الآية نزلت في أبي سفيان، وما كان من إنفاقه على المشركين في "بدر"، ومن إعانته على ذلك في "أحد" لقتال رسول الله. حتى قيل: إنهم جعلوا مال العير كلّه لقتال محمد حتى يثأروا لقتلاهم في "بدر".

وقوله تعالى: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ بصيغة المضارع لتدلّ على أن ذلك هو دأبهم في كلّ وقت ما داموا متلبّسين بالكفر، وعلّة ذلك الإنفاق الكثير هو الصدّ عن سبيل الله، أي محاربة الدّعوة الإسلامية، ومحاولة إجهاضها في مهدها يوم بدر ويوم أحد ويوم الأحزاب ... إلخ.

وكلّ مال أُنفق للصدّ عن سبيل الله في أيّ مجال كان، يترتب عليه هذا الحكم، منها ما ينفقه السّفهاء اليوم لتفويت الحقوق الشّرعية العامّة أو الخاصة، إدلاء بها إلى الحكّام بالرّشاوى وشراء الضّمائر، مما يفضي أحيانا إلى سفك الدّماء وانتهاك الأعراض.

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾: إخبار تفرّع على العلة السّابقة: ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، و"السّين" تدلّ أن هذا الإنفاق يتكرّر في المستقبل ما استمرت المواجهة بينهم وبين المسلمين. ويعد الله المؤمنين بالغلبة على أعدائهم، وجاء العطف بـ"ثم" لأنّ الحسرة تعقب تفويت المقصود وذلك بعد أن تضع الحرب أوزارها ويتحدّد الغالب من المغلوب، والحسرة هي شدّة النّدامة والتّلهّف على ما فات. وإسناد الحسرة إلى الأموال من إسناد المسبّب إلى السّبب لقصد المبالغة. وقد أنذرهم الله فوق ألم الحسرة بالهزيمة أمام المسلمين. وذلك إرهاص لما يستقبلهم من الانتكاسات حتى فتح مكة، وذلك هو خزي الدّنيا، لأن كلّ من حاول شيئا بمعصية الله كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتّقى كما ورد في الحديث.

وأمّا عذابهم في الآخرة فيدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾، تكرّر الوصف بالكفر لزيادة التّشنيع عليهم، وأنّ الكفر هو سبب ما يصيبهم في الدّنيا والآخرة.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾: والنّفوس البشرية تختلف بحكم نشأتها وتربيتها في هذين الوصفين: الطّيبة والخبائة، وبالتّالي فهي تختار ما يوائم طبعها في ذلك من الإيمان أو الكفر في المعتقد، ومن الفضيلة أو الرّذيلة في السّلوك. وقد تقدّم توضيح معنى الميز بين الموصوفين بهاتين الصّفتين المتناقضتين، بأنه ما يكشفه الله للناس في الواقع بالفعل والجزاء، وإلاّ فهو في علم الله مميّز معلوم، وهو بكلّ شيء عليم.

﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾: وضمّ الخبثاء بعضهم إلى بعض في ركام متراصّ هو للإمعان في إيلامهم والزّيادة في حسرتهم، حين يشكو بعضهم لبعض ما تعرّضوا إليه من الخزي والهوان وذهاب الأموال في غير ما طائل، فعلى قدر ما يزداد عددهم وهو مدنّسون بذلك الخبث يزداد التّشهير بهم أمام الخلائق وهم يحشرون إلى جهنم وبيس المهاد.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: والإشارة إلى أولئك المتصفين بالخبث لأنهم في خسران كامل بخسارة أموالهم وأنفسهم وبالخسارة في الدّنيا والآخرة، كما قال في سورة الكهف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (١٠٣-١٠٥).

فاللّهم اهدنا سبل رشدنا، والله أعلم

موقف المؤمنين من الكفّار في إسلامهم وكفرهم

أ)- النص:

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾: لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ: اللام بمعنى "في" أو هي للتعليل، وليس المراد أن يقول لهم النبي هذا القول، أي بانتهائهم من الكفر والصدّ عن سبيل الله يغفر لهم ما مضى من كفرهم لأن الإسلام جبّ لما قبله. ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ الۡأَوَّلِينَ﴾: المراد من "العود" أي رجوعهم إلى مناوأة الرّسول وأصحابه، والمقصود بـ"سنة الأولين" هو سنة الله في إهلاك المناوئين لرسل الله. فكأنه شيء معلوم لدى المخاطبين. ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾: أي حتى تنتفي الفتنة منهم بإسلامهم أو بجنوحهم للصلح كما فعل الرّسول معهم في صلح الحديبية قبل أن يخونوا العهد. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾: أي الله مطّلع على كل أحوالهم إقبالا أو إعراضا. قرأ الجمهور: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بـ"تاء" الغائب، وقرأه رويس عن يعقوب بتاء الخطاب. ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾: الْمَوْلَى: هو الذي يتولّى أمر غيره في جلب النّفع ودفع الضّرّ، وفيه معنى النّصر.

ج)- البيان والتفسير:

جريا على أسلوب القرآن في الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، يجيء هذا التعقيب للإنذار والوعيد السابقين بإرشاد الكفار إلى تدارك ما فاتهم ودعوتهم إلى سبيل الرشد والصلاح، ولكن من موقف القوة للمؤمنين وأن الله تعالى مولاهم ونصيرهم. قال تعالى آمرا رسوله أن يبلغ إليهم: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾:

الخطاب للرسول، واللام في "للذين" للتبليغ، ومضمون البلاغ تصدّر بأداة الشرط ومضارع على صيغة الغائبين حكاية للكفار، وفي قراءة ابن مسعود هو على صيغة الخطاب: ﴿إِنْ تَنتَهُوا﴾، والمعنى: إن ينتهوا عن كفرهم وصدّهم عن سبيل الله، وكلّ ما كانوا يقومون به لمناوأة الرسول وأصحابه، وذلك بأن يدخلوا في الإسلام، لأن ذلك هو الوسيلة التي تتحقق بها مغفرة ذنوبهم السالفة، لأنّ الإسلام يجبّ ما قبله، والتوبة ما قبلها فيكون معنى قوله تعالى: ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ إسقاط التبعات التي قد تصدر عن الكافر في حالة كفره قبل أن يسلم مما بينه وبين الله والعباد.

وقد نقل قطب الأئمة رحمه الله عن يحي بن معاذ الرّازي قوله: "في هذه الآية توحيد ساعة يهدم كفر سبعين سنة. وتوحيد سبعين سنة لا يقوى على هدم ذنب ساعة". ثم علق على ذلك بقوله: وهذا قولنا: إن الإصرار على ذنب يبطل الأعمال كلّها.

﴿وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾: ليس المراد بـ"العود" هنا رجوعهم إلى الكفر بعد الانتهاء منه، أيْ بمعنى الرّدة عن الإسلام، بل المراد بقاؤهم

واستمرارهم على مناوأة الرّسول والصدّ عن سبيل الله، لأن مجرّد بقائهم على الكفر ولو بغير صدّ أو مناوأة هو ظلم عظيم يترتّب عليه الحكم المذكور، والمفهوم من قوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ إذ هو تعريض بالوعيد الذي ينتظرهم فقد جرت سنة الله في الذين خلوا من قبل أن يهلكهم الله بعذاب الاستئصال بعد أن يقيم عليهم رسلهم الحجة، كما قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:٦٢).

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

ولما كان البقاء على الكفر ضلالا يفتن المؤمنين في دينهم وتنجرّ عنه أحكام تزعزع الاستقرار في المجتمع المسلم أمر الله المؤمنين بقتال الكفّار إلى غاية انتفاء الشّرك الذي يفتن النّاس في دينهم بالإذاية والتّعذيب، لأنّ حرّية المعتقد مكفولة للناس: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦). ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩).

وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله﴾: يوحي بمنع أيّ دين لا يرتضيه الله لعباده، ومعنى ذلك أن لا يبقى غير الإسلام دينا، بحيث لا ينتهي القتال إلاّ بتحقيق هذه الغاية. وبما أن الواقع العالمي لم يتحقق فيه ذلك في ما وراء الجزيرة العربية، فإن جمهور المفسّرين يؤوّلون المقصود من الآية الكريمة أنهم كفّار أهل مكة والمدينة وما حولهما، ويسنده قوله ﷺ: **«لا يجتمع دينان في جزيرة العرب»**.[1]

١- رواه البيهقي في السنن من حديث عمر بن الخطاب، كتاب المساقاة، باب المعاملة على النخل بشرط...، حديث ١١٤٠٩.

أو يقال: إن المقصود هو توفير حريّة التّديّن بحيث يقف المشركون والملحدون موقفا حياديا من المتديّنين فلا يفتنونهم عن دينهم، فأين هم حكام المسلمين من هذه القاعدة؟، وقد أصبح التّديّن وصمة يلاحق بها أصحابه بكل نكاية وازدراء.

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: الضّمير يرجع إلى الكفّار، أي انتهاؤهم عن الكفر وكفّهم عن قتالكم بأن أظهروا الإسلام؛ فكفّوا أنتم عن قتالهم لأن الله أعلم بما في قلوبهم، وهو بصير بمقاصد أعمالهم فيجازيهم عنها في الدّنيا والآخرة.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾: التّولّي هو الإعراض، والمقصود به إعراضهم عن الدّعوة الإسلامية وبقاؤهم على الكفر وصدّكم عن سبيل الله فاثبتوا أنتم على دينكم، إذ لا يضركم توليّهم، فلا تخافوهم لأن الله تعالى هو مولاكم وناصركم، ومن كان الله مولاه فلا يذلّ ومن كان ناصره فلا يغلب: ﴿إِنْ يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ (آل عمران:١٦٠).

فيجب على المؤمنين أن يجزموا بهذه الحقيقة المعنوية من تأييد الله لهم. ولذلك صدّر هذا الجواب للشرط بفعل: ﴿اعْلَمُوا﴾ حتى يهتمّ المسلمون بحسن علاقتهم بالله واستنزال النّصر من عنده إلى جانب الإعداد الماديّ المحكم، كما سيرشدهم الله إلى ذلك في ما يأتي.

وفعل ﴿نِعْمَ﴾ في كلتا الصّفتين هو للمدح والثّناء على الله، وقد تكرّر لإفادة التّأكيد.

والله أعلم

كيف تقسّم الغنائم؟

أ)- النص:

وَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾: غنمتم من الغنيمة ويقال: غُنْم ومغنم. ونجد في أول السّورة كلمة: الأنفال: مفرده نفل. ويرى كثير من المفسرين أن النّفل والغنيمة مترادفان، وهما ما أخذه المقاتلون من أعدائهم قهرا في الحرب وفيه الخمس. والفيء وهو مذكور في سورة الحشر: هو ما حصل عليه المجاهدون من أموال الأعداء عفوًا من غير حرب، وليس فيه الخُمس. ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾: "اللاّم" للملك أو الاستحقاق، والمصدر المؤوّل يكون مبتدأ حذف خبره، أو خبرا حذف مبتدؤه. ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾: قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب. ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: هو يوم بدر لأنه فرّق الله فيه بين الحق والباطل. ﴿الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾: أي المسلمون والكفار.

ج)- البيان والتّفسير:

عود إلى أحداث "بدر" سيما حكم الأنفال لبيان المجمل من مفتتح السّورة. ومناسبة الانتقال إلى حكم الغنائم هو الأمر الإلهي للمسلمين بقتال المشركين الذي

يجرّ إليهم الغنائم، فقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾:

الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾، وهي مصدّرة بفعل ﴿فَاعْلَمُوٓاْ﴾ للتنبيه على وجوب الاهتمام بالحكم التي يأتي بعده، وهو بيان وتفصيل لحكم تقسيم الغنائم بعد أن انتزعه الله من تصرّف المقاتلين، إذ أصبح محور اهتمامهم واختلافهم الذي كاد يفضي إلى التنازع. وهنا أبان الله حكمها وأنها تقسّم أخماسا، الخُمس الواحد لمن ذكرهم الآية، والأربعة الأخماس الباقية للمقاتلين، وقد بيّنت السنّة كيف تقسّم عليهم.

وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ يشمل كلّ ما يُغنم مهما قلّ أو كثر، أو غلا أو حقر.

أ)- فأمّا الخُمس الواحد: فظاهر الآية أنّ مصارفها ستّة، ولكنّ جمهور العلماء يرى أنها خمسة، وأن ذكر الله جاء لتعظيم شأن الحكم وشأن رسول الله، فلا يخصّص شيء لله كما ذهب إليه أبو العالية إذ قال: "إنّ نصيب الله يصرف في الكعبة بل يعزل خُمس الخُمس لرسوله يصرفه في ما يشاء، لأنّ كلّ ما في الكون هو ملك لله". وبقية الأصناف في الخُمس هي كما يلي:

- سهم ذوي القربى: وهم قرابة رسول الله من بني هاشم وبني المطّلب ليس إلاّ، ويؤيّد ذلك ما فعله رسول الله، إذ أخرج البخاري والنّسائي أن النبي ﷺ لمّا قسّم سهم ذوي القربى بين بني هاشم وبني عبد المطّلب قال: «**إنّهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد**»، وشبّك بين

أصابعه.[1]

ثم تفيد رواية السّيرة أن بني هاشم وبني عبد المطلب دخلوا في مقاطعة شعب مكـــة بموجب الصّحيفة التي كتبتها قريش، ولم يدخل بنو عبد شمس وبنو نوفل، والغني والفقير منهم سواء في العطاء إكراما لهم ونصرة.

- ويصرف سهم الرّسول بعد وفاته إلى ما كان يصرفه في حياته من مصالح المســـلمين. وقـــال أبو حنيفة ﷺ: يسقط سهمه وسهم ذوي قرباه بعد وفاته ﷺ ويرجعان إلى اليتامى والمساكين وابن السّبيل.

- سهم اليتامى: وهم من فقدوا آباءهم.

- سهم المساكين: وهم الفقراء وأهل الحاجة.

- سهم ابن السّبيل: من انقطع عن بلده.

وللفقهاء خلاف في توزيع تلك الأخماس من الخمس الأول وكذا في الأربعة الأخماس الباقية، والمسكوت عنها في الآية الكريمة كيف تقسّم على المقاتلين؟. ولمن أراد التوسّع فيها والوقوف على تفاصيلها أن يرجع إلى الموسوعات الفقهية.

﴿إِن كُنـــتُمْ ءَامَنـــتُم بِاللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

الـــتّقدير: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا بما علّمكم الله في تقسيم الغنائم. لأنّ المقصود هو الالتزام والامتثال لما أمر الله به، والمخاطبون مؤمنون بالله ورسوله وبما تنزّل عليه من الوحي في شأن أحداث بدر وغيرها، وإنما تخصيص يوم بدر: ﴿يَوْمَ

١- رواه النسائي في السنن الصغرى من حديث جبير بن مطعم، كتاب قسم الفيء، باب قسم الفيء، حديث ٤١٣٧؛ ورواه أحمد في المسند من حديثه أيضا، حديث ١٦٧٨٧، ٤/٨١.

﴿الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ لإزالة تلك الأطماع التي علقت بالغنائم حتى كادت تفسد على المسلمين وحدتهم، فإيمانهم بالله ورسوله يقتضي منهم تحقق المشروط، وهو الإذعان لحكم الله ورسوله حتى يقتنعوا بما قسم الله لهم في الغنائم من الأربعة الأخماس الباقية.

وفي ذكر يوم بدر إيحاء لهم لتذكّر نعمة الله عليهم بما أيدهم به من النصر على أعدائهم حتى مكّنهم من حيازة تلك الغنائم، والله على كلّ شيء قدير، إذ قلب ميزان القوى في تلك المعركة فجعلها لصالحكم، والله أعلم.

كيف تراءى الجمعان في غزوة بدر

أ) - النص:

إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾: بتثليث العين، قرأه الجمهور بضمّ العين، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالكسر. والمراد بها شاطئ الوادي وضفته. والدّنيا: مؤنث

"أدنى" أي القريبة. ضدّه: القصوى أي البعيدة. ﴿وَالرَّكْبُ﴾: المراد به من كان مع قافلة قريش، والجهة السّفلى هي جهة البحر التي غيّر إليها أبو سفيان طريقه. ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾: وذلك بأن يتأخّر أحد الفريقين عن الآخر في الوقت. ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾: قوبل الهلاك بالحياة وهما مستعاران هنا لمعنى ذهاب العزة والقوة أو بقاؤهما بنهوض الأمّة وانتعاشها وقد يراد الحقيقة. ﴿كَثِيرًا﴾ و﴿قَلِيلًا﴾: يراد بهما الكثرة أو القلة العددية، وهما مفردان أخبر بهما عن ضمير الجمع لجواز ذلك. ﴿لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ﴾: الفشل بمعنى الجبن والوهن. والتنازع: الاختلاف والشّقاق. ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾: أي أنجاكم من الفشل والتنازع. ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: أي بحالتكم النّفسية في مثل تلك المواقف.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾: قرأ نافع والبزّي عن ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف: ﴿حَيَّ﴾ بإظهار الياءين. وقرأه البقية: ﴿حَيَّ﴾ بإدغام إحدى الياءين في الأخرى. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿تُرْجَعُ﴾ بضمّ التّاء وفتح الجيم، أي الذي يرجعها هو الله تعالى. وقرأ البقية: ﴿تَرْجِعُ﴾ بفتح التّاء وكسر الجيم، أي ترجع بنفسها إلى الله. ورجوعها هو برجوع أسبابها.

د)- البيان والتّفسير:

يتواصل الحديث عن وقعة بدر والتي وصفها الله بـ"يوم الفرقان". وعلى ذكر التقاء الجمعين فيه جاء لفظ "إذ" بعده بدلا من: ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ للتذكير بالألطاف الرّبانية التي حفّت المؤمنين يومئذ لتخفّف عنهم ما فيهم من

ارتباك وحرج في لقاء عدوّهم، ولتهيّئ أسباب النّصر المادية والمعنوية فقال جلّ من قائل: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

لا يهتمّ القرآن بذكر التّفاصيل في الأحداث والوقائع إلا لما في ذلك من التّذكرة والفائدة، وحتّى يشعر المؤمنون بضخامة فضل الله عليهم وحجم تأييده لهم في هذه الموقعة، ذكّرهم بكيفية نُزُولهم على ماء بدر، وكيف أنهم كانوا على العدوة الدّنيا، وهي رملية تسوخ فيها الأقدام وكانت قريبة من المدينة، بينما كان أعداؤهم من الجهة الأخرى البعيدة عنهم مما يلي مكّة، وهي أصلب أرضا وأقرب إلى الماء. فقلب الله تلك الوضعية بإنزال المطر ليثبّت أقدام المسلمين على الأرض الرّملية الهشّة، وليعطّل المشركين بالأوحال حتى لا يسبقوا إلى الماء. وهكذا التقى الجيشان على غير ميعاد، وكان ركب القافلة أسفل منكم، إذ غيّر اتجاهه إلى ساحل البحر.

وفي تذكير المؤمنين بهذه التّفاصيل بعد بيان حكم تقسيم الغنائم إقناع لهم وتطمين لنفوسهم بالرّضى والنّزول عند حكم الله في تدبير شؤونهم وحسن الظّن به في تحقيق النّصر لهم.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾: الضّمائر شاملة للفريقين، أي المخاطبين وهم المؤمنون، والغائبين وهم الكفّار، ولكن يغلّب جانب المخاطبين. ودواعي الاختلاف في الميعاد كثيرة منها تلك الهيبة الحاصلة لدى كلّ فريق من مواجهة الآخر، سيما في جانب المؤمنين لقلّة عددهم وضعف عدّتهم، فيكون للاستدراك بـ"لكن" مقامه المناسب هنا لبيان حكمة الله من وراء مجيئكم من غير

مـــيعاد، وهـــو قضـــاؤه -كما هو مقدّر في علمه تعالى- بنصركم السّاحق على أعدائكـــم، فإذا الواقع يثبت ذلك وبتلك الدّقة العجيبة في المكان والزّمان، بحيث لو تواعدتم عليهما من قبل لما أمكن وفاؤكم بما تواعدتم عليه نظرا لملابسات كلّ فريق ونظرته للفريق الآخر. ولكنه تدبير الله الحكيم، لما تحققه نتائج تلك المعركة في إقامة الدّليل والبرهان القاطع لما يختاره كل فريق: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

فنـــتائج المعـــركة لا تُـــبقي للفريقين أيّ لُبس ولا غموض في التّقييم، لأنها الفـــرقان بين الحق والباطل، وبينهما من المسافة ومن الفوارق المعنوية ما بين الحياة والموت: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام:١٢٢).

وإذ أثبتت المعركة لكلّ فريق دلائل وبيّنات لا تُنكر ولا تُجحد، فقد وَضَح الطّـــريق الذي تحفّه الحياة والسّعادة، والطّريق الذي يحيط به الموت من كلّ مكان، وهكذا تقوم الحجة على من يختار، فلا لبس ولا احتيار، والله تعالى سميع عليم.

﴿إِذْ يُـــرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾:

"إذْ" معطوفـــة على سابقتها في معنى البدلية، ومن الألطاف الرّبانية وتدابيره الخفـــية لقلب ميزان القوى في المعركة هذا التّحضير النّفسي لرسول الله وصحابته بإرائـــته هذا المنام، ورؤيا الرسول لا تُكذّب، لأنها نوع من الوحي، يبلّغه الرّسول للمؤمـــنين، أراه الله تعالى جموع الكفّار قلّة لا يُخشى جانبهم عند المنازلة والقتال؛ فلا يهاب المؤمنون مواجهتهم بطبيعة الحال، وذلك لإزالة ما كان يخامرهم من التّردّد والتّهيّب.

وتلـــك هي الحكمة من تلك الإراءة التي جعلها المولى تباشير صادقة للنصر الموعـــود، إذ لو أخبر المسلمون بالصّورة الحقيقية لأعدائهم لجبنوا عنهم ولازدادت منازعـــتهم في الإقدام أو عدمه، ولكنّ الله سلّمهم من ذلك الفشل والتّنازع بتلك المكاشـــفة الرّوحية لنبيّه عن طريق المنام، لأن ذلك أبلغ تأثيرا عند الرّائي من وحي مسموع. وقد قال الشّاعر: فما رَاءٍ كمن سمعا

ومقدّر ذلك هو الله تعالى العليم بخبايا النّفوس البشرية والمطّلع على ما يعتلج في القلوب من الخواطر المتصارعة.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾:

معطوف على الإراءة الرّوحية السّابقة، وهذه هي الإراءة البصرية الحقيقية في الميدان أراها الله الفريقين على خلاف ما في الواقع، أي كلّ فريق تخيّل الآخر قليل العدد،ولكلّ من الرؤيتين المتخيّلتين أثرها البالغ في نفوس أصحابها.

أ)- فعـــند المســـلمين يكـــون تخيّلهم لقلة أعدائهم حافزا لهم على الثّبات والإقدام، وقد امتلأت نفوسهم حنقا وغيظا من المشركين لما عانوه منهم من مكر وإذايـــة، ولمـــا يعتقدونه فيهم من ظلم وكفر، وقد خرجوا لقتالهم امتثالا لأمر الله ورسوله.

ب)- وأمّا عند المشركين فتخيّلهم لقلة عدد المسلمين يكون باعثا لهم على تحقـــير جانب خصمهم فلا يشتدّ بأسهم في المواجهة، ولا يتأهّبون بما فيه الكفاية لافتكاك النّصر، وتلك من تدابير الله الخفية في تعطيل الأسباب وقلب الأوضاع.

وهكـــذا صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ، وهي حكاية حال ماضية، جاءت بصـــيغة المضارع لاستحضارها في مجال التّذكير بألطاف الله وتدابيره الحكيمة التي

علّلها بقوله: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، والأمر المقضي هو دحر الشرك وإعزاز الإسلام.

وتقول أخبار السّيرة أن تلك الإراءة للطّرفين كانت قبل الالتحام والمناجزة، أمّا بعدهما فقد رأى المشركون المسلمين ضعف عددهم كما حكى الله ذلك في سورة آل عمران بقوله: ﴿تَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ (١٣).

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾: وهو تذييل مناسب لما يجب أن يكون عليه معتقد المسلم في إرجاع حكمة التّدبير للأمور إلى الله وحده في جميع أحوالها من القلّة أو الكثرة، والعظمة والحقارة، وأن حركة الإنسان وإن كانت تصدر عن إرادته، فإنه تعالى لا يقدّر لها النّفاذ في الأشياء وواقع الحياة إلا وفق ما سبق في علمه ومشيئته فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء، والله أعلم.

المقوّمات المعنوية للانتصار في الحرب

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿لَقِيتُمْ فِئَةً﴾: الفئة: الجماعة من النّاس جمع فئات. ﴿فَاثْبُتُوا﴾: الثّبات: لزوم

المكـــان دون تحرّك، ويستعار للدوام على الفعل وعدم التردّد فيه، والمقصود به هنا الـــدّوام عـــلى القتال. ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: تستعار الرّيح للقوة والغلبة، وحقيقتها تحـــرّك الهـــواء وتموّجه، وقد يقصد بها الدّولة نفسها. يقال: هبّت رياح القوم، إذا دالـــت لهـــم الدّولة ونفذ أمرهم. ﴿بَطَراً وَرِئَآءَ النَّاسِ﴾: البطر: هو إعجاب المرء وغـــروره بمـــا فيه من النّعمة، ويقال: الأشر. قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ (القمر:٢٥). ﴿وَرِئَآءَ﴾: مصدر راءى، ويقال: مراءاة، إراءة النّاس العمل بغية الفخر عليهم وحبّ الحمدة. ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: أي لا يخفى شيء من عملهم عن علم الله.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد تذكير المؤمنين بفضل الله عليهم في تحقيق النّصر بغزوة بدر، أمرهم الله في هـــذه الآيات بما يجب أن يلتزموا به في كلّ لقاء مع العدوّ، وعدّد لهم المقوّمات المعنوية لافتكاك النّصر فقال: ﴿**يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَـــثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾.

كانـــت غـــزوة بدر أوّل تجربة للمؤمنين، وهم -وإن حفّت بهم عناية الله وحققـــوا النّصـــر على أعدائهم- فقد حدث لهم قبلها وبعدها ما يستخلصون منه العبر بعد أن فصل الوحي في ما تنازعوا فيه وطابت نفوسهم لحكم الله، فلا بد من ضـــبط قواعـــد وآداب تؤطّر سلوكهم المستقبلي في كلّ المواقع التي يجابهون فيها أعداءهم. وهي مسؤولية تضامنية بين أفراد الجماعة تستدعي هذا النّداء الإلهي مرّة أخـــرى بـــتلك الصّفة المحبّبة إلى نفوس المؤمنين: ﴿الذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهم على أتمّ استعداد للطاعة والامتثال.

إنهـــا آداب خمسة، لكلّ منها أثرها الفعّال في تقوية الرّوح القتالية وضمان الثّبات والصّمود أمام العدوّ.

أ)- ﴿فَاثْبُتُواْ﴾: الثّـــبات عند لقاء العدوّ من العناصر الأساسية في إحراز النّصـــر، ولذلك جاء النّهي عن الفرار من الزّحف في النّداء الأول من هذه السّورة كما تقدم. ويتحقق الثّبات عند المقاتل إذا توفّرت لديه القوّة المعنوية الكافية، وذلك بقناعـــته أوّلا بنـــبل المقصد في ما يقاتل من أجله، وأنه يجاهد في سبيل الله لإعلاء كـــلمة الله، وأنـــه في نهايـــة المطاف ينال إحدى الحسنيين: النّصر أو الشّهادة، ثم باستحضار المقاتل لحالة خصمه، وهو يجابهه بنفس القوة والعزيمة، دفاعا عن الكفر والباطل،فيتألم ويصيبه القرح مثله، كما ثبت أن الرّسول كان يقول لأصحابه: «**يا أيهـــا النّاس: لا تتمنّوا لقاء العدوّ، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السّيوف**».[1]

ولقد أشاد القرآن بخلق الثّبات في كثير من آياته سيما لرسول ﷺ في ما كان يـــتنزّل علـــيه مـــن الوحي فقال جلّ من قائل: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (الفرقان:٣٢).

وقـــال له بعد عرض جملة من قصص الأنبياء في سورة هود: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (١٢٠). ومن أدعيته عليه السلام: «**اللّهمّ ثبت قلبي على دينك**».[2]

١- رواه البخاري من حديث عبد الله بن أبي أوفى، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو، حديث ٢٨٦١؛ ورواه مسلم من حديثه أيضا، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، حديث ١٧٤١.

٢- رواه الترمذي عن أنس، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، ٢١٤٠

وخلق الثّبات مطلوب في كلّ الحالات المادية والمعنوية كما عدّدها القرآن في ثبات القلوب وثبات الأقدام وثبات النّفوس. ولعل أخطرها هو ثبات المعتقد ونهاية المسلم على القول الطّيّب كما قال تعالى في سورة الحجّ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ (الحج:٢٤).

وقال في الكلمة الطّيبة: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ (إبراهيم:٢٧).

ب)- ﴿وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: ذكر الله هو ملاك الأمر في حياة المؤمن كلها في جميع الأحوال، سلما وحربا وشدة ورخاء وفي المنشط والمكره. وهو القوة المعنوية القاهرة في مناجزة العدوّ إذ يشعر المقاتل بأنه يستند إلى ركن ركين، إلى مولاه ذي القوة المتين،فيتبدّد عنه الخوف، إذ يصرفه ذكر الله عن مثبّطات عزيمته بذكر الأهل والولد وغير ذلك من مفاتن الدّنيا، ومن ثمّ لا يشغله في ذلك الموقف الحرج إلا ما ينال به رضى الله من قهر أعدائه أو الموت في سبيله.

ونظرا لما لهذين الأمرين من أثر وفعالية في نفوس المجاهدين في إصلاح ذواتهم عقّبَ عليهما بقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾،لأنّ الله ينظر إلى ما في النّفوس،وأما الآداب الباقية فترجع إلى النّظام والانضباط مما يستوجبه الحرب والقتال.

ج)- ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: ولا يتحقّق النّظام والانضباط إلا بالطّاعة وحسن الانقياد لله في ما أمر به أو شرعه من الأحكام، وبالابتعاد ومجافاة كل ما نهى عنه لما فيه من المضرّة والمفسدة، وأما طاعة الرّسول فزيادة على أن طاعته من طاعة الله في الأحوال العادية فهي تتأكد في حالة الحرب والشّدة باعتباره قائدا للجيش يعلم من الاستراتيجية الحربية ما لا يعلمه الجند.

وفي حكم طاعة الرّسول في ذلك طاعة أمراء الجيوش وقوّاده، سيما في

الحـــروب الجهادية المقدّسة، ولا تمنع طاعة الجند لقائدهم أن يستشيرهم في بعض الأمور الحربية كما كان يفعل رسول الله مع أصحابه.

د)- ﴿وَلاَ تَـــنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: التّنازع والخلاف مدعاة للخيبة والفشل، فكما أن طاعة القائد أمر واجب، فإن وحدة الصّفّ بين المسلمين وتماســـكهم في جـــبهة واحدة أمام أعدائهم أمر ضروريّ لإحراز النّصر كما قال تعـــالى في سورة الصّفّ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (٤).

ولتأكيد النّهي عن التّنازع، بيّن الله تعالى سوء عاقبته بالفشل وذهاب الرّيح أي تلاشي قوة الجماعة وذهاب دولتهم.

هـــ)- ﴿وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: والصّبر هو الصّفة الجامعة لكثير من الخصال الحميدة، وهو نصف الإيمان كما قال رسول الله ﷺ، والصّبر مطلوب في تحقـــيق الكمـــال النّفسي للمؤمن بتمتين علاقته بربّه، كما هو مطلوب لتحقيق حســـن العلاقة بينه وبين رفاقه في جميع الأحوال، ولذلك جاء تعليل الأمر بالصّبر، بمعيّة الله للصابرين، وهي الضّمان الأكيد للغلبة والنّصر.

﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَآءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾:

بعـــد الأمر والنّهي اللذين يتضمنان تلك الآداب وآخرها النّهي عن التّنازع والخـــلاف، أعقـــبه الله بـــتحذير المؤمنين من البطر والمراءاة في ما يتحقق لهم من مواجهة أعدائهم، حتى يكون مقصدهم من ذلك هو نصرة دين الله وإعلاء كلمته، فـــلا يكونون مثل أعدائهم من كفّار قريش حين خرجوا من ديارهم للنفير بعد أن زالت أسبابه بخلاص القافلة من تعرّض المسلمين لها، خرجوا في زهو وخيلاء وطلبا

للفخر على النّاس، وهو ما قاله أبو جهل لأصحابه يستنفرهم للقاء محمد وأصحابه، بعد أن طلب منه أبو سفيان الرّجوع بالنّفير، إذ لا داعي لذلك فقال: "لا والله، لا نرجع حتى نَرِدَ بَدْرًا فنقيم ثلاثا، ننحر الجزور، ونطعم الطّعام، ونشرب الخمر، وتعزف القيان علينا، فلن تزال العرب تهابنا". وما درى هذا الشّقي اللّعين أنه ذهب لمصرعه هو وكثير من سادات قومه. فأذلّهم الله بذلك البغي، وأهلكهم بذلك البطر والرّياء.

ولما كان للنصر والغلبة نشوة ونخوة فقد حذّر الله المؤمنين منهما إذ ما تزال صورة أعدائهم ماثلة أمامهم، وهم صرعى في الميدان، أو أسارى في الأصفاد والأغلال، أو فارّون خائبين يجرّون الأذيال. وتتمثل دناءة مقصدهم في كل ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، أي أعلنوا الحرب على الله ورسوله في إصرار وعناد.

وفي الحال والمآل: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وهكذا جنوا من خيلائهم عكس ما كانوا يأملون، دماءً وأسرًا ونواحًا، وذلاً ومهانةً في أعين النّاس، والله تعالى أشدّ بأسا وأشدّ تنكيلا.

دسائس الشّيطان وخذلان المنافقين

أ)- النص:

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ

مَالَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾: التّزيين: إظهار الشيء زينا أي حسنا جميلا، أغراهم على قتال المسلمين. ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾: أي مجيرٌ لكم من كنانة، وقد تمثل الشّيطان للمشركين في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فوعدهم أن يجيء في جيش من قومه بني كنانة لنصر المشركين. ﴿تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾: أي رأت كلتا الفئتين الأخرى. ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾: رجع من حيث جاء. ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: هم طائفة من غير المنافقين ممن لم يتمكّن الإيمان من قلوبهم. ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾: الغرور الإيقاع في المضرّة بإيهام المنفعة. والدّين هو الإسلام، أي يتوهمون بأنهم سينصرون من أجله.

ج)- البيان والتّفسير:

ما يزال السّياق يستعرض جانبا من الأمور الغيبية التي غطت واقعة بدر، فبعد الإراءة العددية لكلتا الطّائفتين إحداهما تجاه الأخرى بتقليب الله للأبصار، بيّن الله تعالى في هذا النّصّ كيف كان إغراء الشّيطان للمشركين للقاء المسلمين، وإزالة المثبطات عن الخروج قال تعالى: ﴿**وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ**﴾.

الجملة: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾، يبيّن الله فيها حالة خروج المشركين لإنقاذ غيرهم

وكيف زيّن لهم الشّيطان السّير إلى بدر للقاء المسلمين بعد تيقنهم بخلاص عيرهم، وقد شخّص الله كيفية ذلك التّزيين بما نعهده نحن في واقع إغراء بعضنا البعض بالكلام المعسول والوعود الكاذبة، بينما نحن نعلم أن عمل الشّيطان هو الوسوسة في الخواطر لدى أرباب النّفوس الضّعيفة، فيا ترى كيف تمّ ذلك في نفوس المشركين؟

والنّصّ هنا يثبت الحادث دونما بيان للكيفية التي تمّ بها، ويتجلّى ذلك في ما أقدم عليه المشركون -وهم يقادون إلى مصارعهم-، ونجد في التّفاسير النّقلية روايات كثيرة تذكر ما حدث، وكله آثار تناقلها المفسّرون يقول عنها سيد قطب -رحمه الله-: "ليس من بينها حديث عن رسول الله ﷺ إلا ما رواه مالك في الموطّإ عن طريق الرّواي عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون -وهو ضعيف الرّواية- أنّ رسول الله قال: «**ما رُئيَ إبليس يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة وذلك مما يرى من تنزيل الرّحمة والعفو عن الذّنوب إلا ما رأى يوم بدر**». قالوا: يا رسول الله: وما رأى يوم بدر؟ قال: «**أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة**».[1] أي يرتبهم ويصفّهم للحرب.

وخلاصة الحادثة أنّ المشركين عند خروجهم ذكروا ما كان بينهم وبين كنانة من الحرب لأنهم قتلوا منهم رجلا، فخشي المشركون أن يغدر بهم بنو كنانة إذ تركوا أولادهم ونساءهم، فلقيهم في مسيرهم سراقة بن مالك بن جعشم الكناني في جند معه وقال لهم: لا غالب لكم اليوم وإني مجيركم من كنانة، فقوي بذلك

١- رواه مالك في الموطّأ عن إبراهيم بن أبي عبلة عن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلا، كتاب الحج، باب جامع الحج، حديث ٩٤٤. وقال ابن عبد البر في التمهيد: هذا حديث حسن في شهود ذلك الموقف المبارك. ١/١١٥.

عـــزم المشـــركين على المسير. ولكن سراقة ومن معه نكصوا عندما رأوا الجيشين وقال سراقة للمشركين: إني أرى مالا ترون.

يعلـــق الإمـــام ابن عاشور -رحمه الله- على القصة فيقول: "وكان خروج سراقة ومن معه بوسوسة من الشّيطان لئلا تنثني قريش عن الخروج، وكان الخذلان سراقة بتقدير من الله ليتمّ نصر المسلمين، وكان خاطر رجوع سراقة خاطرا ملكيا ساقه الله إليه".[٢]

وفي تعلـــيق الإمـــام على ما أثبته الرّوايات في هذه القصة يقول: "وتزيين الشّـــيطان للمشركين أعمالهم يجوز أن يكون إسنادا مجازيا، وإنما المزيّن لهم سراقة بإغـــراء الشّـــيطان. وقيل: تمثل الشّيطان للمشركين في صورة سراقة، وليس ذلك بمرويّ عن النبي ﷺ وإنما روي ذلك من قول ابن عباس".

وعلى كلتا الطّريقتين في تفسير النّص بالحقيقة أو المجاز، فإنّ الألطاف الإلهية التي لعبت دورها في كلا المعسكرين كانت نتائجها عند الفريقين ملموسة لا غبار علـــيها، تثبيـــت وإقـــدام وثقة بوعد الله في صفوف المسلمين، وخوف وانخذال ووسوسة خبيثة في نفوس الكافرين.

وترد في القرآن نصوص أخرى بمثل هذا المعنى في وسوسة الشّيطان وإغرائه للإنســـان كقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُـــمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُـــمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) وقال أيضا في سورة الحشر: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٠/٣٥.

إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦).

ونلاحظ في النصّ عبارات الإغراء في قوله: ﴿لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾، أي أنتم اليوم من الكثرة العددية أعظم قوة وأشدّ بأسا بحيث تتغلبون على خصومكم، وإني مجير لكم من بني كنانة فلا يغدرون بكم، وهكذا اغترّ المشركون بذلك التزيين، سواء اعتبرنا صدوره على لسان سراقة بوسوسة من الشّيطان بالتّعبير المجازي أو أنّه صدر من الشّيطان مباشرة بالتّعبير الحقيقي وهو يتمثل للمشركين على صورة سراقة بن مالك الكناني، حتى إذا انقادوا إلى مصيرهم في مواجهة المسلمين نكص على عقبيه مخذّلا ومتبرّئا منهم، وقد هاله ما رأى عليه المسلمين من القوة والاستعداد.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّيَ أَرَىٰ مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾:

تراءت الفئتان: أي أخذت كلّ واحدة منهما موقعها بحيث تستعدان للقاء والمناجزة، وهو موقف تكون فيه كلّ فئة بحاجة إلى تلك القوة المعنوية التي تربط على القلوب وتثبّت الأقدام، ولكن الشّيطان المغري لجانب المشركين يخنس ويقلب عليهم ظهر المجنّ معبّرا عن تنكّره وإدباره عنهم في سخط، حتى لكأنهم ارتكبوا ذنبا يستحقون عليه البراءة: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾ وهو يعلّل ذلك بقوله: ﴿إِنِّيَ أَرَىٰ مَا لاَ تَرَوْنَ﴾، أي رؤية الشّيطان لكثرة الملائكة في صفوف المسلمين. فتلك الرّؤية لا إشكال فيها، إذ هي من العالم الرّوحاني بين قوتين خفيّتين: عالم الملائكة وعالم الشّياطين. وهما قوّتان متناقضتان تناقض الخير والشّرّ.

وإذا كان القائل هو سراقة نفسه بوسوسة من الشّيطان فهي رؤية بصريّة روحية بتقليب الله للأبصار ويكون قوله ذلك هو إعلان للمشركين بردّ جواره

إيـــاهم بأن لا يقاتل معهم، ويكتفي بتأمينهم من غدر قومه بني كنانة، وخوفه من الله هـــو خـــوف من سوء العاقبة من نقمة الله، إذ كان قد عاهد رسول الله أن لا يـــدلّ عليه المشركين. وذلك عندما لحق بالرّسول في طريق هجرته وحاول قتله، فساخت قوائم فرسه في الأرض حتى أخذ الرّسول عليه العهد فعفا عنه.

﴿إِذْ يَقُـــولُ الْمُـــنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

وإذ تزامن هذا الإغراء من الشّيطان في الأحوال الغيبية، مع تعجيب المنافقين والذين في قلوبهم مرضى من تهوّر المسلمين في الإقدام على قتال المشركين في ذلك العـــدد القلـــيل، فقد ربط السّياق بين الحادثين بلفظ "إذْ" وهو يتعلق بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّـــنَ لَهُـــمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾. وبذلك يبيّن النّصّ ما حدث -أيضا- في العـــالم المشاهد من واقع النّاس المتمثل في ذلك الموقف المتخاذل من المنافقين ومن دونهم من مرض القلوب ممن لم يتمكن الإيمان من نفوسهم. وفي مثل تلك المواقف الحرجة تتمحّص النّوايا وتختبر النّفوس.

فالمـــنافقون، وهـــم الذين يظهرون الإسلام ويسرّون الكفر، وينضمّ إليهم ضعاف الإيمان، لا يجدون من علّة لخروج المسلمين إلى قتال أعدائهم بتلك الرّوح العالـــية إلا اغترارهم بدينهم، وأنهم يلقون بأنفسهم إلى التّهلكة. وقيل: إن الوصف الـــثّاني هـــو صـــفة للمنافقين وأنهما صنف واحد. وعلى أي الاحتمالين فإنّ هذا الصّنف من النّاس هم شرّ ما تُبتلى به الدّعوات الصّالحة في تغيير أوضاع المجتمعات: تشـــكيك في القيم والمبادئ، وتخذيل عن الإقدام والمواجهة، وسخرية من الملتزمين الأوفـــياء إذ لا يقيسون الأمور إلا بالظّواهر المادية، ولا يدركون ما وراء ذلك من الألطاف الخفية لربّ العزة، ولذلك جاء التّعقيب بقوله تعالى: **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى**

الله فإنّ الله عزيزٌ حكيمٌ﴾.

أي من يستنصر بالله مؤمنا بكمال قوته وقدرته، واثقا بأنه كافيه وناصره، بعد أن اتخذ للنصر والغلبة أسبابهما، فإن الله تعالى يكفيه ما أهمّه ويوصله إلى متمنّاه، لأنه قويّ عزيز لا يغلبه شيء وحكيم لا يتصرّف إلاّ وفق ما تقتضيه المنفعة والنّظام، والله أعلم.

إهلاك الكفار وسنّة الله في تدبير شؤون الخلق

أ) - النص:

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾: أي يضربونهم من أمام ومن خلف، فالوجوه والأدبار للتعميم، أي يضربون جميع أجسادهم. ﴿الْحَرِيقِ﴾: هو اضطرام النّار أي جهنّم. ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: الأيدي استعارة للأعمال التي تزاول

بما لأنها هي آلة الاكتساب. ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: الدَّأبُ: العادة والسّيرة المألوفة، وهو خبر لمبتدأ محذوف، والتّقدير: دأبهم كدأب آل فرعون. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي عاقبهم بسبب ذنوبهم. ﴿مُغَيِّرًا﴾: التّغيير: هو تبديل شيء بما يضادّه. ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾: أي غيّروا شكر النّعمة وبدّلوه بالكفران كما فعل كفّار مكة. ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾: التّنوين في: "كُلٌّ" هو عوض عن المضاف إليه والتّقدير: كلّ المذكورين من آل فرعون والذين من قبلهم.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد بيان أحوال المشركين مما شاهده الفريقان يوم بدر، وكيف ألبسهم الله تعالى لباس الذّل والهوان على أيدي المسلمين، وقد أيقن الجميع بما يشاهدون أن ذلك انتقام لهم من الله، إذ زيّن لهم الشّيطان أعمالهم، انتقل السّياق إلى وصف ما لقيه قتلى المشركين من العذاب في العالم المغيّب منذ مراحله الأولى في سكرات الموت وخروج أرواحهم بأيدي ملائكة العذاب، فقال جلّ من قائل: ﴿**وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾.

رؤية التّعذيب والتّنكيل لفرد أو فريق من النّاس أمر فظيع، لا يتحمّله الإنسان وهو يرى الجلاّدين يمارسونه في غيره مهما كانت جريرته، وهو ما تحاربه اليوم "جمعيات حقوق الإنسان" وتقوم عليه إجراءات عالمية، سعيا لضبطه والتّخفيف من ويلاته.

وأقسى ما يعرّض الإنسان إلى ذلك هو حالة الحرب والفتنة، إذ يتوحّش فيها الإنسان فلا العقل يردعه، ولا الرّحمة تجد إلى قلبه سبيلا، ونحن في هذا النّصّ إزاء أجواء تلك الحرب المقدّسة الأولى من نوعها، يصف أحداثها ويتناول أخبارها

تتخللها الأحكام والإرشادات الإلهية لما يجب على المسلمين أن يلتزموا به مستقبلا.

ومبالغة في استفظاع عاقبة الكفر دنيا وأخرى يصف الله تعالى معاناة الكفار -ومن ضمنهم كفّار بدر وهم يلقون مصارعهم- كيف يتوفاهم ملائكة العذاب. والخطاب في: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ لرسول الله ولكلّ سامع لآيات الله، والإتيان بصيغة المضارع يقصد به استحضار تلك الحالة الفظيعة ترهيبا من عذاب الله. وجواب "لَوْ" يدلّ عليه السّياق تقديره: لرأيت أمرا عجبا.

واختلفت قراءة فعل: ﴿يَتَوَفَّى﴾ فكانت بالياء عند الجمهور، وبالتاء عند ابن عامر: ﴿تَتَوَفَّى﴾ رعيا لصورة جمع الملائكة، ويتمثل ذلك العذاب في العالم المغيّب بوسيلتين بالفعل والقول إمعانا في الذلّة والنّكاية، فالفعل بالضّرب الموجع لسائر أجسادهم من أمام ومن خلف قائلين لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، ويحصل ذلك عند انتزاع أرواحهم من أجسادهم، وقول الملائكة لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ باعتبار ما سيؤولون إليه من عذاب جهنم يوم القيامة على سبيل الإنذار.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾: الإشارة إلى ما حدث لهم من الإيلام والضّرب عند انتزاع أرواحهم ومن عذاب القبر وهم يعرضون على النّار غدوّا وعشيّا، كما قال تعالى في شأن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر:٤٦). يقال لهم: إنّ ما يحدث لكم من الضّرب والعذاب هو بسبب ما ارتكبتموه من المعاصي في حياتكم كفرا وعنادا، وفسوقا وعصيانا. ونسب ذلك إلى الأيدي لأنها آلة الكسب والعمل، لأنّ الإنسان يملك حريته في ما يختاره من الأعمال، وبالتّالي فهو يجني ثمرتها إن خيرا أو شرّا، وذلك من تمام عدل الله، إذ جعل ذلك الجزاء الأليم كفاءً للعمل المرتكب دونما جور أو إفراط. ثم برحمته تعالى

يعفو عن الكثير كما قال في سورة الشورى: ﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ (٣٠).

وقد جرت سنة الله في الأمم السّابقة بعقاب الجناة وأخذهم بذنوبهم، فأعطى الله تعالى مثلا لذلك من آل فرعون فقال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِئَايَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ضَرْبُ المثل بفرعون وقومه في التّمرّد والعصيان وانتقام الله منهم بالإغراق والإهلاك جاء مناسبا لمقام السّياق، لتمام وجه المشابهة في الموقفين، فالكفر ومعاداة رسل الله كان سببا لإهلاك هؤلاء وأولئك، وسنّة الله لا تتخلّف، وهو القويّ الذي لا يغلب، يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

وليس أنكى على قوم من تغيير النّعمة عليهم بحلول النّقم، وقد لا يدرك النّاس أسباب ذلك لأن النّعمة تنسي والغنى يُطغي، فلا يقدّرون للنعمة قدرها إلا بزوالها.

وبعد الإخبار بما حدث للكفار من المؤاخذة والعقاب تأتي الإشارة إلى الحكم العامّ الذي اقتضته حكمة الله، بأنه لا يسلب نعمة على قوم حتى يتسبّبوا لذلك بأنفسهم، كما حدث ذلك لفرعون ومن قبلهم، ولا تتخلف هذه السّنة عن قريش إن هم أصرّوا على ما هم عليه من الكفر والعصيان، فهو إنذار لهم ولمن على شاكلتهم في الكفر والطّغيان.

وقوله تعالى: ﴿أَنْعَمَهَا﴾ تذكير بأن جميع النّعم هي من الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم

مُّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل:٥٣) يقدّرها لمن يشاء من عباده، وهو عليم بأحوالهم بعاملهم بما يستحقون، وهو سميع لما يدعونه من دون الله، لأن مؤاخذة الله تتعلق بالأفعال والأقوال. ثم إن تلك المؤاخذة لا تكون إلا بعد الإنذار من رسله، وبعد الاستدراج والإملاء، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرّسل.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾:

تفنّن وتنويع في الأسلوب لتأكيد ما سبق بأن الله تعالى عادل في حكمه، وأنه لا يظلم النّاس شيئا، ولكن النّاس أنفسهم يظلمون، فقد ذكر هنا من أسباب تغيير النّعمة التّكذيب بآيات الربّ المنعم المحسن، للإشعار بكفران النّعمة بعد فساد المعتقد كفرا بآيات الله كما ذكر سابقا، فجمع هذا التفنن في الأسلوب أسباب الهلاك بزيغ المعتقد وفساد السّلوك، وعلى ذكر المثل بآل فرعون بيّن نوع إهلاكهم بأنه كان بالإغراق.

ثمّ ختم كلامه ببيان القدر المشترك في أولئك المهلكين جميعهم، وهو الظّلم بمفهومه الواسع بدءا بالشّرك بالله وكفران نعمته وما ينجرّ عن ذلك من ظلم أنفسهم وظلم غيرهم، وأنّ ذلك هو السّبب الرّئيسي لما أصابهم، والله أعلم.

كيف يعامل المسلمون من ظهرت عليه بوادر الخيانة؟

أ)- النص:

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا

تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿الدَّوَابِّ﴾: جمع دابة: كلّ ما دبّ على الأرض من النّاس والحيوانات. ﴿الذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ﴾: أخذت منهم العهد ألا يعينوا المشركين، وهو بدل من "الذين كفروا"، وتعدية: ﴿عَاهَدتَّ﴾ بـ"من" لإفادة الالتزام من جانبهم، وتقول الرّواية: إن المراد منهم هم بنو قريظة وغيرهم من قبائل المشركين. ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾: "إمّا" فيها إدغام نون "إن" الشّرطية في "ما" الزّائدة. ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾: الثّقف: الظّفر بالمطلوب. ﴿فَشَرِّدْ﴾: والتّشريد: التّفريق والتّبديد مع إزعاج وتخويف. ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾: أي اجعلهم مثلا وعبرة لغيرهم من الكفار ناقضي العهد. ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾: النّبذ: الطّرح وإلقاء الشّيء، أي ردّ إليهم عهدهم وحاربهم على سواء. سواء:صفة لمصدر محذوف، التّقدير: نبذا على سواء، أي تستوي أنت وهم في العلم بنقض العهد بأن تعلمهم به حتى لا يتهموك بالغدر. ﴿سَبَقُوا﴾: أي نجوا وأفلتوا من الظّفر بهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾: قرأ الجمهور: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾: بالتّاء الفوقية، وقرأه ابن عامر وحمزة وحفص وأبو جعفر: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء التّحتية. وعلى هذه القراءة يقدّر المفعول الأول، وقيل: حذف الفاعل لدلالة الفعل عليه والتّقدير: لا يحسبنّ حاسب الذين كفروا ...إلخ. ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾: قرأه الجمهور بكسر همزة

"إن"، استئناف بياني في معنى التعليل لجملة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقرأ ابن عامر: ﴿أَنَّهُمْ﴾ بفتح الهمزة على حذف "لام" التعليل.

د)- البيان والتفسير:

بعد الحديث عن عموم المشركين وبيان أحوالهم المتردّية بخزي الدّنيا وعذاب الآخرة، انتقل السّياق إلى الحديث عن نوع آخر من الكفار هم أعظم شرّا وأشدّ عنادا، لأنهم عاهدوا الرّسول وهم على كفرهم ثم نقضوا عهودهم وخانوا، وبادروا بالقتال فأرشد الله تعالى رسوله إلى الموقف الذي يجب أن يتخذه منهم فقال جلّ من قائل: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ**﴾.

إنها مواصفات لتحديد هذا النّوع من الكفار فهم:

أ)- من شرّ الدّوابّ عند الله: فالله الخالق لكلّ الدّوابّ والعليم بخصائصها ومميزاتها قد حكم -وحكمه العدل والحق- بأنّ هذا النّوع من الكفّار هم شرّ الدّوابّ، فأجمل هنا وصفهم بالكفر، بينما فصّل في نظير هذه الآية، مما تقدم في أوائل السّورة فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢). ذلك لأن الدّعوة الإسلامية التي كفروا بها بيّنة الدّلالة واضحة المعالم، لو أنهم استعملوا عقولهم وتخلّوا عن عصبيتهم وحسدهم لآمنوا بها، سيما وقد أثبتت روايات أسباب النّزول أن المقصود من هؤلاء اليهود الذين في الحجاز وبالأخصّ بنو قريظة منهم ممن كانوا في المدينة.

ب)- ﴿**فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾: إكمال لصلة الموصول ليدلّ ذلك على استمرارهم في الكفر بعد مجيء الإسلام، لأنّ كثيرا من الذين كانوا من قبل كفارا

هداهم الله للإسلام فكفّوا عن كفرهم أمّا هؤلاء فميؤوس من إيمانهم، كما أثبت الواقع ذلك في أغلب اليهود.

ج)- ﴿الذين عاهدتَ منهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ﴾: وبأسلوب البدلية أضاف الله هذا الوصف بنقضهم للعهد، وللتأكيد على هذه الصّفة الخسيسة من الخيانة والغدر عبّر بصيغة المضارع للدلالة على استمرارهم في ذلك ثم قال: ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ سواء تكرّر العهد أو لم يتكرّر. ﴿وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ﴾: يفعلون ذلك وهم لا يتقون الله في نقضهم لعهود رسوله، ولا يخشون انتقام الله منهم بتغليب المؤمنين عليهم وما يجرّه ذلك عليهم من الذّلّ والعار.

وبهذه الأوصاف الثّلاثة صاروا رافضين للإيمان ورافضين للسلم المطلوب منهم بمقتضى ذلك العهد، ولذلك بيّن الله تعالى لرسوله كيف يتعامل معهم في هذا الموقف فقال: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

تأكدت الجملة بمؤكدات، كزيادة "ما" وتأكيد الفعل: ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ بنون التّوكيد، أي إن ظفرت بهم أيها الرّسول في الحرب فأثخن فيهم قتلا ونكالا حتى يتفرّق الذين يؤازرونهم من كفار مكة وغيرهم من القبائل الموالية لهم. فإن التّخطيط والتّدبير لتفريق قوّة الأعداء ونشر الرّعب في صفوفهم تعدّ من أنجح الاستراتيجيات في الحرب. فقد قيل لعنترة قديما: كيف تجعل الأبطال يخافونك في القتال؟، فأجاب: إنني أقصد الجبان فأضربه ضربة ينخلع لها قلب الشجاع.

فكان هذا الأمر من الله لرسوله بالإثخان في أعدائه يقتضيه الموقف الحازم ممن اشتهر بخيانته وغدره لأن الرّسول مجبول على الرّحمة وحبّ السّلم. وهؤلاء

اليهود خادعون، إذ يجدون المبرّرات لنقض عهودهم في كلّ مرة، فوجب زجرهم وتأديبهم بكيفية حازمة حتى يكونوا عبرة لغيرهم، وحتى لا يعودوا لنقض العهد مرة أخرى، ومع هذه الصّرامة في الموقف فإن العهد المبرم بين الطّرفين له حرمته والتزاماته ولذلك بيّن الله تعالى حكم من يتوقع منه نقض العهد فقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

إنّه خُلق الوفاء بالعهود كما أمر الله به المؤمنين بصفة عامّة في مفتتح سورة المائدة: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (١). ولكن أن يتخذ العدوّ العهد ذريعة للغدر والخيانة، فذلك أمر يلحق الضّرر بالصّف الإسلامي، ولذلك أمر الله رسوله في هذه الحالة أن يقطع ذريعة الخيانة قبل وقوعها، بأن يسحب ذلك العهد ويردّه إلى العدوّ الغادر، وذلك بأن يفسخه ولا يتقيّد به، إذ لا ثقة بوفائهم به.

وعبّر بلفظ "النّبذ" كما يرمي الشّيء الحقير، ثم قال: ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾، أي حالة كونك معهم على سواء في معرفة ذلك النّقض، حتى لا يتوهّموا أنك غدرت بهم بنقض العهد من طرف واحد.

وأمّا الذين نقضوه بالفعل من أعداء المسلمين، فلا حاجة لولي أمرهم أن ينبذ عهده، بل يناجزه بالقتال.

وقد عقد الإمام ابن عاشور مقارنة بين الأحكام السّياسية والحربية وبين أحكام القضاء فقال: "وإنما رتّب نبذ العهد على خوف الخيانة دون وقوعها، لأنّ شؤون المعاملات السّياسية والحربية تجري على حسب الظّنون ومخائل الأحوال، ولا ينتظر تحقّق وقوع الأمر المظنون، لأنه إذا ارتاب ولاة الأمور في ذلك يكونون قد عرّضوا الأمة للخطر، أو للتورّط في غفلة وضياع مصلحة، ولا تدار سياسة الأمّة بما يدار به القضاء في الحقوق، لأنّ الحقوق إذا فاتت كانت بليّتها على واحد

وأمكن تدارك فائتها، ومصالح الأمة إذا فاتت تمكّن منها عدوّها"[1].

قلت: وفي الأمثال الشّعبية ما يحرّض على انتهاج هذه الطّريقة الحازمة في مبادرة العدوّ عند توقع خيانته ومن ذلك قولهم: "تغدّ به قبل أن يتعشى بك". وقولهم: "يؤتى الحذر من مأمنه"...إلخ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَآئِنِينَ﴾: تعقيب يقع موقع التّعليل للأمر الإلهي، أي ذلك لأن الله لا يحبّ الخائنين، لأن الخيانة بجميع أشكالها ومظاهرها مبغوضة عنده، فكيف تعاهد -أيها الرّسول- من يبغضه الله، لأن أيّ إخلال بالأمن العام من وراء الخيانات المختلفة ينجرّ عنه التّمرّد والعصيان وانتشار الظّلم والفساد. والظّالم الباغي لا يردعه عن ظلمه إلا الوازع السّلطاني بقوته وحزمه، ولذلك قال تعالى قبل هذه الآية: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾: قد يخاتل الكفار المسلمين بالعهد الذي بينهم كي يفلتوا من قتالهم إياهم، ويعتبرون ذلك من مكيدة الحرب مثلا، وأنّ ذلك من الحيلة والسّبق في المبادرة والذّريعة للانفلات ولذلك جاءت هذه التّسلية من الله لرسوله، بأنّ أولئك الأعداء الذين سلكوا هذا المسلك من الخيانة والغدر سيجنون عاقبة خيانتهم، بأن يمكّنكم الله منهم قهرًا وتأديبًا، فلا تظنّوهم من القوة والمنعة ما يعجزنا عن الظّفر بهم. وجاء نفي العجز عن الله مؤكدا بـ"أن" على طريقة الاستئناف للتعليل، وفي معنى ذلك جاء قوله:

أ)- ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ (التوبة:٢).

ب)- ﴿لا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير،: ٥٢/٩.

الْمَصِيرُ﴾ (النور:٥٧).

ج)- ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (العنكبوت:٤).

وفي هذا من التهديد للكفّار المتربّصين بالغدر والخيانة ما لا يخفى، لأن الصّراحة في المعاملة هي دليل القوة والاعتداد بالنّفس، يجب أن يسندها من المسلمين ما يبرهن على ذلك، وهو ما ترشد إليه الأوامر اللاحقة.

الاستعداد للحرب

والجنوح للسلم وفق مصلحة المسلمين

أ)- النص:

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾: من الإعداد وتهيئة الإمكانيات المادية والمعنوية. ﴿رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾: أي الخيل التي تربط للغزو، أي تُحبس وتُشدّ في مكان حفظها انتظارا للجهاد في سبيل الله. ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾: من الإرهاب، أي جعل العدوّ خائفا يخشى الحرب. وقد قيل في المثل: الاستعداد للحرب يمنع الحرب. ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾: هم من يضمر للمسلمين عداوة وكيدا من مختلف القبائل، ومنهم المنافقون. ﴿وَإِنْ جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ﴾: الجنوح هو الميل، مشتق من جناح الطّير، أي مالوا إلى السّلم ميل القاصد إليه. ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾: أي الله كافيك منهم، فلا تتوجّس منهم خيفة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَإِنْ جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ﴾: وهو ضدّ الحرب، قرأه الجمهور بالفتح، وقرأه حمزة وأبو بكر عن عاصم وخلف بكسر السّين، وحقّ له التّذكير، ويؤنث حملا على ضدّه وهو الحرب.

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن أمر الله رسوله بالتّشديد والمطاردة لأعدائه، وأنهم غير معجزي الله بقوّتهم، وحتى لا يسخر المسلمون من شأن أعدائهم فيتواكلون، تعقّب الله ذلك بهذا الأمر معطوفا على قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ﴾. فقال تعالى: **﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾**.

إنّــه الاســتعداد للحرب وهو ينفي الحرب -كما يقولون-، لقد أصبحت وضعية الجماعة المسلمة في تأهّب أقصى لمفاجآت الأعداء من المشركين والمنافقين واليهود، وذلك ما تقتضيه طبيعة الصّراع الذي فرضته الأحداث المتتالية، فلا مناص من المواجهة، ولا خيار للمسلمين في التّأهّب والاستعداد.

وقد عبّر الله تعالى بالقوة لعموم شدّة تأثيرها بكلّ الإمكانيات وفق ما يتطلبه الــتّطوّر التّكــنولوجي اليوم لإعداد الجيوش في مختلف أسلحتها: البرية والبحرية والجويــة. ثم خصّص بالذّكر رباط الخيل، لما كان لذلك من الفعالية في حماية ثغور الــبلاد والسّــرعة في المــناجزة ومفاجأة العدوّ على غرة، ولا تزال الخيل إحدى الوسائل الفعّالة في الحروب سيما في الأماكن الوعرة مثل الجبال والأودية.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ يدلّ على أنّ كلّ تقصير من الأمة الإســلامية في هذا القطاع الحسّاس سوف يكون له أثر سيّء على مصير الأمة، إذ يصبح من الواجب الذي تتحمّل الجماعة الإسلامية مسؤوليته حاكمين ومحكومين.

وتخــتلف الاستطاعة المأمور بها باختلاف ظروف الزّمان والمكان، والأخذ بوسائلها علميا وتقنيا وصناعيا، وفي تخصيص الخيل بالذّكر اهتمام بها وتشريف لها لــه قيمته حتى اليوم في معادلة القوة. فأين المسلمون اليوم من هذا التّوجيه الرّباني؟، إذ أصــبحنا نــرى في فلسطين السّليبة كيف يواجه أطفالها بالحجارة آليات الدّمار للــيهود، بينما الحزم يقتضي أن لا تكون مواجهة العدوّ بأقل مما عنده، لما ورد في الأثر: "قاتلوهم بمثل ما يقاتلونكم به".

﴿تُرْهِــبُونَ بِــهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾:

الجملــة إما مستأنفة استئنافا بيانيا وإما حال من الإعداد، أي تكونون بذلك

الإعـــداد في موقـــف رهبة من طرف أعدائكم، أعداء الله بالكفر والطّغيان، وهم الذيـــن يـــناجزونكم الحرب من كفّار قريش ومن معهم في مناهضة الدّين الجديد بكيفية سافرة علنية. وهناك عدوّ خفيّ، معلوم أو غير معلوم، وذلك لتستّرهم وراء مظاهـــر لا تكشف خفاياهم، ولكن الله يعلمهم في سرّهم وعلنهم وهو كاشفهم -لا محالـــة- فلا ينالون منكم على غرّة. ويشمل هذا النّوع من الأعداء المتربّصين المـــنافقين واليهود الحاضرين في وقت التّنزيل، كما يشمل من يكون على شاكلتهم في كلّ زمان ومكان.

ومـــا أكثر هذا النّوع اليوم من مختلف الهيئات والجمعيات الكائدة للإسلام وهي تتستّر وراء الشّعارات البراقة والأهداف الزّائفة يجب على المسلمين التّنبّه لها.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾: ولما كـــان الجهـــاد في سبيل الله يتطلب الأموال والإنفاق بمختلف الوسائل، جاء هذا الوعـــد الإلهـــي الصّادق بالإيفاء الجزيل جزاء لكلّ ما ينفقه المسلم في هذا المجال، صغيرا أو كبيرا، قليلا أو كثيرا.

وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ وإن كان ينصرف هنا إلى ما يتطلبه جهاد الأعداء، فهو عامّ يشمل كلّ ما يخدم الإسلام ويعلي من شأنه، وكذا سبل البرّ والإحسان.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ حال يفيد كمال الإيفاء للمنفق، بحيث لا يـــبخس حقـــه في الدّنيا ولا في الآخرة، لأن بخس النّاس أشياءهم ظلم، وأن ذلك يستحيل على الله.

وهناك احتمال آخر لمعنى هذا القيد: ﴿وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾، أي تكونون في حـــال إنفـــاقكم للمال تكونون في قوة ومنعة بحيث لا يلحقكم ظلم من طرف أعدائكم سلما أو حربا. وهذا بمعنى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ

اللهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (١٩٥).

وأثر عن المستبدّ الفاشي "موسولوني" قوله: "إني لا أعتقد بوجود ظلم في الدّنيا" فقيل له: إن هذا يخالف الواقع؟ فأجاب: ذلك لأن المظلوم أحد رجلين: إمّا قويّ يدافع الظّلم عن نفسه فلا يلحقه، وإما ضعيف يستحق ذلك الظّلم حتى يتربّى". وللشعراء والحكماء كلام لطيف في هذا المعنى منها قول زهير:

..... و من لا يظلم النّاس يظلم

وقول المعري:

إذا بليت بظالم كن ظالما وإذا لقيت ذوي الجهالة فاجهل

وقول المتنبي:

والظّلم من شيم النّفوس فإن تجد ذا عفّة فلعلّة لا يظلم

﴿وَإِنْ جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: الضّمير في: ﴿جَنَحُواْ﴾ بحسب السّياق يرجع إلى معاد الضّمائر السّابقة، وقد ذكر الله ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فيشمل سائر المشركين، وأهل الكتاب من النّاقضين للعهد. والجنوح هو الميل إلى أحد الجناحين -أي الجانبين-، فهناك جانب الحرب وجانب السّلم في المقابل، وقد يختار العدوّ جانب الصّلح والمهادنة بدافع مخلص أو مريب. ومهما يكن، فإن الله يأمر رسوله بقبول الصّلح والمهادنة وفق ما تقتضيه مصلحة الجماعة المسلمة. لأنهم أولى بالسّلم من أعدائهم. وجاء التّعبير بـ"إن" في جنوح الأعداء إلى السّلم لتدلّ على الشّكّ والارتياب في موقفهم ذلك. فينبغي أن لا يؤمن جانبهم. ولكن الثّقة في الله والتّوكّل عليه في مثل تلك المواقف يجعل الإمام في موقف الاطمئنان بأن الله يكفي غدر الأعداء وشرّهم. فليس حتما

أن تستمرّ حالة الحرب مخافة الغدر والخيانة، فإن الله مطّلع على نواياهم سَمْعًا لما يقولون، وعِلْمًا بما يفعلون، وذلك ما طبّقه رسول الله مع مشركي مكة في صلح الحديبية، ولم يمنعه من ذلك توقع الغدر من المشركين كما حدث ذلك بالفعل بعد سنتين.

ولم تحدّد الآية إطارا لترجيح حالة الحرب أو السّلم مع الأعداء، لأن ذلك متروك إلى نظر الإمام ومساعديه في مراعاة المصلحة العليا لدين الله. وللفقهاء ومفسري السّلف تفريعات حول هذه الآية، فذهب ابن عبّاس وجماعة بأنها منسوخة بآية السّيف في قوله تعالى: ﴿قَاتِلُواْ الذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (التوبة:٢٩). والأرجح أن لا نسخ ولا تعطيل، والأمر كلّه تراعى فيه مصلحة المسلمين ووضعيتهم قوة وضعفا.

﴿وَإِنْ يُرِيدُواْ أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ انفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

الكفر منبت لكلّ رذيلة، وإذ لا يؤمن جانب الكافرين من المكر والخديعة، فقد نبّه الله رسوله إلى تلك الحالة المتوقعة من الأعداء، وطمأنه بأنه هو الذي يكفيه شرّهم بما هو أدقّ وأخفى من وسائل الرّعاية والحفظ، فلا يلحقه شرّهم وإن بيّتوا عليه، لأنّ الخلق الإسلامي يقتضي الوفاء، وأن يؤخذ النّاس على ظواهرهم. وكثيرا ما يقع الخائن في شرّ ما أضمر، ويقع الحاقر في ما حفر، وهذا الموقف في ما إذا اختفت كلّ أمارات الخيانة من العدوّ، أمّا إذا ظهرت وتكرّرت فإنّ الإرشاد الإلهي هو ما تقدّم من نبذ العهد وإخطارهم بذلك.

ثم ذكّر الله رسوله بما أنعم عليه من النّصر والتّأييد في الماضي على ضعف

وقلّة، وكيف جمع قلوب المؤمنين حوله حبًا وتعظيما وانقيادا وطاعة فقال: ﴿هُوَ الذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُومِنِينَ﴾.

فلا أدلّ من ذلك على حسن رعاية الله لك وكفاية لشرّ أعدائك وهم يجابهونك للقتال علانية، فكيف وهم يخاتلونك فلا تتوجّس منهم خيفة. وإضافة النّصر إلى الله تعالى للتنبيه على أنه نصر بألطافه الخفية وراء الأسباب الظّاهرية التي يعرفها النّاس، ومن تلك الأسباب الظّاهرة تجميع قلوب المؤمنين حولك، ويفيد هذا المعنى إعادة حرف الجرّ بعد واو العطف: ﴿وَبِالْمُومِنِينَ﴾، فالتفاف المؤمنين حول رسول الله صفا واحدا كان بتدبير الله وقدرته، لأنّ تأليف القلوب على رأي واحد، وبالتّالي إجماعها على موقف واحد ليس بالأمر السّهل، سيما عند العرب وبالأخصّ بين الأوس والخزرج. وقد اشتهرت حروبهم في الجاهلية لأتفه الأسباب من الأخذ بالثّأر والحمية الجاهلية، واشتهرت مفاخراتهم في ذلك حتى قال قائلهم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

وإنّ التّاريخ ليشهد كيف تآخى المؤمنون في ظل الإسلام حين جعلوا ولاءهم لله ورسوله حتى يقتل الواحد منهم أباه وأخاه إن كان عدوًا لله ورسوله. وما تتآلف القلوب بالأسباب المادية، ولو كانت أموال الدّنيا جميعها، ينفقها مثل رسول الله في كرمه ونبله وشرفه، لولا أن الله العزيز الحكيم هو الذي يوفّر تلك الأسباب الرّوحانية التي بسببها تتجاذب القلوب وتتآلف. والقلوب بين إصبعين من أصابع الرّحمن. فاللّهم ألّف بين قلوب المسلمين وأصلح ذات بينهم وألهمهم سبل رشدهم ليكونوا كلّهم نصرا لأوليائك وحربا على أعدائك.

والله أعلم

تأييد الله لرسوله، وتحريض المؤمنين على القتال

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن تَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن تَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿حَرِّضِ الْمُؤمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾: التحريض: المبالغة في الطلب. القتال: "أل" للعهد، أي القتال الذي يعرفونه، وهو قتال أعداء دين الله. ﴿حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ﴾: حسب: صفة مشبهة بمعنى اسم فاعل، أي: كافيك وراعيك. ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ﴾: وللغويين مذهبان في عطف الاسم الظاهر على الضمير المجرور، على رأي المجوّزين يكون المعنى: يكفيك الله وتابعك من المؤمنين. وعلى رأي المانعين يكون المعنى: حسبك الله والمؤمنون، أي يكون النبي مكفيا من الله ومن أتباعه المؤمنين تشريفا لهم من أجله. ﴿فَإِن تَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾: أي ثابتة في القتال كما أمر الله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ (الأنفال:٤٥). أي من النوعية المنتقاة في الجيش. وقرأه الجمهور: ﴿فَإِن تَكُن﴾ بالتاء المثناة على الأصل لمراعاة التأنيث، وقرأه الباقون بالمثناة التحتية: ﴿فَإِن يَكُن﴾: لأن التأنيث غير حقيقي.

ج)- البيان والتفسير:

بعد أن امتنّ الله على رسوله بالنّصر والتّأييد وتجميع قلوب المؤمنين حوله، وأنه حسبه وكافيه كلّ ما يهمّه من أمر الأعداء، جاء هذا النّداء الإلهي للرسول ليبيان كفاية هي أعمّ من تلك الكفاية الخاصة السّابقة، وهي كفايته تعالى لنبيه ولمن اتبعه من المؤمنين. تشريفا لهم من أجله فقال تعالى: ﴿**يَآ أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُومِنِينَ**﴾.

فأي تنويه بشأن المؤمنين بهذا العطف على لفظ الجلالة: ﴿**حَسْبُكَ اللهُ**﴾، فكفاية الله لنبيه لها أسباب ظاهرة وأسباب لطيفة خفية. والتفاف المؤمنين حول رسول الله لقتال أعدائهم بصبر وثبات هو من الأسباب الظّاهرة لتلك الكفاية بمعنى: كافيك الله وكافيك من اتبعك من المؤمنين في أمر القتال وإقامة الدّين. والتّقدير: حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين. والتّقدير على جواز العطف: يكفيك الله ويكفي من اتبعك من المؤمنين. وقيل: إن الآية نزلت في البيداء قبل قتال بدر. و"البيداء" مكان مخصوص قرب المدينة. وهي تمهيد مناسب لما يتبعه من الأمر بتحريض المؤمنين على القتال: ﴿**يَآ أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُومِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ**﴾، بينما يرى ابن عباس أنها نزلت يوم أسلم عمر بن الخطاب، فتكون مكية أدرجت في السّورة بأمر من النبي ﷺ لقوة مناسبتها في الموضوع.

تكرّر نداء النّبي ﷺ لأهمية الإرشاد الوارد بعده، لأن تحريض المؤمنين على القتال هو تجسيد للكفاية الموعود بها، ولا يتحقّق الاستعداد للقتال بالسّلبية ولا يترك للعاطفة الدّينية وحدها، بل على الرّسول الإمام والقائد أن يحرّك جذوة الحماس ويحرّك داعية الغيرة على دين الله في نفوس المؤمنين ليبذلوا ما في وسعهم ويشكلوا أقدر نوع من الرّجال على المواجهة والنّزال.

﴿إِنْ يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِن تَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾:

ولانتقاء النّوعية شروط ومواصفات تتطلب تكوينا خاصًا لا تتوفّر لدى كل النّاس. وصفة الإيمان وحدها لا تكفي، ولذا نجد وصف: ﴿صَابِرُونَ﴾ في طرف المعادلة للمؤمنين. والصّبر خلق عظيم الشّأن في تكوين الشّخصية وتحقيق امتيازها، وهو الأكثر مثولاً وبروزًا في الشّخصيات الفذّة من رسل الله وأنبيائه، ثم من دونهم من زعماء البشر وعظمائهم، كما نجد في الطّرف الآخر من المعادلة في جانب الكفار صفة سلبية بقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾، وعدم الفقه بحقائق الأشياء يورث الغفلة واللاّمبالاة، ومن ثمّ تنعدم لدى الجاهل بواعث العزيمة والإرادة القوية التي لا تتنامى إلا بحسن الوعي والإدراك. فالقلة العددية عند المؤمنين تسندها العزيمة والصّبر والمعرفة التّامة بالوسائل والأهداف، وتبلغ أوجها في القوة عند الفرد المؤمن، وفي المقابل الكثرة العددية عند الكافرين، ويعوزها الصّبر والوعي، وكلاهما ناتج عن الكفر بالله ورسوله.

وفي كل حال فإنّ الكثرة العددية لا تملأ الفراغ المعنوي في النّفوس. وبالتّالي فإن الإخبار بهذه المقارنة تستلزم ثبات المؤمنين أمام أعدائهم بمثل ذلك الحجم، ولكن ذلك لا يطّرد في كلّ الأحوال والظّروف لما فيه من المشقّة والعنت.

ولعلّ الواقع التّاريخي لم يسجّل ذلك للمسلمين إلا نادرا، ولذا قيل: إن الحكم يأخذ صفة النّدب لا صفة الوجوب، على أن بعض العلماء يرى من خلال التّعبير حكم الوجوب ليتناسب ذلك مع قوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن تَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

بعد تلك العزيمة القوية التي كان يتمتع بها الرّعيل الأول في مبدأ الأمر، فكان المسلم الواحد يواجه العشرة من الكفار، مهّد الله للتخفيف على المسلمين والتيسير بخفض النّسبة إلى الواحد مقابل اثنين فقال تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، فعلمه تعالى بضعف المسلمين كان سببا لذلك التّخفيف، وهو بمثابة الاعتذار لذلك الموقف المتقدم من وجوب صمود الواحد أمام العشرة، ولما فيه من المشقة اقتضتها ظروف قاهرة كان عليها المسلمون أمام خصومهم.

وعلم الله لا يطرأ عليه الحدوث، فهو عليم به من قبل، بل الطّارئ هو ذلك الضّعف في واقع المسلمين بعد مواصلة العمل الشّاق المضني في المواجهات الأولى، وتكرار ذكر النّسبة واحد إلى اثنين بالعدد الأدنى مائة إلى مائتين، وألف إلى ألفين إنما كان لمراعاة ما تقدم من تحديد عدد المشركين في الآية السّابقة، بينما تغيّر عدد المسلمين وفق حكم الله بالتّخفيف والتّيسير لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾.

﴿وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: والصّبر عنصر هامّ في مثل تلك المواقف الصّعبة، وهو نتاج للإيمان القويّ بالله والاعتماد عليه في طلب النّصر.

والله أعلم

شرط اتّخاذ الأسرى، وإنكار افتدائهم في بدر

أ)- النّص:

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾: أي لا ينبغي له أن يفعل ذلك وليس ذلك من شأنه. وقد يجيء مثل هذا النفي لمعنى النهي في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ (الأحزاب:٥٣). وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾: الإثخان هو الشدة والغلظة في الأذى، أي تكون القوة للنبيّ والغلبة على أعدائه. ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾: أي زينتها وأموالها، سمّي المال عرضا لأن الانتفاع به قليل اللّبث، ويريد الله لكم ثواب الآخرة لأنه أنفع وأبقى. ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾: أي لولا ثبات حكم الله في سنة تشريعه، بأن يعذر المجتهد في اجتهاده إذا أخطأ، أو بأن لا يعذبكم وفيكم رسول الله. ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾: خير القلوب هو الإيمان والإخلاص لله تعالى. ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾: سلّطكم على أعدائكم في بدر فقهرتموهم على غير ترقب منكم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾: قرأ الجمهور: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ﴾ بتحتية على أسلوب التذكير، وقرأه أبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر بمثناة فوقية على صيغة التأنيث. ﴿قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ﴾: قرأ الجمهور بفتح و"راء" بعد السّين، مثل "أسرى" الأولى. وقرأها أبو عمرو وأبو جعفر: ﴿مِنَ الْأُسَارَىٰ﴾ بضمّ الهمزة وألف بعد السّين و"راءه".

د)- البيان والتّفسير:

لقد كانت قضية فداء أسرى بدر بعد استشارة الرّسول لأصحابه في شأنها، كانت عظيمة الشّأن في أحكام الجهاد التي تضمنّتها هذه السّورة الكريمة، فبعد ذلك التّشديد من الله تعالى في قتال المشركين، وأمره بكمال الاستعداد لمواجهتهم، وكان من طبيعة الحرب أن تخلّف قتلى وجرحى وأسرى، كما تخلّف الغنائم للفريق المنتصر، فإن الله تعالى قضى بحكمه في الغنائم، وبقي مآل الأسرى معلّقا، فاجتهد الرّسول بمشورة أصحابه ليقضي في شأنهم ولمّا يتزل حكم الله فيهم.

وقد تعدّدت الرّوايات في شأن هذه القضية، وخلاصتها أنّ المشركين سألوا رسول الله أن يفادي أساراهم بالمال على أن لا يعودوا إلى حربه، فقال رسول الله لأصحابه: «ما ترون في هؤلاء الأسرى»؟، فرأى أبو بكر أن تؤخذ منهم فدية لتكون لهم قوّة على الكفار، ورأى عمر أن تضرب أعناقهم لأنهم رؤوس الكفر، فهوِيَ رسول الله ما قاله أبو بكر فأخذ منهم الفداء فنزل قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾.[1]

لقد كانت حكمة الله بالغة في ترك أمر الأسرى إلى اجتهاد الرّسول وأصحابه في أول الأمر، وقد أخلص الأصحاب المشورة، كلّ على قدر طبعه ومزاجه في اللّين والشّدة ووفق ما تقتضيه مصلحة المسلمين، فالذين لأنوا رأوا أنّ

١- رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، حديث ١٧٦٣.

في أخذ المال نفعا للمسلمين يتقوّون به على أعدائهم وقد أحسنوا الظّن بأولئك الأسرى عسى أن يُسلم البعض منهم كما أسلم العباس وكان ضمن الأسرى، بينما يرى المتشدّدون أن يقطعوا دابر الكافرين لأنهم لا أيمان ولا عهد لهم.

ولئن كان وحي الله موافقًا للرأي الأخير، فإنه لا مؤاخذة في الاجتهاد إن أصاب أو أخطأ، لأن المشرّع الحكيم يريد بذلك أن يعوّد الجماعة الإسلامية الاجتهاد والمشورة في القضايا المصيرية للأمّة، وأعظمها شأنا تلك التي تتعلق بمعاملة الأعداء سلمًا أو حربًا، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾، والنّكرة في سياق النّفي تدلّ على الاستغراق، أي لجميع الأنبياء، ومن ضمنهم رسول الله. والمعنى: ما يصحّ لنبي ولا كان من استحقاقه أن يكون له أسرى حتى يتمكن من أعدائه بالقوة والغلبة. والخطاب موجّه للمؤمنين على اعتبارهم أنهم الطّاقم المستشار لرسول الله، وقد أمره الله أن يستشيرهم في الأمر.

وتذكر الرّوايات أن الأكثرية مالت إلى الفداء، فكان أخذ رسول الله برأي الأغلبية هو النّتيجة الطّبيعية للمشورة، غير أن الله العليم بخفايا الصّدور كان يعلم ما يضمره بعض أولئك الأسرى من الحقد والكراهية للإسلام، وأنهم سوف يعيدون الكرة لقتال المسلمين فكان ذلك الحكم الصّارم بخضد شوكتهم بالقتل حتى يصبح المعسكر المسلم في قوة ومنعة لا يتجرّأ عليه العدوّ.

ولعلّ لطابع اليسر والرّحمة الغالب على المجتمع المسلم أثرًا في نفوس الذين أشاروا باختيار الفداء، ولكن للحرب والمواجهة أحكامها الخاصّة، وللمقتضيات السّياسية أحكامها أيضا، قد تخفى على كثير من النّاس البسطاء، فكان من الله تعالى هذا العتاب للذين أشاروا بالفداء: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

والعتاب موجّه للمجموعة المشيرة بالفداء، لأنهم مالوا إلى عرض الدّنيا وهو المال في ظرف لا يكون فيه أخذ المال صالحا لخدمة دين الله.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ مقابلة لإرادة الله العزيز الحكيم بإرادة تلك الجماعة، وهي تقع موقع العلّة للنهي الذي تضمّنه قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾.

وتتمثل إرادة الله في نصرة دينه. وقد فسّرت الإرادة هنا بالمحبة للشّيء، أي يحبّ الله لكم أجر الآخرة وثوابها لأنه هو الباقي الخالد، بينما عرض الدّنيا إلى زوال.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: والصّفتان مناسبتان للحكم، فالله عزيز يريد العزة لكم، وهو حكيم لا يشرّع لكم إلا ما فيه نفعكم وصلاحكم.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

أمّا وقد وقع الخطأ في أخذ الفداء من الأسرى، على خلاف ما تنزّل به حكم الله بعد ذلك الاجتهاد، فما هو المسلك في ما وقع؟، إنه التّهويل والتّنديد لما فعلوا، ولو لم يكن قد تنزّل نهي لذلك من قبل، ولكن الله الرّحيم قد سبق حكمه في علمه الأزلي، وفي ذلك الحكم السّابق ترد الاحتمالات الآتية:

أ)- أن لا يؤاخذ المجتهد في خطئه.

ب)- أن لا يعذّب قوما إلا بعد تأكيد الحجة عليهم.

ج)- أن لا يعذّبهم وأنت فيهم -كما تقدم-.

د)- أن لا يعذّب أهل بدر، وذلك بأن يوفقهم إلى التّوبة.

فلولا ذلك لنا لكم أيها الآخذون للفداء عذاب عظيم. وقيل: إن هذا العذاب هو عذاب دنيوي، لأنّ عذاب الآخرة لا يترتّب إلاّ على شرع سابق، ولم

يسبق في حكم الأسرى شرع. ويعتبر ما ورد في هذه الآية شرعًا للمستقبل. ومن العذاب المحتمل في هذا الموقف أن ينقلب أولئك الأسرى المفتدون على المسلمين فيأخذوا بثأر قتلاهم، قال الرّسول ﷺ: «**لو نزل عذاب ما نجا إلا عمر وسعد بن معاذ**».[1]

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: تفرّع عن ذلك التّشديد هذا الأمر الإلهي بإباحة أكلهم من الغنائم حالة كونها حلالا طيّبا لهم، وفي بيان ذلك ترد الاحتمالات التّالية:

أ)- أن الله تعالى أمرهم أن يكتفوا بالغنائم عن الفداء، وقد نزل فيها حكم الله، وهو الأرجح والأنسب للسياق.

ب)- أن الله تعالى أحلّ لهم الانتفاع بذلك الفداء على اعتبار أنه داخل في الغنائم، وقد روي أنه لما نزل حكم الله في الأسرى، أمسك المسلمون عن الانتفاع بمال الفداء فنزل قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾.

وعلى كلا الاحتمالين فإن هذا الأمر الإلهي من شأنه أن يطيّب خواطر المسلمين ويزيح ما وقع في نفوسهم من شبهة أكل الفداء، لأن ذلك لم يكن محرما لذاته، وإنما للمقتضيات السّياسة المتقدمة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إرشاد للمؤمنين أن لا يعودوا لمثل ذلك في المستقبل وتطمين لهم بمغفرة ما ارتكبوه من الخطأ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَإِنْ يُرِيدُوا

١- أنظر: الطبري، جامع البيان، ١٠/٤٨.

خيانتك فقدْ خانُوا اللهَ من قبلُ فأمكنَ منهُمْ واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾:

لقد كان تنديد الله الشّديد على أخذ الفدية من الأسرى تربية حكيمة للرسول والمسلمين لحضد شوكة أعدائهم، وهم في أول الطّريق لتأسيس دولتهم الفتية، بحيث لا ينفلت من تسمّيهم اليوم بـ"مجرمي الحرب" كأنهم لم يرتكبوا شيئا. ولا بدّ لاستقرار الدّولة في أول أمرها من مثل تلك الأحكام المشدّدة مع الأعداء، وإلا بقيت عرضة للهزّات والاضطرابات.

هذا، وقد تفنّن المفسّرون في بيان أوجه الحكمة في ما جرى مع أسرى بدر، نذكر منها الأفيد والأنسب مما توصّل إليه صاحب المنار باختصار إذ يقول: "إن لله تعالى في ذلك لحكما أذكر ما ظهر لي منها:

أ)- الحكمة الأولى: عمل الرّسول ﷺ برأي الجمهور الأعظم فيما لا نصّ فيه من الله تعالى، وهو ركن من أركان الإصلاح السّياسي والمدني الذي عليه أكثر أمم البشر في دولها القوية في هذا العصر.

ب)- الحكمة الثّانية: بيان أن الجمهور قد يخطئون ولا سيما في الأمر الذي لهم فيه هوى ومنفعة، ومنه يُعلم أنّ ما شرعه تعالى من العمل برأي الأكثرين فسببه أنه هو الأمثل في الأمور العامّة لا أنهم معصومون فيها.

ج)- الحكمة الثّالثة: أن النبي نفسه قد يخطئ في اجتهاده، ولكن الله تعالى يبيّن له ذلك ولا يقرّه عليه كما صرّح به العلماء، فهو معصوم من الخطأ في التّبليغ عن الله لا في الرّأي والاجتهاد. والله يعاتب رسوله على الخطأ في الاجتهاد مع حسن نيته فيه ويعدّه ذنبا له ويمنّ عليه بعفوه عنه ومغفرته له على كون الخطأ في

الاجتهاد معفوّاً عنه في شريعته".[1]

ثم تأتي الآيتان الأخيرتان في النّص السّابق لترغيب أسرى بدر في اعتناق الإسلام، وما يترتب على ذلك من الخير في الدّنيا والآخرة، ولما كان الخير الأفضل الذي وعد الله به الأسرى إنّما يحصل لهم بعد الإيمان عُلم من ذلك ما سيتحقق للرّسول وأصحابه من النّصر والظّفر. أي في ذلك تضمين لتلك البشارة الخطاب للرّسول بأمره الله أن يستجيش ما في قلوب الأسرى عساهم يميلون إلى الإسلام بقوله لهم: ﴿إِنْ يَعْلَمِ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤتِكُمْ خَيْراً مِمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾.

استشكل بعض العلماء التّعبير في هذه الآية بالشّرط والجزاء بأنّه لا يصّح وجودهما إلا في المستقبل، وذلك يوجب حدوث علم الله تعالى؟. وحاول الإمام الرّازي الإجابة عن ذلك بقوله: " الجواب: أن ظاهر اللّفظ وإن يقتضي ذلك إلاّ أنّه لمّا دلّ الدّليل على أنّ علم الله يمتنع أن يكون محدثا وجب أن يقال: ذكر العلم وأراد به المعلوم من حيث أنه يدلّ حصول العلم على حصول المعلوم".[2]

وأرى -والله أعلم- أن التّعبير بالشّرط والجزاء في الآية الكريمة جاء على لسان الرّسول المأمور من الله بأن يقول للأسرى ذلك القول. والرّسول غير مطّلع على ما في قلوبهم، بل وكَلَ ذلك إلى الله العليم بما في القلوب، فرتّب الخير الأفضل في الجزاء على شرط حصول الخير في القلوب -ولا يعلم به إلا الله-، وفي ذلك استمالة لهم إلى الإيمان والعزم على طاعة الله ورسوله، ولا يتمّ ذلك إلا بالتّوبة عن الكفر والكفّ عن محاربة الله. ويحمل الخير الثّاني المترتب على شرط وجود الخير الأول في القلوب، يحمل على خير الدّنيا والآخرة، وأما المغفرة فتكون لما بدر منهم

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٩٤/١٠ (بتصرف)

٢- الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٠٥/١٥.

من الكفر وإذاية المسلمين، فلا يترتب على ذلك عقاب بعد التوبة والدخول في الإسلام، وهو الغفور لمن تاب والرحيم بعباده.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: الضمير في قوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ يرجع إلى الأسرى والخيانة هي نقض للعهد وما في معناه، والعهد الذي أعطاه الأسارى للرسول عند قبول الفدية منهم هو أن لا يعودوا لقتاله، كما جرت العادة بذلك فيمن يطلق من الأسر، وهو الأظهر، ويجوز أن يكون المراد من الخيانة الخيانة في الدين -أي الكفر-، ويدل على هذا المعنى ما جاء في معنى جواب الشرط: ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾، أي نقضوا العهد الفطري الذي بينهم وبين خالقهم، والمستفاد من مثل قوله تعالى:

أ)- ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ، وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (يس:٦٠-٦١).

ب)- ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ (الأعراف:١٨٩-١٩٠).

وهكذا أراد الله تعالى بهذا التوجيه أن تبني معاملة المسلمين مع أعدائهم على قواعد واضحة تأخذ بالظاهر المعلن لا على التخمينات والتوقعات، لأن الله وحده هو الذي يعلم ما في النوايا، وبما أن هذه المثالية في التعامل قد تدفع الأعداء إلى الخيانة والخداع فإن الله يطمئن رسوله بأن ذلك لا يضره، لأنه هو القادر أن يمكنه منهم بالقدرة عليهم والانتقام منهم إن هم فعلوا ذلك، كما فعل بهم ذلك في بدر، ثم التذييل بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كان مناسبا لمثل هذه التدابير الخفية في علم الله وحكمته إذ يعلم ما في القلوب، وهو يتصرف بحكمة في المعاملة على حسب النوايا، والله أعلم.

بيان منازل المهاجرين والأنصار والذين لم يهاجروا والكفار

أ)- النص:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۖ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَهَاجَرُوا۟﴾: أصل الهجرة الترك، واشتق منه صيغة المفاعلة لخصوص ترك الدّار والقوم. والدّار المتروكة هنا هي مكة، إذ كانت دار حرب وكفر، والدّار المقصودة هي المدينة المنوّرة دار الإسلام. ﴿ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾: آوى يأوي إيواء، أي أنزل وأسكن غيره معه. والمراد من النّصر هنا نصر النبي والمسلمين من طرف أهل المدينة بأن حموهم بما حموا به أهلهم وذلك قبل فرضية الجهاد، ولذلك سمّي الأوس والخزرج بالأنصار. ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾: الولاية بفتح الواو، وهي

اسم لمصدر "تولاّه"، وقرأها حمزة بكسر الواو. فقيل: إن معناهما واحد، أي التولّي في النصرة والإرث. وقيل: إن معناها بفتح الواو النصرة والمعونة، وكذا النسب والدين، وبكسرها تكون خاصّة بالإمارة وتولّي الأمور العامّة. ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾: الضمير يرجع إلى تولّي المسلمين والتبرّؤ من الكفار. ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾: الأرحام: جمع رحم، وهو مقرّ الولد في بطن أمّه، أي ذوو القرابات الناشئة عن النسب. ومن العلماء من جعل المراد من الأرحام العصابات دون المولدين بالرّحم. والقضية تتعلق بعلم الفرائض ومصطلحاته. ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: كتاب الله: قضاؤه وشرعه، كما هو مثبت في اللّوح المحفوظ.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد إلقاء قواعد الحرب والسّلم في كيفية التّعامل مع الكفّار، تُطرح مشكلة الولاية بالنّصرة والإرث، علمًا بأنّ المعسكرين المتقاتلين بينهما من وشائج القربى ما يتطلّب التّوضيح والبيان لكيفية تعاملهما مستقبلا، سيما بعد أن قال العبّاس بن عبد المطّلب حين أُسِرَ ببدر إنّه مسلم، وأن المشركين أكرهوه على الخروج كما ادّعى غيره من الأسرى مثل ذلك.

ولعلّ بعض المسلمين أحسّ بنوع من العطف على هؤلاء حتى ظنّوهم أولياء، فنزل حكم الله بهذا التّفصيل والبيان لأصناف المؤمنين والكفار فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

كانت بداية التصنيف في الآية الكريمة لمراتب الذين آمنوا، فلزّ في قرن واحد فريقين من الذين آمنوا بالله ورسوله، فالإسلام والإيمان قدْر مشترك بينهما، ثم أضاف للفريق الأول وصفي الهجرة والجهاد في سبيل الله، وهم المهاجرون الأولون قبل غزوة بدر إلى صلح الحديبية، وهم الطّليعة الأولى حول رسول الله بذلوا كل ما يملكون في نصرة دينهم وهاجروا الأهل والوطن فرارا بعقيدتهم وطاعة لله ولرسوله.

ولا يقلّ عنهم مرتبة في الإيمان والجهاد أنصار المدينة الذين وصفهم الله بالنّصرة والإيواء للرسول والمهاجرين وآثروهم على أنفسهم، فأصبحت مدينتهم الحضن الآمن لدولة الإسلام وانطلق منها إشعاع الدّعوة الجديدة في مشارق الأرض ومغاربها.

لقد شهد الله تعالى لهؤلاء بالسّبق في النّصرة والجهاد ورضي عنهم في قوله تعالى بسورة التوبة: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٠).

وقد حكم الله للصنفين بولاية بعضهم بعضًا، فجاء باسم الإشارة لتمييزهم عن غيرهم وتعظيم شأنهم، وأطلق الولاية بينهم لتُحمَل على أقصى معانيها، فيدخل فيها معنى التوارث بينهم بالإسلام بعد ما آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار كما ذهب إلى ذلك ابن عباس وغيره من كبار الصّحابة، أي جعلوا الولاية قاصرة على معنى الإرث، إذ كان معهودا بينهم قبل أن ينسخ بآية الميراث في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. كما تحمل الولاية على معنى الموالاة والمؤازرة والمعاونة، وقد قصرها على ذلك دون الميراث بعض المفسّرين.

وفي مقابل هذا الصّنف من المؤمنين المتوالين المتآزرين يأتي الفريق الثّالث: وهم المؤمنون الذين لم يهاجروا، فهم وإن كانت لهم مزيّة الإيمان، ولكنهم بمكوثهم في دار الشّرك لا تثبت لهم تلك الولاية -أي النّصرة والمؤازرة- من طرف الصّنفين الأولين حتى يهاجروا، ليكون نفي الولاية عنهم باعثا لهم على الهجرة، وفي هذا دليل على حرص الإسلام أن يكون المسلم في عزّة ومنعة، لا يُفتن في دينه، فتكون الهجرة إحدى الوسائل التي يطلب بها تلك المنعة والعزة، وقد سبق ما في الهجرة من أجر وفضل في سورة النّساء.

ثم استثنى الله تعالى صورة واحدة تجب فيها مؤازرة هؤلاء، وهي أن يفتنهم الكفار في دينهم فقال: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿فِي الدِّينِ﴾ يفيد معنى التّعليل لتلك المناصرة لهم من طرف معسكر الإيمان والهجرة، شريطة أن يكون أولئك الكفار محاربين، وأمّا إذا كانوا معاهدين فيجب الوفاء بعهدهم، لأنّ الإسلام دين وفاء لا يقرّ بالخيانة والغدر.

ولذلك جاء هذا التّذييل المناسب للتحذير من ذلك فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فأعجب هذه السّياسة الحكيمة في العلاقات الخارجية للمسلمين حتى مع أعدائهم، كيف يحذّرهم الله من الغدر والخيانة، ويكلّ ذلك إلى دوافع إيمانهم ومراقبتهم لله في تصرفاتهم.

وقد يقول سياسيو اليوم: إن هذه المثالية في التّعامل قد تعطي الفرصة للأعداء في الغدر والخيانة. والإجابة هي ما تقدّم من قول الله تعالى لرسوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال: ٣٠).

وللإمام ابن عاشور ملحظ دقيق في حكمة نفي الولاية عن الذين لم يهاجروا مع الاستثناء الوارد فيها إذ يقول: "ووجه ذلك أن الميثاق يقتضي عدم قتالهم -أي الكفار المعاهدين- إلاّ إذا نكثوا عهدهم مع المسلمين، وعهدهم مع المسلمين لا يتعلّق إلاّ بالمسلمين المتميزين بجماعة ووطن واحد، وهم يومئذ المهاجرون والأنصار، فأمّا المسلمون الذين أسلموا ولم يهاجروا من دار الشّرك فلا يتحمّل المسلمون تبعاتهم، ولا يدخلون فيما حرّمه لأنفسهم من عداوات وإحن، لأنهم لم يصدروا عن جماعة المسلمين، فما ينشأ بين الكفّار المعاهدين للمسلمين، وبين المسلمين الباقين في دار الكفر لا يُعدّ نكثًا من الكفّار لعهد المسلمين، لأنّ من عذرهم أن يقولوا: لا نعلم حين عاهدناكم أن هؤلاء منكم. لأنّ الإيمان لا يُطّلع عليه إلا بمعاشرة، وهؤلاء ظاهر حالهم مع المشركين بساكنوهم ويعاملونهم". انتهى.[1]

قلت: أين من هذه السّياسة الحكيمة واقع الفلسطينيين وإخوانهم العرب اليوم مع اليهود ودولتهم؟، وهل نستطيع أن نعتبر فلسطينيي الضّفة وغزة في عزّة ومنعة أزاء دولة اليهود؟، ثم ما حكم العرب المقيمين في دولة إسرائيل؟، وهل لنا من سبيل إلى التّنظير والمقارنة؟.

وبعد تحديد إطار المؤمنين ومن تجب الولاية منهم نجيء ببيان القسم المقابل لهم في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ**﴾.

والإخبار عنهم بولاية بعضهم بعضا يدلّ على نفي الولاية بينهم وبين المسلمين عن طريق الكناية، فهم جميعا -على اختلاف أساليب ضلالاتهم- صفّ

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٠/٨٦-٨٧.

واحد في عداوتهم للمؤمنين. والقصد من موالاة بعضهم أي في النصرة والتآزر.

ولقد أكّد القرآن في آيات كثيرة ذلك الانفصام وتلك القطيعة التّامّة بين المؤمنين والكافرين فلا تعاون ولا توارث إطلاقا، كما ثبت ذلك عن رسول الإسلام حين قال: «**لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافرا ولا كافر مسلما، ثم قرأ الآية**».[1]

فالاختلاف في الدّين من موانع الإرث في كلّ المذاهب الإسلامية. ونجد نفس الحكم في موالاة اليهود والنّصارى بعضهم لبعض وتحذير المسلمين من موالاتهم مهما تكن المبرّرات لذلك، كما ورد في سورة المائدة، مما يثبت الواقع التّاريخي قديما وحديثا من اتفاق الفريقين: الذين كفروا وأهل الكتاب ووقوفهم في خندق واحد لمحاربة المسلمين.

وفي سورة آل عمران يبيّن الله مغبّة ولايتهم من طرف المسلمين بأنها تجرّهم إلى الكفر والإلحاد مع كلا الفريقين فقال جلّ من قائل:

أ)- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (آل عمران:١٠٠).

ب)- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٩).

ثم أكد الله ذلك النّهي الكنائي عن موالاة الكفّار بقوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، وقيل: إنّ الضّمير: ﴿تَفْعَلُوهُ﴾ راجع إلى ما في

١- رواه الحاكم في المستدرك من حديث أسامة بن زيد، حديث ٢٩٤٤، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ٢/٢٦٢.

قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، أي وجوب قطع الولاية بينهم وبين المسلمين. وقيل: إنّ الضّمير إلى كلّ ما مضى من وجوب الولاية بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار والقطيعة بينهم وبين الكفار.

وفي حالة انتفاء ذلك تقع الفتنة في الأرض أي تضطرب أحوالكم -أيها المسلمون- فينزع الله المهابة من قلوب أعدائكم، حتى يقوى بذاك سلطان الكفر والإلحاد، فيشيع الظّلم والفساد، وغالبا ما يكون ذلك بالفساد الدّاخلي الذي يمزق المجتمع المسلم، فيجد أعداؤه منفذا إليه حتى يضيّقوا عليه الخناق بمختلف الأساليب بحيث يصير أداة طيّعة بين أيديهم، وفي التّاريخ القديم والحديث أمثلة كثيرة على ذلك.

وكم في هذه الإرشادات الإلهية من تحريض لهمم المسلمين للأخذ بأسباب القوة، وأكبر حافز على ذلك أن يكون المسلمون متميّزين بشخصيتهم معتزين بمقوّماتهم الذّاتية.

ويتواصل تقسيم وتصنيف هذه الفئات المذكورة ليشيد الله تعالى مرة أخرى بمنزلة المهاجرين والأنصار فيقول: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

بعد أن حكم لهذا الصّنف الممتاز من السّابقين الأولين بولاية بعضهم بعض، وذلك حكم دنيوي يترتّب عليه التّمكين والعزة والنّصر، أعقبه بذكر جزائهم الأخروي عند الله بصيغة القصر، ووصفهم بحقّيّة الإيمان لأنّهم أكّدوه وعزّزوه بالهجرة والجهاد، فكانوا بذلك أهلاً للجزاء الكريم المسبوق بالمغفرة والصّفح عن الذّنوب، فهو جزاء تامّ كامل لا يكدّر صفوه إثم، ولا ينغّص لذّته فتور أو انقطاع.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ﴾: وهذا

الصّنف -وإن وصفه الله بالإيمان- فهو لم يبلغ كماله لأنهم لم يهاجروا مع السّابقين الأولين، وكان الله قد منع ولاية المسلمين لهم صراحة حتى يهاجروا. أمّا وقد فعلوا ذلك بعد مدّة، أي بعد نزول الآيات السّابقة بحكم منع ولاية المسلمين لهم بعد أن تمت الهجرة الأولى، وتخلّف هؤلاء عن رسول الله بقاء في مكة، فتداركهم الله بفضله بنزول هذه الآية، وقد هاجروا وجاهدوا من بعد، فألحقهم بالسّابقين الأولين، ولكنهم دونهم في الفضل والسّبق، لأنهم في حكم الملحقين بقوله تعالى: ﴿فأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾.

وطبيعة التّرتيب تقتضي تفضيل الملحق به عن اللاحق كتفضيل المتبوع عن التّابع، وهم المقصودون بقوله تعالى في سورة التّوبة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (١٠٠).

والمثلية في قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾ أي النّصرة والموالاة والتّعاون، وهي تقتضي ردّ الاعتبار والتّشريف لهذا الصّنف.

ثم قال تعالى: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: وعلى الاحتمال السّابق في تفسير الولاية بالنّصرة والمحبة، أو تفسيرها بالإرث بسبب الهجرة والتّآخي ذكر الله بعد تقسيم الأصناف بأنّ ولاية الأرحام قائمة، وإنّما مرجّحة لغيرها من الولايات، فالذين فسّروا الولاية بالإرث قالوا: إنّ هذه ناسخة للإرث بالإسلام والهجرة. والذين قالوا: إنّ الولاية بالنّصرة والإخاء والإرث معا تكون هذه الآية مقيّدة لذلك الإطلاق.

وقد اختلف العلماء في المقصود بذوي الأرحام، أهي القرابة النّاشئة عن الأمومة؟ أم هي العصابات دون المولودين بالرّحم؟. ولكلّ من ولاية الإسلام وولاية الأرحام حقوق شرعية مبيّنة بالكتاب والسّنة لا تعارض بينها.

وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في حكمه وشرعه متماشيا مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها من الانجذاب والميل إلى ذوي القرابة والأرحام، إلاّ إذا تعارضتا بالاختلاف في الدّين كما تقدم. وآيات النّساء تبين هذا المجمل.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: وهو أعلم بما يتماشى مع فطرة الخلق، فيشرّع لهم من الأحكام ما ينظّم به شؤونهم ويجدون فيه الصّلاح لمعاشهم ومعادهم.

والله أعلم

تمّت

سورة التّوبة مدنية وآياتها ١٢٦

أ)- بين يديّ السّورة:

هي مدنية باتفاق الرّواة، إلاّ ما استثناه بعضهم من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ (التوبة: ١١٣). قيل: نزلت في مكة، لأنها في حقّ أبي طالب عمّ الرّسول، وسيأتي بيان ذلك في موضعه، وهي من أواخر القرآن نزولا. ويرى الإمام جابر بن زيد أنها نزلت بعد سورة الفتح، أي سنة تسع من الهجرة بعد خروج أبي بكر من المدينة للحجّة التي أمّره عليها رسول الله.

وعدد آياتها في عدّ أهل المدينة ومكّة والشّام والبصرة مائة وثلاثون آية، وفي عدّ أهل الكوفة هي مائة وتسع وعشرون آية. وتعدّ من السّبع الطّوال، وهي التّاسعة في ترتيب المصحف واشتهر من أسمائها في أكثر المصاحف بسورة "براءة" لافتتاح السّورة بهذا اللّفظ.

كما تسمّى بسورة "التّوبة" لما ذكر فيها من توبة الله تعالى على الثّلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك، وعلى المؤمنين الصّادقين مع النّبي ﷺ في الجهاد معه حتى غاية وفاته وذلك في قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ، وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة:١١٧-١١٨).

وقد عرفت السّورة بأسماء غير هذه كثيرة ذكرها من دوّن في علوم القرآن كابن جرير الطّبري، وهي بمجموعها أوصاف تدلّ على ما اشتملت عليه السّورة من المبادئ والمعاني في معاملة مختلف الطّوائف غير المسلمين مثل: الفاضحة، والحافرة، والمشقشقة، والمنكّلة... إلخ.

ولم تفتتح السّورة بالبسملة كغيرها من السّور في المصحف الشّريف، وفي تعليل ذلك تعدّدت آراء العلماء والمفسّرين، حتى ذهب بعضهم أنها تتمّة لسورة الأنفال وأنّهما سورة واحدة. غير أن التّحقيق أنها سورة مستقلّة، وإن كان التّشابه بينهما كبير في أغلب محاورهما. ولعلّ أصوب تعليل في بيان ترك التّسمية في أولها هو ما قاله الإمام عليّ لابن عباس حينما سأله عن عدم كتابتها من أنّ التّسمية أمان ورحمة، وهذه السّورة نزلت بالسّيف ونبذ العهود وليس فيها أمان.

ومهما قيل في بيان الحكمة من ذلك، فإنّ المتفق عليه بين العلماء أنّ ترتيب السّور والآيات في القرآن الكريم إنّما كان توقيفًا من رسول الله ووحيًا أمره به الله، ولا حظّ لاجتهاد مجتهد في ذلك إطلاقًا.

ب)- الجوّ الذي نزلت فيه السّورة:

لرسم الإطار التّاريخي للجوّ الذي نزلت فيه السّورة الكريمة، لا بدّ لنا من عرض موجز لمسار الدّعوة الإسلامية منذ انطلاقتها دعوة مستخفية في مكّة بدار الأرقم بن أبي الأرقم حتى الصّدع بها بأمر الله لرسوله حين قال له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (الحجر:٩٤-٩٥)، وما صاحب تلك الفترة من أنواع الاضطهاد والتّعذيب للمسلمين وهجرتهم إلى الحبشة إلى ما لاقاه رسول الله من صدّ وإعراض ومقاطعة من المشركين حتى عام الحزن بعد وفاة زوجه خديجة وعمّه أبي طالب، ثمّ هجرته إلى المدينة المنوّرة وما أعقب

ذلك من مواجهات دامية مع المشركين وأشياعهم من المنافقين ويهود المدينة، ابتداء بغـــزوة بدر الكبرى إلى إبرام صلح الحديبية إلى فتح مكة في السّنة الثّامنة، وما تخلّل ذلـــك من أنواع التّضحيات وإبرام العهود، إنْ مع يهود المدينة أو مع بعض القبائل العربية من غير قريش.

وكـــان التّشريع الإسلامي يتدرّج مع بناء الدّولة الإسلامية الفتيّة بما يقوّي ويرصّ الجبهة الدّاخلية، وبما يرشد ويوثق العلائق الخارجية في الحرب والسّلم، وفي الوفاء بالعهود أو نقضها.

وبعـــد أن قرّت عين رسول الله وصحابته بسقوط قلعة الكفر مكّة وتطهر البيت الحرام من أرجاس الأوثان بعد الفتح اتجهت أنظار الرّسول إلى تصفية جيوب الكفـــر في أرجاء الجزيرة كلّها لتُخلص للدعوة الجديدة، ولا يزال الرّوم يناوشون الدّولة النّاشئة في تخوم الشّام.

ففـــي السّنة التّاسعة للهجرة أمر رسول الله أبا بكر ليحجّ بالنّاس إلى البيت، وخرج هو بالمسلمين إلى تبوك لغزو الرّوم على بُعْد المسافة وشدّة الحرارة، فكانت هـــذه الغـــزوة التي نعتتها السّورة بـــ"ساعة العسرة"، كانت بمثابة المحكّ الشّديد لتمحـــيص الجماعـــة الإسلامية وبيان زيف المنافقين ومناورتهم، وتحديد مواقف الإسلام في معاملة المشركين وأهل الكتاب في مثل تلك الظّروف نزلت السّورة.

بـــناء عـــلى الفذلكة السّابقة يذكر الشّيخ محمود شلتوت -رحمه الله- في تفسيره المختصر، يذكر أنّ للسورة هدفين أصليين:

أ)- أحدهمـــا: قـــانون الإسلام في معاملة المشركين وأهل الكتاب، وذلك بتحديد الرّوح المعنوي، أو القانون الأساسي الذي تشاد عليه دولة الإسلام، وذلك بالتّصفية النّهائية بين المسلمين ومشركي العرب بإلغاء معاهداتهم ومنعهم من الحج،

وتأكيد قطع الولاية بينهم وبين المسلمين، وبوضع الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في جزيرة العرب وإباحة التعامل معهم.

ب)- ثانيتهما: إظهار ما كانت عليه نفوس أتباع النبي ﷺ حينما استنفرهم ودعاهم إلى غزوة تبوك، وفي هذه الدائرة تحدّثت السّورة عن المتثاقلين منهم والمتخلّفين والمثبّطين، وكشف الغطاء عن فتن المنافقين، وما انطوت عليه قلوبهم من أحقاد، وما قاموا به من أساليب النّفاق وألوانه.

ففي الهدف الأول استغرقت السّورة من أول آياتها إلى الآية السّابعة والثلاثين لقوله تعالى:﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٣٧)

وأما الهدف الثّاني فيبدأ من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ (٣٨). وينتهي بقوله تعالى في الآية السّابعة والعشرين بعد المائة: ﴿صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾.

ثم تختتم السّورة بآيتي: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٨- ١٢٩)". [1]

وتتخلّل هذين الأصلين أحكام وإرشادات في العلاقات الدّاخلية والخارجية للدولة الإسلامية سنعرض لها في أماكنها بحول الله.

١- محمود شلتوت، تفسير القرآن العظيم، ص: ٥٨٥ إلى ٥٨٧. (بتصرف).

البراءة من المشركين وإعلان الحرب عليهم لنقض عهودهم

أ)- النص:

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾: التبرؤ: الخروج والتقصي مما يتعب ويلتزم به ورفع التبعة منه، وتفيد هنا معنى فسخ العهد ونبذه. ﴿عَاهَدتُّم﴾: من المعاهدة، أي عقد العهد بين فريقين على شروط يلتزمونها، وتسمى "الأيمان"، لأنها كانت توثق بالأيمان بأن يضع كلّ فريق يمينه في يمين الآخر. ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ﴾: من السّياحة، وهي السّير في الأرض. ولما كان السّير في الأشهر الأربعة فالمراد به حرية التّنقل مع الأمن وعدم الخوف طيلة تلك المدة. ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾: أقوال للعلماء في تحديدها. قيل: تبتدئ من شوال وتنتهي في نهاية محرم. وقيل: تبتدئ من عاشر ذي الحجة وتنتهي في عاشر ربيع الثّاني. وقيل: هي الأشهر الأربعة المعروفة عند كل القبائل

العربية: ذو القعدة، ذو الحجة، محرّم، رجب. ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾: المعجز اسم فاعل من أعجز فلانا، إذا جعله عاجزا عن عمل ما، ويكون ذلك للغالب القويّ. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾: من الإخزاء، وهو الإذلال والخزي بكسر الخاء هو الذّل والهوان. ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾: الأذان: اسم مصدر، آذنه: إذا أعلمه بإعلان، فهو بمعنى الإيذان. ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾: قيل: هو يوم عرفة، على اعتبار أنّ الحج عرفة كما قال الرّسول. وقيل: هو يوم النّحر الذي تنتهي فيه فرائض الحج. ويقولون في العمرة أنها الحج الأصغر. ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾: من المظاهرة وهي المعاونة، ويجوز أن يكون مشتقا من الظّهر لأنه قوام الجسد، أو من الظّهور لأن المنتصر الغالب يظهر حاله للنّاس. ﴿إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾: أي الأجل المضروب في المعاهدة.

ج)- البيان والتّفسير:

لقد كان صلح الحديبية في السّنة السّادسة للهجرة إرهاصًا لفتح مكّة في السّنة الثّامنة، إذ أبرم الرّسول عهدًا كبيرًا مع مشركي مكّة أن لا يصدّوا عن البيت الحرام أحدا من الطّرفين وأن يلتزموا برعاية من يدخل في عهد الآخر ...إلخ. كما أبرم الرّسول عهودا أخرى مع القبائل العربية ومع يهود المدينة، ولكن الكثير نقض عهده فكانت تلك المواجهات السّاخنة بينهم وبين المسلمين، فأبى الله تعالى إلا أن تقرّ أعين رسوله بتصفية جيوب الكفر والنّفاق في جزيرة العرب قبل أن يلتحق رسول الله بالرّفيق الأعلى فنزلت سورة التّوبة مفتتحة ببراءة الله ورسوله من المشركين، مع ما يتبع ذلك من الأحكام بالنّسبة لأنواع عهودهم بنبذها أو إتمامها إلى مدتها فقال تعالى: ﴿**بَرَآءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ، فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي**

الْكَافِرِينَ﴿٢﴾.

كان من تدبير الله الحكيم ومن حسن رعايته لدينه ورسم الطّريق لاستقراره وتوسّعه، كان من حزم التّدبير أن يكون هذا الإعلان من الله ورسوله بفسخ عهود المشركين المعاهدين، تبرئة من التّبعات التي تترتب على تلك العهود على اختلاف أنواعها، ومن أعظم تلك التّبعات المترتبة على تلك العهود ألاّ يصدّ أحدٌ عن البيت الحرام، وألاّ يخاف أحد على دمه في الأشهر الحرم. ولكن أنّى للمشركين أن يوفّوا بعهودهم وهم لا أيمان لهم كما وصفهم الله.

والإسلام دين وفاء وصدق وأمانة، وحتى لا يحيد عن قيمه ومبادئه كان من الضّروريّ هذا الإعلان الإلهي الحازم ليتفصّى الرّسول وأصحابه من كلّ التّبعات أزاء المناوئين المستغلين لتلك العهود المبرمة، ولا مندوحة لرسول الله وقد توالت انتصاراته بعد فتح مكة أن يطهّر البيت من أرجاس الكفر ومن أرجاس الجاهلية، إذ أن المعاهدين ما يزالون يمارسون طقوسهم على الطّريقة الجاهلية المعروفة، فيدعون آلهتهم ويطوفون عراة.

وحتى يتمّ التّطهير النّهائي للبيت وتتركز فكرة التّوحيد، وذلك من المهامّ العظمى لرسول الله وهو يتدرّج إلى نهايته، كان لابدّ من هذا الإعلان لوضع الحدّ لبقايا تلك العهود، وقد مكّن الله للمسلمين في الأرض وخلص لهم البيت الحرام، وحتى الرّوم المنتصرون على الفرس قد انحسروا عن الجزيرة إلى تخوم الشّام بعد غزوة تبوك، فلم يبق أيّ سند لتلك القبائل العربية أن تبقى على كفرها وجاهليتها.

وجاءت الفرصة المواتية لهذا الإعلان، وقد أمّر الرّسول أبا بكر على النّاس في السّنة التّاسعة لتأدية فريضة الحجّ، بينما سار هو بالجيوش لإرعاب الرّوم في تخوم الشّام، وقد صدّر الإعلان بحكم براءة الله ورسوله يبلغه رسول الله إلى المعاهدين

من المشركين، ويقتضي الإعلان أن يكون له مصدر شرعي يؤذن به وهو الله تعالى ويكون له منفّذ مباشر وهو رسول الله والمؤمنون، والمعلن إليهم هم المشركون.

ومن بلاغة العبارة أنها تناولت كلّ هذه الأطراف بأسلوب بليغ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وفي هذا الإبلاغ تقصّ عن كلّ تبعة حتى لا يكون هناك خيانة أو غدر.

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾: والعهود المبرمة بين الرّسول والمشركين كانت على صور مختلفة، فبعضها مطلق لم يحدّد بأجل، وبعضها حدّد بأجل معيّن كصلح الحديبية، كما أنّ بعضها قد انقضى أجله، وبعضها لم ينقض. ولذلك جاء الحكم مبيّنا لكلّ هذه الأنواع، ونبذ تلك العهود إليهم لأنّ أغلبهم نكثها. غير أن الإسلام دين الرّحمة لم يقطع الطّريق فجأة، بل أمهل ذلك النّبذ إلى أربعة أشهر، أي أنّ اتّفاقيات تلك العهود تبقى لمدّة أربعة أشهر بعد الإعلان، أمروا فيها بالسّياحة في الأرض سياحة أمن وسلام حيثما شاؤوا. فلعلّهم بذلك يراجعون موقفهم فيسلمون، وإلاّ فلا أقلّ من أن يستعدّوا للقتال إن هم أصرّوا على الكفر.

والأشهر الأربعة يأتي في تعيينها الاحتمالات المذكورة في التّحقيق اللّغوي حسب الرّوايات، ومن بلاغة التّعبير أن يوجّه الخطاب إلى المعنيين بهذا الإعلان: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ على أسلوب الالتفات.

وبما أنّ هذا الموقف الإسلامي المشرّف فيه تسامح وإعذار أعقبه الله تعالى بالتّحذير والإنذار من نقمة الله فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

والتّعبير بفعل اليقين: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ لنفي الشّكّ ونبذ الغرور من المخاطبين حتى يهتمّوا بما يقال لهم، وأنّهم لا يعجزون الله إن هم بقوا على كفرهم، بل هو

القادر على قهرهم وإذلالهم في كلّ حين، وأنّه مخزيهم بأنواع الخزي في الدّنيا بتسليط عباده عليهم، واختيار الإظهار مكان الإضمار: ﴿مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ للدّلالة على الحكم العام وللإيماء إلى أنّ الكفر هو سبب الإخزاء.

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾:

تضمن الإعلان الإلهي هنا لفظ "الأذان"، وهو النّداء الذي يطرق الآذان، بالإعلام الصّريح الجهري بما ينبغي أن يعلمه الخاصّ والعامّ، فالأذن هو الله ورسوله على اعتباره مبلّغا عن الله، والمراد بالنّاس كلّ من يبلغه النّداء من مؤمنين أو مشركين، ثم بيّن الموقف والوقت الذي يكون فيه هذا الأذان بأنّه يوم الحجّ الأكبر، والرّاجح أنه يوم النّحر، إذ تنتهي فيه فرائض الحج حيث يجتمع الحجّاج في "منى" لإتمام مناسكهم، وتثبت الرّوايات أن المعلن بذلك الأذان هو الإمام عليّ -كرّم الله وجهه- نيابة عن رسول الله، وذلك على عادة العرب أنّ العهود ونبذها إنّما تكون من عاقدها أو أحد عصبته القريبة، وهي اليوم في الدّولة الحديثة من خصوصيات رئيس الجمهورية.

ومضمون ذلك الأذان هو قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾، وقد تكرّر لفظ البراءة من الله ورسوله لاختلاف المبلّغ إليهم، ففي الأول كان الإعلان للمسلمين وفي الثّاني كان للمشركين المعاهدين وغيرهم مما يتناوله لفظ: ﴿إِلَى النَّاسِ﴾. وذكرت الرّوايات أيضا بهذا الصّدد بأنّ الإمام عليّ قد نفّذ أمر رسول الله بأن تلا على النّاس في "منى" من مفتتح "براءة" إلى أربع وثلاثين آية على الأصح أي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ (التوبة:٣٤). وتذكر الرّوايات بأنّ أبا هريرة قد ساعد عليّا في نشر

ذلك الإعلان، وهو يتحوّل في مضارب القبائل العربية حتى بحّ صوته.

ثم فرّع الله على مضمون النّداء قوله: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

الخطاب للمشركين المتبرّئ منهم، وهذا التّفريع وما يتضمّنه هو من جملة ما يقال لهم لتأكيد تلك البراءة، وقد استعملت أداة "إن" في الشّرط لدلالتها على الشّكّ من توبة هؤلاء المشركين. والبدء بالتّحريض على التّوبة هو الأنسب لأخلاقيات الدّعوة ولو في موقف الشّدّة والغلظة على الكفار والمنافقين لأن التّوبة هي لهم خير ونفع في الدّنيا والآخرة.

وحتى لا يُعتبر هذا اللّين ضعفا فقد أردفه بما يكسر الغرور والتّحدّي في حالة الإعراض والتّولّي أي الاستمرار على الكفر والشّرك بأنّهم بذلك لا يعجزون الله، ولا ينفلتون من قبضته في تسليط عباده المؤمنين عليهم لقهرهم وإذلالهم في الدّنيا.

ثمّ أمر الله رسوله بأن يبشّرهم بما ينتظرهم من العذاب الأليم في الحياة الأبدية، ولا تكون تلك البشارة –وهي من أمور الغيب– إلا عن طريق الوحي. والاستعمال الحقيقي لمعنى البشارة إنما يكون لما هو مُفْرِح مُسِرّ تنبسط له أسارير الوجه وينشرح له الصّدر، واستعملت في كثير من الآيات لما هو محزن ومخيف. قيل على غير حقيقة اللّفظ لمعنى التّهكّم والسّخرية.

ثم استثنى الله تعالى من هذا الوعيد من حافظ من المعاهدين على عهده ووفى بكل ما فيه من التّعهّد والالتزام فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

جاء الاستثناء بالاسم الموصول ﴿الذين﴾ ليعمّ كلّ من تحققت فيهم الصّلة، وللحرص على البيان والتّدقيق فصّل الله مدلول الصّلة ولم يكتف بذكر مجرّد المعاهدة، بل أوضح بأنّ هذا النّوع من المعاهدات المؤقتة لأجل، هي مستثناة من التّأجيل بأربعة أشهر لأصحاب العهود المطلقة ولكن شريطة مراعاة أمرين اثنين:

أ)- لا ينقض المعاهدون للمسلمين شيئا ولو كان حقيرا مما التزموا به في تلك المعاهدة، لا أن يكتفي بالشّروط الأساسية، ذلك لأنّ الإخلال ببعض الأمور الحقيرة في العهد قد يغري بالإخلال بالأمور العظيمة إذا غفل عنها المسلمون.

ب)- أن لا يناصر المعاهدون أحدا على المسلمين ولو واحدا ولا يعاونوه بأي موقف سرّا أو جهرا، فهؤلاء هم الذين يوفّي المسلمون باحترام عهدهم حتى ينقضي أجله، وإن كان أكثر من أربعة أشهر.

وللتأكيد على الوفاء بالعهد في الإسلام جاء التّعقيب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، واختيار صفة المتقين لبيان أنّ الوفاء بالعهد من التّقوى الجالبة محبة الله، وهو يتضمن معنى التّعليل للأمر الإلهي: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾.

والله أعلم

فرضية قتال المشركين ومشروعية الأمان

أ)- النص:

فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ

إِسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾: انسلاخها بمعنى انقضائها بالتمام، وهو استعارة من سلخ جلد الحيوان أي إزالته. والحرم بضمتين جمع حرام، وهي الأشهر التي حرم الله فيها القتال وهي ذو القعدة وذو الحجة ومحرّم ورجب. ﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ﴾: الأخذ: بمعنى الأسر، والأخذ أعمّ من الأسر، والأخيذ: هو الأسير الذي يشدّ. وأما الحصر: فهو المنع من دخول أرض الإسلام إلا بإذن من المسلمين. أو حصرهم بمعنى حبس العدوّ حيث يعتصم به من معقل أو حصن ...إلخ. ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾: اتركوا لهم الطّريق لحرية تحرّكهم وانتقالهم حيث يشاؤون. ﴿اسْتَجَارَكَ﴾: من الاستجارة وهي طلب الجوار للحماية والأمان، وكان ذلك من عادة العرب في حماية الجار والدّفاع عنه، كما أجار مطعم بن عديّ رسول الله ليدخل مكة في حمايته عندما عاد من الطّائف يائسا. ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾: وهو القرآن الكريم، وسماعه يحصل بالقليل والكثير، والمقصود هو أن يسمع منه ما يكفي لمعرفة دعوة الإسلام. ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾: بمعنى أنه يمهل ولا يتعرض المسلمون له بسوء حتى يبلغ بلاده التي يأمن فيها.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد إعلانه تعالى البراءة من المشركين ونبذ عهودهم، وبعد أن أمهلهم لمدة أربعة أشهر فرّع على ذلك بيان ما يجب على المؤمنين فعله للمشركين بأن يقاتلوهم في أيّ مكان فقال جلّ من قائل: ﴿**فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا**

﴿الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾

وعلى الاحتمالات السّابقة في المقصود من الأشهر الحرم لمدة الإمهال، فإن انسلاخها يعني انقضاء مدّتها بالتّمام -وهي مدّة كافية لمراجعة النّفس- كما تقدّم. وقد ترجّح عند أكثر المفسّرين كما هو صريح الآية في العشر الأوائل من ربيع الثّاني، فقد أذن الله للمؤمنين بقتال المشركين أنّى وُجدوا، والآية عامّة لجميع المشركين، كما أنها عامّة لجميع الأمكنة في الحلّ والحرم، ويُستثنى من المشركين ما خصّصته الأدلّة من الكتاب والسّنة، كالمرأة والصّبيّ والرّاهب، وكالمُثلة في القتل...إلخ.

ولمزيد من التّفصيل والبيان أمر الله تعالى باتّخاذ الإجراءات الحربية التي تقتضيها مصلحة المسلمين وهي:

أ)- أخذهم أسرى: وقد أباحه الله بعد منعه في سورة الأنفال لأن المسلمين أصبحوا في قوة ومنعة.

ب)- حصرهم في الأمكنة التي يتحصّنون بها حتى يمنعوا من الخروج منها إلى أرض المسلمين إلا بإذن وشروط.

ج)- القعود لهم بكل مرصد: أي مراقبتهم في كلّ مكان وضبط تحركاتهم بكامل اليقظة، حتى لا يستخفّوا بالمسلمين أو يظنون بهم ضعفا، وتسمّى هذه الآية بآية السّيف والجهاد اقتضتها الظّروف المواتية للمسلمين من القوة والغلبة بعد أن مرّوا بحالات ضعف اقتضت منهم الصّبر ومواداعة الأعداء.

﴿فَإِنْ تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

ليس الهدف من هذا التشديد على المشركين بالقتال والجهاد هو حرب الإبادة للطرف الآخر للتصفية العرقية، كما يفعله بعض الطّغاة اليوم في عصر الحضارة والتمدّن والرّقيّ كما يدّعون، وإنّما هو لحفظ كيان الإسلام والدّعوة إلى صفّه بالتّوبة عن الكفر والشّرك في المجال الاعتقادي، وبإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة في المجال السّلوكي، وحسب المسلمين بإذعان المشركين لهذا النّالوث الذي كان يعني الدّخول في الإسلام وارتضاءه دينًا والرّضوخ لجماعته ليحصل من يأتي به متكاملا على كلّ الحقوق الإسلامية من حفظ دمه وماله وعرضه. وهذا ما بيّنه الرّسول بقوله: «**أمرت أن أقاتل النّاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزّكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**».[1]

والقيام بهذه الشّعائر الثّلاثة هو صمام الأمان لأولئك الذين أخذوا وحصروا وفرضت عليهم المراقبة في كلّ تحرّك، فقوله تعالى: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أمر بفكّ الحصار عنهم وتركهم أحرارا في تجوالهم وتقلّبهم في البلاد، لأن التّوبة المشفوعة بالعمل الصّالح الذي يؤدّي ما لله وما لخلقه من حقوق تجبّ ما قبلها من ذنوب وتمحوها كأن لم تكن.

وفي تذييله بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إيماء إلى ما يجب على المسلمين من التّحلّي بصفات الله وأعظمها المغفرة والرّحمة.

ذلك هو موقف الشّدة والغلظة لتصفية آثار الكفر في الجزيرة العربية بكلّ الوسائل التي تقتضيها ظروف المسلمين لكسر التّجمّعات الشّركية التي لا تنفكّ عن

١- رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمر، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال النّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله، حديث ٢٢.

المناوشـــة والاســـتفزاز. أما من لم ينضم إلى تجمّع و لم يسْع إلى عدوان فإنّ سماحة الإسلام وأخلاقية دعوته أنّه يكفل له الأمن ويعطي الفرصة لكلّ مستجير به يبحث عن الحق.

﴿وَإِنْ أَحَـــدٌ مِّـــنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾:

بعد ذلك العموم لقتال المشركين واتّخاذ الإجراءات الحربية الضّرورية معهم، جـــاء التّخصيص هنا لحالة يمكن أن تقع ولو كانت نادرة وذلك في حالة موقف يكـــون عليه أحد المشركين، بأن لم يصرّ على الشّرك من جهة، ولكنّه لم يتب من جهة أخرى، وإلى جانب ذلك هو يتطلّع إلى الفهم والمعرفة، وسبيله إلى الاحتكاك بالمجتمع المسلم هو طلب الجوار على عادة العرب. فهل يغلق الإسلام الأبواب أمامه فـــلا يمنح "تأشيرة الدّخول" كما نصطلح على ذلك اليوم؟، كلاّ، فإنّ الله تعالى أمر رسوله في حالة الاستجارة من طرف أيّ مشرك، لأنّ النّكرة في سياق الشّرط تفيد عموم الجنس.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: أمر الله رسوله أن يقبل تلك الاستجارة، وهي للب عادة لمختلف الأسباب التي تقتضيها العلاقات بين الأفراد أو بين الجماعات، يّا كان الدّافع للاستجارة فقد جعل الله الغاية من تلك الإقامة إلى جوار المسلمين ـــو سماع المشرك المستجير لكلام الله وإبلاغه الدّعوة الإسلامية، ويكون معصوم مّة يجب على المسلمين حمايته في نفسه وماله ما دام في جوارهم. و لم يحدّد النّصّ ّ لتلك الإقامة بل ترك ذلك لتقدير الإمام. وفي كل حالة يجب أن يراعي ما فيه والمهلة الكافية للمستجير، كما يراعي ما فيه مصلحة الجماعة في ضمان أمنها تها بانتفاء أي ضرر يمكن للمستجير أن يلحقه بها كالتّجسّس وغيره.

فإن العطف بـ"ثم" يفيد توفير الطّمأنينة له إلى أن يبلغ المكان الذي يأمن فيه، بحيث لا يتعرّض له المسلمون بسوء، أي حتى ينتهي إلى مأمنه الأصلي في دار قومه، لأنّ مأمنه في دار الإسلام هو مأمن مؤقت بالنّسبة إليه ما دام على الشّرك.

يعلق الإمام محمود شلتوت -رحمه الله- في تفسير هذه الآية فيقول: "والإسلام يبيح بهذا الأمان التّبادل التّجاري والصّناعي والثّقافي وفي سائر الشّؤون ما لم يتصل شيء منها بضرر الدّولة، ومن هذا يحرم عليهم بيع السّلاح والعتاد الحربيّ إلى أعداء الإسلام، وقد كان للإسلام من مشروعية الأمان وسيلة قويّة لنشر دعوته وإيصال كلمة الله إلى كثير من الأقاليم النّائية من غير حرب ولا قتال".[1]

قلت: ومن الأمثلة التّاريخية الرّائعة في بلاد المغرب العربيّ ما قامت به الدّولة الرّستمية من فتح الطّرق التّجارية إلى أواسط إفريقيا إذ كان كبار التّجار من تيهرت ووارجلان وإسدراتن ومعهم بعض المشائخ الإباضية يتبادلون التّجارة مع دول إفريقيا حتى بلاد "غانة" ودول خط الاستواء، فيتّصلون بملوك القوم وعليتهم ويعلمونهم قواعد الدّين، مما كان سببا لدخولهم في الإسلام.

ولا تزال آثار تلك التّربية باقية إلى اليوم في بعض تلك الأقاليم، كما تحدّث به أحد الطّلبة الغانيين إذ ذكر أن قبيلة كبيرة من بلاد "غانة" ما تزال تحتفظ بالعادات والتّقاليد الإباضية أخلاقا وسلوكا.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾: الإشارة إلى ما أرشد الله إليه رسوله وجماعة المؤمنين من إتاحة الفرصة للمشركين، ثم لتأكيد ذلك الإرشاد ذيّله بهذه الجملة معلّلا بأنّ هؤلاء المستجيرين قوم لا يعلمون، فإنّ الجهل هو سبب موقفهم منكم فلا تؤاخذوهم بذلك، لأنّ الإسلام يأخذ أصحاب الجهالة بالحلم والعفو، وفي

١- محمود شلتوت، تفسير القرآن العظيم، ص ٦١٣.

حالة جموح جاهليتهم يأمر بالإعراض عنهم قال تعالى لرسوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف:١٩٩). وقال في صفات عباد الرّحمان: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان:٦٣).

والله أعلم

مواقف المشركين وأسباب قتالهم ونبذ عهودهم

أ)- النص:

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾: استفهام في معنى الاستنكار والاستبعاد

أن يكون عهد بين المسلمين والمشركين، وهو مستعمل في معنى الدّوام في المستقبل. ﴿عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: أي الذين دخلوا في الصّلح الذي عقده الرّسول مع قريش، أي صلح الحديبية. ﴿فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ﴾: "ما" ظرفية متضمنة معنى الشّرط، والاستقامة: عدم الاعوجاج، وهي مستعارة هنا لحسن المعاملة وترك القتال. ﴿وَإِنْ يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾: أي ينتصرون عليكم ويغلبونكم. ﴿لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾: لا يراعون أيّ حلف ولا عهد، ويطلق "الآل" على النّسب والقرابة. ﴿وَتَابَى قُلُوبُهُمْ﴾: الإباء أو الإباية: الامتناع من شيء مطلوب. ﴿بِـَٔايَاتِ اللَّهِ﴾: أي الدّلائل لدعوة الإسلام وأعظمها القرآن الكريم. ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم﴾: أصل النّكث نقض الحبل، والمقصود به خيانة العهد. ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾: حقيقة الطّعن هي خرق الجسم بشيء محدّد، والمقصود به ثلب المسلمين بالسّب. ﴿فَقَاتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾: أئمّة جمع إمام، أي الذين بلغوا الغاية في الكفر بحيث صاروا قدوة لغيرهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب: ﴿أَئِمَّةَ﴾ بتسهيل الهمزة الثّانية بين الهمزة والياء، وقرأ البقية بتحقيق الهمزتين، وقرأ هشام عن عامر وأبو جعفر بمدّ بين الهمزتين. ﴿إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾: قرأ الجمهور: ﴿لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ بفتح همزة "أَيْمَانَ" على أنه جمع يمين، وقرأه ابن عامر بكسر الهمزة، أي ليسوا بمؤمنين، ومن لا إيمان له لا عهد له.

د)- البيان والتّفسير:

قد يبدو للفهم السّطحي أنّ نبذ عهود المشركين وإعلان الحرب عليهم

بتلك الكيفية المشدّدة يخلّ بمبدأ الوفاء بالعهود الذي تكرّر الحرص عليه في كثير من نصوص القرآن، أو يظنّ ظانّ أنّ الوفاء بالعهد يلتزم به المسلمون في حال ضعفهم فقط، وربّما وجد المنافقون في ذلك مطعنا في عدل الإسلام وأحقّيته، فجاء هذا البيان لتوضيح أسباب ذلك الموقف المتشدّد وأنه جزاء للخيانة والغدر ومعاملة بالمثل يقتضيها الحزم وصيانة حرمات المسلمين، وذلك لا ينافي مبدأ الوفاء بالعهد فقال جلّ من قائل: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

الخطاب للمؤمنين مُصدَّر بالاستفهام الإنكاري في معرض التعجّب من أن يفي المشركون بأيّ عهد عند الله وعند رسوله، وليس المقصود من النّفي نفي انعقاد العهد، لأنّ ذلك قد وقع بين الرّسول والمشركين -بإذن الله-، وإنما المقصود هو نفي الوفاء به والاستمرار عليه، نظرًا للبون الشّاسع بين الطّرفين في المعتقد وفي السّلوك والأخلاق، لأنّ الشّرك هو علّة العلل في الشّرّ والفساد، فلا مناص إذن من تلك البراءة وذلك النّبذ لعهودهم لأنه لا مطمع في استقامتهم، فلا أقلّ من معاملتهم بالمثل: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى:٤٠). ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ (النحل:١٢٦).

ذلك هو الموقف العامّ الحازم من المشركين، غير أن الموفّين منهم -وقليل ما هم- فإن المسلمين يبادلونهم وفاءً بوفاء، فكان هذا الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. وحسب الرّوايات الصّحيحة هم بنو ضمرة وبنو جذيمة من كنانة وكذا بنو بكر، فهؤلاء يندرجون في المستثنين من قبل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾. والمراد بقوله: ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لا يقصد به حدود البيت بل المقصود هو كلّ الحرم

المكـــيّ. فالعـــندية تعني القرب منه وهو الحديبية. واختيار المسجد الحرام بدلا عن الحـــرم المكي مثلا إشادة بحرمة المسجد عند نفوس الجاهليين، مما يدفعهم إلى الوفاء بالعهود المعقودة عنده.

ثم أرشد الله المؤمنين إلى ما يجب عليهم نحو هؤلاء المستثنين من الحكم العام فقـــال: ﴿فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾، أي بادلوهم وفاء بوفاء وعاملوهم بالحســـنى ما وجدتم منهم مثل ذلك. فـــ"مَا" للظرفية المتضمنة معنى الشّرط، أي فاســـتقيموا لهم مدّة استقامتهم لكم. وفي إعادة ذكر هؤلاء المعاهدين الأوفياء هنا تـــنويه وإشادة بموقفهم الذي يتلاءم مع أخلاق الإسلام في الصّدق والوفاء، وكلّ ذلـــك من ثمرات تقوى الله، وقد ذيّل به ذلك الإرشاد ليدلّ على تعليل الأمر وأن ذلك بحلبة لمحبة الله.

﴿كَـــيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾: مزيد بيان لتأكـــيد الاستفهام الإنكاري السّابق واستبعاد وفاء المشركين بعهودهم، وأحوالهم الواقعـــية تثبـــت غدرهـــم وخيانتهم، فلا يراعون لكم ذمّة ولا صلة ولا خُلّة إذا انتصـــروا عليكم، بل ليسوا أهلا للوفاء ابتداءً إذ شأنهم الغدر، لما يبطنون لكم من حقد وبغضاء.

﴿يُرْضُـــونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ، اشْتَرَوْاْ بِئَايَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾:

جـــاء هـــذا الاســـتئناف الابتدائي وما يليه من الجمل بيانا مفصّلا للدّوافع الواقعـــية التّاريخـــية والدّوافع النّفسية لهؤلاء المشركين الغادرين، وذلك نحو أيّ أثر للشُّـــبه الـــتي يمكن أن يثيرها المنافقون للطعن في مبادئ الإسلام وقيمه، فعدّد الله

مواقفهم المخزية في الماضي والحال والاستقبال منها:

أ)- ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾: أي إنّهم مخادعون لكم، يظهرون لكم الحسن من الأقوال لاسترضائكم، وربما انخدعتم لكلامهم المعسول، ولكن قلوبهم تشتعل حقدا عليكم وضغينة، بحيث لو تمكّنوا منكم لفتكوا بكم.

ب)- ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾: أي إنّ الفسق -وهو الخروج من كلّ الفضائل- هي الصّفة الغالبة على أكثرهم، نكثا للعهود وخيانة للذّمم، وغدرا عن قصد وسابق إصرار.

ج)- ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: جيء بهذا الاستئناف لمزيد من بيان أسباب الحقد، وأنهم إذ فسقوا عن منهج الله استبدلوا بآيات الله الدّالة على الحقّ والخير والبّر والعدل عقيدة وسلوكا، استبدلوا بها ثمنا قليلا من متاع الدّنيا استبقاء لبعض المنافع الدّنيوية التي شبّهت بالثّمن المبذول لقاء عوض خسيس.

وإمعانا في الحقد والعداء للإسلام كانوا يصدّون النّاس عن سبيله، ويعرضون عن هديه، وذلك كلّه عمل سيّئ مذموم عند الله وعند أهل المروءة.

د)- ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾: وليت حقدهم كان مقصورا على أشخاصكم، ولكنّه حقد يطال كلّ مؤمن، إذ أن الإيمان في كلّ شخص هو باعث ذلك الحقد في نفوسهم، فلا يراعون فيه ذمّة ولا حرمة ولا يوفون بعهد، ذلك لأنّ الكفر والإيمان على طرفي نقيض في ما ينحرّ عنهما من الطّبائع والمواقف. ويلاحظ أنّ هذه الصّفة أعمّ من سابقتها التي قيّدت بالغلبة والقدرة. ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾.

هـ) - ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾: قصر صفة الاعتداء عليهم يدلّ على تأصّلها في طبائعهم، فإذا كانوا هم المعتدين ابتداء بسبب كفرهم فإنّ المؤمنين ليسوا كذلك، بل هم المدافعون الأوفياء.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾:

فإذا كانت تلك هي الصّفات الغالبة على المشركين في عداوتهم للإسلام والمسلمين، فكيف يكون الموقف منهم؟، ذلك ما بيّنه الله تعالى في هذه الآية والتي بعدها، وهي أن يتوبوا عن الشّرك ويكفّوا أيديهم عن الصّدّ عن سبيل الله، ثم يبرهنوا على صدق إيمانهم بإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة، وذلك هو الثّالوث الذي يحصلون به على وثيقة الإسلام، فإنهم بذلك يكفلون لأنفسهم كلّ الحقوق التي تترتب عن الأخوّة الدّينية، وبذلك تطوى صفحة ماضيهم فتستبدل العداوة بالأخوّة، وتتطهّر القلوب من الإحن والبغضاء، وصياغة حكم الأخوّة الدّينية بالجملة الاسمية للدّلالة على ثباتها واستمرارها.

﴿وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: أي مثل هذا التّفصيل للأدلّة الدّالة على وجود الله وحكمته في تشريع تلك الأحكام السّابقة لا يفهمها ولا يعيها إلاّ الذين يعقلونها باستعمال عقولهم في الفهم والإدراك، وهم الذين تستنير عقولهم بنور الإيمان، بينما الجهل هو وليد الكفر والشّرك.

﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾:

بدأ الله تعالى بالخيار الأول للمشركين وهو التّوبة والدّخول في الإسلام، لأنه الهدف النّبيل من الدّعوة، وأعقبه بالخيار الثّاني الذي لا مناص منه وهو القتال لردع

الكفر وأئمته، إن هم آثروا الاستمرار على نقض العهد عنادًا وكفرًا، وإن هم عابوا دينكم وسخروا من رسوله ومن معه من المؤمنين، فهم إذن رؤوس الكفر وأئمته قد بلغوا الغاية في الشرّ والفساد لا يردّهم عماهم إلا مقاتلتكم إياهم، وفي الإظهار ووصفهم بصفة "الأئمة" لقدوتهم في الكفر، في الإظهار مكان الإضمار زيادة في التوبيخ والتشنيع، ثم علّل استحقاقهم لذلك القتال بأنهم لا أيمان لهم ثم أردف ذلك بجملة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾، ويحتمل أن يكون انتهاؤهم من الكفر ونقض العهود والطّعن في الدّين أو انتهاء الباقين منهم بالفناء.

والله أعلم

التّحريض على قتال المشركين، والجهاد محكّ المؤمنين

أ)- النص:

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ﴾: "ألا" قد تكون مجموع حرفين: همزة الاستفهام و"لا"

النّافية، وتكون حرفا واحدا للتحضيض. ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾: الهمّ: هو العزم على فعل شيء، سواء فعله أم انصرف عنه. ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾: أتخافونهم. ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾: يخزي: مجزوم من جواب الأمر "قاتلوهم" بحذف حرف العلّة، والإخزاء: إذلالهم بالأسر والقهر. ﴿وَيَشْفِ﴾: من الشّفاء: وهو زوال المرض. ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾: الغيظ: الغضب المشوب بإرادة الانتقام. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ﴾: التّرك: افتقاد الشيء وتعهّده، أي تتركون دون جهاد. ﴿وَلِيجَةً﴾: فعيلة بمعنى مفعولة، الفعلة التي يخفيها فاعلها للمخادعة، من الولوج أي الدّخول، فكأنّه يولج تلك الفعلة في مكان بحيث لا تظهر، ويسمّى هؤلاء بطانة السّوء.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد تحريض الله المؤمنين على قتال المشركين بدون هوادة في قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ مع بيان بعض الإجراءات الحربية التي يجب أن تتخذ ضدّهم، أعقب الله تلك الأوامر التّحريضية بالتّحذير هنا من التّوانى أو الكسل في ذلك، حتى يطهّر المسلمون جيوب الكفر المتبقية في الجزيرة.

ولمزيد من التّحريض على قتال المشركين أقام الله على ذلك الأدلة وبيّن أسباب وجوب مبادرتهم فقال تعالى: **﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**.

إنّ للنّصر والغلبة نشوتهما في نفوس المنتصرين، قد ينتج عنه -أحيانا- عدم الاكتراث بالمهزوم بعد أن بدأ عجزه وانكسرت شوكته، فيخلد المسلمون إلى الرّاحة والكسل، وربما وجدوا من المنافقين من يثبّط عزائمهم في مواصلة القتال حتى يستأصلوا شأفة الكفر من الجزيرة على الأقلّ.

والله الخبير بعباده في تحريضه على مواصلة القتال، ودرءاً لمثل هذه المواقف المتوقعة من المؤمنين المنتصرين أردف الله هنا هذه الإرشادات المتتالية مبيّنا العلل والأسباب التي تقتضي تلك الصّرامة والحزم في متابعة القتال والتّحريض عليه ليسند تشريعاته ببيان الدّواعي إليها والحكمة منها، وفي تعليل الأمر بالقتال هنا ذكر أسبابا ثلاثة:

أ)- نكثهم للعهد: ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ﴾، والعهد المقسم عليه هو أشدّ توثيقا وأولى بالوفاء، والمقصود بالقوم هم مشركو مكة، والعهد الذي نكثوه هو صلح الحديبية، إذ أعانوا حُلفاءهم من بني بكر على خزاعة التي كانت في جانب عهد المسلمين، وذلك بعد سنتين من إبرام ذلك الصّلح، مما جعله الله سببا لفتح مكة في السّنة الثّامنة.

ب)- ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾: ذهب أغلب المفسّرين أنها إشارة إلى مؤامرة المشركين لكيفية التّخلص من الرّسول عند محاولة الهجرة إلى المدينة، تلك المؤامرة التي تعرّض الله لها في سورة الأنفال عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ (الأنفال:٣٠). ويرى آخرون أنّ حادث الهجرة لا يمكن أن يكون هو المقصود بهذه الآية، لأنّه حادث مضى وقته. ثمّ إن التّعبير بـ"الهمّ" دليل على أنّ ذلك الإخراج لم يقع، ولذلك يتعيّن أن يكون هذا الإخراج من المدينة لا من مكة. إذ كانت للمشركين محاولات عديدة في ذلك، حتى غزوة أحد والأحزاب بل حتى بعد فتح مكة من طرف بعض القبائل النّاكثة للعهد.

ج)- ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: يحتمل أن يكون البدء بالقتال والقيد بـ"أول مرة" إشارة إلى غزوة بدر، إذ كان المشركون هم الدّاعين إلى قتال محمد

وأصحابه بعد زوال الدّاعي لخروجهم في نجدة القافلة. ويحتمل أن يكون البدء بنكث العهد الذي كان سببا للقتال.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ﴾: إنكار لذلك التّردّد في القتال بدافع خشية العدوّ وكُرْه منازلته -أحيانا- طلبًا للسلامة وخلودًا للدّعة، وقد تقررت هذه الوضعية للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة:٢١٦).

ومع الخوف الجُبن والإحجام -لا محالة- ولذلك فرّع عنه قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ﴾، فإيمان الجماعة المسلمة لاشكّ فيه، ولكن تعليق خشيتهم لله بشرط الإيمان هو لتحريك هممهم وإثارة نخوتهم، فيبرهنون على أنهم مؤمنون بالله حقًّا، وأنهم لا يخشون أحدا إلا الله، لأنه كفيلهم وناصرهم، ومع طرح خوفهم لغير الله تكون الشّجاعة والإقدام.

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤمِنِينَ، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

بعد إقامة الحجّة على ضرورة قتال المشركين وتحذير المؤمنين من الخوف والتّردّد أردف الله ذلك بالأمر الصّريح القطعيّ بقتالهم مع ترتيب النّتائج المحقّقة على ذلك في وعد يقيني من الله تعالى جوابًا على ذلك الأمر وضمانًا لتلك النّتائج المقدّرة في علم الله وهي كالتّالي، وهي كلّها مجزومة بعد الأمر: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾.

أ)- ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾: جعل الله تعالى وسيلة تعذيب المشركين هي أيدي المؤمنين، وذلك أنكى عليهم وإهانة لهم، وجزاء من جنس العمل، إذ كان المشركون يعذّبون المؤمنين ليصدّوهم عن دينهم. وقد جعل الله تعالى من أقسى

العقوبات في تربية خلقه أن يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض كما ورد في سورة الأنعام: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (٦٥).

ب)- ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾: والإخزاء ضدّ العزة، إذ يقهرهم المسلمون بذلّ الأسر وسلب الحرية، وهي أغلى ما يملكه الإنسان ليعيش عزيزًا كريمًا، وقد جعل الله العزّة حظًا مضمونًا للمؤمنين فقال عزّ من قائل: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون:٨).

ج)- ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾: والنصر هو أغلى ما يستشرف إليه المقاتل وهو يطلبه بأغلى ما لديه بنفسه وماله، إذ بالنصر تتحقق الغلبة والسيادة، ويندحر العدوّ ذليلاً مهزومًا، وقد جعل الله ذلك من أحبّ ما يطلبه المؤمنون في الجزاء الدنيويّ العاجل قبل الجزاء الأخرويّ بما يقدّمونه من التضحيات وبما يجب أن يكونوا عليه من تراصّ صفوفهم في القتال فقال تعالى في سورة الصّف: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (٤). ثم قال في بيان النتائج المضمونة: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣).

د)- ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾: لا شكّ أنّ العداوات تولّد الإحن والبغضاء، ولطالما عانى المؤمنون من كيد الكافرين أيام سلطانهم ما لا ينمحي أثره من صدور المؤمنين إلاّ بهذا النصر المؤزّر عليهم، ولو أنّ المقصود منهم في وقت التنزيل "خزاعة" فإن الحكم عامّ لجميع المؤمنين عندما ينصرهم الله على أعدائهم، فإنّ صدورهم تُشفى من غيظها فيغمرها الرّضى والاطمئنان.

هـ)- ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾: يبدو أنّ هذه النتيجة مساوية للتي قبلها، والمعطوف عليها -أي شفاء الصّدور- إذ المستفيد منهما واحد، أي "قوم مؤمنون"

ولكن الحالة النفسية تختلف في الشعور والوجدان، إذ هناك مسرّة عامّة تنشرح لها الصدور بما تحقق من النصر العامّ لجميع المؤمنين سواء منهم المغدور بهم وغيرهم. وهؤلاء -أي المغدور بهم- كخزاعة يستلّ ما في قلوبهم من الغيظ على من غدروا بهم، ولا شك أن زوال الغيظ والغلّ من القلوب هو منتهى الرّاحة والسّعادة كما قال تعالى في وصف أصحاب الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر:٤٧).

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: فعل "يتوبُ" مرفوع لم يندرج مع الأفعال المجزومة بعد الأمر، لأن المقصود بهم هم فئة أخرى من المشركين الغادرين، ولكنهم لم يقتلوا، واتّباعا لأخلاقية الدّعوة أخبر الله تعالى بأنّ منهم من يتوب بدخوله في الإسلام، وأن الله تعالى يقبل توبته، وذلك ما وقع بالفعل، وقد أحصى المؤرخون من أسلم من هؤلاء وحسن إسلامه.

والله عليم بأحوال خلقه وباستعداداتهم النّفسية وقابليتهم للتذكرة والاتّعاظ، وهو حكيم في ما يقدّره من أسباب ونتائج في تصريف شؤون خلقه وفق سننه في الحياة والاجتماع.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:

بعد ذلك الإطناب في التّحريض على قتال المشركين بلا هوادة ينتهي السّياق بهذه الآية المصدّرة بأداة الإضراب "أمْ" في خطاب للمؤمنين، وفي إنكار لكلّ ظنّ يَدُرُّ منهم في إمكان متاركتهم للجهاد والميل إلى الرّاحة وطلب السّلامة، في حال أن الله تعالى ينفي عدم تعلّق علمه بكل الأحوال الواقعة من طرف المخاطبين، إذ كان فيهم الوفيّ المخلص في جهاده لم يخن الأمانة و لم يتّخذ يدا عند

أعداء الإسلام حفاظا على منفعة ذاتية أو طلبا لمغنم عاجل كما فعل ذلك كثير من المنافقين مرضى القلوب.

وبما أن أداة "أم" تحمل معنى الاستفهام الإنكاري حتى يتذكّر المسلمون ما عانوه من المشركين في مختلف مراحل جهادهم لهم، وكيف كانت مواقف المنافقين في المراوغة والخداع، لأنّ من شأن ذلك التّذكّر أن يحفزهم على مواصلة الجهاد والحذر من مكر الأعداء. فالنّفي في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ ليس هو بنفي للعلم -وحاشا لله ذلك- بل هو نفي للمعلوم الموجود، والظّاهر على مسرح الحياة يعيشه النّاس ويعلمونه ليكون دليلا لهم في التّمييز بين المخلصين الأوفياء ومن يكون منافقا مخادعا يتستر بالمراوغة والرّياء، ويتخذ بطانته من الأعداء.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: تذييل مناسب لإنكار ذلك الحسبان، وهو دليل على أن الله عالم بالمقاصد والنّيات ويحاسبكم عليها

والله أعلم

عمارة مساجد الله

أ)- النص:

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا۟ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾: بمعنى ما ينبغي لهم، ومثل هذا النفي يسمّى نفي الشأن، وهو أبلغ من نفي الفعل. ﴿أَنْ يَعْمُرُوا۟﴾: من العَمر والعمارة، وهما لغة، اللزوم والإقامة فيها للعبادة أو لخدمتها بالترميم والتنظيف ونحو ذلك. نقيضها الخراب كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ (البقرة:١١٤) ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾: جمع مسجد وهو لغة: مكان السّجود، ثم أطلق على البيوت التي يعبد فيها الله تعالى، وجيء بالمساجد على صيغة الجمع إمّا لإرادة جنس المساجد الذي يصدق بأيّ فرد من أفرادها، وإمّا أن يراد به المسجد الحرام، وجيء بالجمع مراعاة لما يتبعه من مختلف المشاعر الأخرى في الحج والعمرة. أو لكونه قبلة للمساجد كلّها كما قيل. ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾: أيّ جسّدوا الكفر قولا وعملا بحيث لا يستطيعون إنكار ذلك. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: من الإحباط وهو البطلان وعدم قبولها عند الله. ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾: هو قصر إضافي لا يراد به نفي مطلق الخشية لغير الله، لأن ذلك غير واقعي، وإنما المراد تقديم خشية الله على غيرها إذا تعارضت معها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا۟ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بإفراد: ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ أي المسجد الحرام، وتعريفه بالإضافة للجنس، وقرأ الباقون: ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ فيعمّ المسجد الحرام وغيره.

د)- البيان والتفسير:

في سياق الإعلان بالبراءة ونبذ عهود المشركين بعد إعطائهم مهلة أربعة

أشهر، ثم التحريض على قتالهم، وأن لا يحجّوا بعد العام التاسع ولا يطوفوا بالبيت عراة، كبُر على المشركين أن يُعامَلوا بتلك المعاملة واحتجّوا عليها، كما تثبت الرواية عن ابن عبّاس ﷺ أنّ والده العباس قال حين أُسِرَ يوم بدر: "إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنّا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحجّاج، ونفكّ العاني".

وقد ظن المشركون أن تبقى وضعية المسجد الحرام على ما كانت عليه، من عبادة وعمارة على ما ألفوه من قبل، فأنزل الله هاتين الآيتين كحدّ فاصل بين الوضعيتين، فقال تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا۟ مَسَاجِدَ اللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ**﴾.

هذا انتقال إلى نوع آخر من معاملة المشركين يمسّ أقدس العادات والتقاليد التي تتّصل بسيادتهم على المسجد الحرام -وهو الرّمز لتلك السّيادة بكل ما تحقق لهم من المنافع والامتيازات-.

ولنفي كلّ ذلك ومحوه نهائيا في ظل التغييرات الإسلامية الجديدة، جاء النّفي بتلك الصّيغة البليغة لنفي أيّ شأن وأي استحقاق يكون للمشركين في المسجد الحرام عبادة أو عمارة مما ألفوه وما يفتخرون به، ذلك لأن بقاءهم على الكفر يجعلهم بُعداء كلّ البعد عن ممارسة ذلك الحق، حالة كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر قولاً وعملاً، فهو البيت الذي أسّس من أول يوم لعبادة الله وحده من يوم أن رفع إبراهيم وإسماعيل قواعده ودعوا الله أن يجعل من ذريتهما أمّة مسلمة لله، وأن يبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وها قد استجاب الله تلك الدّعوة فجاء محمد ﷺ ليطهّر البيت من الأوثان ومن أرجاس الكفر والشّرك، فما ينبغي لهؤلاء بمقتضى شركهم وكفرهم أن

يكونـــوا من عمّاره حسًا أو معنى، وعلّة ذلك هو الكفر بالله، والذي تميّزوا به عن ســـواهم بالشّـــهادة على أنفسهم، وقد أثبت الرّواة أنهم يقولون: "لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك".

والشّـــرك محبط للأعمال، وهو حكم الله الأزلي، لا ينتقض ولا يتطوّر عبر القرون ولا حسب الأجيال. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذِينَ مِن قَبْلِكَ لَـــئِنْ أَشْـــرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ، بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّـــاكِرِينَ﴾ (الزمـــر:٦٥-٦٦). ومن أحبط عمله فقد حقّ عليه الخزي يوم القيامة بالخلود في النّار.

وإذا كـــان الله قـــد أقصـــى الكفّار من عمارة مساجد الله، فمن هم أولى بعمارتهـــا ومـــن هم مستحقوها؟ ذلك ما بيّنته هذه الآية بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ -امَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾.

لم يقـــابل الله تعالى لفظ المشركين والكفر في الآية السّابقة بلفظي المسلمين والإيمـــان في هـــذه الآية، بل اختير الاسم الموصول لتعدّد صلاته في بيان صفات المســـتحقّين لعمارة مساجد الله حسًا ومعنى في استئناف بياني مصدّر بأداة الحصر: "إِنَّمَا"، و لم تتحقّق تلك الصّفات إلا في المسلمين وهي كالتّالي:

أ)- ﴿**مَـــنَ -امَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ**﴾: ولمّا كان الإيمان بالله واليوم الآخر إيمانا بالغيب لا يثبت إلا عن طريق الوحي، فهو يستلزم الإيمان بالرّسل المبلغين عن الله، وعـــلى رأسهم سيّدنا محمد ﷺ، كما أنّ الإقرار بالشّهادتين، يتضمّن الإيمان بكل أصول العقيدة الإسلامية كما بيّنها القرآن الكريم والسّنة المطهرة.

ب)- ﴿**وَأَقَامَ الصَّلاَةَ**﴾: أي أتى بها على الوجه الأكمل باستيفاء شروطها

وأركانها حتى تحقق لمؤديها المنافع الروحية والاجتماعية التي رتبها القرآن عليها.

ج) ﴿وءاتى الزكاة﴾: لمستحقيها الذين بيّنتهم الآية في هذه السّورة، وهو بذلك يبتغي وجه الله لا يريد من أحدهما جزاءً ولا شكورًا، حتى يتحقق التكافل الاجتماعي بين المسلمين.

د) ﴿ولم يخش إلا الله﴾: المراد بالخشية ما يكون بدافع الإيمان خوفا من الله، إجلالاً لعظمته، بحيث لا تكون إلاّ له في التوجه وطلب الحاجات، لأنّ غيره لا يملك ضرًا ولا نفعًا، فكلّ توجّه يتوسّل فيه بغير الله فهو من الشّرك الخفيّ، يحبط الأعمال إذ هي أسّ العقيدة التي هي الأساس في قبول الأعمال أو رفضها.

أمّا الخشية الغريزية التي تنبّه الإنسان لتوقّي أسباب الضّرر فلا حرج فيها، لأنها من شؤون الفطرة التي لا غنى عنها.

﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾: أي يُرجى لجامعي تلك الصّفات المذكورة أن يكونوا من جماعة المهتدين. ووجه الرّجاء هو ما يكون للمتصفين بما ذكر من الأمل والطّمع في الوصول إلى مقام المهتدين الكاملين، لأنهم توخوا أسباب الهداية وثبتوا عليها حتى النّهاية جعلنا الله منهم آمين، والله أعلم.

المفاضلة بين عمارة المسجد الحرام والجهاد في سبيل الله

أ) – النص:

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿سِقَايَةَ﴾: السّقاية: صيغة لحرفة سقي الماء، ويطلق على المكان الذي يسقى فيه الماء وغيره، وعلى الإناء الذي يسقى به، قال تعالى: ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ (يوسف:٧٠). والمقصود به: ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزّبيب المنبوذ في الماء، وكان يليها العباس بن عبد المطلب في الجاهلية والإسلام. وكذا ﴿عِمَارَةَ﴾: العمارة: صناعة التّعمير لمكان بالإصلاح والحراسة ونحو ذلك. ﴿وَالْحَاجِّ﴾: لجنس كلّ من حجّ البيت يجمع على حُجّاج. ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾: أي الفريق الأول والفريق الثّاني، لا يستوي في صفته ولا في علمه في حكم الله وجزائه. ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾: أي رتبة ومنزلة عند الله. ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾: أي الدّائم المستمرّ. ﴿وَرِضْوَانٍ﴾: بكسر الرّاء وضمّها، الرّضا الكامل العظيم لأن "فعلان" صيغة للمبالغة. ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: الأجر: العوض الذي يعطى على عمل مّا.

ج)- البيان والتّفسير:

تقدّم أنّ مشركي مكّة كانوا يفخرون ببعض المآثر بالأخصّ خدمة البيت الحرام، واستمرّ ذلك الفخر فيهم حتى بعد إيمان بعضهم كالعباس وغيره. وبعد أن فصلت الآيتان السّابقتان على أن المؤمنين هم أحق بعمارة المسجد الحرام من المشركين، وبعد أن شرح الله قلوب كثير منهم للإسلام، ساد الظّن لديهم بأن مآثرهم في القيام بشعائر المسجد الحرام هو مساو في الفضل لأعمال السّبق إلى

الإيمان والهجرة والجهاد.

وقد وردت في سبب النّزول روايات كثيرة، من أبرزها ما رواه النّعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاجّ. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام. وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم. فزجرهم عمر بن الخطاب، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله -وذلك يوم الجمعة-، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَآجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ -آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الاٰخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾.

الاستفهام للإنكار، والخطاب لأولئك الذين سوّوا بين العملين، على الاعتقاد بأنّ كلاً منهما من عمل الخير والبرّ، بقطع النّظر عن كون تلك المفاضلة وقعت بين قوم مؤمنين كما دلّ عليه حديث النّعمان بن بشير، أو أنّها جرت بين المسلمين والكفّار، فعلى كلا الاحتمالين فإنّ هذه المفاضلة غير متكافئة في عنصريها، ذلك لأن القيم التي يتفاخر بها النّاس قد تتغيّر قيمتها بحسب الظّروف والأحوال، كما تستجدّ قيم أخرى تكون أعظم قيمة وأرفع قدرًا، ولذا فإنّ مقتضيات التّغيير والإصلاح التي أفرزتها الدّعوة الإسلامية، وما استلزمته من تضحيات وجهاد، جعلت قيمة الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس في أعلى المراتب أجرا وفضلا عند الله.

وكانت لقريش في جاهليتها مناصب عشرة تسمّى المآثر تتوزعها العشائر، وهي كلّها أعمال تضامنية لخدمة البيت الحرام وإكرام الحجيج، وغير ذلك مما

يتطلبه أمنهم الاجتماعي وسيادتهم على العرب، فكانت سقاية الحجيج لبني هاشم بن عبد مناف، وجاء الإسلام وهي للعباس بن عبد المطلب، وكانت عمارة المسجد وتسمّى "السّدانة" لبني عبد الدّار بن قصي، وجاء الإسلام وهي لعثمان بن طلحة.

وقد أبطل الإسلام جميع تلك المناصب ما عدا السّدانة والسّقاية فقال رسول الله في خطبة الوداع: «**ألا إنّ كلّ مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدميّ هاتين إلاّ سقاية الحاجّ وسدانة البيت**».[1]

ولما كان الاستفهام الإنكاري يتضمّن معنى النّهي، فقد دلّ أنّ مثل هذه المفاضلة خطأ، لأنها تقابل بين شيئين مختلفين شرفًا وفضلاً، وكان من الواجب أن يتجنّب هذا الخطأ، فقال تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ﴾.

فعدم التّسوية تطال العملين ومن قام بهما، وإسناد التّسوية إلى ضمير العاملين: ﴿لاَ يَسْتَوُونَ﴾ دون الأعمال، لأن التّسوية تتعلّق بالذّوات لا بالمعاني، يقول الفخر الرّازي: "ولمّا ذكر تعالى وصف الفريقين قال: ﴿لاَ يَسْتَوُونَ﴾، ولكن لما كان نفي المساواة بينهما لا يفيد أن الرّاجح من هو، نبّه على الرّاجح بقوله: ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، فبيّن أنّ الكافرين ظالمون لأنفسهم، فإنهم خلقوا للإيمان وهم رضوا بالكفر وكانوا ظالمين، لأنّ الظّلم عبارة عن وضع شيء في غير موضعه، وأيضا ظلموا المسجد الحرام، فإنّه تعالى خلقه ليكون موضعا لعبادة الله تعالى، فجعلوه موضعا لعبادة الأوثان فكان هذا ظلما".[1]

﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

١- رواه ابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو، حديث ٦٠١١، ١٣/٣٦٤.

١- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ١٦/١٢-١٣.

أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ، يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾:

بعد التلميح إلى الفريق الراجح بالإيمان والهجرة والجهاد على عمل السقاية وعمارة المسجد الحرام في الآية السابقة أعقبه بالتصريح في هذه الآية، إذ بنيت بوضوح المقصود بنفي التسوية بين العملين، فقال تعالى: إن الذين هم في أعلى منزلة عند الله هم أولئك الذين يتصفون بالصفات الأربع التي بلغوا بها الكمال الإنساني، فهم بتلك العندية التي شرّفهم الله بها بمثابة الملائكة منزلا ومقاما إذ قال في شأنهم: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء:١٩-٢٠).

والصفات الأربع هي الإيمان، والهجرة، والجهاد في سبيل الله بالمال، والجهاد بالنفس، ولاشكّ أنّ مجموع هذه الصفات، وإن كان المقصود هو عموم من يتصف بها إلى يوم القيامة، فإنّ الذين تحقّقت فيهم في وقت التنزيل هم السابقون الأوّلون من صحابة رسول الله الذين شهد لهم الله ورسوله بفضل السبق في تحلّيهم بتلك الصفات حتى قال فيهم الرّسول: «**لا تسبّوا أصحابي، فو الله لو أنفق أحدكم مثل "أحد" ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه**».[1] وقال متضرعا إلى الله يوم بدر: «**اللّهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض**»[2]

١- رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري، حديث ٣٤٧٠، ٣/١٣٤٣. ورواه مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد نحوه، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سبّ الصحابة، ٢٥٤٠-٢٥٤١.

٢- رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب، كتاب الجهاد والسّير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، حديث ١٧٦٣.

ويؤكد ذلك العموم عدم ذكر المفضول عليه، ثم قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، والفوز في حكم الله لصنف من خلقه هو صمام الأمان والنجاة من عذاب النار: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران:١٨٥).

وجيء بصيغة القصر للمبالغة حتى لكأنّ فوز غيرهم يُعدّ كالمعدوم، ثم أوضح الله تلك الدّرجة العظيمة التي حبّتهم تلك العندية بجوار الله فقال:

أ)- ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾.

ب)- ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾.

والتبشير: هو الإخبار بشيء ميسّر يحصل للمخبَر لم يكن عَالمًا به، وأسند إلى صفة "ربُّهم" وبصيغة المضارع مع الإضافة التشريفية، كلّ ذلك ليفيد منتهى الإكرام والرّعاية الرّبانية بتعاقب الخيرات عليهم وتجدّدها واستمرارها.

تلك الخيرات التي تتمثل في تلك الفيوض الرّوحانية من الرّحمة والرّضوان، بدأ الله بذكرها لما لها من القدر والشّأن. ومجيء اللّفظين: "رحمة" و"رضوان" نكرتين للدلالة على أنها رحمة خاصّة ورضى من الله عظيم جسّدهما رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه الشّيخان عن أبي سعيد الخدريّ قال: قال رسول الله: «**إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيّك ربّنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يا ربنا وأيّ شيء أفضل من ذلك؟، فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا**».[1]

١- رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري، كتاب الرّقاق، باب صفة الجنة والنار، حديث ٦١٨٣.

والعارفون بالله ممن تبوّأوا مقامات العندية التشريفية يتذوقون ويتملّون تلك الفيوض الروحانية حتى وهم يعيشون في العالم المادي الفاني، وهو مقام أعظم من النعيم الجسماني بدليل تقديمه عليه في هذه الآية، وبصريح حكم الله في قوله تعالى في ذكر جزاء المؤمنين في هذه السورة إذ قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢). ومن تمام ذلك النعيم وكمال لذته أنه مقيم خالد، غير مقطوع ولا ممنوع.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: تذييل مناسب بذكر الأجر العظيم لأولئك الذين تحشموا مشاق الهجرة والجهاد، وهما ضريبة الإيمان بالله ورسوله، والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين بل يضاعف ثواب العاملين، والله أعلم.

النهي عن ولاية الآباء والإخوان الكافرين، وعلوّ حبّ الله ورسوله على كلّ حبّ

أ)- النص:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

ب) - التحقيق اللغوي:

﴿اسْتَحَبُّوا﴾: أحبّوه حبًا متمكنًا، بزيادة السين والتاء في "أحبّوا" للتأكيد. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: الظلم بمعناه اللغوي: هو وضع الشيء في غير موضعه، وفسّره ابن عباس بالشرك، لأن متوليَ الكفار منهم كما قال تعالى في سورة المائدة في ولاية اليهود والنصارى إذ قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ (٥١). قوله تعالى: ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ تتشكل من الأقارب الأدنون، وهو مشتق من العشرة، أي عشراء المرء من ذوي قرباه الذين من شأنهم التعاون والتناصر. ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾: من الاقتراف وهو الاكتساب، يقال: قارف الشيء إذا قاربه. ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾: الكساد في التجارة: قلّة التبايع فيها، ضدّه الرّواج. والنّفاق: يقال: نفقت السوق إذا كثر فيها التبايع والشراء. ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾: عبّر باسم التفضيل "أحبّ" وهو يقتضي إرضاء أقوى المحبوبين في نفس الإنسان وهو عند المؤمن الوفيّ حبّ الله ورسوله. ففي التعبير تحذير من التهاون في ذلك، ولم يرتّب المؤاخذة على أصل الحبّ لما ذكر من حظوظ الدّنيا لأن ذلك شيء غريزي. ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾: تهديد بسوء العاقبة إن هم آثروا محبة الأقارب والأموال والمساكن.

ج) - أوجه القراءة:

﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾: قرأ الجمهور: "وعشيرتكم" بصيغة المفرد، وقرأ أبو بكر عن عاصم: "وعشيراتكم" جمع عشيرة، على أنّ لكلّ واحد من المخاطبين عشيرة خاصّة به، وتجمع جمع تكسير "عشائر".

د) - البيان والتفسير:

لقد أفرزت الوضعية الجديدة للتعامل مع المشركين بالتبرؤ ونبذ عهودهم

ومفارعتهم حدّ السّيف كما بيّنته الآيات السّابقة، لقد أفرزت تلك الوضعية إشكالات أعطت فرصة للمنافقين وأشياعهم لإثارة الشّبه حولها، سيما في ما يتصل بروابط الأسرة في قاعدتها الأساسية من الآباء والأولاد والإخوة، إذ الدّافع الغريزي هو الذي يلحم بين هؤلاء في تبادل المحبّة والتّعاون بينهم بحيث تكون القطيعة التّامة بينهم من الأمور الشّاقّة العسيرة، فإذا كان المولى تبارك وتعالى قد حسم الأمر جلاء في معاملة المظهرين للكفر، فإن المنافقين ممن أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان، تعسر معرفتهم أوّلا، وبالتّالي يتحيّر المؤمنون الخُلّص في كيفية معاملتهم، فذكر الله تعالى في هذه الآية ما يزيل ذلك الإشكال إذ قال مخاطبا الذين آمنوا إشعارا لهم بالمسؤوليات التّضامنية في هذا المجال الحسّاس قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخذُواْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَآءَ ان اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الايمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئكَ هُمُ الظَّالمُونَ﴾:

لقد كان الولاء للأسرة والقبيلة في المجتمع الجاهلي السّاذج دعت إليه الظّروف الطّبيعية القاسية في تلك الرّقعة المحدودة من أرض الجزيرة العربية، فشاءت حكمة الله أن يخرج تلك الأمّة المنقوقعة حول نفسها يخرجها للناس -وهي حاملة لرسالته- يخرجها بقيم جديدة ومفاهيم متطوّرة تسع العالم على مختلف أجناسه وألوانه ولغاته، فجعل لها رابطة الدّين أقوى وأعلى من كلّ رابطة أخرى عرفها النّاس واعتمدوها في محيطهم الاجتماعي، فالأبوّة والأخوّة -على ما لها من العلاقات المتينة- فإنّ الكفر والشّرك بالله يقطع تلك الرّابطة، لأنّ الله الخالق للآباء والأولاد أولى بالحبّ والطّاعة بدافع الإيمان به والولاء له كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للَّهِ﴾ (البقرة:١٦٥). فجاء النّهي صريحا بوجوب مقاطعة الآباء والإخوان إن استحبّوا الكفر على الإيمان، أي آثروا الكفر وأحبّوه حبّا مكينا بحيث

يصبحون عونًا للكفّار ونصراء لهم وعينًا لهم على عورات المسلمين.

ولبيان أنّ الأمر للوجوب لا لمجرّد الاستحباب أعقبه تعالى بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فالتّولية لهؤلاء قد اعتبرها الله ظلما يعاقب عليه صاحبه لعلة الكفر والشّرك وهما في حكم الله ظلم عظيم، فإذا كان التّحذير من موالاة هؤلاء على ما لهم من وشيجة القرابة، فَمَنْ دونهم من الأقرباء والخلطاء أولى بحكم النّهي.

ولتأكيد ذلك فصّل الله تعالى الأصناف الأخرى في سلّم القرابة أو في مجال المخالطة فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

لقد كان لصاحب المنار الشّيخ رشيد رضا ملحظ دقيق في اختلاف التّعبير بين الآيتين، وفي ارتقاء التّحذير من موالاة ذوي القرابة على مختلف درجاتهم وأصنافهم فقال:

"وجّه الله الخطاب مباشرة للمؤمنين في النّهي عن الجريمة الكبرى بموالاة الكافرين المعادين لله ورسوله، واجتزأ هناك بذكر الآباء والإخوان، لأن من شأن الإنسان أن يتولّى في الحرب من فوقه كالأب ومن هو مثله كالأخ دون من هو دونه، ومن شأنه أن يكون تابعا له كابنه وزوجه، بينما أمر رسوله في الآية الثّانية أن يخاطب المؤمنين في الجريمة الثّانية والوعيد عليها على فرض وقوعها منهم بدليل استعمال أداة الشّرط "إن" الذي يشكّ في وقوعه، ولم يعطف هذه الآية على الأولى في الخطاب بصفة الإيمان لمنافاة ذلك لمضمونه، ولم يرتب المؤاخذة في الآية

الثّانية على أصل الحبّ لما ذكره من الحظوظ في الحبّ على حبّ الله ورسوله والجهاد في سبيله، وذكر هنا الأبناء والأزواج دون آية النّهي الأولى لأنهم في المرتبة الأولى حبًا من طرف الإنسان". انتهى بتصرف [1]

ذكر الله تعالى ثمانية أصناف: خمسة منها تشمل الأقارب حسب مراتبهم في سلّم الأسرة: الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج. واكتفى بذكر العشيرة لمن بقي من الأقارب في رابطة الدّم والنّسب تألفها النّفوس وتستأنس بمخالطتها.

وفي مجال المخالطة نذكر اكتساب الأموال وتأثّلها مع ذكر التّجارة، وهي أنجع وسيلة للحصول على الأموال، والكساد هو شرّ ما تبتلى به فتجرّ صاحبها إلى الإفلاس -أحيانا-، ثم وضع في آخر التّرتيب الرّغبة في بناء المساكن وتشييدها بكيفية تضمن لصاحبها السّكن والطّمأنينة وتزرع في نفسه التّعلّق والرّضى بها.

ذكر الله تعالى هذه الأصناف الثّمانية في معيار التّفضيل في المحبة بينها وبين محبّة الله ورسوله والجهاد في سبيله، وجعل من واجب المؤمن الوفيّ أن يؤثر محبة الله ورسوله، لأن عكس ذلك يفضي إلى موالاة أولئك الذين استحبّوا الكفر على الإيمان، وبالتّالي يقعد ذلك عن واجب الجهاد الذي يضمن المؤمنون به عزّهم وكرامتهم في نفوسهم وأحبائهم ويحصّنون أموالهم وأرزاقهم.

والدّافع القويّ إلى تنمية الشّعور بالواجب في نفس المؤمن هو تغليب حبّه لله ورسوله عن كل ما سواهما كما ثبت في الحديث الصّحيح عنه ﷺ أنه قال: **« ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما**

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١٠/٢٢٥.

سواهما...» الحديث.[١]

وفي رواية: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين .»**[٢]

وفي فضل الجهاد قال رسول الله ﷺ: **«لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»**.[٣]

وقوله تعالى بعد ذلك التحذير: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، وعيد وتهديد إن هم رجحت كفة حبهم لما ذكر من الأصناف الثمانية وقعدوا عن الجهاد في سبيل الله، فقد توعدهم الله بإتيان أمره و لم يفصح عن ماهية ذلك الأمر تهويلا وتحريكا لنفوس المخاطبين لتوقع ما سيحدث من سوء العواقب على المجتمع المسلم.

وأخيرا يختم بهذا التذييل: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، وفيه التعريض بالذين آثروا بمحبتهم من ذكر في الآية بأنهم فاسقون عن نهج الله فأخطأتهم الهداية التي هي أعظم نعمة يجب على المسلم أن يستبقيها بطلب العون والتوفيق من الله، كما ورد في سورة الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (٦-٧).

والله أعلم

١- رواه البخاري من حديث أنس، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث ١٦.

٢- رواه البخاري من حديث أنس، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ، حديث ١٥.

٣- رواه مسلم من حديث أنس، كتاب الإمارة، باب فضل الغدوة و الروحة في سبيل الله، حديث ١٨٨٠

هزيمة المسلمين يوم حنين، ثم إنزال السّكينة عليهم

أ)- النص:

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾: مواطن: جمع موطن، هو مكان التوّطن والإقامة، ويطلق على مواقع الحرب ومشاهدها. ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾: حنين اسم واد بين مكة والطّائف قرب "ذي المجاز". ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾: تعبير تمثيلي، شبهت حال المسلمين عند اشتداد البأس عليهم أمام العدو بحال من يرى الأرض الواسعة ضيّقة. ﴿وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾: التّولّي: الرّجوع والإدبار، شائع في الفرار أي فارّين منهزمين. ﴿أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾: السّكينة: الثّبات واطمئنان النّفس، ضدّه الاضطراب والانزعاج، وقد حصلت السّكينة للمسلمين بقدرة الله ورحمته خارقة للعادة. ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾: المراد بهم جماعات من ملائكة الله مكلّفون بهزيمة المشركين، والجنود اسم جمع لا واحد له من لفظه، بل يفرد بـ"ياء" النّسب فيقال: جندي، والجنود هم الجماعة المهيّئة للحرب.

ج)- ملخص عن غزوة حنين:

وقعت بعد فتح مكّة بين المسلمين وكانوا اثني عشر ألف مقاتل وبين هوازن وثقيف الذين كانوا أربعة آلاف، فقال رجل من المسلمين عند التقاء الجمعين: لن نغلب اليوم من قلة. فساء ذلك رسول الله فانهزم المسلمون في أول الأمر لغرورهم بكثرة عددهم ونسيانهم التوكل على الله. ولكن الرّسول ثبت مع بعض أصحابه، وأمر عمّه العباس أن يصرخ في المدبرين: يا أهل بيعة الرّضوان، يا معشر المهاجرين، يا أصحاب سورة البقرة -يعني الأنصار- هلمّوا إليّ، فاجتمعوا وقاتلوا أعداءهم مجلّدين حتى هزموهم. وقعت في سنة ثمان بعد الفتح.

د)- البيان والتّفسير:

تضمّنت الآيات السّابقة التّحريض على قتال المشركين بدون هوادة وبيّنت أسباب ذلك الأمر بالتّشديد والتّضييق عليهم، وبشرت المجاهدين بالثّواب الجزيل والنّصر المبين، ثم حذّرت المؤمنين من ولاية المشركين من الآباء والإخوان إن استحبّوا الكفر على الإيمان، كما حذّرت من تغليب محبة الأزواج والأبناء والآباء والعشيرة والتّجارة والأموال والمساكن على حبّ الله ورسوله وجهاد في سبيله رعاية لمصالح الدّين.

ولمّا كان الالتزام بمثل ذلك ممّا يشقّ على النّفوس والقلوب جاءت هذه الآيات بشواهد مما سبق من تأييد الله للمسلمين في مواطن كثيرة في حالة امتثالهم لأوامر الله وتوكّلهم عليه، ثم لمّا أعجبوا بكثرتهم في وقعة حنين شاهدوا الحالين: الهزيمة والنّصر، في موقف ملموس لما ينتجه الاعتماد على الله وتنفيذ أوامره، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ

تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾.

الإنسان كثير النّسيان عجول، وقد يغترّ بما عنده فيستغني -أحيانا- ويغفل عن طلب العون من الله واستنزال نصره وتأييده، ذلك ما حدث للمسلمين بعد فتح مكة، وقد دانت لهم قريش وكفكفت من كبريائها، إذ تجمّعت لهم هوازن وثقيف وأشياعهما حميّة وغضبا لهزيمة قريش، فنزلوا في وادي حنين، وكان المسلمون واثقين بالنّصر مغترّين بكثرة عددهم حين قال قائلهم: "لن نغلب اليوم من قلة". فشاءت حكمة الله أن يريّيهم حتى لا يعودوا لمثل ذلك، فانهزموا عند أول اللّقاء، ثم أراهم الله بعد ذلك ما يحبّونه من النّصر.

وللتذكير بهذه الواقعة مهّد الله تعالى بذكر شواهد من تأييد الله لهم في مواطن كثيرة وإحرازهم النّصر فيها وهم قلّة، ولكن الله أيّدهم بمدده حين استجابوا لأوامره وتوكّلوا عليه حقّ التّوكل، وهاهم في غزوة حنين يعيشون الحالتين: الهزيمة والنّصر، حتّى يتعرّفوا لأسباب الحالتين، ويقارنوا بينهما.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾: أكّد الله الخبر بمؤكدين، "اللام" المشعرة بالقسم و"قد"، ثم أسند النّصر إلى لفظ الجلالة لزيادة التّحسيس للمسلمين وإشعارهم بالنّتائج المضمونة لتغليب محبة الله ورسوله على كلّ محبة، ووَصْفُ المواطن الّتي انتصر فيها المسلمون بالكثرة يدلّ على أن انهزامهم في أخرى كان قليلا. وذكر بعض مؤرخي السّيرة أن المواطن أقلّ من ثمانين، وأنّ عدد غزواته ﷺ إحدى وعشرون، قاتل بنفسه في ثمان: بدر وأحد والأحزاب والمصطلق وخيبر ومكة وحنين والطّائف. وبعوثه وسراياه ست وثلاثون.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً﴾: معطوف على ما قبله، أي ونصركم الله يوم حنين، فهو من جملة المواطن التي نصركم الله فيها،

وتخصيصه بالذّكر لما كان من العبرة بحصول النّصر عند امتثال أمر الله واللّياذ إليه وغيابه عند التّعلّق بالحظوظ العاجلة المذكورة في الآية السّابقة، إذ كان العدوّ قد أحضر كلّ ما يملكه من النّساء والولدان والمواشي للاستماتة في القتال. وكان اغترار المسلمين بكثرة عددهم سببا للهزيمة عند أول الجولة. وما ينبغي أن يصدر منهم ذلك، وهم الأوفياء لله ورسوله.

وقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، تصوير بديع للحالة النّفسية عند المنهزم بحيث يرى الأرض ضيّقة على رحابتها حتّى لكأنّه في سجن ضيّق. والعطف بـ"ثمّ" في قوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ يدلّ على أنّ تولّيهم كان بعد حيرة واضطراب واختيار المسلك الأفيد للنجاة، وفي ذلك تصوير بالغ لاشتداد القتال بين الطّرفين، وأن ذلك التّولّي كان للفرار لا للحيل الحربية.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَآءُ الْكَافِرِينَ﴾:

وما أنسب العطف بـ"ثمّ" في إنزال السّكينة من الله، إذ أنّ لحظات الشّدّة والبأس عند الإنسان عامّة وعند المؤمن خاصّة تدعوه إلى اللّياذ بالمنقذ الذي يملك وحده أسباب النّجاة، وغالباً ما تمتد فترات الشّدّة والضّيق ويشتدّ معها طلب المدد والعون من الله، وهي تبدو للمصاب طويلة ثقيلة، حتى ولو لم تبطئ الاستجابة.

وتقدم رسول الله على المؤمنين في الحصول على تلك السّكينة يدلّ على أنه كان ﷺ أثبت نفسا وأمضى عزيمة في موطن البأس كما أثبتت ذلك الرّوايات أنه كان راكبا بغلته الشّهباء وحوله ثلة من أصحابه يقارعون العدوّ، وأمر عمّه العبّاس أن يصيح بالنّاس: يا أصحاب الشّجرة، يا أصحاب السّمرة، هلمّوا إلى رسول الله. فانضمّ إليهم جماعة من المؤمنين فقاتلوا باستماتة حتى نصرهم الله، وكان الرّسول

ينظر إليهم باطمئنان واثقًا بنصر الله وهو يقول: «**الآن حمي الوطيس، اللّهم أنجز لي ما وعدتني، اهزموا وربّ الكعبة**».[1]

وقد شدّ الله أزرهم بمدد من الملائكة، فكان تعذيب الكافرين بالقتل والأسر وسبي ذراريهم ونسائهم وسبي أموالهم.

ونلاحظ دقة التّعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الفتح:٢٦). فتكرار حرف الجرّ والإظهار في مقام الإضمار له فائدتان:

أ)- تكرّر حرف الجرّ لإفادة اختلاف السّكينتين، فإنّ سكينة رسول كانت على أصحابه وقد كرُّوا مستميتين في القتال والنّصر معقود بنواصيهم، بينما سكينة المؤمنين ظهرت في استماتتهم وثباتهم وإحرازهم النّصر.

ب)- والإظهار بلفظ المؤمنين للتحرّز من جماعة المنافقين وضعاف الإيمان، وأنّ نصر الله قرين بالمؤمنين الأوفياء.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾: الإشارة إلى التّعذيب المذكور وأنّه جزاء وفاق لكلّ من كفر بالله إلى يوم الدّين.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: وهذا من الأخبار الغيبية التي تحقّقت في أرض الواقع، وهو يتلاءم مع أسلوب القرآن في البشارة والنّذارة والوعد والوعيد، وقد فتح الله باب التّوبة لمن وفّقه الله من أولئك الكفّار المهزومين من هوازن وغيرهم فشرح الله صدورهم للإسلام وحسنت توبتهم.

١- أنظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢/٤٥.

وتروي السّيرة أنّ الرّسول لما قسّم غنائم حنين على المجاهدين أتاه وفد هوازن مسلمين راغبين في العطف عليهم والإحسان إليهم، فخيّرهم الرّسول بين السّبي والأموال فاختاروا السّبي، فردّ عليهم نساءهم وأولادهم واستطاب أنفس الغانمين عمّا بيدهم من الأموال وعوّض من لم تطب نفسه بترك نصيبه بما رضوا بها.

ويروى أن الشّيماء أخت النبي من الرّضاعة بنت حليمة السّعدية كانت من جملة السّبي فأكرمها الرّسول وأحسن إليها فرجعت مسرورة إلى بلادها بدينها وكرامتها.

والله أعلم

إقصاء المشركين عن المسجد الحرام

أ)- النص:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾: صفة مشبّهة للشيء الذي تلازمه النّجاسة وهي القذارة، والنّجس في عرف الفقهاء ما يجب التّطهير منه لما يصيبه سواء كان قذرا أو غير قذر، ولمّا كانت نجاسة المشركين بصفة الإشراك كانت نجاستهم معنوية

نفسانية، كما يرى ذلك جمهور الفقهاء، والنّجاسة المعنوية تجعل صاحبها محقّرا يتجنّبه النّاس ما دامت فيه تلك الصّفة. ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾: أي السّنة التّاسعة. ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾: أي فقرا، من عال يعيل عيلا وعيلة وأعال: كثر عياله، وهو يعول الكثيرين: أي يمونهم ويكفيهم أمر معاشهم.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد التّمهيد إلى إبعاد المشركين عن مساجد الله وفي طليعتها المسجد الحرام بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ (التوبة:١٧). وبعد ذلك الموقف المتشدّد في معاملة المشركين بصفة عامّة، واحتكاكهم بالحرم المكّي بصفة خاصّة، فقد تردّدت في أوساط القوم شبهة مفادها أنهم سيتعرّضون لضائقة شديدة، بانقطاع السّبل وفقد الحمولات ونقص المؤن، فأنزل الله هذه الآية تأكيدا لأمر إبعاد المشركين عن المسجد الحرام، وهي تَعِدُ المؤمنين بأن يغنيهم الله من فضله فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾**.

نادى الله المؤمنين بالصّفة الجماعية لتركيز التّضامن بينهم في تطبيق تلك الإرشادات وتحمّل مسؤوليتها التي تقتضي عزيمة قوية لتغيير الواقع المألوف، وقدّم التّعليل لتأكيد الأمر بإبعاد المشركين عن المسجد الحرام فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، وكان الإخبار بأداة الحصر "إنّما"، وبالصّفة المشبّهة: ﴿نَجَسٌ﴾. وقيل: هو مصدر للمبالغة بأنهم عين النّجس لفساد اعتقادهم بالشّرك، فهي نجاسة معنوية نفسية يعافها العقل السّليم، فإبعادهم عن مجامع المسلمين أصلح لصيانتها من لوثة الشّرك وذلك من النّاحية الرّوحية.

أما نجاسة ذواتهم فمختلف فيها بين العلماء، ومذهب الجمهور على أن

ذواتهم لا تنجس إلا بما ينجّس غيرها من غير الشّرك، وعلى أساس ذلك الخلاف تتفرّع أحكام الفقهاء، ووجوب الغسل للمشرك إذا أسلم هو من باب رفع الحدث المعنوي لقذارة الشّرك.

والإشارة في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ هي للعام التّاسع أي العام الذي نزلت فيه براءتهم من الله، ولا يختصّ منعهم من الدّخول إلى المسجد لخصوص العسرة والحجّ، بل يشمل الحرم المكي كلّه، وتقاس عليه المساجد الأخرى، وفي ذلك أيضا خلاف بين الفقهاء، وينصّ قطب الأئمة -رحمه الله- على ذلك بقوله: "والمذهب أنّه لا يجوز للمسلم أن يأذن له في دخول مسجدنا ولا مسجد قومنا، ولا يحلّ أن نتركهم يدخلون مسجدنا ولا مسجد قومنا"[1]

ولنفي تلك الشّبهة من انقطاع الحمولات، وتقلّص التّجارات قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: الخوف من الجوع ومن نقص الأموال وكساد التّجارات له ما يبرّره في أرض الواقع حين لا يعتمد النّاس والخبراء في ذلك إلا على تقديراتهم للمعطيات المادية المتوفّرة له. ولكن الله الخالق للأسباب والمقدّر للمسبّبات يطمئن قلوب المؤمنين بأنه سوف يغنيهم من فضله بما يوفّر لهم من الأسباب الأخرى للرّزق، فلا يخافون فقرا ولا احتياجا بانقطاع ذلك السّبب الذي ألفوه من توافد المشركين ببضائعهم إلى موسم الحج، لأنّ الله الغنيّ خزائنه لا تنفد، وعطاؤه لخلقه فضل وإحسان.

وإضافة القيد: ﴿إِن شَاءَ﴾ إلى الجملة الشّرطية فيه تربية مثلى للمؤمنين بأن يكون رجاؤهم في الله وتحقيق وعده لهم عالقًا بكلّ الأحوال التي يكونون عليها، لأن تعليق الأمور بمشيئة الله مبدأ أساسي في العقيدة الإسلامية من الإيمان بقضاء الله

١- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ٥/٤٣٤.

وقدره. ثم جاء التذييل المناسب بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، يعلم من أحوالكم ما كان وما يكون، وما هو كائن وهو حكيم في تدبير شؤون خلقه بما يصلح لهم.

والله أعلم

الأمر بقتال أهل الكتاب المنحرفين

أ)- النص:

قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: أي لا يؤمنون إيمانا صحيحًا، لأنهم لا يخلصون التوحيد لله، كما تثبت ذلك الآيات اللاحقة. ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: كأكلهم الربا ولحم الخنزير وشرب الخمر. ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾: أي دين الإسلام الذي حكم الله أن يكون مهيمنًا على كل الأديان. قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:٣٣). ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: "من" بيانية، تبيّن الموصول الذي قبلها، والذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى. ﴿يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾: وهي ضريبة مالية مفروضة على الرّجال القادرين مقابل الإبقاء على حياتهم، أو على الإقرار بالأرض. ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾: أي يخضعون لحكم الإسلام وسيادته.

ج)- البيان والتفسير:

انتقل السّياق إلى غرض آخر بعد الانتهاء من بيان حكم المشركين وكيفية معاملتهم من طرف المسلمين، انتقل إلى بيان حكم أهل الكتاب -وهم اليهود والنّصارى-، وتأخذ هذه الأحكام حيّزا من السّورة يبتدئ من هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة:٣٥). وقد عدّد الله أوصافهم وبيّن مواطن الخلل في عقائدهم وكيف يعاملهم المسلمون إذا أرادوا البقاء ذمّيين تحت سيادة الإسلام فقال جلّ من قائل: ﴿**قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ**﴾.

يُروى عن الحسن البصري في شأن هذه الآية أنه قال: "قاتل رسول الله ﷺ أهل هذه الجزيرة من العرب على الإسلام، لم يقبل منهم غيره، وكان أفضل الجهاد، وكان بعده جهاد على هذه الآية في شأن أهل الكتاب".

شريحة أهل الكتاب من اليهود والنّصارى عرفتها جزيرة العرب، إن داخل حدودها في المحميات العربية لدى الرّوم أو خارج حدودها في الشّام، وبالجوار بالنّسبة لليهود في المدينة المنوّرة، وكان من طبيعة الصّراع الدّيني أن تفرز بعض الإشكاليات التي تتمثّل في تباين المواقف وحدّة الخلاف. ذلك الخلاف الذي قدّره الله لحكمة يعلمها، وقرّر أن ذلك يتمّ وفق إرادته العليّة، إذ قال في سورة البقرة: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٢٥٣).

فإذا كان المشركون العرب ومن على شاكلتهم من عبدة الأوثان قد بيّن الله

تعالى علّة الأمر بقتالهم بأنّهم استحبّوا الكفر على الإيمان، فلم يرض عنهم غير الإسلام أو القتال، فإنّ هذه الشّريحة من أهل الكتاب قد عرفوا بأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، وهم يتبجّحون بذلك على مشركي العرب، وفتنت دعواهم هذه كثيرا من النّاس.

وأثبت الواقع التّاريخي عداوتهم للإسلام من أول ظهوره، وتصدّى لهم الرّسول وصحابته بالحزم والصّرامة لخيانتهم -سيما اليهود-، ثم تحرّك الرّوم النّصارى في حدود الشّام لمناوشة المسلمين، مما كان سببا في غزوة تبوك التي تأتي أحداثها وتداعياتها بعد نهاية هذه الأحكام المتعلّقة بأهل الكتاب.

وقد أثار لزّهم في قرن واحد بأمره تعالى بقتالهم، أثار نوعا من التّحيّر والالتباس، فجاء البيان الإلهي في هذه الآية مزيلاً لذلك التّحيّر بوصفهم بصفات أربع تثبت انحرافهم عن الإيمان الصّحيح، فهم بذلك أمام موقفين:

أ)- أن يذعنوا لسلطة الإسلام بدفع الجزية تعبيرا عن خضوعهم التّامّ في صَغَارٍ وتبعية تامّة واستئمانا لدمائهم وأموالهم.

ب)- أن يؤمنوا برسالة الإسلام التي جاءت مصدّقة لما معهم من الكتاب قبل أن يحرّفوه.

وقد بسط الله القول في ما تقدم من السّور فبيّن الكثير من الصّور والمواقف التي تدلّ على الانحراف والفسق عن أحكام الله، كما يأتي ذلك عقب هذه الآية بالذات.

والصّفات الأربع هي:

أ)- ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾: إنه نفي للإيمان الصّحيح الكامل، لأنّ

أصل الإيمان موجود عندهم، فالنّصارى يقولون بالتّثليث والحلول كما تقدم في سورة النّساء، وهم بذلك أوغل في الانحراف من اليهود الذين يصفون الألوهية بصفات تنزه عنها كإثبات الجسمية لله في مثل قولهم: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾(المائدة: ٦٤) فكان الجواب الإلهي مندّدا بذلك القول: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾. وكذلك جعلوا لله ولدا كالنّصارى بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾ (التوبة: ٣٠)

ب)- ﴿وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾: والتّقدير: لا يؤمنون باليوم الآخر إيمانًا صحيحًا كذلك، لأنهم ينكرون الوجود الجسماني في الحياة الآخرة، فليس هناك مُتَعٌ ولا شقاوات مادية في معتقدهم، بل يرون أنّ كلّ ما يتعلّق بشؤون الآخرة إنّما هي معان روحية، وذلك مناف لما أخبر به القرآن الكريم من النّعيم أو العذاب الجسماني والرّوحاني، وبالتّالي يعتبرون منكرين لليوم الآخر.

ج)- ﴿وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾: ظاهر اللّفظ ينصرف إلى ما حرّمه الإسلام في القرآن والسّنة كالرّبا والميتة ولحم الخنزير والخمر ...إلخ، ويحتمل أن يتناول ذلك ما حرّمه الله عليهم في التّوراة والإنجيل فأحلّوه لأنفسهم بالتّأويل والتّحريف وبالكتمان والتّضييع.

د)- ﴿وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾: ودين الحق هو دين الإسلام الذي جاء مصدّقا لما معهم لو لم يبدّلوه ويحرّفوه، فعدم تصديقهم برسالة محمد ﷺ يعدّ أكبر تحريف لما بين أيديهم من صفاته والبشارة ببعثته. وبذلك ينهدّ ركن ركين من أساس دين الحق.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، "من" بيانية تعيّن الموصول الذي قبلها، والموصوف بالصّفات الأربعة المذكورة، وتكرار الصّلة بكونهم أهل كتاب للدلالة على معنيين:

أ)- التّمييز بينهم وبين المشركين في الحكم كما تقدم.

ب)- التّنديد عليهم بأنّهم عرفوا الحقّ بما في كتابهم فأنكروه، ودانوا بما أملت عليهم أهواؤهم.

﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾: أمر الله تعالى المسلمين بقتال المتصفين بهذه الصّفات من أهل الكتاب، وغيّى ذلك بإعطائهم الجزية للمسلمين، والجزية هي الضّريبة المالية التي يؤديها الرّجال المقاتلون تأمينًا لحياتهم وإبقاءً لاستغلالهم الأرض.

وقد اختلف الأئمّة في تحديد مقدارها، وفي الوقت الذي تؤدّى فيه، وعلى من تفرض؟، وهل تنحصر في اليهود والنّصارى أم يلحق بهم المجوس والصّابئة؟، والأجوبة على ذلك نجدها مفصّلة في الموسوعات الفقهية.

وقوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ معناه يدفعونها بأيديهم لأن عَنْ لمعنى المجاوزة والمراد باليد يد المعطي يقدّمها طواعية عن التزام وانقياد. "وهم صاغرون": حال من ضمير: "يُعْطُوا"، والصّغار الذلّ والاستكانة، وليس المقصود بأن المعطين للجزية تمرّغ وجوههم في التّراب. بل المراد احترام سيادة الإسلام وإظهار عزّته أمام أهل الكفر والإلحاد، إذ لا ينبغي لأهل الكفر أن يتطاولوا على المسلمين مهما كان أمرهم وشأنهم، فإن ذلك يجرّئهم على مناوشة المسلمين وإلحاق الضّرر بهم كما نعيش اليوم هذه الوضعية بكل أسف، ولا شكّ أنّ معطي الجزية تسقط عنهم إذا هم أسلموا إجماعا بين العلماء.

والله أعلم

انحراف عقيدة أهل الكتاب وحقدهم على الإسلام ورسوله

أ)- النص:

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿عُزَيْرٌ﴾: واسمه في العبرية "عزرا" حبر كبير من أحبار اليهود الذين كانوا في الأسر البابلي كان حافظًا للتوراة، فأطلق سراحهم الملك الفارسيّ "كورش" وأذن لهم بالرّجوع إلى "أورشليم" فأعاد بناء الهيكل وأعاد شريعة التوراة فكان بذلك محلّ تعظيم كبير عند اليهود إلى حدّ اعتباره ابنا لله كما ادّعى النّصارى نبوّة المسيح لله تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرا. ﴿يُضَاهُونَ﴾: من المضاهاة أيّ المشابهة، ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾: دعاء يستعمل في التّعجّب من عمل شنيع، وهو بمعنى اللّعنة. ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾: أي كيف يصرفون عن الحقّ، من أفكه يأفكه إذا صرفه. ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾: الأحبار: جمع حَبر، علماء اليهود، والرّهبان: جمع راهب،

الـتّقيّ المنقطع للعبادة في دين النّصرانية. ﴿أَرْبَابًا﴾: جمع ربّ، وهو الخالق الذي له وحده حق التّشريع في الحلال والحرام. ﴿نُورَ اللَّهِ﴾: تمثيل لهداية الدّين الإسلامي. ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾: من الإظهار، ويدلّ على النّصر إذا عُدّي بـ"على" أي ينتصر الإسلام على جميع الأديان. وذلك ما حصل في الواقع التّاريخيّ في الماضي، ويتحقّق وعد الله في المستقبل -لا محالة-.

ج)- أوجه القراءة:

﴿عُزَيْرٌ﴾: قرأه الجمهور ممنوعا من الصّرف للعجمية، وقرأه عاصم والكسائي ويعقوب بالتّنوين على اعتباره اسما عربيا بسبب التّصغير. ﴿يُضَاهُونَ﴾: قرأ عاصم: ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ بالهمزة وكسر الهاء، وقرأ الباقون بغير همزة وضمّ الهاء فيقال: ضاهيته وضاهأته لغتان.

د)- البيان والتّفسير:

حكم الله في الآية السّابقة بأنّ أهل الكتاب لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدينون دين الحقّ، وفي هذه الآية المعطوفة على الصّفات المتقدمة يذكر الله تعالى من أقوالهم ما يثبت ذلك، إذ جعلوا لله ولدا واتخذوا من أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فبيّن الله تعالى أنّ هؤلاء هم بمنزلة المشركين في اتخاذ الأنداد لله بأقوالهم وأفعالهم، وبذلك تتّضح للمسلمين أسباب الأمر بقتالهم فقال تعالى: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾**.

يروى عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أنّ جماعة من اليهود قالوا لرسول الله: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، ولا تزعم أن عزيز ابن الله؟.

وادّعاء هذه الجماعة مهما يكن عدد أفرادها يعكس الانحراف الخطير الذي آل إليه أمر اليهود في عقيدتهم. وتقول الرّواية إن هذا الحبر "عُزير" كان له الفضل العظيم في إحياء نصوص التّوراة بعد أن أضاعها قومه وقهرهم البابليون. ومن طبيعة الأمة المغلوبة على أمرها أن تعظّم وتقدّس المنقذ لها من محنتها إلى حدّ إضفاء معنى الرّبوبية عليه.

ومثل ذلك وقع للنصارى في نظرتهم إلى المسيح عليه السلام واعتقدوا بالحلول وقالوا بالتّثليث، فامتزجت عقيدتهم بوثنية الرّومان من عهد قسطنطين، وضاع عنهم الإنجيل الأصلي. وقد بسطنا القول في ادّعاء النّصارى في المسيح وعقيدة التّثليث وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (النساء:١٧٢).

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: الإشارة هي للتشنيع والتّشهير بذلك الادّعاء من طرف اليهود والنّصارى فهو قول لا يستند إلى دليل ولا برهان عقليّ أو منطقي يروّجونه بألسنتهم في أوساط الخلق على أنه عقيدتهم ومذهبهم وهو باطل وافتراء على الله.

﴿يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾: أي إن مثل تلك الأقوال الكافرة شيء قديم، إن عند اليهود والنّصارى أو غيرهم من الأمم المشركة من العرب وغيرهم كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (١١٨). فمشركو العرب مثلا يقولون بأنّ الملائكة بنات الله، قال الله تعالى في سورة النّحل: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧).

ونظير هذه الآية في التّشنيع والتّنديد قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَيُنذِرَ

الذين قالوا اتخذ الله ولدا، ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من افواههم إن يقولون إلا كذبا﴾ (٤-٥).

ولما كان اتخاذ الولد لله منكرا وظلما عظيما في حقّ الخالق، ومجافيا للفطرة السّليمة فقد استحق القائلون لذلك لعنة الله تعجيبًا مما هم عليه من الانصراف عن الحق الذي دانت له السّماوات والأرض وقام عليه أمرهما، لأنّ المعتقد الباطل يصرف صاحبه عن الهدى والصّواب، وبالتّالي فلا تستقيم فطرته ولا تزكو نفسه وهو المقصود من قوله تعالى: ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾.

وقال تعالى في شأن اتخاذ الولد لله -حاشاه- وأنّ ذلك مرفوض ومستفظع في ضمير الوجود كلّه، قال في سورة مريم: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، لقد جئتم شيئا ادا، يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا، ان دعوا للرحمن ولدا، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا، ان كل من في السماوات والارض إلا آتي الرحمن عبدا، لقد احصاهم وعدهم عدا، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾ (٨٨-٩٥).

وزيادة في التّشنيع وتقريرا لمضمون الجملة السّابقة في مضاهاة أهل الكتاب للذين كفروا قبلهم قال تعالى:﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾.

جملة مستأنفة لبيان الإجمال السّابق، ذلك لأنّ مظاهر الكفر عند الأمم والأفراد تأخذ أشكالاً مختلفة على أساس تصنيف الرّسول للشّرك إلى ما هو جليّ وخفيّ، ويتمثّل ذلك في اتخاذ اليهود والنّصارى لأحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله.

ولعلّ هذا النّوع من الكفر يصنّف في أنواع الشّرك الخفيّ، وشبيه به ما آل إليه أمر المسلمين بعد ضمور حضارتهم وفساد تصوّرهم لحقيقة الألوهية والرّبوبية حين قدّسوا أولياءهم ورؤساءهم حتّى أخذوا ينسجون حولهم من الكرامات والمعجزات ما جعلوهم به فوق مصافّ الأنبياء والرّسل على نحو ما فعله اليهود والنّصارى بأحبارهم ورهبانهم.

فما يزال هؤلاء في الملتين على السّواء محلّ القداسة والتّعظيم يستغلّون العوامّ وينصبون أنفسهم وسطاء بينهم وبين الله يحللون ويحرّمون ويشرّعون لهم ما يضمن لهم استمرار تلك القداسة وذلك التّعظيم.

وقصّة إسلام عديّ بن حاتم مع الرّسول أكبر شاهد على ذلك، حين قدم إلى المدينة ودخل على رسول الله ﷺ وفي عنقه صليب من فضّة فأخذ رسول الله يقرأ هذه الآية فقال عديّ: "إنهم لم يعبدوهم"، فقال الرّسول: «**بلى، إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام فاتّبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**». ثم دعاه الرّسول إلى الإسلام فشرح الله صدره وحسن إسلامه ثم قال الرّسول: «**إن اليهود مغضوب عليهم والنّصارى ضالّون**».[1]

قلت: ولذلك خصّص الله تأليه المسيح من قِبَل النّصارى بالذّكر لأنّ ذلك أشنع وأفظع، وكلٌّ من أتباع الملتين انحرفوا عن هدى رسلهم، إذ كانت دعوتهم لتوحيد الله وإخلاص العبادة إليه وحده قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهاً وَاحِداً لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

والجملة حالية من ضمير: ﴿اتَّخَذُوٓاْ﴾ فلا عذر لهم في ضلالهم ذلك، لأنّ رسلهم قد بلّغوا لهم ما أمرهم الله به، أن اعبدوا الله مخلصين له الدّين حنفاء لله غير

١- أنظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢/٣٥٠.

مشركين به، وكان حريًا بهم أن يلبّوا دعوة الرّسول الذي جاءهم مصدّقًا لما بين أيديهم من التّوراة والإنجيل ولكنّ حقدهم وحسدهم أعمى بصائرهم فأرادوا إطفاء نور الإسلام بافتراءاتهم وأكاذيبهم قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

أثبت الله لأهل الكتاب الفعل الإراديّ في محاولتهم إطفاء نور الله، وهو تعبير تمثيلي يرفع من شأن الإسلام ويعظم رسوله، بأنه هو النّور في الكمال الإنساني وما أنزل إليه نور من عند الله.

وإطفاء النّور يتمّ بوسائل متعددة، ووسيلة هؤلاء هو الإرجاف والتّكذيب وهما من أخبث آفات اللّسان في الإغواء والإفتان، ولكن مصدر ذلك النّور -وهو الله سبحانه وتعالى- قضت إرادته العلية أن ينتشر نوره في مشارق الأرض ومغاربها.

وذلك ما تحقق في الواقع التّاريخي، إذ أتمّ الرّسول تصفية جيوب الكفر من الجزيرة العربية بكاملها فتحقق له وعد الله بذلك وبقيت الرّوم على أرض الشّام ومصر والمغرب تناوش الإسلام وتحاول حصره في جزيرة العرب، كما كان الفرس في بلاد فارس لا يدينون بدين صحيح إذ عرفوا بعبادة النّار، فكانت إرادة الله هي الغالبة إذ عبّر بفعل "يَأبَى" الذي يتضمّن معنى النّفي مع الاستثناء مقابل إرادة أهل الكتاب وتعنّتهم في مواقفهم ضدّ الإسلام.

واختير فعل "يُتِمَّ" ليدلّ على معنى كماله وتمكّنه على كره من الكافرين، ذلك الكره الذي يدفعهم قديمًا وحديثًا إلى مقاومة الإسلام وتهميش دوره في العالم، اعتقادا منهم بعدم نبوءة محمد ﷺ.

ولتسفيه ذلك الاعتقاد أعقب الله وعده بنصر دينه وإتمامه برفع شأن رسوله

فقال جلّ من قائل: ﴿هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

الله يشهد -وكفى به شهيدًا- بأنّ الرّسول مبعوث للخلق كافّة بالهداية التي تضمن لهم سعادة الدّنيا ونعيم الآخرة، وهي هداية تستند إلى البراهين والحجج العقلية وتواكب التّطوّر العلمي في كلّ العصور، إذ ما يزال القرآن -وهو كتاب الإسلام الخالد- يتحدّى الخلائق كلّها بإعجازه البياني والعلمي، ويجد فيه العلماء المنصفون ضالتهم في معرفة الحقّ والخير والصّلاح.

وقد كتب الله النّصر لهذا الدّين في حقب زاهرة من التّاريخ البشريّ، وكان الباعث الحقيقي لعصر التّنوير والنّهضة العلمية الحديثة التي لم تجد في النّصرانية واليهودية ولا في الملل الأخرى ما تروي به غُلّتها إلا أن تبعدها كلية عن مجالات السّياسة والاقتصاد والاجتماع، فحدث ذلك الانفصام النّكد بين السّياسة والدّين في الحضارة الغربية، وقد غشّى غبارها أبصار المسلمين فاتبعوا من كان قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع كما تنبّأ رسول الله بذلك لأمته من بعده.

وقد وعد الله -ووعده الحق- بأنه يمكّن لدين الإسلام فينتصر ويعلو على الديانات الأخرى كلّها، وإن كره ذلك المشركون.

وقد تعدّد الوصف للكارهين بين الكافرين والمشركين ليشمل مشركي العرب ومن على شاكلتهم من عبدة الأوثان، ويشمل المنحرفين من أهل الكتاب وهؤلاء كفّار، وهم بما لهم من بعض الإيمان بالله يكونون أخفّ ضررا على الدّين من المشركين الوثنيين.

ولا يعني هيمنة الإسلام على غيره أن تنتهي الدّيانات الأخرى من العالم، بل المراد أن تكون للإسلام الرّيادة والهيمنة، وقد تنبّأ رسول الله بذلك فقال ما معناه:

« ليبلغن هذا الأمر مبلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدّين...».[١]

فطوى لمن يقضي الله ذلك على يده من جنوده الكثيرين، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ، وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات:١٧١-١٧٣).

والله أعلم

تمّ بحمد الله الجزء الخامس،

ويليه بإذن الله تعالى الجزء السادس، وأوّله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَ الرُّهْبَانِ...﴾ (التوبة ٣٤)

١- رواه الحاكم في المستدرك من حديث تميم الداري، رقم ٨٣٢٦، وقال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه؛ ورواه أحمد في المسند من حديثه أيضا، رقم ١٦٩٩٨، ٤/١٠٣.

الفهارس

فهرس الآيات والعناوين الرّئيسيّة 465
فهرس الأحاديث..... 471
فهرس الآثار..... 475
فهرس الأبيات الشّعرية..... 477

فهرس الآيات والعناوين الرئيسيّة

تفسير سورة الأعراف

الآية	العنوان	الصفحة
-	مقدمة	5
3-1	التنويه بشأن القرآن والتحريض على اتباعه	7
9-4	عاقبة المكذبين للرسل في الدنيا والآخرة	11
18-10	نعم الله على عباده وقصة الخليقة	17
25-19	وسوسة الشيطان لآدم وخروجهما من الجنة	25
27-26	توفير الله لحاجات بني آدم وتحذيرهم من فتنة الشيطان	33
30-28	خطر التقليد للآباء وتشريع الله هو الحق الذي يجب أن يتبع	38
32-31	أثر الإسلام في تمدين البشر باللّباس، والاعتدال في الأكل والشرب	42
34-33	أصول المحرمات، وآجال الأمم مقدرة في علم الله	46
36-35	خطاب الأمم على ألسنة الرسل وجزاء المؤمنين والمكذبين	50
39-37	مشهد الاحتضار للمكذبين، والحوار بينهم وبين أتباعهم في النار	53
41-40	جزاء المجرمين الظالمين المكذبين بآيات الله	58

43-42 جزاء المتقين في الجنة لا ينغّصه غلّ ولا حقد 62
47-44 التنادي بين أصحاب الجنة وأصحاب النار وأصحاب الأعراف 66
51-48 تبكيت أصحاب الأعراف لأهل النار، واستغاثة هؤلاء بأهل الجنـــة 72
53-52 لا عذر للمكذبين بعد مجيء كتاب الله وهم سوء المصير .. 77
56-54 إثبات الربوبية لله والتزام الدّعاء 80
58-57 متابعة الأدلة لألوهية الله وربوبيته 90
64-59 قصة نوح مع قومه 94
72-65 قصة هود مع قومه 100
79-73 قصة صالح مع قومه 106
84-80 قصة لوط عليه السلام 113
87-85 قصة شعيب مع مدين (1) 119
93-88 قصة شعيب مع مدين (2) 125
99-94 سنة الله في ابتلاء الأمم بالخير والشر 130
102-100 في قصص أهل القرى الماضية عبرة لمن بعدهم من الوارثين لهـــا 136
116-103 قصة موسى عليه السلام 140
126-117 إيمان السحرة برب العالمين، وفتك فرعون بهم 148
129-127 تآمر ملأ فرعون على موسى وقومه، وكيف واجهه موسى بالنصح والإرشاد لقومه 153

133-130 أخذ آل فرعون بأنواع العذاب الدنيوي 158
137-134 هلاك فرعون وقومه، ووراثة بني إسرائيل ملكهم..... 164
141-138 قصة موسى مع قومه 168
144-142 مناجاة موسى لربّه في الميقات، وإنزال التوراة عليه..... 174
147-145 عاقبة التكذيب بآيات الله والغفلة عنها 181
149-148 قصّة اتّخاذ العجل وعبادته في مغيب موسى 185
151-150 غضب موسى عليه السلام لموقف قومه من عبادة العجل، وتعنيفه لأخيه هارون عليه السلام بسوء خلافته 189
154-152 جزاء الذين اتّخذوا العجل، وجزاء التائبين، ونهاية قصة العجل بأخذ موسى للألواح 194
156-155 اختيار موسى وفد قومه لميقات ربّه، ومناجاته لله بعد الرجفة 198
157-156 ربط أوّل سورة الأعراف بآخرها في الدعوة إلى الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم 202
158 عالمية الرّسالة الإسلامية وعمومها..... 208
162-159 الصّالحون من قوم موسى، ونعم الله على بني إسرائيل في صحراء التّيه 212
166-163 عدوان اليهود في صيد الأسماك يوم السّبت، وعقاب الله للمخالفين المعتدين 218
171-167 سنّة الله في عقاب الأمم، وما تحقّق منها على اليهود 223
174-172 أخذ الله الميثاق العام على بني آدم..... 229

177-175 سنّة الله فيمن اتّبع هواه، ولو كان عالماً 235
180-178 مشيئة الله في الهداية والإضلال، ودعاؤه بأسمائه الحسنى . 239
186-181 أمّة الدّعوة وأمّة الإجابة، واستدراج الله للأمم 245
188-187 عند الله علم السّاعة، والرّسول لا يعلم الغيب 251
193-189 تذكير الخلق بالنّشأة الأولى والنّهي عن الشرك 258
198-194 الدّعاء لغير الله، وكون الأصنام دون عابديها 264
203-199 أصول الآداب والتّشريع، ومقاومة الشّياطين 269
206-204 آداب تلاوة القرآن وسماعه، وطريقة الذّكر 276

تفسير سورة الأنفال

الآية	العنوان	الصّفحة
-	مقدمة	281
4-1	السّؤال عن حكم الغنائم، وبيان أوصاف المؤمنين.....	283
8-5	مجادلة كارهي القتال للرسول، ووعد الله المسلمين إحدى الطائفتين	290
14-9	الإمدادات الرّبّانية للمسلمين في معركة بدر	296
19-15	تحريم الفرار من الزّحف، ونصرة الله للمؤمنين بتوهين كيد أعدائهم	304
23-20	الأمر بالسّمع والطّاعة لله ورسوله، وموقف المخذولين المعاندين.....	310

26-24 التحريض على الاستجابة لله ولرسوله، والتّحذير من الوقوع في الفتنة 313
29-27 سوء الخيانة، وفضل التّقوى 319
31-30 ائتمار قريش بالرّسول، وطعنها للقرآن..... 324
35-32 الرّدّ على استعجال المشركين لعذاب الله، والتّهكّم من عبادهم..... 327
40-38 موقف المؤمنين من الكفّار في إسلامهم وكفرهم..... 336
41 كيف تقسّم الغنائم؟..... 340
44-42 كيف تراءى الجمعان في غزوة بدر؟..... 343
47-45 المقوّمات المعنوية للانتصار في الحرب 348
49-48 دسائس الشيطان وخذلان المنافقين 353
54-50 إهلاك الكفّار، وسنّة الله في تدبير شؤون الخلق 359
59-55 كيف يعامل المسلمون من ظهرت عليه بوادر الخيانة؟... 363
63-60 الاستعداد للحرب، والجنوح للسّلم وفق مصلحة المسلمين..... 369
66-64 تأييد الله لرسوله، وتحريض المؤمنين على القتال 376
71-67 شرط اتّخاذ الأسرى، وإنكار افتدائهم في بدر 379
75-72 بيان منازل المهاجرين والأنصار والذين لم يهاجروا والكفار 388

تفسير سورة التوبة

الآية	العنوان	الصفحة
	مقدمة	397
4-1	البراءة من المشركين، وإعلان الحرب عليهم لنقض عهودهم	401
6-5	فرضية قتال المشركين، ومشروعية الأمان	407
12-7	مواقف المشركين وأسباب قتالهم ونبذ عهودهم	413
16-13	التحريض على قتال المشركين، والجهاد محكّ المؤمنين	419
18-17	عمارة مساجد الله	425
22-19	المفاضلة بين عمارة المسجد الحرام والجهاد في سبيل الله	429
24-23	النّهي عن ولاية الآباء والإخوان الكافرين، وعلوّ حبّ الله ورسوله على كلّ حبّ	435
27-25	هزيمة المسلمين يوم حنين، ثمّ إنزال السكينة عليهم	441
28	إقصاء المشركين عن المسجد الحرام	446
29	الأمر بقتال أهل الكتاب المنحرفين	449
33-30	انحراف عقيدة أهل الكتاب، وحقدهم على الإسلام ورسوله	454

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصَفحة
الإثم ما حاك في صدرك	48
اجتنبوا السبع الموبقات	307
إذا ضُيّعت الأمانة	322
إذا مات أحدكم فقد قامت	252
أشيروا عليّ أيها الناس	291
أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا	410
ألا إنّ كلّ مأثرة	432
الآن حمي الوطيس	445
أن تعبد الله كأنك تراه	89
إنّ الشيطان يجري من ابن آدم	29
إنّ قوم نوح هم الذين صوروا	97
إنّ الله ليملي للظالم	248
إنّ الله يقول لأهل الجنّة	434
إنّ له وجاء	31
إنّي خلقت عبادي حنفاء	232
إنهم لم يفارقوني في جاهلية	341
أيها الناس، اربعوا على أنفسكم	87
بدأ الإسلام غريباً	319

بعثت والساعة كهاتين 255
بلى، إنّهم حرّموا عليهم 458
التّأنّي من الله والعجلة من الشيطان 83
ثلاث من كنّ فيه 439
ثم ذكر الرجل يطيل السفر 86
حجابه النور، 178
خرجنا مع رسول الله ﷺ 171
رفع عن أمتي الخطأ 184
سيروا على بركة الله 292
شاهت الوجوه 308
الطاعون رجز أرسل 165
عجبا لأمر المؤمن 133
القبر روضة من رياض الجنة 57
القلوب بين أصبعين 138
قوم بأيديهم سياط 170
كل مولود يولد على الفطرة 232
كنت أصلي في المسجد 315
لغدوة في سبيل الله 440
لقد رأيت رسول الله 5
لن يدخل أحدكم الجنة بعمله 188-65
اللهم إن هلك هذه العصابة 433

اللهم أنت العفو تحب العفو 271
اللهم لا أحصي ثناء عليك 245
اللهم لا تودع منّي 298
اللهم يا مقلب القلوب 316-128
لا تزال طائفة من أمّتي 247
لا تسبّوا أصحابي 433
لا تقوم الساعة حتى تطلع 255
لا يؤمن أحدكم 440
لا يجتمع دينان في جزيرة العرب 338
لا يتوارث أهل ملّتين 393
لو نزل عذاب ما نجا إلا عمر 384
ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ 461
ما أذن الله لشيء 278
ما ترون في هؤلاء الأسرى 381
ما رؤي إبليس يوما هو 355
ما ملأ ابن آدم وعاء 45
ما من الأنبياء إلاّ أعطي 122
ما منكم من أحد 273
وما يدريك لعل الله عز وجل 303
مثل ما بعثني الله به من العلم 93
مضغة في الجسد 316

من قتل قتيلا فله سلبه 286
من كذب علي متعمدا 49
هذه لكم وقد أعطى القوم 246
يرحم الله موسى 191
يا أمّ سلمة إنه ليس آدمي 232
يا أهل بيعة الرّضوان 442
يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو 350
يا حنّان يا منّان 244

فهرس الآثار

طرف الأثر	الصفحة
أراد بـ"اقتراب اجلهم" (ابن عباس)	250
أرى أن يحرق بالنار (علي بن أبي طالب)	117
إنّ جماعة من اليهود قالوا (ابن عباس)	455
إنّ المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم (ابن عباس)	301
إنه لا يراك أحد (ابن عباس)	179
الإيمان والعمل الصالح (ابن عباس)	36
خلقوا في أصلاب الرجال (ابن عباس)	20
فرعون هو أول من صلب (ابن عباس)	151
قاتل رسول الله ﷺ (الحسن البصري)	450
كان خلقه القرآن (عائشة)	250
كانت العرب تطوف بالبيت عراة (عروة)	43
كانت قريش تطوف بالبيت عراة (ابن عباس)	332
كنت عند منبر رسول الله ﷺ (النعمان بن بشير)	431
لما كان يوم بدر (ابن عباس)	284
لا تضربوا أبشار الناس (عمر بن الخطاب)	170
لا يستطيع أن يأتي من فوقهم (ابن عباس)	22-18
ما زالت قدماي حتى علمت (أبو لبابة)	321
نزلت يوم أسلم عمر (ابن عباس)	377

الوقت المعلوم هو النفخة (ابن عباس) 22
وها أنا ذا أموت في فراشي (خالد بن الوليد) 294
هو صاحب الصور إسرافيل (ابن عباس) 69
هذا مثل ضربه الله للمؤمن (ابن عباس) 93
هم بنو عبد الدّار (ابن عباس)..... 312
يبعث العبد على ما مات عليه (جابر بن عبد الله) 69

فهرس الأبيات الشعرية

صدر البيت	الصفحة
أبي الإسلام لا أب لي سواه	331
وإذا شربت فإنّي مستهلك	43
وإذا بليت بظالم كن ظالما	373-273
فإن زجروا بالنحس طيرا تمر بي	158
ألا لا يجهلن أحد علينا	375-269
والظلم من شيم النفوس فإن	373
فما راءٍ كمن سمعا	347
فلا تقتلك شهوته وزنها	322
لا يعرف الشوق إلاّ من يكابده	288
ولكنني أسعى لمجد مؤثّل	333
ولو أنّني أسعى لأدنى معيشة	333
ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى	272
ومن يعدل بحبّ الله شيئاً	322
اليوم يبدو كله أو بعضه	43

تعريف بالمؤلف

هـــو محمد بن ابراهيم سعيد المعروف بـــ(كعباش)، من مواليد بلدية العطـــف ولايـــة غرداية، من الجمهورية الجزائرية، وآل سعيد فرع أصيل من عشيرة أولاد بكّة في بلدة العطف(تاجنينت).

أبصر نور الحياة خلال 1929م في حضن أبوين كريمين:سعيد ابراهيم بن باحمد، وهون شيخة بنت الحاج محمد. تركه والده فقيراً يتيماً لا يزيد عمره عن سنتين، وليس معه إلا أختان، توفّيت إحداهما فأصبح وحيد أمّه وقرّة عين لها، فاعتنت بتربيته على حبّ الله ورسوله وعلى حفظ كتاب الله في سنّ مبكّرة، وقد وهبه الله ذاكرة قويّة وذكاءً لامعاً، ولم يكن كتّاب قريته ليُقْنِع طموحه في التّعلم، فارتحل إلى معهد القرارة عند الإمام الشيخ بيّوض الحاج ابراهيم بن عمر، ثم إلى تونس الخضراء حيث درس العلوم العربية والشرعية في الجامع الزيتوني ودرس العلوم التطبيقية في المعهد الخلدوني.

بدأ العمل في مجال التربية والتعليم أستاذاً ومديراً في القطاع الدّيني الحرّ في فترة الإستعمار، ثم في القطاع العمومي بعد الإستقلال الوطني حتى تقاعده عن العمل سنة 1990م.

انتسب إلى الجامعة الجزائرية في أوائل السبعينيات فحصل على شهادة الليسانس في الأدب العربي، وانخرط عضوا رسميّاً في حلقة العزابة للمسجد الجامع بالعطف في سنة 1958م، ثم عيّنته الحلقة إماماً ومرشداً في سنة 1970م، وهو ما يزال يقوم بمهمّته النّبيلة في الإصلاح الديني والاجتماعي نصحاً وإرشاداً وتجليةً لمعاني كتاب الله وسنّة رسوله على منبر المسجد، بعد أن حدا بصفوف الأجيال على مقاعد الدّراسة لما يقرب من أربعين سنة في مسيرة

مهنية متواصلة لم تنقطع بفترة مرض أوانحراف عن الخط لوجهة أخرى، وذلك بفضل الله تعالى.

وقد أسهم المؤلف بقسط وافر من التضحية والجهد في صفوف جبهة التحرير الوطني ويتشرّف بعضوية منظمة المجاهدين دون منّ ولا غرور، وهو متزوّج وأب لتسعة أولاد، وفّقه الله تعالى إلى مواصلة مسيرته في نصرة دينه وخدمة كتابه، وجعل عمله خالصاً مخلصاً لوجهه الكريم، آمين.

أجزاء التّفسير المطبوعة

- **الجزء الأول:** من بداية سورة الفاتحة إلى الآية **203** من سورة البقرة.
- **الجزء الثاني:** من الآية **204** من سورة البقرة إلى الآية **175** من سورة آل عمران.
- **الجزء الثالث:** من الآية **176** من سورة آل عمران إلى الآية **26** من سورة المائدة.
- **الجزء الرابع:** من الآية **27** من سورة المائدة، إلى آخر سورة الأنعام.
- **الجزء الخامس:** من بداية سورة الأعراف، إلى الآية **33** من سورة التوبة.

أيها الأخ المسلم :

لاشك أنك تتعرض لنفحات الرحمن وأنت تناجيه في صلاتك، أو تهيم في جلاله وأنت في خلواتك، أو تتلو كتابه في تدبر وإمعان، فتزيد إيمانا على إيمان . . .

لقد من الله علي بتلك النفحات، وأنا أرتع في رياض كتابه، وأستجلي مكنونات أسراره وعجائبه تحقيقا وتسجيلا على صفحات الدفتر ووعظا وإرشادا على خشبات المنبر، فها أنذا أُهديكها "أيها الأخ المسلم" خالصة نقية، وأنت الأخ الوفي، فتقبل مني هذه الهدية.

المؤلف

ردمك 4 - 85 -787- I.S.B.N 9961